«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

عصر المغول



17.12.2014

جورج لاين

ترجمة: تغريد الغضبان

«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»



عصر المغول

جورج لاين

ترجمة: تغريد الغضبان

مراجعة: سامر أبو هواش





الذئب الأزرق، من الكائنات المغولية الأسطورية، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة

عصر المغول
جورج لاين

DS19 .L34512 2011
Lane, George, 1952-
[Daily life in the Mongol empire]
عصر المغول / جورج لاين ؛ ترجمة تغريد الغضبان ؛ مراجعة سامر أبو هواش.-ط. 1. أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 370؛ 15×23 سم.- (سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب : Daily life in the Mongol empire
تدمك: 978-9948-01-858-2
1.منغوليا – الأحوال الاجتماعية. 2. المغول -- العادات والتقاليد. أ. غضبان، تغريد. ب. أبو هواش، سامر، 1972- ج.العنوان. د.السلسلة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
George Lane
Daily Life in the Mongol Empire



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



www.mdrek.com
read@mdrek.com
ص. ب: 333577 دبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 3807774 4 00971 فاكس: 3805977 4 00971

المحتويات

ابن الأثير في وصف التتار 1220-1221 م(1)

لقد بقيت عدة سنوات مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة وذلك استعظاماً لها وكرهاً لذكرها.. كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً إلا أن جماعة من الأصدقاء حثتني على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل: إن بني آدم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً حيث إن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرونه من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، فما الذي لحق بيت المقدس من الدمار، مقارنة بما فعله هؤلاء الملعونون في البلاد التي دخلوها وكانت كل مدينة فيها أضعاف بيت المقدس؟ ومن يكون بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا حيث إن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل؟ ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج.

وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررها وعمّ ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب الذي

استدبرته الريح فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد ساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فملكوها وفعلوا بأهلها مافعلوه ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها تخريباً وقتلاً ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة هذا ما لم يسمع مثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم تسلم غير القلعة التي فيها ملكهم وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها، وقد فعلوا هذا في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما جاورهما من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلت فيها مثل فعل هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، وإنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً إنما رضي من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة واحدة ولم يبق أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه.

ثم إنهم لا يحتاجون إلى مدد يأتيهم فقد كانت معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب التي يأكلون لحومها لا غير. وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، من دون أن تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارجه.

وفي ما يتعلق بديانتهم فإنهم كانوا يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً إذ كانوا يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير علاوة على أنهم كانوا لا

يعرفون نكاحاً إذ كان يأتي المرأة غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد ابتلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر– قبحهم الله– الذين جاءوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج– لعنهم الله– من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، فقد كادوا يملكون ديار مصر والشام وغيرهما لولا لطف الله تعالى ونصره وأما الذين سلموا من هاتين الطائفتين، فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.. نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ﴾ [الرعد: 11]. فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها وأفناهم وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم أو من يحميها ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ [الأنفال: 42]. وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه :

في هذه السنة ظهر التتر واجتاحوا بلاد الإسلام وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر.

وكان السبب في ظهورهم أن ملكهم جنكيزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده، وسار إلى نواحي تركستان وسير جماعة من التجار والأتراك ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارى، ليشتروا له ثياباً للكسوة فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترا وهي آخر ولاية خوارزم شاه، وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذها إليه فقتلهم وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً فلما وصل

إلى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم.

وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد، علماً أن طائفة من التتر أيضاً كانت قد خرجت قديماً والبلاد للخطا فلما ملك خوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان: كاشغار وبلاساغون وغيرهما صاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها.

وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لم يذكر في بطون الدفاتر: فكان ما كان مما لست أذكره فظنن خيراً ولا تسأل عن الخبر، فلما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكيزخان أرسل جواسيس إلى جنكيزخان لينظر مقدار ما معه من الترك، وما يريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التي على طريقهم حتى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وأنهم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال، فهم لا يعرفون هزيمة ويعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكر زائد فأحضر الشهاب الخيوفي، وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده، لا يخالف ما يشير به فحضر عنده فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه وأخذ رأيك في ما نفعله فقد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى.

فقال له: في عساكرك كثرة ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفير عاماً فإنه يتوجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بعد ذلك بجميع العساكر إلى جانب سيحون– وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام– فنكون هناك فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب.

فجمع خوارزم شاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة فاستشارهم فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا له: الرأي أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، ويسلكون هذه الجبال والمضايق فإنهم جاهلون بطرقنا ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما هم كذلك، ورد رسول من هذا اللعين جنكيزخان وأخذ يتهدد خوارزم شاه ويقول: تقتلون أصحابي وتجاري وتأخذون مالي منهم! استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

وكان جنكيزخان قد سار إلى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع تلك البلاد وأزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقي لهم أثر، بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزم شاه فلما سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله فقتل، وأمر بحلق لحى الذين كانوا معه ثم أعادهم إلى صاحبهم جنكيزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له: إن خوارزم شاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو كنت في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك.

وتجهز خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادراً ليسبق خبره، ويكسبهم فأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأثقال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية.

وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا، فلقيهم في الطريق الخبر بما فعله خوارزم شاه بمخلفيهم فجدوا السير فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصافّوا للحرب واقتتلوا قتالاً لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ولم ينهزم أحد منهم.

أما المسلمون فقد صبروا حمية للدين، وعلموا أنهم إذا انهزموا فلن تبقى للمسلمين باقية وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل قرنه رجلاً ويتضاربان بالسكاكين وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته، واستنفد الطرفان وسعهما في الصبر والقتال.

هذا القتال جميعه مع ابن جنكيزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فأحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفاً، وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم.

فلما كانت الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض. فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم، وتركوها بحالها، وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضاً.. كل منهما سئم القتال. أما الكفار فعادوا إلى ملكهم جنكيزخان، وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، فاستعد لحصارهم لعلمه بعجزهم لأن طائفة من عسكره لم يقدر خوارزم شاه على أن ينال منها فكيف إذا جاؤوا جميعهم مع ملكهم؟ استعد أهل بخارى وسمرقند للحصار وجمعوا الذخائر للامتناع، ثم جعل في بخارى عشرون ألف فارس من العسكر يحمونها وفي سمرقند خمسون ألفاً وقال لهم خوارزم شاه: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود إليكم.

فلما فرغ من ذلك رحل عائداً إلى خراسان، فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك.

وأما الكفار فقد رحلوا بعد أن استعدوا، وراحوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه، وحاصروها وقاتلوا من فيها ثلاثة أيام قتالاً شديداً متتابعاً، فلم تكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة، ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان. فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد، ضعفت نفوسهم فأرسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضي خان ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان.

وكانت قد بقيت من العسكر طائفة لم تستطع الهرب فاعتصمت بالقلعة فلما أجابهم جنكيزخان إلى الأمان، فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء الرابع من ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارى، ولم يتعرضوا لأحد بل قالوا لهم: كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره، أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال من بالقلعة، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكيزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في البلد بألاّ يتخلف أحد، ومن تخلف قتل، فحضروا جميعهم فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق فإنا لله وإنا إليه راجعون. وبحق سمى الله نفسه صبوراً حليماً وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا.

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وفيها نحو 400 فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم

ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً، يقاتلون جميع الكفار وأهل البلد، فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن فيها من المسلمين يرمون ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد، فجدوا في القتال وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم. فلما فرغ من القلعة نادى أن يكتب له وجوه الناس ورؤساؤهم ففعلوا ذلك، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم فحضروا فقال: أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزم شاه، فإنها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم.

فأحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه، ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم سوى ثيابه التي عليه، ودخل الكفار البلد فنهبوه، وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه بأن يقتسموهم فاقتسموهم.

وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان فقد اقتسم الكفار النساء وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل، وممن فعلوا ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده فإنهما لما رأيا ما يفعله التتر بالنساء قاتلا حتى قتلا.

وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان. فمن استسلم أخذ أسيراً، ثم ألقى التتر النار في البلد والمدارس والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا من عجز خوارزم شاه عنهم وهم بمكانة بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من عجز عن المشي قتلوه فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئاً فشيئاً ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه.

فلما كان اليوم الثاني، وصل الأسارى والرجالة والأثقال وقد كان مع كل عشرة من

الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة من الرجال ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد، نظراً لما في قلوبهم من خوف من هؤلاء الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد.. قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفاً على ما قيل.

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك، ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكاً: نحن من جنس هؤلاء، ولا يقتلوننا فطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم.

فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلدِ على حالهِ وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي، وكان ذلك في محرم سنة سبع عشرة وستمائة».

من «الكامل في التاريخ» لابن الأثير

الحواشي

1. مقتبس من إدوارد سي براون، «تاريخ أدبي لبلاد فارس»، المجلد الثاني (لندن: تي فيشر أنوين، 1915) ص. 427–431.

تنويه

يسهم غياب المعايير الثابتة في ترجمة المخطوطات الأجنبية إلى الإنجليزية، في جعل عملية تحويل أسماء الشخصيات والأماكن وبعض التعابير من بعض اللغات، كالعربية والفارسية والصينية بشكل خاص، شيئاً أقرب إلى المتاهة المعقدة من الأشكال والأنماط والتهجئات، بالإضافة لما سيحفل به النص المُتَرجَم من علامات ترقيم كثيرة ومتنوعة تثقل كاهله. فلو أخذنا شاعر القرن الثالث عشر الصوفي الفارسي، مولانا جلال الدين الرومي المشار إليه في البحوث الأكاديمية بِ «الرومي»، لوجدناه يعرف في تركيا باسم Mavlana[1] وفي الدراسات والبحوث المعروفة يشار إليه ببساطة باسم «رومي» أو «جلال دين رومي» وبالفارسية «مولانا» Maulana. كذلك اسم المؤرخ الفارسي «عطا مالك علاء الدين الجويني» Ata–Malik–Ala al–Din غالباً ما يكتب «جوفيني» Juvaini أو «جوفايني» أو «عطا مالك جوفيني» أو مزيجاً منهما معاً. وسنجد التعامل مع الأسماء الصينية أكثر إرباكاً ومدعاة للاختلاف. ومن الصواب أخذ هذه التنويعات والاختلافات بعين الاعتبار عند العودة إلى مراجع وخرائط أخرى.

فلو نظرنا إلى اسم جنكيز خان نفسه لوجدناه يهجى مرة تشنكس خان Chinggs Khan ومرة جنكيز خان Genghis Khan ومرة تشنجز خان Chingiz Khan، ونواجه المشكلة ذاتها في تسمية أولى المناطق التي استولى عليها في بداية غزواته العسكرية وهي «زيزيا» Xi–Xia التي تكتب أيضاً في بعض الأحيان سي – سيا Hsi–Hsia أو His–

(1) Mavlana مافلانا: التي تلفظ بالعربية مولانا.

hsiaوقد تحولت في ما بعد إلى عاصمة للإمبراطورية المغولية تحت اسم دا_ دو Da– Du أو تا_ تو Ta–Tu والتي كان يشار إليها قبل ذلك باسم زونغ دو Zhong–du أو شونغ دو Chung–du أو تشانغ تو Chang–tu أو شونغ دو Chong–du.

وقبل اعتماد نظام عالمي موحد للترجمة، ذي قواعد واضحة للتعامل مع مشكلات كهذه، ستظل الحيرة وسيظل الإرباك سائدين. ورغم ذلك فإن إدراك هذه المشكلة ووجود حدّ أدنى من المرونة في الترجمة، والتعامل مع قواعد التهجئة، ستخفف من وطأتها في الزمن الحاضر.

يسعدني في هذه المقدّمة أن أعبّر عن عرفاني وامتناني للسخاء الذي حظيت به من قبل لجنة الدراسات المتعلقة بآسيا الوسطى والداخلية في جامعة كمبريدج «CCIA»[2]، وأعضاء هيئة الدراسات الشرقية، في تلك الجامعة، الذين لولا دعمهم المادي لما تمكّنت من السفر لإتمام البحوث التي تطلبها إنجاز هذا الكتاب. وأتقدّم بشكري أيضاً للمحاضِرة في قسم الدراسات الشرقية والإفريقية في كمبريدج: فلورنس هودووس، لما قدّمته من وقت وجهد كبيرين في المراحل الأخيرة من إنجاز هذا العمل. كما أتوجه بالشكر لأسومتا وأوسكار وإيلا تقديراً لصبرهم الذي رافقني خلال الأشهر الطويلة التي استغرقها هذا المشروع.

(2) The committee for Central and Inner Asia هيئة الدراسات المتعلقة بآسيا الوسطى والداخلية في جامعة كمبريدج في لندن.

التسلسل الزمني

1125م طرد سلالة لياو القياتيّة من شمال الصين على يد الجورشيين الذين شكلوا في ما بعد أسرة تشين. ارتحل الخيتان – شبه البدو – غرباً وأخيراً استقروا في إمبراطورية قره خيتاي في آسيا الوسطى.

1141م هزيمة السلطان السلجوقي (معزّ الدين أحمد) سنجر على يد قره خيتاي (الكاثاي السود) في سهوب قتوان قرب سمرقند.

1167م ولادة تيموجين، (جنكيز خان)، أو عام 1155 أو 1167 حسب مصادر أخرى.

1174م خطوبة تيموجين على بورته ابنة دي– سشين من قبيلة الأونغرات، وموت والد تيموجين يسوغي مسموماً على يد التتار.

1180م تيموجين يقتل أخاه (من أبيه) كوتولا خان. لاحقاً يعتقل على يد قبيلة تاي تشيود.

1183–84م خطف بورته من قبل قبيلة المركيت. مساعدة طغرل وجاموقا في استعادتها. وولادة الابن الأول جوتشي بعد وقت قصير من تحريرها.

1187م هزيمة تيموجين في معركة دالان بالزوت. جزء غامض من حياة تيموجين ربما قضاه في منفى ما في الصين.

1200م صعود علاء الدين محمد الثاني خوارزم شاه لسدة الحكم.

1206م تنصيب جنكيز خان كخان أعظم في «قوريلتاي» (مجلس المغول العام) في منغوليا. حكم أسرة سلاطنة دلهي في شمال الهند/باكستان حتى عام 1555م.

1209م الغزو المغولي لـ زي– زيا.

1211م الغزو المغولي لإمبراطورية تشين شمال الصين.

1215م سقوط عاصمة الصين شونغ – دو أو زونغدو (بكين في زمننا المعاصر) في يد المغول، وإعادة بناء المدينة وتسميتها خان بالق.

1218م احتلال الجيش المغولي بقيادة تجيبه إمبراطورية قره خيتاي.

1219م جنكيز خان يغزو إمبراطورية خوارزم شاه.

1221–23م رحلات تشانغ تشن ch'ang ch'un من الصين إلى هندوكوش hindu kush

1223م عودة جنكيز خان إلى منغوليا.

1227م وفاة جنكيز خان والاستيلاء نهائياً على زي – زيا.

1229م تنصيب أوقطاي خاناً أعظم.

1234م تحدي أسرة تشين لطموحات التوسع المغولي.

1235م بناء أوقطاي لسور قره قورم، عاصمة الإمبراطورية المغولية.

1237م الحملات المغولية بقيادة باتو خان على روسيا وأوروبا الشرقية.

1241م وفاة أوقطاي. معركة نهر ساجو. وصاية تورجين على العرش حتى عام 1264م.

1245–47م رحلات جيوفاني ديلانو كاربيني إلى منغوليا.

1246م انتخاب جويوك خاناً أعظم.

1248م وفاة جويوك خان. وصاية أوغول غايميش (زوجة جويوك) على العرش حتى عام 1251م.

1250م سيطرة المماليك على مصر وتولي عز الدين أيبك الأيوبي «الملك الأشرف مظفر الدين» العرش.

1251م انتخاب مونكو خاناً أعظم.

1252–79م احتلال المغول لإمبراطورية سونغ في جنوب الصين.

1253–55م رحلة وليام الروبريكي إلى منغوليا.

1253م انطلاق قوات هولاكو إلى إيران.

1254م عز الدين أيبك يستولي على السلطة المطلقة في مصر. فترة حكم البهري المملوكي

لمصر وسوريا. 1250–1390م. (أتراك من قبيلة القبشاق التركية يتحدرون من السهوب الروسية).

1255م وفاة أول زعيم للقبيلة الذهبية باتو خان، وتعيين سرتق حاكماً مؤقتاً لها، قبل أن يخلفه أخوه أولاغشي.

1256م خضوع قلعة الحشاشين لهولاكو.

1257م بركة خان يصبح حاكماً للقبيلة الذهبية وذلك بعد موت أخويه سرتق وأولاغشي بصورة غامضة.

1258م سقوط بغداد على يد هولاكو، وموت آخر الخلفاء العباسيين.

1259م وفاة مونكو خان وانطلاق هولاكو شرقاً.

1259م القائد المملوكي (سيف الدين) قطز يتولى زمام السلطة في مصر.

1260م كتبغا يهاجم سوريا بقوة صغيرة، ثم ينسحب منها. وقوع معركة عين جالوت.
تنافس قبلاي مع أريق بوقا على استلام الحكم في اجتماع القوريلتاي، الوضع الذي أوشك أن يتحول لحرب أهلية. اعتقال كتبغا المغولي المسيحي وقتله.

1260م الظاهر بيبرس يتولى عرش المماليك (1260–1277).

1261–62م الحرب بين هولاكو وبركة خان.

1264م انتصار قبلاي على أريق بوقا.

1265م وفاة هولاكو وتولي أباقا خان العرش.

1266م بدء البناء في عاصمة المغول الجديدة، بكين.

1267م وفاة زعيم القبيلة الذهبية بركة خان.

1271م انطلاق الرحالة ماركو بولو مع والده وعمه باتجاه الصين (وصلوها عام 1275م).

1272م قبلاي خان يسمّي نفسه باسم السلالة الصينية اليان.

1273م وفاة جلال الدين الرومي.

1274م أول حملة مغولية ضد اليابان.

1276م سقوط هانجتشو عاصمة أسرة سونغ في يد المغول.

1279م مقاومة أسرة سونغ للمغول تنتهي.

1281م الهجوم المغولي الثاني على اليابان.

1282م وفاة أباقا خان متسمماً بالكحول، وصعود أخيه أحمد تكودار خليفة له. بدء الحكم العثماني حتى عام 1924م.

1284م وفاة أحمد تكودار واستلام آرغون مكانه.

1287م إرسال المعلم ساومان من قبل الإلخان آرغون إلى أوروبا.

1292م وفاة الشاعر الشيرازي سعدي.

1294م وفاة قبلاي خان. وصول جون ابن مقاطعة مونتي كورفينو إلى الصين.

1295م حصول غازان على لقب إلخان. إسلام المغول في إيران.

1299–1300م الغزو المغولي لسوريا. احتلال سوريا لفترة قصيرة من قبل قوات المغول.

1304م وفاة الإلخان غازان واستلام أولجايتو مكانه.

1313م اعتناق أوزبك حاكم القبيلة الذهبية للإسلام. بناء أولجايتو خان عاصمته السلطانية.

1316م وفاة أولجايتو خان.

1318م إعدام الوزير رشيد الدين وبقاء ابنه في السلطة.

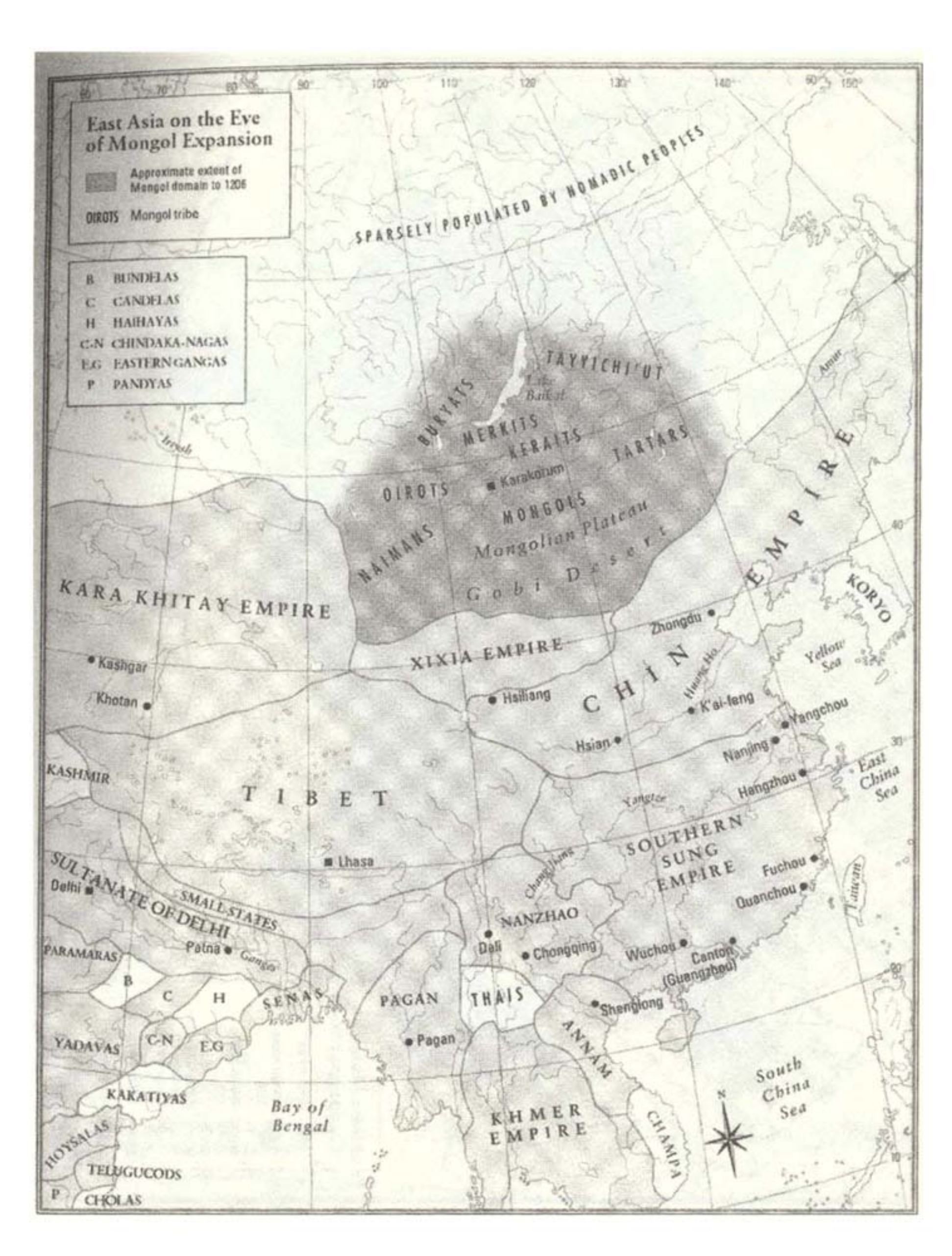
1335م وفاة أبي سعيد آخر حاكم من سلالة هولاكو. وصول سلالة آل جلاير للحكم في إيران والعراق بعد انتهاء سلالة الإلخانات.

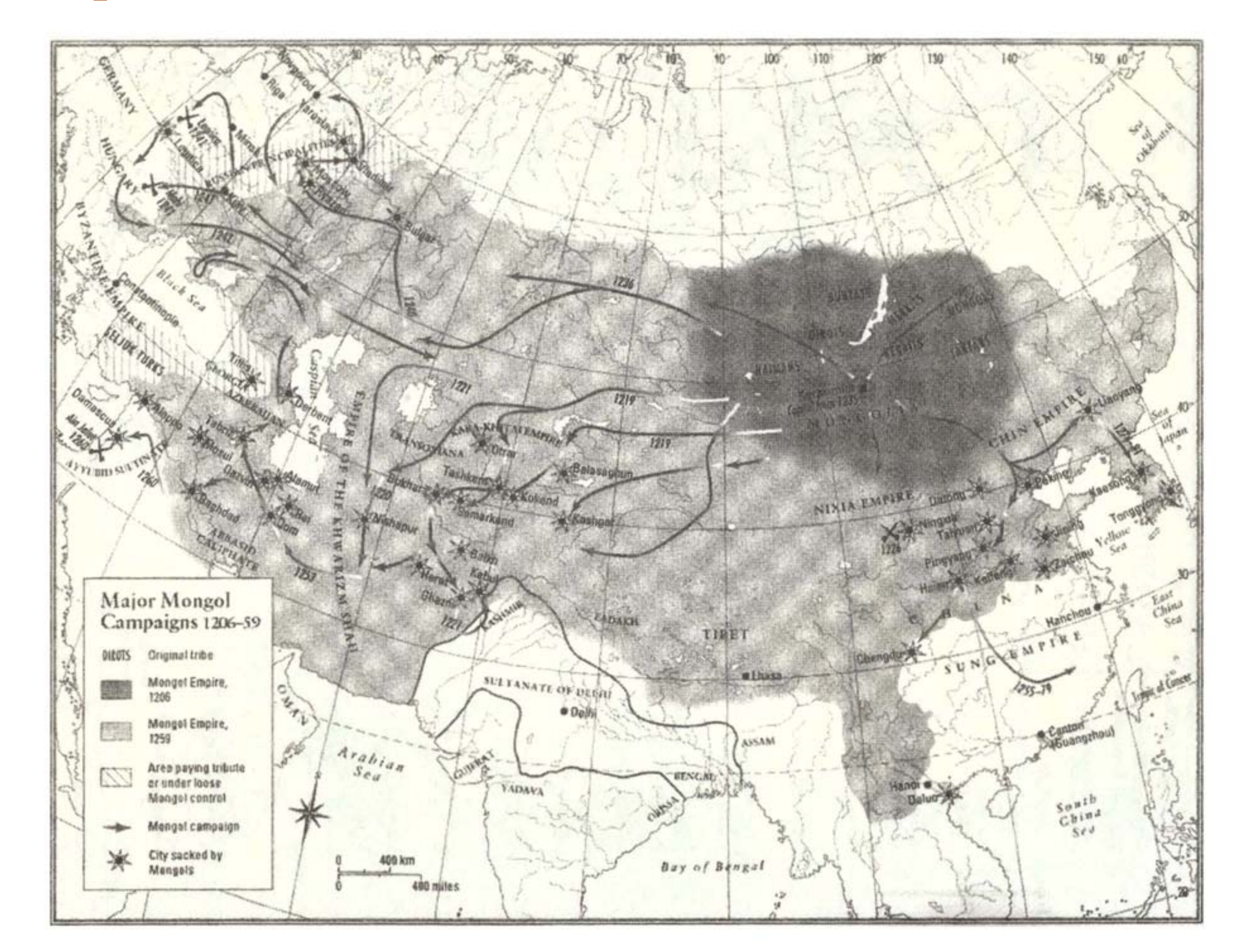
1346م انتشار الطاعون في قوات المغول التي كانت تحاصر مدينة كافا في القرم ومن ثم انتشاره في أوروبا.

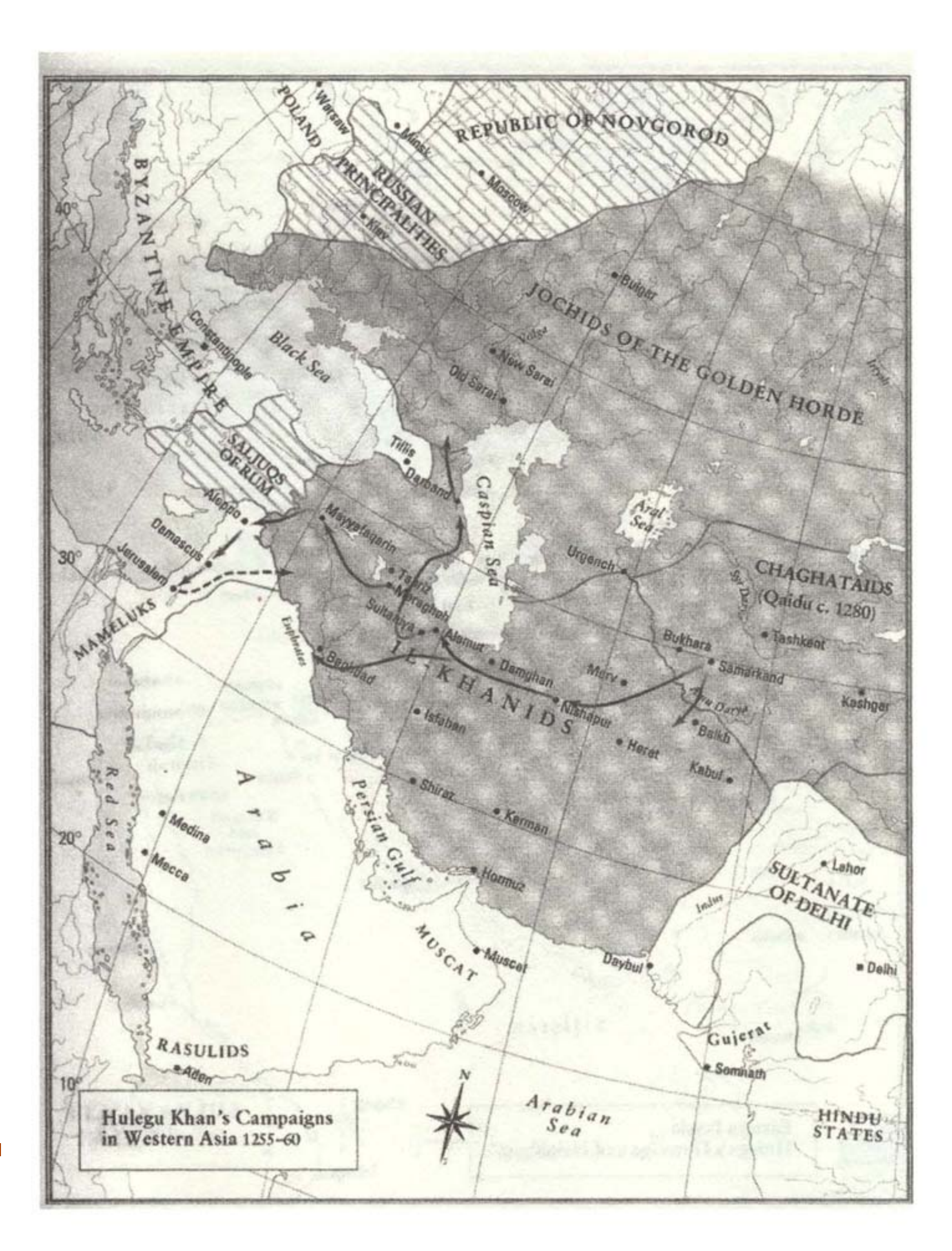
1353–54م انتشار موجات من الأوبئة في الصين. تدوين الرحالة المغربي ابن بطوطة تاريخ رحلاته.

1368م طرد المغول من الصين على يد قوات أسرة منغ.

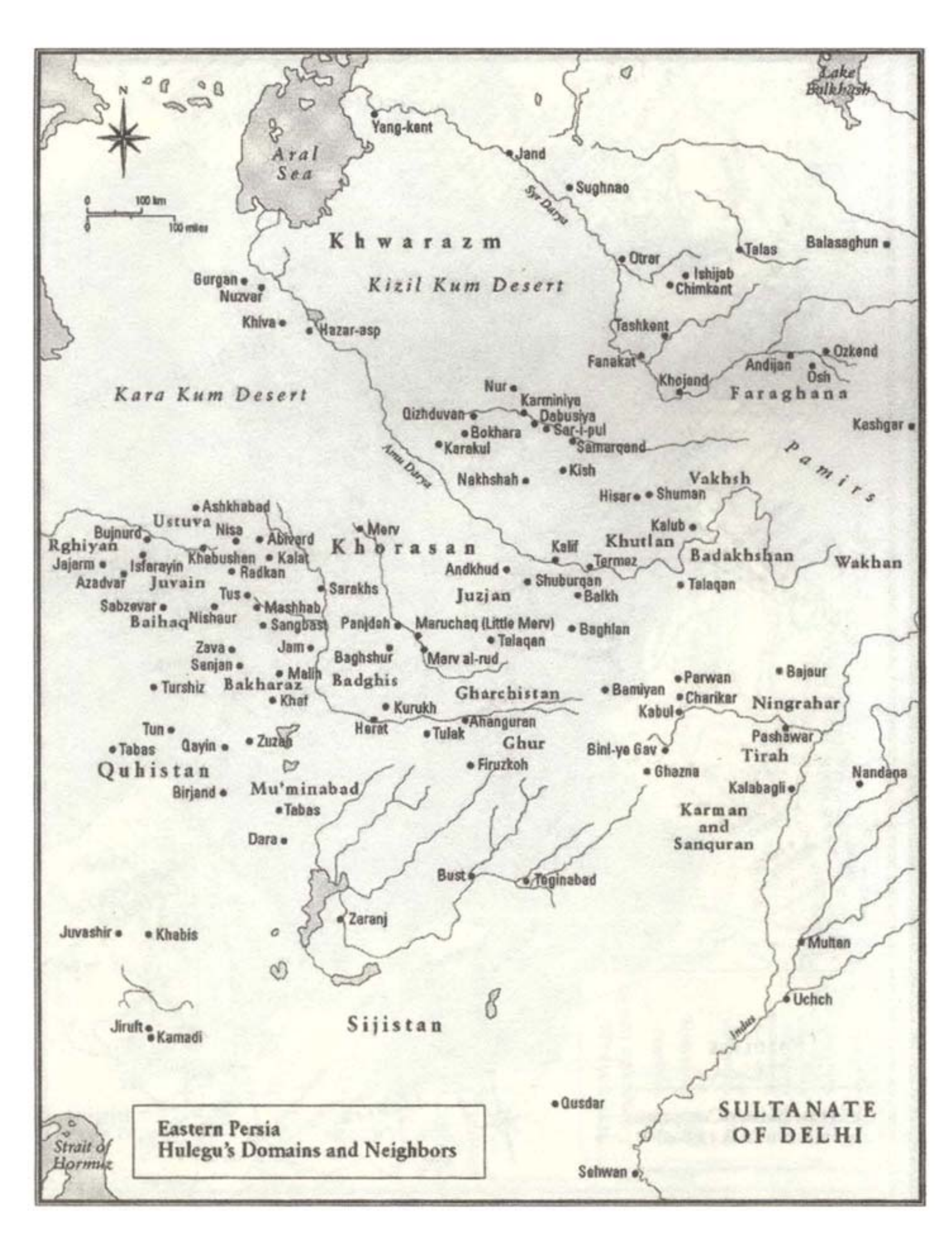
1370م وفاة آخر حكام أباطرة أسرة اليان في الصين الإمبراطور توغون تيمور في العاصمة قره قورم. كتابة المؤرخ الشهير ابن خلدون مقدمته عام 1375م.


East Asia on the Eve of Mongol Expansion
Approximate extent of Mongol domain to 1206
OIROTS Mongol tribe
B BUNDELAS
C CANDELAS
H HAIHAYAS
C-N CHINDAKA-NAGAS
E.G EASTERN GANGAS
P PANDYAS
SPARSELY POPULATED BY NOMADIC PEOPLES
TAYYICHI'UT
BURYATS
MERKITS
KERAITS
TARTARS
OIROTS
Karakorum
MONGOLS
NAIMANS
Mongolian Plateau
Gobi Desert
KARA KHITAY EMPIRE
XIXIA EMPIRE
CHIN EMPIRE
KORYO
Zhongdu
Yellow Sea
Kashgar
Khotan
Hsiliang
K'ai-feng
Yangchou
Hsian
Nanjing
Hangzhou
East China Sea
KASHMIR
TIBET
Yangtze
SOUTHERN SUNG EMPIRE
Lhasa
Fuchou
Quanchou
SULTANATE OF DELHI
Delhi
SMALL STATES
NANZHAO
Dali
Chongqing
Wuchou
Canton (Guangzhou)
PARAMARAS
Patna
Ganges
SENAS
PAGAN
THAIS
Shenglong
ANNAM
Pagan
YADAVAS
KAKATIYAS
Bay of Bengal
KHMER EMPIRE
CHAMPA
South China Sea
HOYSALAS
TELUGUCODS
CHOLAS

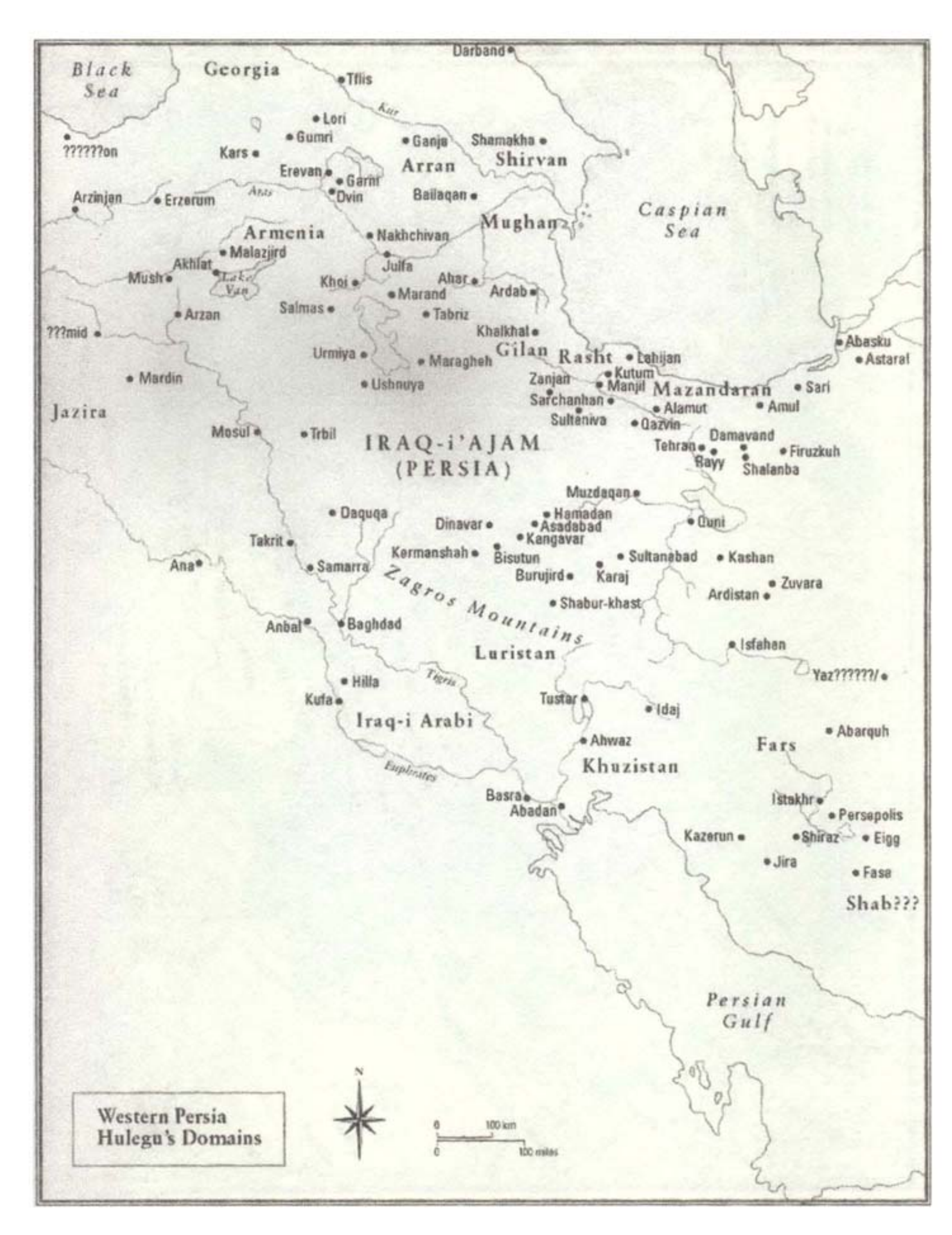

Major Mongol Campaigns 1206–59
OIROTS Original tribe
Mongol Empire, 1206
Mongol Empire, 1259
Area paying tribute or under loose Mongol control
Mongol campaign
City sacked by Mongols
0 400 km
0 400 miles
GERMANY
HUNGARY
BYZANTINE EMPIRE
SELJUK TURKS
Constantinople
Black Sea
Caspian Sea
EMPIRE OF THE KHWARIZM SHAH
ABBASID CALIPHATE
OMAN
Arabian Sea
SULTANATE OF DELHI
Delhi
TIBET
Lhasa
NIXIA EMPIRE
CHIN EMPIRE
SUNG EMPIRE
Hanchou
Canton (Guangzhou)
Hanoi
South China Sea
Bay of Bengal
East China Sea
Yellow Sea
Sea of Japan
Sea of Okhotsk
Tropic of Cancer
Novgorod
Riga
Bulgar
Derbent
Tiflis
Baghdad
Mosul
Tabriz
Aleppo
Damascus
Rai
Qom
Nishapur
Herat
Ghazni
Kabul
Balkh
Bukhara
Samarkand
Tashkent
Otrar
Kokand
Kashgar
Balasaghun
Chengdu
Peking
Kaifeng
Ningxia
1206
1219
1221
1236
1240
1241
1253
1255–79
1260



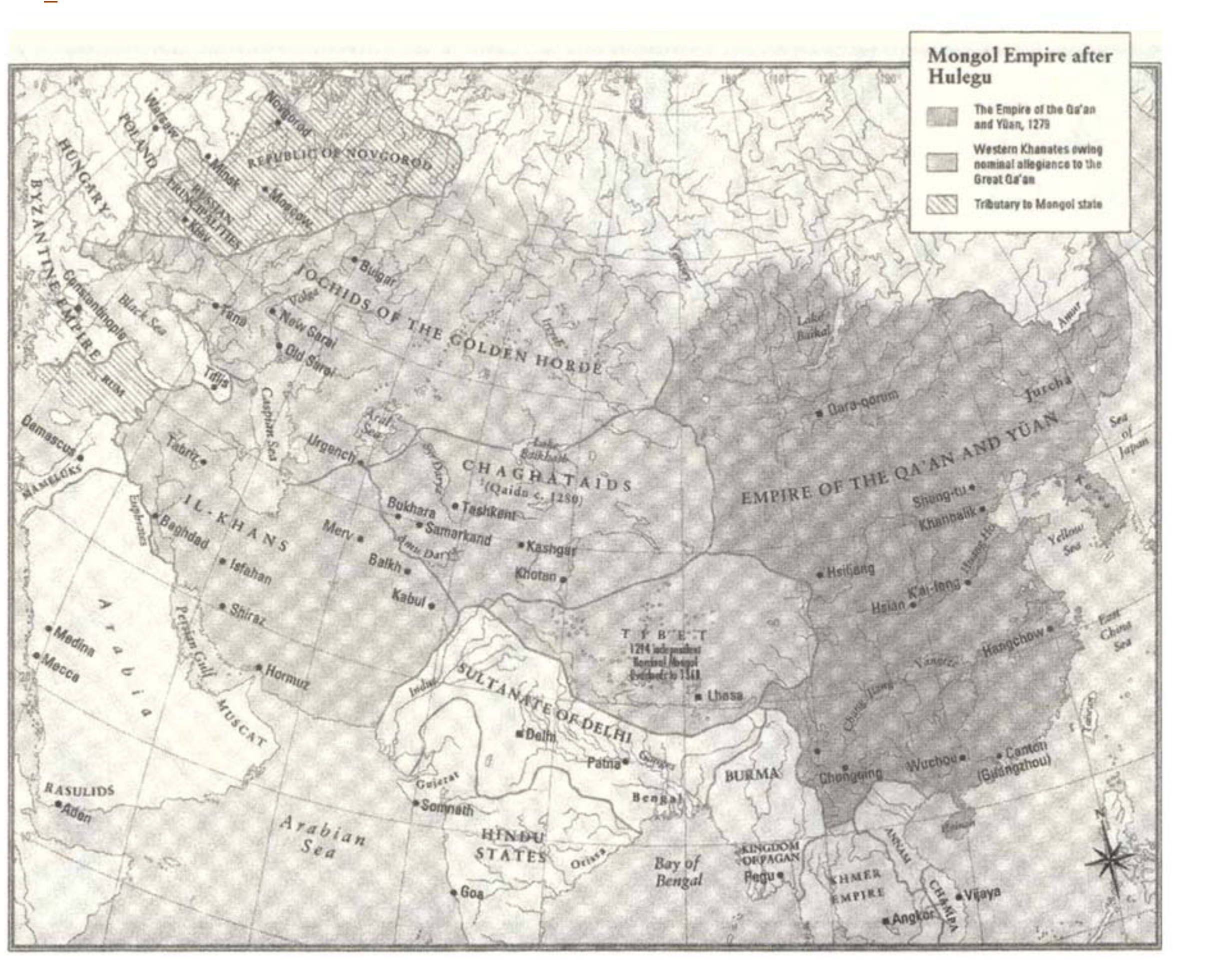
Hulegu Khan's Campaigns in Western Asia 1255–60

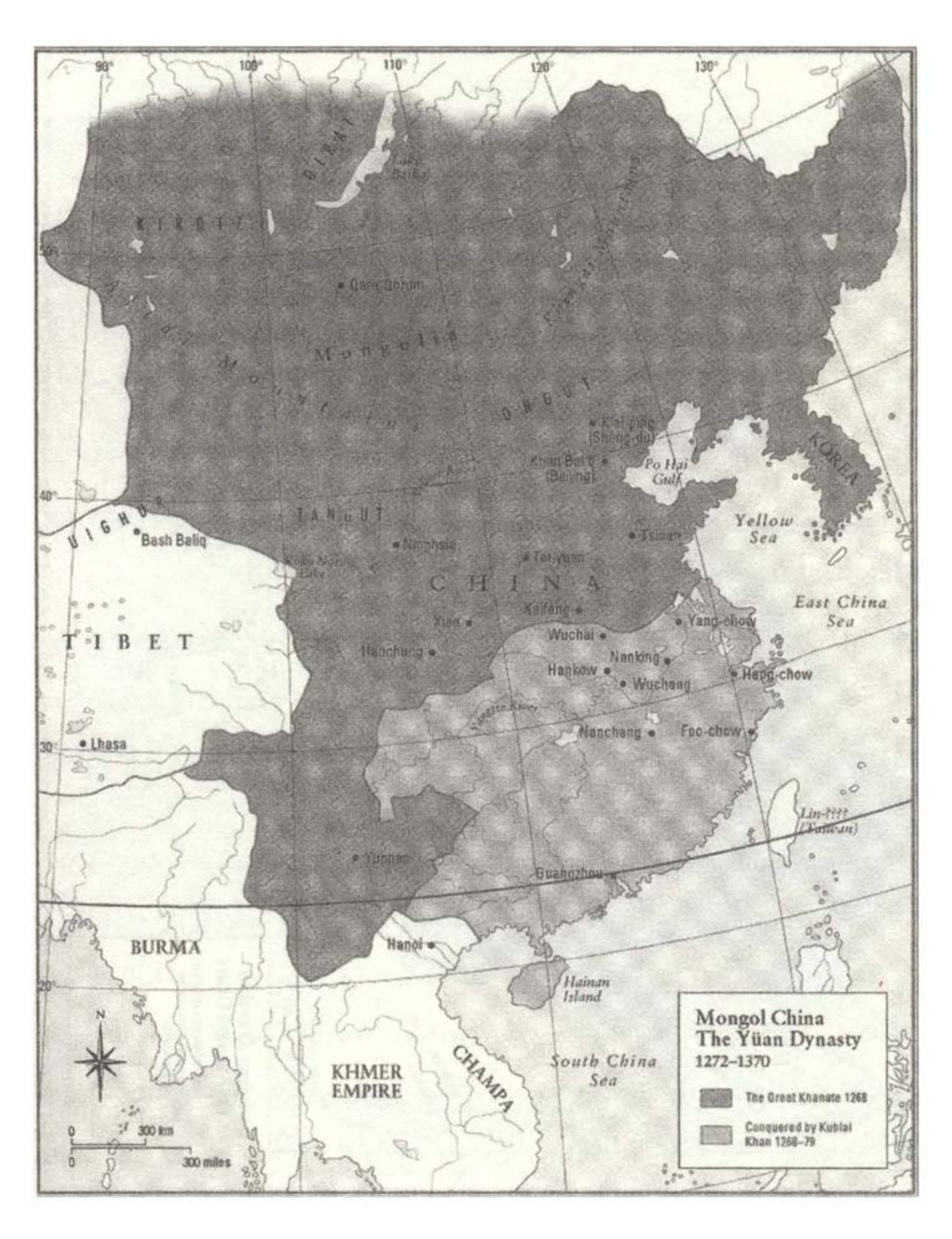


Eastern Persia
Hulegu's Domains and Neighbors



Black Sea
Georgia
Darband
Tflis
Kur
Lori
Gumri
Ganja
Shamakha
Shirvan
??????on
Kars
Erevan
Garni
Arran
Dvin
Arzinjan
Erzerum
Aras
Bailaqan
Caspian Sea
Armenia
Nakhchivan
Mughan
Malazjird
Julfa
Akhlat
Mush
Lake Van
Khoi
Ahar
Marand
Ardab
Salmas
Tabriz
Arzan
???mid
Khalkhal
Urmiya
Maragheh
Gilan
Rasht
Lahijan
Abasku
Astarai
Kutum
Mardin
Ushnuya
Zanjan
Manjil
Mazandaran
Sari
Sarchanhan
Alamut
Amul
Jazira
Sulteniva
Qazvin
Mosul
Trbil
IRAQ-i'AJAM (PERSIA)
Damavand
Tehran
Rayy
Firuzkuh
Shalanba
Muzdaqan
Daquqa
Hamadan
Dinavar
Asadabad
Quni
Kangavar
Takrit
Kermanshah
Bisutun
Sultanabad
Kashan
Ana
Samarra
Burujird
Karaj
Zuvara
Zagros Mountains
Ardistan
Shabur-khast
Anbal
Baghdad
Luristan
Isfahan
Yaz?????/
Hilla
Tigris
Kufa
Tustar
Idaj
Iraq-i Arabi
Abarquh
Ahwaz
Fars
Khuzistan
Euphrates
Basra
Abadan
Istakhr
Persepolis
Kazerun
Shiraz
Eigg
Jira
Fasa
Shab???
Persian Gulf
N
0 100 km
0 100 miles
Western Persia Hulegu's Domains


Mongol Empire after Hulegu
The Empire of the Qa'an and Yüan, 1279
Western Khanates owing nominal allegiance to the Great Qa'an
Tributary to Mongol state
REPUBLIC OF NOVGOROD
Novgorod
Warsaw
POLAND
Minsk
Moscow
RUSSIAN PRINCIPALITIES
Kiev
HUNGARY
BYZANTINE EMPIRE
Constantinople
Black Sea
RUM
Bulgar
JOCHIDS OF THE GOLDEN HORDE
Volga
Tana
New Sarai
Old Sarai
Tiflis
Caspian Sea
Damascus
MAMELUKS
Tabriz
Euphrates
Baghdad
IL-KHANS
Isfahan
Shiraz
Persian Gulf
Hormuz
MUSCAT
Arabia
Medina
Mecca
RASULIDS
Aden
Arabian Sea
Aral Sea
Urgench
Merv
Bukhara
Samarkand
Tashkent
Balkh
Kabul
Lake Balkhash
CHAGHATAIDS
(Qaidu c. 1280)
Kashgar
Khotan
TIBET
Lhasa
SULTANATE OF DELHI
Delhi
Patna
Bengal
Gujerat
Somnath
HINDU STATES
Orissa
Goa
Bay of Bengal
BURMA
KINGDOM OF PAGAN
Pegu
KHMER EMPIRE
Angkor
ANNAM
CHAMPA
Vijaya
Lake Baikal
Qara-qorum
Jurcha
EMPIRE OF THE QA'AN AND YÜAN
Sea of Japan
Shang-tu
Khanbalik
Yellow Sea
Hsi-liang
Hsian
K'ai-feng
Hangchow
East China Sea
Chongqing
Wuchou
Canton
(Guangzhou)
Amur


Mongol China
The Yüan Dynasty
1272–1370
The Great Khanate 1268
Conquered by Kublai Khan 1268–79
90°
100°
110°
120°
130°
50°
40°
30°
20°
Mongolia
Qara Qorum
ONGUT
TANGUT
Bash Baliq
TIBET
Lhasa
CHINA
Ningsia
Tai-yuan
Tsinan
Po Hai Gulf
KOREA
Yellow Sea
East China Sea
Kaifeng
Xian
Hanchung
Wuchai
Yang-chow
Nanking
Hankow
Wuchang
Hang-chow
Nanchang
Foo-chow
Yunnan
Guangzhou
Hanoi
Hainan Island
BURMA
KHMER EMPIRE
CHAMPA
South China Sea
N
300 km
300 miles


European Travelers to the Mongol Court
Under Mongol control or owing allegiance to the Mongol rulers
Marco Polo 1271–95
Carpini 1245–47
William of Rubruck 1253–55
POLAND
HUNGARY
Venice
BYZANTINE EMPIRE
Constantinople
Black Sea
Mediterranean Sea
REPUBLIC OF NOVGOROD
Minsk
Moscow
RUSSIAN PRINCIPALITIES
Kiev
Bulgar
JOCHIDS OF THE GOLDEN HORDE
Tana
New Sarai
Old Sarai
Tiflis
Caspian Sea
Urgench
Tabriz
Damascus
MAMELUKS
Euphrates
Baghdad
IL-KHANS
Isfahan
Shiraz
Kerman
Hormuz
Persian Gulf
MUSCAT
Arabia
Medina
Mecca
RASULIDS
Aden
Bukhara
Merv
Samarkand
Balkh
Kabul
Tashkent
CHAGHATAIDS
Kashgar
Khotan
TIBET
Lhasa
SULTANATE OF DELHI
Delhi
Patna
Bengal
Gujarat
Somnath
Arabian Sea
HINDU STATES
Goa
Calicut
Cochin
Ceylon
INDIAN OCEAN
Bay of Bengal
BURMA
KINGDOM OF PAGAN
Pagu
KHMER EMPIRE
Angkor
ANNAM
CHAMPA
Vijaya
South China Sea
Qara-qorum
EMPIRE OF THE QA'AN AND YUAN
Jurcha
Shang-tu
Khanbalik
Hsiliang
K'ai-feng
Hsian
Chengtu
Hangchow
Foochow
Ta-li
Chongqing
Wuchou
Canton (Guangzhou)
Yellow Sea
East China Sea
Sea of Japan
Sea of Okhotsk
Korea

الفصل الأول

لمحة تاريخية:
جنكيز خان والحكم المغولي

انطبع القرن الحالي (القرن العشرون) وجزء كبير من القرن الماضي بتحولات لا مثيل لها، وبأحداث ذات تأثيرات عالمية أكثر منها محلية. ويعتقد على نطاق واسع أنه لم يسبق للعالم أن مرّ بظروف مصيرية مشابهة بهذا القدر من قبل. بيد أن التغيرات المفاجئة التي شملت أجزاء واسعة من آسيا وأوروبا الشرقية، خلال القرن الثالث عشر والتي كانت لها تأثيرات جذرية على مختلف مناحي الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والتجارية وحتى الروحية، تشبه في قوتها تأثيرات العولمة في عالمنا اليوم.

وفي حين يصعب تحديد أسباب انتشار العولمة ومبرراتها في عصرنا الراهن، يمكننا نسب تلك التغيرات العالمية أو العولمة التي عصفت بالقرون الوسطى إلى رجل واحد، هو تيموجين ابن يسوغي، المعروف باسم جنكيز خان(1). فهو من وحّد قبائل المغول والترك في أوراسيا[3] وانطلق يجتاح بها السهوب، مخلفاً آثاراً عميقة راسخة وطويلة الأمد، ساعياً إلى الثروة من خلال النهب والسلب لتعزيز سلطته وإرضاء تلك القبائل. وفي النهاية غدا هذا الاندفاع المهووس للسلب، تعطشاً لا يخمد للسيطرة، وانقلب إلى

(3) Eurasia أوراسيا: كلمة مؤلفة من «أوروبا» و«آسيا»، كانت تشير في الماضي إلى أراضي أوروبا وآسيا مجتمعتين، و تمتد على ما يقارب 10,6٪ من العالم، وتشكلت بعد نحو 350 مليون سنة بعد اندماج القارات: سيبيريا وكازاخستان والبلطيق.

إيمان راسخ بقدسية قضيته، حتى أن جحافل جنوده لم تعد تنطلق في غزواتها من دون حمل راية إله السماء «تِنغري»[4]، معتبرة انتصاراتها دليلاً على قدرة ذلك الإله الكلية، ونتيجة لدعمه ومساندته المحضة.

وهكذا تشكلت من صعود تيموجين السريع إلى السلطة أوسع إمبراطورية امتدت على مساحات متجاورة من الأرض. فقد بدأ شاباً يتيم الأب، يتفانى في سبيل الدفاع عن حق أسرته، ثم زعيم قبيلة، محاطاً برهط من الأتباع المخلصين، ومن بعدها زعيماً

(4) Tengri تِنغري: إله السماء، وهي كلمة تعني حرفياً في اللغة المغولية: سماء أو اللون الأزرق. والديانة تسمى: «التنغرية» Tengriism، وهي تشبه الديانة أو الفلسفة الصينية التي سادت في القرن 11 ق.م ، والتي يعبر عنها رمزياً بتنين أزرق اللون «يشير إلى جهة الشرق»، ونمر أبيض «يشير إلى جهة الغرب»، وعنقاء حمراء «تشير إلى جهة الجنوب»، وحيوان أسطوري هو مزيج من سلحفاة وأفعى سوداء «يشير إلى الشمال»، ولدى «التنغرية» رموز اتجاهات مشابهة لها.

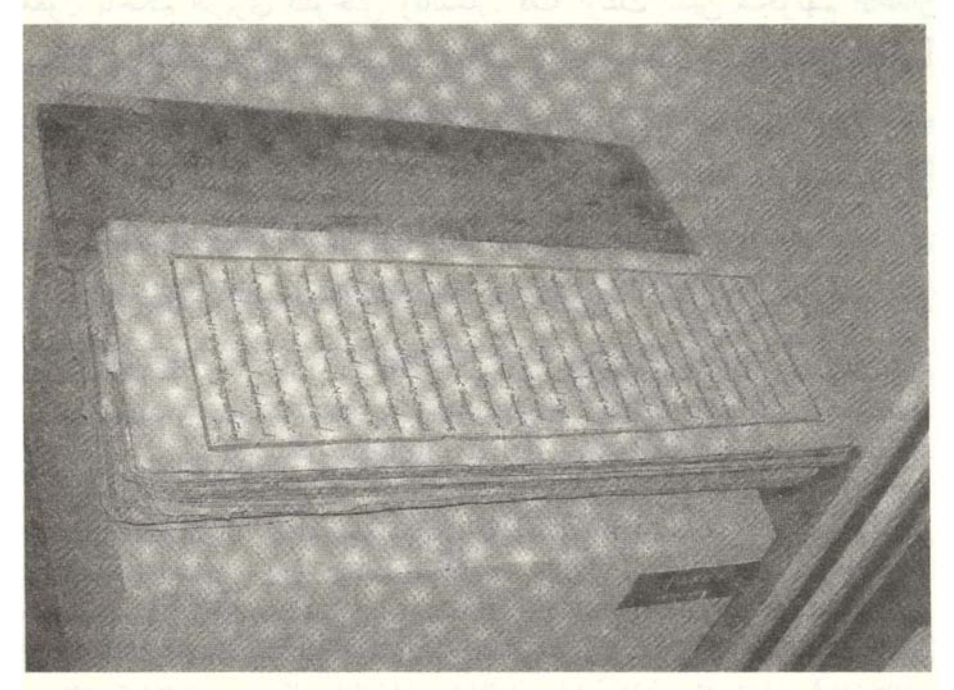


تمثال جنكيز خان، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

لعدة قبائل، يمضي لتوحيد الشعوب في الفيافي الآسيوية تحت راية الثروة الموعودة والجاه، ثم ليصبح أخيراً جنكيز خان، سيد العالم، الذي ترك بأعماله وردود أفعاله وما أبرمه من معاهدات واتفاقيات، آثاراً ما زال صداها يتردد حتى يومنا هذا. فمعاهدة الصلح بين التيبت والصين التي خط مسودتها في الأصل أحد الحكام المغول بقيت إلى الآن أساساً معتمداً بين البلدين، وقصائد جلال الدين الرومي التي يتردد صداها حول العالم، من كاليفورنيا حتى طوكيو، نشأت بداية وتغلغلت في مسامع الناس زمن سيادة الحكم المغولي. وكذلك بناء المغول عاصمة الصين الحالية «بكين»، واعتمادها لتكون عاصمة للصين[5] الموحدة آنذاك، فهذا وضع خلق روابط روحية وثقافية ما زالت تؤلف بين شعوب غرب آسيا وشرقها إلى اليوم.

ومنذ ولادة هذا الإمبراطور المغولي وتسميته بتيموجين.. الاسم الذي كان يوماً

(5) جرى ضم كل من الصين والتيبت تحت لواء الدولة المغولية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.



نسخة مبكرة من التاريخ السري للمغول، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

ما مدعاة للسخرية[6]، وحتى تلقيبه بجنكيز خان مروّع أمراء روسيا وأوروبا الشرقية، لم ينل سوى الشهرة والصيت الذائع، ولم يستحق لقب سيد العالم فقط، بل موحّده أيضاً.

الإرث

تعرضت صورة جنكيز خان، وقبائل المغول للكثير من التشويه، ولحق بها الكثير من الإجحاف والمبالغة وذلك من قبل صنّاع أسطورة التاريخ، ومن قبل الدعاية المغولية نفسها. فأولئك الذين عانوا من الإذلال والخضوع، لزمهم الكثير من الادّعاء والمغالاة لتبرير ما لحق بهم من عار وانكسارات. وبالمقابل فإن المغول الحريصين على انتصاراتهم ودوام سلطتهم، استغلوا الرعب الناتج من هذه المبالغات والحكايات ليضمنوا استمرار الخضوع لهم بدلاً من التمرد عليهم.

وكنتيجة لذلك ارتبط اليوم اسم جنكيز خان عند الكثيرين بالشر، واقترنت كلمة مغول بالحكم البربري المتوحش وبالدمار. فقلّة أولئك الذين يمنحونهم الأعذار ويؤيدونهم أو يدافعون عنهم. ففي أوروبا يُسمع صدى حوافر خيولهم يتردد ممتزجاً بالهلع والرعب على صفحات كتاب ماثيو باريس[7]. وفي اليابان يسود الاعتقاد بأن رياح الكاميكاز[8] المقدسة وحدها هي التي حالت دون وقوع تلك الجزيرة مرتين في براثن زحفهم البربري. وفي روسيا فإن أحداث القرنين الثالث والرابع عشر الواردة في «مدوّنة نوفجورود التاريخية»[9] لا توحي سوى بالفزع والخوف. وفي العالم الإسلامي

(6) Temujin تيموجين: في الأصل تعني «الشيء الذي قُدّ من حديد» وربما كان المقصود هنا سخرية أعداء تيموجين (أثناء طفولته وشبابه المبكر) من اقتران اسمه بالحديد الذي يرمز إلى القوة في الوقت الذي نشأ فيه يتيماً ومسلوباً حقه في السلطة بعد وفاة أبيه وتشرده، وقبل بدء حياته العسكرية واستحواذه على تأييد عدد من أفراد قبيلته ثم القبائل الأخرى.

(7) Matthew Paris ماثيو باريس: راهب ومؤرخ انجليزي (1200– 1259م) ظل حتى وفاته يعمل في تدوين موسوعة تاريخية كبرى، تعتبر مرجعاً مهماً في التاريخ البريطاني القديم.

(8) Kamikaze كاميكاز: حرفياً تعني الرياح المقدسة، وهي كلمة تستخدم للاشارة إلى مجموعة أعاصير ساد الاعتقاد بأنها انقذت اليابان من هجومين فظيعين لأسطول الإمبراطور قبلاي خان المنغولي عام 1274 وعام 1281. كما اقترن اسم كاميكاز ببطولة الطيارين اليابانيين وعملياتهم الانتحارية زمن الحرب العالمية الثانية.

(9) Chronicle of Novgorod مدونة نوفغورود التاريخية: تعتبر أهم مرجع لتاريخ روسيا القديم.

ما زالوا يستقون اقتباساتهم من مراجع متحيزة وغير موضوعية كتاريخ ابن الأثير، بدلاً من العودة إلى مؤرخين كتبوا انطلاقاً من معرفتهم المباشرة. ولكنّ مشاعر العداء هذه لا تشمل العالم كله، فمن المعلوم أن الناس سواء في تركيا أو في آسيا الوسطى، يعتزون بتسمية أولادهم بجنكيز وهولاكو ومونكو[10] وأرغون[11]، وبكثير من الأسماء المشابهة لها والتي سادت فترة العصر الذهبي المغولي. وفي المناطق التي تعتمد اللغة التركية كلغة رسمية، والمناطق الواقعة ما بين السهوب الأوراسية، يُنظر بكل فخر إلى إرث جنكيز خان وقبائل المغول، وتعدّ أعمالهم ملاحم ما زالت ملهمة للكثير من القصص والحكايات.

كذلك بدأ الفكر الأكاديمي الحديث، يغوص من جديد في إرث المغول وعصرهم، متعمقاً في مفهوم الدعاية المغولية، ومقتفياً آثار معاركهم ومجازرهم المحجوبة تحت غطاء الأساطير والقصص المنسوجة من قبلهم هم بالذات في أغلب الأحيان، ليوضح حقيقة أن القرنين اللذين سيطر خلالهما المغول كانا قرنين من الانبعاث والإبدّاع والتطور.

هناك معرضان حديثان، أحدهما في الولايات المتحدة الأمريكية، والآخر في لندن، يحتفيان بإرث شعوب تلك السهوب الأوراسية. وأما في نيويورك ولوس أنجليس فقد أقيم معرضان عام 2002 تحت عنوان «إرث جنكيز خان»[12] كإنجاز ثقافي لتسليط الضوء على فترة حكم المغول في إيران، ولنسف الأسطورة القائلة إن فترة حكم الإلخانات (1256–1335م)[13] كانت مثالاً في الوحشية والعنف الخالصين. كما أقيم مثلهما في لندن عام 2005 حيث أقيم معرض للاحتفاء بإبداعات الأتراك على مدار ألف سنة،

(10) Mongke Khan مونكو خان: (1208–1259) تولى العرش وهو في الثالثة والأربعين من عمره. يعتبر أشهر خانات المغول بعد جنكيز خان وهو أخ هولاكو القائد المغولي المشهور وهو من كلفه بغزو إيران والعراق.

(11) Arghun Khan أرغون خان: (1258–1291) بن أباقا بن هولاكو. ثار على عمه أحمد تكودر حين أعلن إسلامه وعقد صلحاً مع المماليك. انتهت ثورته بمقتل العم وتسلمه العرش.

(12) The Legacy of Genghis Khan «تركة جنكيز خان»: عنوان معرضين في نيويورك ولوس أنجليس (LACMA Museum) انظر الموقع http://www.lacma.org/khan/index.htm.

(13) Il Khanid فترة حكم إلخان الثانوي أو الفرعي أو التابع للخان الأعظم في منغوليا، وهو اسم اطلقه هولاكو حفيد جنكيز خان على نفسه أثناء حكمه للمنطقة التي تشمل غرب إيران والعراق حتى أناضوليا وبحر آرال أو بحر خوارزم كما يسميه الجغرافيون العرب.

ليشمل فترة حكمهم، وتأثيراتهم على البلاد التي خضعت لسيطرتهم بداية من الصين وحتى أوروبا.

وبالتالي فإن هدف هذا الكتاب هو فحص تلك الصورة الأكثر موضوعية والمرسومة لجنكيز خان وفترة حكم المغول بعد وفاته عام 1227، والنظر بواقعية أكثر إلى الحياة في ذلك الزمن.

جنكيز خان وزمن الحكم المغولي

سيركّز الفصل الأول على مكان ولادة تيموجين، ملقياً نظرة عامة على السهوب الأوراسية وحالة المجتمع فيها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وسيبحث في الأسباب التي مكّنت جنكيز خان من إعادة تشكيل العلاقة بين مجتمعات سهوب أوراسيا الشمالية من البدو الرعاة، ومجتمعات الجنوب الزراعية المتحضرة، وفي الظروف السياسية والاجتماعية التي أدت لحدوث ذلك.

تكونت الإمبراطورية المغولية التي كانت تشمل السهوب الأوراسية رسمياً في ربيع 1206، سنة النمر[14]، ورافق ذلك صعود رمز الراية البيضاء ذات التسعة رؤوس والتي كان يشير كل رأس فيها إلى قبيلة من القبائل التركو- مغولية إذ كانت تمثّل تلك الراية الروح الحامية للأمة وتتويج تيموجين إمبراطوراً لأمة رماة السهام، وقائداً أعلى «لشعب خيام اللباد». وقد حظي تيموجين بلقب جنكيز، الذي يُظنّ أنه يعني، من غير حسم، «الحاكم الأوقيانوسي» (الواسع أوالشامل) «Oceanic Ruler» وهو تعبير منحدر من قبائل الأوغور[15] ولكن لقبه جنكيز اشتهر أكثر واستمر إلى اليوم. ومن المعروف أن تشنغ «ching» في اللغة المنغولية، تعني «القوي الصلب». وقد اعتبر توحيده القبائل وعدم تورعه عن استخدام القسوة والعنف لضمان الخضوع له، أحد

(14) The year of the Tiger سنة النمر: حسب التقويم الصيني المعتمد على اثني عشر حيواناً تمثل شجرة الحياة المؤلفة من اثني عشر غصناً.

(15) Uyghur أوغور: اسم القبائل التركية (من منطقة تركستان اليوم) والتي يعتقد بأن سلالة جنكيز خان انحدرت منها. معظمهم يدينون بالإسلام، كانوا حلفاء للمغول في وقت مبكر واحتلوا مناصب إدارية مهمة زمن حكمهم. الأبجدية الأوغورية كانت معتمدة من قبل الإمبراطورية المغولية.

أهم إنجازاته. ومع هذا فلم تكن قوته وحدها سبباً كافياً للمّ شمل القبائل من حوله. فقد طمعت تلك القبائل بالثروة والسطوة اللتين ستحققان لهم وحدتهم تحت رايته البيضاء. وهكذا فإن ولاءهم سيستمر طالما ظل عطاؤه مستمراً. وبهذا تصبح المعادلة الصعبة لجنكيز خان تأمين الغنائم والسلطة والجاه دون انقطاع لتلك القبائل حتى لا يخسر سلطته، وتتعرض إمبراطوريته للتفكك والانهيار. وقد نجح جنكيزخان في ما فشل فيه كثيرون غيره من قبل، وحول مجتمعاً بدوياً منغلقاً إلى إمبراطورية عالمية تشمل أرجاؤها السهوب، والمناطق الزراعية معاً.

انطلقت جحافل المغول– بعدد تجاوز المليونين– في جميع الاتجاهات. وقد كانوا خليطاً عجيباً من قبائل منحدرة من أصول عرقية مختلفة، توحدهم الحرب كنمط عيش بالنسبة إليهم. بدأوا عام 1207 زحفهم من السهوب ليحتلوا مملكة «تانجوت» «Tangut» في زيزيا «Xixia» الواقعة في الشمال الغربي من الصين، ثم اتجهوا إلى الشرق متحَدين رمال صحراء جوبي «Gobi»[16] الحارقة ليصلوا إلى مملكة تشين «Chin» في شمال الصين، يحدوهم الأمل في السيطرة على ثرواتها الرائعة. ورغم أنهم لا يجارون في الحروب المفتوحة في السهول أو الجبال إلا أنهم كانوا عديمي الخبرة في حروب الحصار ومع هذا، وبسبب تميّزهم بسرعة التعلم والتأقلم لم يمنعهم أي شيء من تحقيق هدفهم. فساعدتهم تجاربهم على اقتحام قلاع زيزيا وتحطيم سور الصين العظيم مستعينين بخبرة المهندسين الصينيين الأسرى عام 1215، لمساعدتهم على اختراق أسوار عاصمة الإمبراطورية الصينية التي حوّلوها إلى حطام كامل و«مجزرة مجيدة»، نسجوا من أشلائها أسطورة صيتهم المروّع. ولزمهم 17 عاماً حتى تمكّنوا من إخضاع منطقة شمال الصين التي لم يرجع لها جنكيز خان مرة أخرى لأن أنظاره اتجهت بعدئذ نحو الغرب.

بعد سقوط قره خيتاي[17] في يد قائد قوات جنكيز خان، الجنرال تجبيه، عام 1217

(16) Gobi صحراء جوبي: أكبر منطقة صحراوية في آسيا. تغطي أجزاء من شمال وشمال غرب الصين، ومن جنوب منغوليا. تعتبر من الصحارى الخمس الكبرى في العالم.

(17) Qara khitai قره خيتاي: أو كارا خيتان: اسم اطلقه الخيتانيون على أنفسهم وهم قبائل رعوية استقرت في القرن الرابع في الصين.. أسسوا ولاية قره خيتان التي دمرت من قبل المغول عام 1218. غالباً ما تترجم العبارة



تاجر حرير في سوق كشغر. بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

وجد المغول أنفسهم مجاورين لأراضي المسلمين، وسلطانهم خوارزم شاه[18] وهو السلطان محمد إمبراطور آسيا الوسطى وأفغانستان وإيران، الذي اشتهر بقوله: «أنا من تشرق الشمس وتغرب على يديه»(2)، وقد فضّل جنكيز خان التحالف معه تفادياً

بالخيتاي السود، ولكن أصلها غير معروف. حرفياً تعني في اللغة المغولية «الصين السوداء»، وهي مقاطعة في شمال وشمال شرق الصين وبدأت تأخذ هذا الاسم تحديداً بعد الغزو المغولي لها.

(18) Khwarazmshah سلطان شاه أو السلطان خوارزم شاه: هو قطب الدين محمد خوارزم شاه. وكان يطلق لقب خوارزم شاه على حكام الدولة الخوارزمية وهم من أتراك بلاد ماوراء النهر الذين جاؤوا من خيوة ونشروا سلطانهم بين نهري الكنج ودجلة. وخيوة كانت تسمى خوارزم وهي تابعة لإقليم خراسان الإسلامي وتقع اليوم في غرب أوزبكستان ولد فيها حسب بعض الروايات عالم الجغرافيا والرياضيات المعروف الخوارزمي عام 850 م.



معبد أو داغوبا منغولي، «البرج الأبيض» في هوهوت، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

لأعباء مواجهته، ولكن تعالي السلطان محمد في ما بعد جعله يأمر بقتل بعض التجار المغول، مما حسم قدر الإمبراطورية الخوارزمية سلفاً.

ففي عام 1219 انطلق جيش مكون من 200,000 جندي، كان من ضمّنهم عشرة آلاف من المهندسين المختصين بفنون الحصار، نحو الغرب بأمر من جنكيز خان. وبدأت مدن السلطان خوارزم شاه تنهار الواحدة بعد الأخرى قبل وصول المد الكاسح لجنكيز خان، ومن ثم هرب السلطان فاراً بحياته. ووقف جنكيز خان في بخارى[19]

(19) Bukhara بخارى: عاصمة ولاية بخارى في أوزبكستان ومن أكبر مدنها.

خاطباً في مواطنيها المرتعبين قائلاً: «أنا عقاب الله على الأرض. لو أنكم لم تخطئوا لما أرسلني إليكم».

وخلال سنوات قليلة، خضعت لسيطرة المغول كل من إيران والقوقاز وأوكرانيا وشبه جزيرة القرم، وروسيا وسيبيريا وآسيا الوسطى وأفغانستان وباكستان وكشمير. وذلك في الوقت الذي وصلت فيه جنكيز خان أنباء تفيد بأن رعايا مملكة تانغوت بدأوا يتمردون عليه في «زيزيا»، فلم يتورعوا فقط عن رفض أوامره في التسلح وإرسال إمدادات عسكرية لغزواته على سلطنة خوارزم شاه، بل أعلنوا العصيان المسلح ضده. فقام جنكيز خان بقيادة الجيوش بنفسه، والتوجه شرقاً لمعاقبة ملك تانغوت العاصي، ولكنّه في 1227 وبعد سلسلة من الانتصارات وبينما هو متمترس ينتظر خضوع مملكة تانغوت المتواضعة، أصيب بحمى مات على إثرها. وهكذا في غضون عقدين من الزمن لم يقد جنكيز خان قبائل المغول خارج السهوب الأوراسية ليسيطر على إمبراطورية تشين العظيمة في شمال الصين فحسب، وإنما اجتاح مملكة خوارزم شاه الإسلامية أيضاً التي حكمت غربها وكسحها.

وكانت التغيرات قد بدأت تؤثر على طبيعة التوسع المغولي، فقد أصبح العرق المغولي أقلية في جيش الإمبراطورية، بعد أن احتكر الموظفون الأجانب المناصب الإدارية، وخاصة الأيغوريين. أما القادة فقد احتكروا السلطة والجاه، وقد اختلفت طبيعة مخيّماتهم لناحية حجم الترف والرخاء لما يتمتعون به من مكانة. وكان إيمانهم بالديانة التنغريزية من أكبر المؤثرات عليهم، إذ اعتبروا نجاحاتهم وانتصاراتهم المتواصلة قدراً وإرادة إلهيين محتومين من قبل إلههم «تِنغري». وقد جرى قبولهم بين أتباعهم من الشعوب التي خضعت لهم على أساس أنهم عقاب إلهي حل بهم نتيجة أخطاء ومعاص ارتكبوها، في حين استمروا ينظرون إليهم سرّاً بصفتهم لعنة قادمة من الجحيم. وبالتدريج تعاظم إيمان المغول بقدسية قضيتهم، وبأن القدر أرسلهم ليسودوا على العالم، وحتى الإنذارات النهائية التي يوجهونها إلى البلاد التي لم يحتلوها بعد، قد جاءت بإيعاز إلهي، وعلى هذا الأساس يتوجب على الجميع التسليم بقدسية سلطتهم من دون أي نقاش.

ما بعد جنكيز خان

بعد مرور سنتين على وفاة جنكيز خان تسلم ابنه أوقطاي خان[20] السلطة وسار على نهج أبيه فواصل الحملات العسكرية ثم بدأ بالتشديد على سلطة المغول في الصين والاستيلاء على كوريا وتدعيم سلطته العسكرية أكثر في كل من بلاد فارس(إيران)، وأرمينيا وبلاد الرافدين، وأذربيجان، وأنذر إمبراطورية سونغ Sung في جنوب الصين باقتراب دورهم في الاحتلال. وفي إيران عمل القادة في مختلف المناصب الحكومية من أجل أن ينتشر التفكك والفوضى وينعدم الأمن في البلاد، وأفسد الإسماعيليون، وجلال الدين خوازم شاه،[21] وكثيرون من القادة المحليين هناك، حيوات جموع السكان. وقد فرّ الشاعر سعدي[22] من مدينته الحبيبة شيراز، هرباً من تلك الفوضى، ولم يرجع إليها حتى مجيء هولاكو واستتباب حكومة مركزية عام1250. وفي 1230 قام باتو خان[23] عبر «قبيلته الذهبية»[24] بتوسيع سلطته ومدها على أوروبا الشرقية حيث أصبح الفزع من المغول كابوساً يومياً يطارد سكان أوروبا. وفي عام 1240 احتل المدينة الروسية كييف ودمّرها، وفي عام 1241 هزم الجيش البولندي بالقرب من مدينة لجنيكا «Legnica» في الشمال الغربي من بولندا، واستمر الجيش المغولي المنتصر ماضياً بغزواته المدمرة ومخضعاً لسيطرته كلاً من مورافيا وسيليزيا وحتى هنغاريا نفسها.

وفي يناير عام 1241 توقفت جميع حملات المغول العسكرية، بعد وصول نبأ موت أوقطاي خان. فاستدعي جميع القادة المغول والأمراء والنبلاء ممن يتحدرون من «العائلة الذهبية» – كما جرت تسميتهم– إلى عاصمتهم قره قورم[25] لعقد مجلس «القوريلتاي»

---

(20) Ogodei أوقطاي خان: الابن الثالث لجنكيز خان يعتبر الحاكم الثاني بعده. من زوجته الإمبراطورة بورته. تولى الحكم في 18 أغسطس عام 1227.

(21) جلال الدين خوارزم شاه: ابن السلطان محمد خوارزم شاه الذي استلم الحكم من بعده.

(22) سعدي الشيرازي (نسبة إلى ولادته في مدينة شيراز) واسمه الكامل مشرف الدين بن مصلح الدين عبدالله، وهو ثالث الشعراء الكبار في إيران.

(23) Batu Khan باتو خان: (1205– 1255) مؤسس القبيلة الذهبية وحفيد جنكيز خان.

(24) القبيلة الذهبية: «Golden Ttibe» اسم اطلقه الروس على الغزاة المغول بعد دخولهم أراضيهم ويعتقد أنه مستمد من خيمة زعيمهم باتو خان المصنوعة من الذهب الخالص.

(25) Qaraqorum قره قورم: عاصمة الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر وهي بالقرب من مدينة خارخورين الحالية الواقعة في الشمال الغربي من منغوليا.

«Quriltai»[26] للتشاور في ما بينهم حول من سيتولى خلافة العرش. ومنذ تلك الفترة بدأت تتسع التصدعات في كيان الإمبراطورية المغولية والتي بدأت بالظهور مع تسلم أوقطاي خان السلطة. وبعد مدة طويلة من وصاية أرملة أوقطاي خان على العرش استلم ابنها جويوك[27] الحكم لمدة سنتين حفلتا بأحداث وتغيرات كثيرة، حتى موته عام 1248. بعد ذلك قرر باتو خان الذي لم يكن راضياً عن تسلم جويوك العرش، عدم السماح لأي فرد من عائلة أوقطاي بالوصول إلى السلطة مرة أخرى. لكن وللمفارقة جرى تحجيم سلالة باتو خان نفسها، ومُنعت من تسلم المناصب العليا في الإمبراطورية، نتيجة انتشار شائعات في السر تشكك في نقاء نسبهم. فالجدة بورته زوجة جنكيز خان، قد خُطفت من قبل قبيلة «مركيت»[28] في بداية زواجها، وأنقذت بعد تسعة أشهر، عادت بعدها إلى جنكيز خان لتلد جوتشي[29] والد باتو خان. أصر جنكيز خان على معاملة جوتشي كأنه ولده البكر، فارضاً على الجميع احترامه وطاعته، ولم يسمح بإثارة أي شك أو تساؤل حول حقيقة بنوته. وبالفعل لم يحدث إلا نادراً أن صُرح بتلك الشكوك ومع هذا بدا أن هناك ما يشبه القانون غير المكتوب جعل من باتو صانع ملوك، بدلاً من ملك، ولم يعامل بالمقدار نفسه من التبجيل كخان حقيقي.

صعود التولويين[30]

بدعم من باتو خان، نجح مونكو خان، ابن تولوي خان وهو الابن الأصغر لجنكيز خان في السيطرة على الحكم عام 1251 بعد حرب أهلية عنيفة، شكلت مساعدة ابن عمه له خلالها دعماً هائلاً. وقد كلف صعوده إلى الحكم، ثمناً باهظاً دفعته أسرتا

(26) Quriltai القوريلتاي: اسم أطلق على اجتماعات الجمعية الوطنية العامة في الإمبراطورية المغولية.

(27) Guyuk جويوك خان (1206—1248): ابن أوقطاي خان ويعد ثالث أعظم خان حكم الإمبراطورية المغولية. 1246—1248.

(28) Markit قبائل المركيت: وهم من المغول وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكرايت على مجرى نهر «سلنجا» وجنوبي بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد ولهذا شنّ عليهم جنكيز خان حرباً شعواء استعمل فيها القسوة والشدة حتى أباد معظمهم.

(29) Jochi جوتشي خان أو جوجي خان: (1180—1227) وهو أكبر أبناء جنكيز خان.

(30) Toluids التولويون: نسبة إلى الإمبراطور تولوي «Tolui» وهو أصغر أبناء جنكيز خان الأربعة.. خصه أبوه بإدارة الموطن الأصلي منغوليا، حيث كان عليه مباشرة الجيش وإعداده وتجهيزه، سمي أتباعه بالتولويين.

أوقطاي وجغتاي[31]، إذ أهلكهما مناصروه من دون أي رحمة. وكان مونكو خان آخر خان عظيم يحكم الإمبراطورية المغولية الموحدة (رغم ضعف هذه الوحدة في تلك المرحلة).

حاول مونكو خان إحكام قبضته وقبضة عائلته على السلطة، فأرسل أخاه قبلاي نحو الشرق لإخضاع مملكة سونغ في جنوب الصين، كما أرسل أخاه هولاكو لنشر سيطرة التولويين على بلاد فارس والأناضول وبلاد المسلمين. دمر هولاكو في طريقه المعاقل الجبلية لجماعةٍ تذكّر بالإرهابيين في يومنا هذا وهم «الحشاشون» أو بتسمية أخرى «الإسماعيليون[32]» في إيران، ثم تابع زحفه إلى بغداد ليجرد الخليفة من منصبه، وقد تمكّن من ذلك عام 1258 بمساعدة زعماء القبائل الكردية وبعض الشيعة الناقمين على الحكم. ترك مونكو أخاه الأصغر أريق بوقا لإدارة موطنه الأصلي منغوليا في أثناء غيابه لمساعدة أخيه قبلاي على احتلال مملكة سونغ الصينية، حيث توفي بداء الديزنطاريا أو الزحار أثناء حصارها، مما أدى إلى توقف الحملات المغولية مرة أخرى ودعيت العائلة الذهبية المفككة إلى الاجتماع مرة ثانية في مجلس «القوريلتاي» لمناقشة أوضاعهم الجديدة.

الانشقاق

وصلت الإمبراطورية المغولية إلى نهايتها بموت مونكو خان عام 1259. إذ اندلعت حرب أهلية نتيجة النزاع على الخلافة بين الأخوين قبلاي وأريق بوقا، ووصل بركة

(31) Chaghedai جغتاي: أحد أولاد جنكيز خان الأربعة.

(32) Assassins الحشاشون: جماعة تأسست على يد حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري الملقب بالسيد أو شيخ الجبل، أواسط القرن الحادي عشر في إيران والذي جعل من أحد الجبال مقراً لقيادته وسماه قلعة الموت. كان أبوه ينتمي إلى مذهب المسلمين الشيعة الاثني عشرية (بالتحديد إلى الإسماعيليين) في الكوفة في العراق وهاجر إلى إيران ويقال إن أصله عربي من اليمن. وأطلق عليهم اسم الحشاشين وهناك اختلاف حول أصل هذه التسمية فيؤكد أمين معلوف في روايته «سمرقند» على أن أصل الكلمة ليس مشتقاً من كلمة حشيش كما زعم الغربيون قائلين: إن زعيم تلك الطائفة لجأ لاستخدام مادة الحشيش المعروفة لتخدير أتباعه وإقناعهم بالإقدام على عمليات اغتيال للسُنة، فحسب معلوف تلك قصة ملفقة ويعود أصل التسمية إلى كلمة أساس التي اشتقت منها كلمة أساسيون Assassiyoon التي حرفت في ما بعد إلى حشاشين.

خان[33] المسلم بصورة متنازع عليها إلى السلطة، ليحل مكان باتو خان ما أدى إلى عاصفة من العداء بين الإلخانات في بلاد فارس، والقبيلة الذهبية، وكذلك انتصار مماليك مصر عليهم في موقعة «عين جالوت»[34] عام 1260، والذي كسر أسطورة قوتهم التي لا تقهر.

لم ينصب قبلاي خان نفسه خاناً عظيماً في عاصمة الإمبراطورية قره قورم، بل في عاصمته الصيفية «شانغ– دو Shang – du»، في الوقت الذي أعلن فيه أريق بوكا نفسه حاكماً للمغول. وثمة تقليل من شأن هذا النزاع بين الأخوين في المصادر الفارسية، التي ما زالت تعد مرجعاً أساسياً للبحث في تاريخ المغول، والتي تصوّر أريق بوقا كمغتصب للعرش، وتراه المسؤول الأول عن الانشقاق الذي حدث بين القبائل أعقاب الفترة التالية لزوال سلطة مونكو خان. لكن ولاء أولئك المؤرخين للبيت التولوي، يدفع إلى الشك في صحة شهاداتهم. وفي الحقيقة إن أريق بوقا خان يمثل مع الكثيرين من مسانديه الجانب التقليدي المحافظ.. المعتزّ بنمط الحياة الرعوية في السهوب، والذي انتقد آنذاك مسيرة حكام المغول وعارضها، إذ بدأوا يتماهون مع حياة الشعوب الخاضعة لسلطانهم، وخاصة من الصينيين والفرس. فكانت الحرب الأهلية عام 1260 بمثابة حرب للمحافظة على الروح المغولية، بيد أن نتيجتها جاءت مخيبة للآمال. فعندما أعلن أريق بوقا نفسه خاناً لم تكن قوته المحدودة لتنافس قوة عدوه وأخيه الأكبر قبلاي خان، الذي تدعمه بلاد الصين القوية. وشهدت سنة 1264 وصول قبلاي خان إلى أوج سلطته، التي حظيت باعتراف أخيه هولاكو في إيران وتأييده، وشجب القبيلة الذهبية وجغتاي خان واستنكارهما.

---

(33) Berke Khan بركة خان: هو أحد زعماء القبيلة الذهبية، حفيد جنكيز خان من ابنه الأكبر جوتشي. أخوه باتو وهولاكو ابن عمه. أعلن إسلامه وتحالف مع الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام أحد سلاطين المماليك. بعد إعلان إسلامه بايع الخليفة المستعصم ببغداد، وحارب هولاكو ووقف له بالمرصاد عدة مرات وهزم ابنه «أباقا»، ويقال إن غضب هولاكو بعدها أدى إلى إصابته بجلطة دماغية قضت عليه.

(34) معركة عين جالوت: وقعت في الثالث من سبتمبر عام 1260. تعد من أهم المعارك في تاريخ العالم الإسلامي.. انتصر فيها المسلمون على المغول وكانت المرة الأولى التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان، وقد أدت إلى خروج المغول من بلاد الشام بشكل نهائي.

العصر الذهبي

شهدت الأعوام التي تلت سنة 1260 الانقسام النهائي للإمبراطورية، وفي الوقت نفسه بروز أعظم إنجازين لآل جنكيز خان، وهما تسلم سلالة اليان[35] زمام الحكم في الصين العظمى، وسلالة الإلخانات[36] في إيران العظمى.

اعتنق قادة المغول الإسلام في إيران مع تولي غازان خان[37] العرش عام 1295، ويعتبر طول فترة حكمه مع كبير وزرائه رشيد الدين (رشيد الدين فضل الله الهمذاني، صاحب الكتاب الموسوعي «جامع التواريخ») بمثابة عصر ذهبي للإلخانات. لكن هذا عائد على الأرجح إلى حقيقة أن المؤرخين اللاحقين كانوا من المسلمين ومن الطبيعي انحيازهم وتمجيدهم لقائد مغولي اهتدى إلى الإسلام، وتفضيلهم له على «الكفار». وفي الحقيقة إن كلاً من هولاكو وابنه أباقا قد أشرفا على فترة من ازدهار إيران اقتصادياً وثقافياً، وامتيازها بالأمن نسبياً. وقد توفي أبو سعيد آخر الإلخانات، عام 1235 دون أن يترك وريثاً من بعده، وبالتالي اختفى نسل هولاكو. واستمر حكم بعض السلالات المنغولية لفترة قصيرة مثل الجلاير في غرب إيران وعاصمتهم بغداد، والحكم الريفية للسربداران في شمال البلاد، وسلالة كارت الفارسيةفي خراسان، وسلالة المظفرين في شيراز. فكل منها ظهرت وازدهرت لفترة قصيرة ليبددها في ما بعد غبار العاصفة الآتية من الشرق بحلول عام 1400، بقيادة الامبراطور تيمورلنك[38] (1335–1405) وهو الآخر قائد قبيلة تركو مغولية.

وفي الصين لم يتمكّن خلفاء قبلاي خان من مجاراة إنجازاته المهمة، رغم استمرار

(35) Yuan أسرة اليان: وهي سلالة المغول ممن حكموا الصين (1271–1368) أسسها رسمياً قبلاي خان، ويشار إليها أحياناً بتسمية إمبراطورية الخانات العظمى وغالباً ما يطلق على خاناتها اسم الخان الأعظم أو الخاقان.

(36) Il-Khanate, Il-khan : أسرة الإلخانات المغولية والتي حكمت في غرب آسيا (إيران وأفغانستان والعراق وشرق تركيا وجنوب القوقاز). كان الملك يدعى إلخان. أسسها هولاكو عام 1258.

(37) Il-Khan Ghazan محمود غازان بن أرغون (1271–1304): سابع سلاطين الإلخانية في إيران، حكم من عام 1295م حتى وفاته. كان نقطة تحول في تاريخ دولة الإلخانات إذ اعتنق الإسلام وقام بالعديد من الإصلاحات في بلاده.

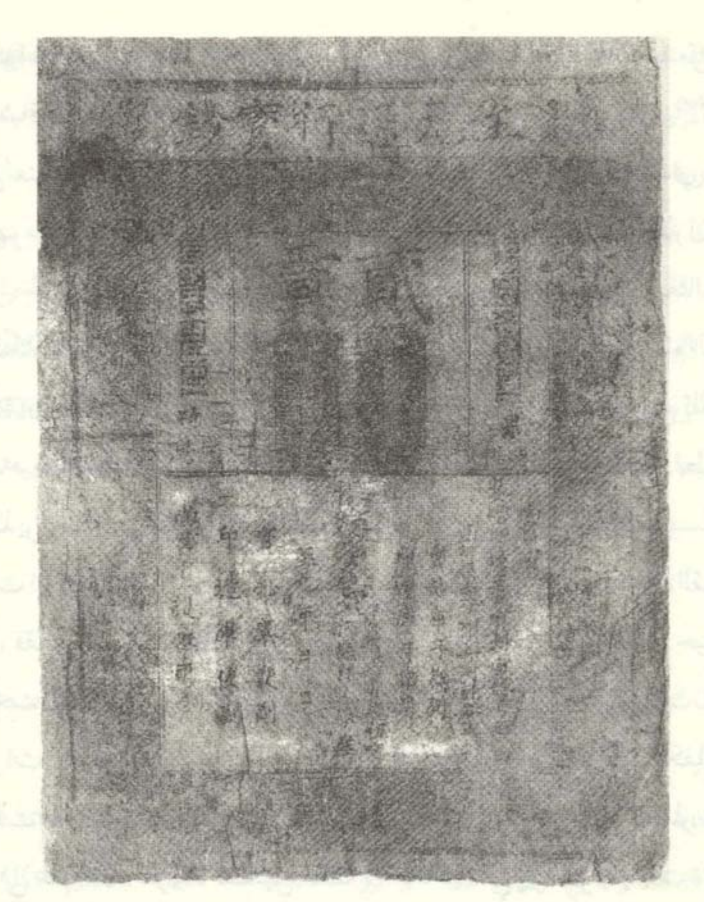
(38) Timurlane تيمورلنك: قائد مغولي من القرن الرابع عشر، ومؤسس الإمبراطورية التيمورية (1370–1405) وتعني كلمة «لنك» الأعرج نتيجة إصابته بجرح في إحدى المعارك، أما كلمة «تيمور» فتعني الحديد. كان مسلماً عاصمته سمرقند.

السلالة الحاكمة زهاء 74 سنة، لم يحدث خلالها أي توسع أو ضم لأراض جديدة، فقط تمت المحافظة على ما أسسه قبلاي خان هناك، فبعد محاولتين عنيفتين لاحتلال اليابان، توقف توسعهم في الشرق. تماماً في الوقت الذي هُزم فيه المغول أمام المماليك[39] في معركة «عين جالوت» في مصر عام 1260 والتي أنهت في الغرب أسطورة المغول الذين لا يقهرون. وكذلك انهزامهم أمام أعاصير «الكاميكاز» في اليابان عام 1274، ثم عام 1281 الذي شهد تراجعاً لسمعتهم في الشرق، لكن نهاية تفوقهم العسكري لم تكن لتعني زوال إرثهم. فشبكة الاتصالات رفيعة المستوى، والطرقات الحديثة الممتدة من العاصمة الجديدة «تا– تو» «Ta–tu» (بكين) أمنتا للصين استمرار مكانتها المرموقة في التجارة العالمية. وحتى عندما انهار نظام الحكم المغولي بشكل كامل في الصين وتسلمت أسرة مينج «Ming» صينية العرق، تقاليد الحكم، لم يكن بالوسع إنكار الشرعية التي تمتعت بها سلالة «اليان» لعدة قرون ماضية، فرغم أصولها المغولية إلا أنها اعتبرت سلالة صينية الأصل، حتى نصب «تسو يانتسنغ» «Zhu Yuaunzhang» نفسه إمبراطوراً على الصين عام 1368 وحكمت سلالة «مينج» التي أسسها حتى عام 1644.

ورغم أن الإمبراطوريتين العظميين، المؤسستين من قبل الأخوين التولويين، هولاكو وقبلاي في كل من إيران والصين، هما اللتان رسختا مجد المغول ومكانتهم المميزة في الأماكن الأخرى، لتسير جنباً إلى جنب مع سمعتهم الحربية بكل ما عرف عنها من عنف وتدمير وقسوة، فقد ترك كل من «الإلخانات» في إيران و«اليانات»[40] في الصين، آثاراً لا تمحى على الثقافة والتاريخ، وولد تشابه كبير بين الحكام والرعية في الإمبراطوريتين اللتين بقيتا متقاربتين لزمن طويل. فرغم استمرار احترام التقاليد المغولية في الإمبراطوريتين، إلا أن التأثير الحضري للمدن كان واضحاً ومغايراً لطبيعة الحياة في السهوب. وغازان خان الذي حكم إيران ما بين عامي 1295 و1304، والذي اعتنق

(39) المماليك: هم سلالة من الجنود حكمت مصر والشام والعراق والجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن وبالتحديد من 1250 حتى 1517 م. كانوا عبيداً من أصول تركية من آسيا الوسطى. أسسوا في مصر والشام دولتين متعاقبتين كانت عاصمتهما آنذاك القاهرة: الأولى دولة المماليك البحرية ومن أبرز سلاطينها عز الدين أيبك و قطز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون و الأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام.

(40) «اليانات» نسبة إلى «اليان» «Yuan» السلالة المغولية الحاكمة في الصين آنذاك.



صورة: عملة قانونية كانت مستعملة خلال حقبة يان. بموافقة لان تيان لانج للنشر

الإسلام عام 1295، ظل على علاقات وطيدة مع خانات الصين العظام، وبقي معترفاً بسيادة القانون المغولي، «الياسا»، الذي وضعه جنكيز خان. وفي الصين أيضاً رغم اعتماد القواعد والقوانين الصينية إلا أن الأنظمة والتقاليد المغولية ظلت تشكل عنصراً مهماً في قيادة جميع المؤسسات وتوجيهها.

اختلف أسلوب الحياة اليومية ونوعيتها في الإمبراطورية المغولية حسب اختلاف المكان. ففي سهوب الشمال، استمرت الأمور تحدث بالطريقة نفسها كما كانت منذ قرون، فواظبت القبائل البدوية على رحلتي الشتاء والصيف، بحثاً عن المراعي، رغم انفتاح إمبراطوريتهم على التجارة والثراء والكثير من المستجدات التي لم يكن بإمكانهم

حتى تخيلها قبل جيل من ذلك. وفي الشمال الغربي تمكّنت القبيلة الذهبية من احتضان أتراك القبشاق[41]، وبرزت محاولة خفيفة لتنقية المكان من أمراء الروثينيين[42] ففرضت إتاوة على مناطق استقرارهم، يدفعونها للحكام المغول، في الوقت الذي أبقت فيه قبائل السهوب نفسها بمعزل عن تأثير المدن والمناطق الزراعية لأولئك الجيران.

لم تتغير الحياة اليومية في السهوب الخصبة للقبيلة الذهبية كثيراً منذ البعثات البابوية التبشيرية لكاربيني[43] في الأربعينيات من القرن الثالث عشر، مروراً بـ وليام الروبريكي «William of Rubruck»[44] في الخمسينيات من القرن نفسه. لكنّه حتى في تلك المناطق التي بقيت فيها التقاليد المغولية راسخة وقوية، انطبعت حياة البلاط مبكراً بطابع البذخ والرفاه اللذين سادا بعيداً في إيران والصين.

اختلفت الحياة بالنسبة للجميع بعد انعقاد مجلس الجمعية الوطنية العامة «القوريلتاي» عام 1206، فقد مرت الإمبراطورية بمراحل ثلاث أساسية، أثرت على نمط حياة كل من انضوى تحت لوائها. الفترة الأولى من التوسع خضعت لتأثير المواجهات العسكرية والانتصارات. ثم بعد وفاة جويوك خان عام 1248 امتدت مرحلة من الكفاح وتعزيز الذات، تلت شعورهم بالطمأنينة لاكتمال مرحلة التأسيس. وشهدت المرحلة الثالثة والأخيرة في عام 1260 تقريباً، تشكيل سلطة «الخانات» في إيران و«اليانات» في الصين وإتمام التغييرات اللازمة في البلاط المغولي. ففي بلاط بكين الصيني وتبريز الإيراني لم يعد ولي العرش مجردِ محارب فظ.. آتٍ مباشرة من سهوب المغول البدوية وإنما صار إمبراطوراً معتبراً ينحني له الرسل القادمون من كل أنحاء العالم. وخلقت الإمبراطورية المغولية حقيقة سياسية امتدت لتشمل زهاء نصف اليابسة. ومن تلك الحقيقة السياسية

(41) Qipchaq قبشاق: حضارة تقوم على الرعي والغزو ينحدر أفرادها من أصل تركي عرفت في روسيا وأوكرانيا باسم بولوفتسي امتدوا على مساحة واسعة من السهوب الأوراسية، من بحر أورال غرباً وصولاً إلى البحر الأسود شمالاً (الآن في أوكرانيا وشمال غرب روسيا).

(42) Ruthenians الروثينيون أو الروس: تسمية أطلقت مع صعود القومية الأوكرانية في منتصف القرن التاسع عشر.

(43) Carpini جون كاربيني (1180–1252): رحالة إيطالي مشهور، أول أوروبي يتجه نحو الشرق كمبشر ديني.

(44) William of Rubruck وليام الروبريكي (1220–1293): مبشر ومكتشف فلمنكي يوازي أو ربما يفوق بما تركه من إرث جغرافي أدبي الرحالة الشهير ماركو بولو.

الحديثة انبثقت معاهدات عسكرية ومواجهات وعلاقات جديدة. وبالاضافة إلى ذلك ساهمت الإمبراطورية في توليد وعي ثقافي جديد. فمن اختلاط الشعوب الخاضعة للإمبراطورية وتمازجها سياسياً وإدارياً وفكرياً نتجت ثقافة جديدة ذات ملامح مميزة على مختلف الصعد الفنية والذوقية والعلمية والأدبية.

وهكذا فقد أمسك المغول بزمام السلطة، وسيطروا على المؤسسات السياسية. كما لعبوا دور الوسيط الثقافي المحرّض والداعم للأنشطة الثقافية في العالم كله لمدة قرن كامل من الزمن. وقد تبدو تلك الأصقاع التي وصل إليها التأثير المغولي غاية في البعد، بمختلف المعاني، عن موطنهم الأصلي، ولكن الروح المُلهِمة لذلك التأثير هبت بداية من تلك السهوب البسيطة.

الحواشي

1. رغم أن تهجئة جنكيز خان «Genghis» هي الأكثر انتشاراً، فإن الأصح لفظاً هو تشنكيز خان «Chinggis Khan».

2. «I am the sovereign of the Sun-rise, and thou the sovereign of the Sun-set» من كتاب كولياتي-آي-أمير خوسرو «Kulliyati-i-Amir Khosrow» (طهران 1996)، 532. مولانا جوزجاني، منهاج الدين أبو عمر العثمان، طبقات النصيري. التاريخ العام للسلالة المحمدية في آسيا (810-1260) م، والغزو الكافر للمغول على الإسلام، ترجمة H.G Raverty (1881) طبع للمرة الثانية في كلكتا، المجتمع الآسيوي 1995، ص. 966.

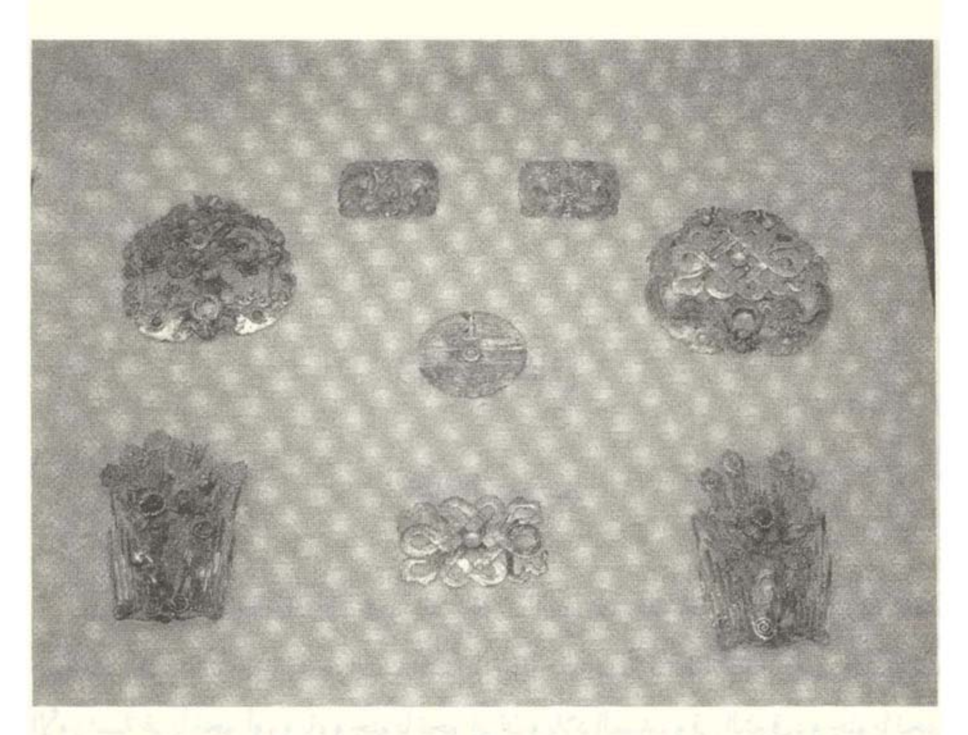
الفصل الثاني

حياة السهوب

يعتبر المغول آخر القبائل الرعوية التي غزت العالم غير المترحّل أو الحضري(1). فقد شهدت القرون الماضية هجرات مكثفة للقبائل الرعوية المنطلقة من قلب السهوب الأوراسية غرباً نحو أوروبا، وجنوباً نحو إيران وبلاد السند، وفي الشرق، وجنوباً نحو الصين. ومهرت تلك القبائل في فن الغزو والإغارة نتيجة باعها الطويل في مهاجمة الجبال والمناطق الزراعية والمعمورة. وفي المقابل اعتاد جيرانهم من الأوروبيين والصينيين وسكان الأراضي الواقعة جنوب نهر أوكسوس[45] على تلك الغزوات واحتاطوا لها وقاوموها بنجاح في أغلب الأوقات. ففي إيران يحتفي كتابهم الملحمي «الشاهنامة» (كتاب الملوك) ومؤلفها شاعر القرن الحادي عشر الفردوسي(920– 1025)، بالكثير من القصص والأساطير التي حيكت حول تلك الغزوات والحروب المكثفة بين أهل البادية الأوراسية وأهل المناطق الزراعية. وفي شمال نهر أوكسوس توزعت قبائل طوران[46] الرعوية الطامعة بالأراضي الممتدة جنوب النهر والتابعة للحكم الإيراني، وقد تمكّن الإيرانيون من إلهاء الطورانيين، وإبقائهم في حالة تحفز دائم لكن من دون هجوم، حتى جرى تحدي جنكيز خان وإهانته علناً من قبل إمبراطور إيران خوارزم شاه في القرن

(45) Oxus نهر أوكسوس: نهر آسيوي كان يسمى أوكسوس، وهو جيحون عند العرب. ينبع من التقاء نهري فاخش وباندج من جبل بامير في آسيا الوسطى.

(46) Turan قبائل طوران: كانت تقطن الأرض الممتدة قديماً بين توركستان شمال نهر أوكسوس (آموداريا) بمواجهة إيران.



مجوهرات مونغولية، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

الثالث عشر. فكان هجوم المغول عليهم مدمراً ومتواصلاً، ولم يحدث قط أن تراجعت صفوفهم نحو معاقلهم التي انطلقوا منها في السهوب.

سيبحث هذا الفصل في طبيعة المجتمع الرعوي في سهوب أوراسيا والتحولات التي طرأت عليه خلال حكم المغول وجنكيز خان، معطياً نظرة شاملة لطبيعة المجتمع الرعوي الذي ترعرع فيه جنكيز خان بشكل خاص، وطبيعة علاقته بجيرانه من حضر الشمال.

القبائل

يُطلق على قبائل السهوب الأوراسية بشكل عام اسم القبائل المغولية، نتيجة سيطرة جنكيز خان على جميع تلك القبائل التركو- مغولية، كما عُرفوا أحياناً باسم التتار [47].

(47) Tatar, Tartar التتار أو الترتار: أطلقت الكلمة في الأصل على واحدة من قبائل المغول. ولكن التتار تعني بشكل عام المغول حسب استخدامها الشائع في أوروبا والمصادر الغرب آسيوية منذ تشكيل =



غلايين، متحف هوهوت، منغوليا الداخلية، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

وقبل صعود جنكيز خان كانت تسمية «تتار» تطلق على جميع القبائل الرعوية المنتشرة في السهوب الأوراسية، وذلك لما تمتعوا به من سطوة على جميع القبائل الرعوية التركو - مغولية الأخرى. وحتى بعد صعود جنكيز خان وانتشار تسمية «المغول»، ظل لقب «التتار» مقترناً بتلك القبائل وغزواتها التوسعية. ففي آسيا كان إعتماد تسمية التتار محض عادة، إنما في أوروبا اقترنت كلمة «تتار» بتسمية تاتاروس التي سادت في القرون الوسطى والتي تعني جهنم أو الجحيم. وتتماشى هذه التسمية مع المفهوم السائد في أوروبا آنذاك من كون المغول أو التتار جماعات أرسلت من العالم السفلي أو من الجحيم بأمر من الشيطانين المذكورين في التوراة يأجوج ومأجوج[48] لمعاقبة الخاطئين على

= إمبراطورية جنكيز خان. وهم شعوب اكتسحت أجزاء من آسيا وأوروبا بزعامة المغول في القرن الثالث عشر. ويرجح أن التتار الأصليين جاؤوا من أواسط شرق آسيا أو من وسط سيبيريا.

(48) Gog and Magog يأجوج ومأجوج: يرد ذكرهما في الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم. (مازال اللبس قائماً حول أصل هاتين الكلمتين، حيث ورد ذكرهما في التوراة والإنجيل والقرآن على أنهما ابنا ليافث بن سيدنا نوح. وغالباً ما تجري الإشارة إليهما من قبل الأساطير والحكايات الشعبية على أنهما شخصان ينتميان لعالم الشياطين أو العمالقة). (المترجمة).

الأرض. وحتى وقت قريب ظلت آسيا الوسطى تُعرف باسم تركستان أو ترتاري. ومن المعروف أن الاتحاد القبائلي المغولي الأكثر أهمية كان يضم بشكل أساسي قبائل كل من المغول، والتتار، والنيمان، والأونغرات، والمركيت، والكرايت[49]، هذا بالإضافة إلى كثير من الفروع الثانوية الأخرى.

ولم تكن ثمة فروق مميزة بين هذه القبائل.. لا من الناحية اللغوية ولا العرقية. فالمغول من الممكن أن نجدهم في النيمان مثلاً أو في أي من هذه القبائل الأخرى. كما أن اللغة التركية، أو شكلاً منها، هي اللغة الرسمية المعتمدة من قبل جميع هذه المجموعات. وقد وردت في كتاب «التاريخ السري» إشارة إلى أن أناس تلك القبائل في السهوب الأوراسية يتكلمون بتسعة ألسن، وذلك دليل على تعدد أصولهم اللغوية(2). وفي الحقيقة إن المغول قد وجِدوا في كل أشكال الاتحادات القبائلية الأخرى، وشكّل الترك طبعاً العنصر الغالب في الاتحادات المغولية. وغدا هذا الاختلاط اللغوي والعرقي أكثر وضوحاً بعد صعود جنكيز خان وتسلمه السلطة.

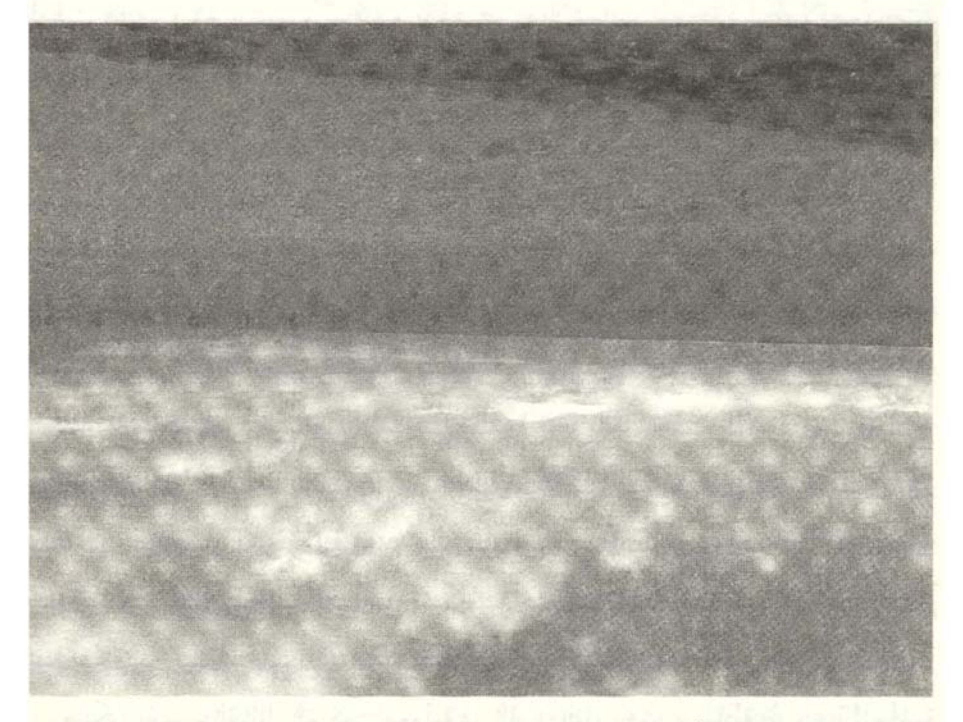
سعى جنكيز خان إلى كسر العزلة والفروق القبلية التقليدية بين القبائل، وترسيخ ولاء جديد للتركيبة القبلية أو الوحدة القبلية الجديدة. فلم يعد الدين عامل انقسام وعزلة بين القبائل، وأكد على التعايش السلمي بين الأديان المختلفة، فالشامانية(3) كانت أكثر الديانات انتشاراً وسيطرة، ولكن النسطورية أو المسيحية(4) على سبيل المثال انتشرت بين أفراد قبائل النيمان والأنغوت والماركيت. أما البوذية فعرفت بين الأوغور بشكل خاص. وقد كان التسامح الديني صفة مميزة بين جميع القبائل المغولية وبخاصة أثناء حكم جنكيز خان. فالولاء والهوية كانا مرهونين لزعيم القبيلة أو الجد الذي تفرعت منه القبيلة. واعتبرت القبيلة الوحدة الأساسية في المجتمع، وخاصة في حالة الاختلاط أو التعدد العرقي واللغوي، فكانت تلعب وقتذاك دوراً أساسياً في توحيد الأفراد، وجعل الانتماء الخالص لها، هويتهم المميزة. ويساعد النظر إلى حالات الزواج من خارج القبيلة أو تعدد الزوجات على شرح ذلك التنوع اللغوي والعرقي

(49) Kereit قبيلة الكرايت: كانت تقطن الواحات الشرقية لصحراء جوبي وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكانت هذه القبيلة من أقوى قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين واستطاعت السيطرة على معظم القبائل حولها، وقد اعتنق رئيس هذه القبيلة الديانة المسيحيةعام 398هـ/1008م.

الهائل للقبائل، إلا أنه وعلى الرغم من ذاك التنوع والتعدد الكبيرين فقد ظل أفراد القبيلة ينسبون أنفسهم لأصل واحد، مهما كان ذلك الأصل ضعيفاً أو مُتخيلاً.

الجغرافيا

رعت قبائل المغول قطعانها فوق أراضٍ واسعة عُرفت باسم السهوب الأوراسية. وتمتد تلك المنطقة من أوروبا الشرقية حتى منشوريا مروراً بسهوب جنوب روسيا: كازخستان وزونغاريا Zungharia، وإقليم سنغاي «Tsinghai» ومنغوليا. وأصل القبائل المغولية ينحدر من نجد آسيا الوسطى الواسع والممتد على ما يقارب 900 – 1500 م فوق سطح البحر والمحدد بسلاسل جبال آلتاي «Altai» و تيان شان «Tian Shan» في الغرب، وبمرتفعات خنغان العظيمة Khinghan في الشرق. وفي جنوب هذه المنطقة تتحول السهوب إلى صحراء، حيث تمتد منطقة قاحلة تتخللها بصورة متناثرة، بعض



بحيرة سارايام الواسعة عالياً في جبال «تيان شان»، مسقط رأس الشقطاي. بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

المناطق الحضرية الآهلة بالسكان.

وبالتباين مع ذلك فإن المروج والسهول المعشبة والتلال الجبلية المنخفضة في ذلك السهب الشاسع، تخلو من العمران، ولم تُستغلّ في الزراعة. فأولئك المقيمون فيها هم من الرعاة والصيادين الذين أرغمتهم الحاجة إلى الماء والكلأ على الترحال المستمر. ورغم أنهم يضيقون ذرعاً بحياة الاستقرار في مكان واحد، إلا أنهم يعانون كثيراً من قسوة تلك الهجرات المفروضة عليهم دائماً. ونتيجة لذلك اتجهت أقلية منهم لحياة الزراعة، فبدأوا بزراعة محاصيل معينة لا تحتاج إلى كثير من العناية، ويمكنهم تركها لعدة أشهر أثناء هجرتهم ثم العودة من أجل جنيها في الموسم التالي. ومع هذا بقي الغزو، أسلوب حياة وعمل يوميين بالنسبة لغالبيتهم، وذلك نتيجة لطبيعتهم النشطة، دائمة التيقظ لحركة الطبيعة والبيئة والناس من حولهم، ودائمة الحيطة من الأخطار المحدقة بهم، مما أكسبهم مهارات قتالية فطرة، جعلت الواحد منهم راعياً ومقاتلاً غازياً في الوقت ذاته. وكم ازدانت ثقافتهم بالقصص والأغنيات الممجدة لبطولاتهم، حتى ليمكننا القول: إن أولئك البدو تحولوا إلى جيش رعاة.

الترابط

بسبب الحس الاستقلالي العالي لدى المغول فإنه لم يكن هناك إلا القليل من الترابط الاجتماعي فوق مستوى القبيلة. وقد قاوم قادة القبائل عموماً أي نوع من السلطة الفوقية، إلا إذا كان تعزيز استقلاليتهم يعود عليهم بمنافع كبيرة. وكان معيار الثراء يتحدّد بما يمتلكه الفرد من أنعام كالمواشي والدواجن، وقد شكلت القدرة على حمايتها جلّ اهتمامهم. فغالباً ما يكون هدف حماية الممتلكات وتكديس المزيد منها سبباً في عقد أي معاهدة أو الدخول في أي تحالف أو اتحاد. وقد كان جنكيز خان منذ البداية خارق العزيمة والإرادة ليتمكن من تشكيل وحدة بمثل تلك القوة وذلك الترابط من مجموعة قبائل مقاتلة على تلك الدرجة الكبيرة من الاستقلالية.

ويمكن تقسيم القبائل التركو– مغولية في القرن الثاني عشر ببساطة إلى رعاة للماشية من أبقار وأغنام، وصيادين للسمك أو الطيور. ويتمركز الرعاة عادة حيث يقل صيادو



ختم نحاسي، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

الطيور شمال المنطقة المحاذية لبحيرة «بايكال» قرب منابع نهر ينيزي وامتداداً حتى مصب نهر إرتش. وغالباً ما يقوم رعاة الماشية بالصيد أيضاً، والعكس صحيح. فالصيد في الحقيقة والذي يشار إليه بتسمية «نيرج» (التي تعني الصيد والتدريب العسكري في الوقت نفسه)، يشكّل نشاطاً مهماً في حياة القبائل المغولية، حيث تنظّم لأجله حفلات صيد جماعية تستهدف حمير الوحش، والظباء، والخنازير البرية وحتى الأسود وقبائل الأعداء المنافسة، وتكون الحبال والأقواس والسهام والرماح عدتها. ويلعب نشاط الصيد هذا دوراً مهماً في تشكيل شخصيات أفراد القبيلة ونموهم وتطوير مهاراتهم القتالية كما يعد مصدراً أساسياً لتأمين غذائهم، مما يُحتّم على الجميع ممارسته وإتقانه. كما تُسخَّر كل من الجياد والمواشي والجمال للمساعدة على تأمين احتياجات القبيلة.

أما النساء فقد كنّ «يصطدن» أيضاً، بسبب ميل القبائل الشديد إلى الزواج من خارج القبيلة، مما يقود إلى نزاعات ما بين القبائل. بيد أنه في ظروف أخرى يمكن أن

يكون هذا النوع من الزواج سبباً في تعزيز التحالفات القبلية. كما ساد تقليد تعدد الزوجات لمن يقدر عليه، على الرغم من تمتع النساء بمكانة مهمة بين القبائل التركو مغولية.

وسُمح للنساء بممارسة كل أشكال الحياة وأنشطتها بما فيها القتال، وامتلكن قوة وسلطة حقيقيتين. وخير مثال على هذا الخاتون توريجين[50]، أرملة أوقطاي خان التي امتدت وصايتها على العرش ما بين 1246–1248، وكذلك أوغول غايمش، أرملة جويوك خان التي امتدت وصايتها ما بين 1248–1251. وحظيت الزوجة الأساسية مع أولادها بمكانة مرموقة. فقد اقتصرت الأحقية في تولي العرش على سلالة أولاد جنكيز خان المولودين له فقط من زوجته الأساسية بورته فوجين. وحين وفاة الأب أو الزوج تعتبر الزوجة جزءاً من ممتلكاته فتورّث للابن الأصغر، سيراً على تقليد متبع منذ القدم، ولا يشمل هذا التقليد الأم التي ولدت ذلك الابن.

السلطة

تتركز السلطة الأساسية في القبيلة بيد الخان أو زعيم القبيلة. وغالباً ما ينحدر الخان أو الزعيم من النخبة الأرستقراطية، ولكن هذا ليس بالضرورة، ويتم التوصل إلى قرار حول خلفه بعد اجتماع ومشاورات لاختيار الشخص الأفضل والأنسب من دون خضوع بالضرورة لنظام توريث الولد البكر أو الأصغر أو أي نظام وراثي آخر(5). وعادة يتم اختيار الزعيم من بين أفراد بيت الزعامة، وقد خُرِق هذا التقليد حين تسلم جنكيز خان السلطة. ولكن غالباً ما انبثقت صراعات على السلطة بسبب اتباع ذلك النظام، وأحياناً كانت تلك الصراعات – إن حدثت في القبائل الكبيرة – تقود إلى انقسامات تؤدي إلى تشكيل قبائل جديدة. وفي معظم الأوقات يتحلق حول نبلاء القبيلة أتباع وخدم وحلفاء ينحدرون من العامة ويساندون أولئك النبلاء في حال انشقاقهم وينضمون معهم إلى أي قبيلة جديدة أو تحالف جديد.

(50) Khatun الخاتون: لقب يوازي لقب خان، أطلق بداية على زوجات الخانات والأمراء والقادة المغول.

الشامان

يُعد منصب الشامان، مصدراً آخر يستقي منه النبلاء سلطتهم السياسية واستقلالهم. فالشامان هو صلة الوصل بين القبيلة وعالمها الروحي. فقدرته على استقراء المستقبل والتنبؤ بالأحداث المؤلمة ومصائر أفراد القبيلة تمنحه مكانة مميزة وسلطة كبيرة. وقد ساد الاعتقاد بأنه يمتاز أيضاً بقدرات خارقة للطبيعة وقوى السحر، إضافة إلى صفة التنبؤ التي يتمتع بها، وهو الوسيط بين أفراد القبيلة والعالم الروحي. ومهمة الشامان الأساسية هي إسداء النصح والمشورة لزعيم القبيلة. وأحياناً، يلعب دوراً مضاداً ويكون منافساً سياسياً لزعيم القبيلة، فيدّعي أحقية الحكم لنفسه.

ومن مهام الشامان اختيار الأيام الميمونة للاحتفالات العامة، والمناسبات المهمة والغزوات، كما يُناط به ترشيح القادة أو الزعماء المؤهلين للخلافة، وكذلك معالجة المرضى والعاجزين والعقم، وإبعاد الأرواح الشريرة، وتحضير الرقى والتعاويذ وفكها. لكن مهمته الأساسية تبقى منحصرة في معرفة الغيب. ويقوم بذلك من خلال قراءة وتفسير التصدعات والشقوق المتشكلة في عظم كتف خروف مذبوح، بعد حرقه بطريقة طقوسية معينة.

ورِث المغول الديانة الشامانية عن أجدادهم القدماء، الذين تزين صورهم خيام القبائل في السهوب الأوراسية. وبالإضافة إلى الأجداد تبجّل الشامانية السماء أو إله السماء «تنغري» والأرض أو آلهة الأرض إيتوجين، وبينهما تعيش أرواح متعددة، وفي هذا الحقل أو الفضاء يختص نشاط الشامان. وإجماع القبيلة على قدسية صوت الشامان، يجعله أكثر مرجعية وأهمية عند زعماء القبائل، وأحياناً يقوم الشامان بمهمة التواصل والربط بين عدة قبائل.

الخان

من المهام الأساسية التي يضطلع بها الخان، توزيع المراعي بين أفراد القبيلة، والتخطيط لأوقات الهجرات الموسمية وتحديد مسالكها، وتوزيع المهام والأدوار في أثناء ذلك. ويقوم الشامان والنبلاء الآخرون من المستشارين المقربين بتأكيد سلطة الخان

وموازنتها. وبهذا يكون للقبيلة مستويان من الإدارة: المستوى الأعلى متمثلاً في سلطة الخان التي تمارس توجيهاً ورقابه مباشرين على النبلاء، والمستوى الأدنى وهو سلطة النبلاء التي يخضع فيها لكل نبيل واحد عددٌ من أفراد القبيلة، يكون هو مسؤولاً عنهم أمام الخان.

وأحياناً تفرض مصلحة القبيلة الدخول في تحالفات أو اتحادات أو حتى طلب الحماية من قبيلة أخرى أكثر قوة، مما يفقد تلك القبيلة بعضاً من استقلاليتها، وهو ما تنفر منه جميع القبائل. ولكن الطبيعة القاسية لحياة السهوب تتطلب من القبائل الصغيرة والضعيفة التضحية باستقلاليتها، مقابل تمتعها بحماية القبائل الأقوى، ولتأمين



«بايزا» مونغولي يضمن المرور الحرّ لحامله. بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

استمرارية بقائها. وفي هذه الاتحادات أو الاندماجات بين القبائل تسود معتقدات القبيلة الأقوى، وطقوسها، وأساطيرها، ونظمها. وتصبح السلالة الملكية، أو السلالة الملكية الذهبية في حالة المغول، الرابط الموحّد بين هذه القبائل والتي تمنح الأفراد القادمين من قبيلة أخرى شعوراً بالانتماء والهوية.

بعد تسلم جنكيز خان زمام الحكم في قبيلته، سيطرت عشيرته «بورجيغد»[51](6) على العشائر والقبائل الأخرى، التي دخلت معها في تحالفات أو كانت خاضعة لها ثم أخذت اسمها كالإلخانات في إيران(7). ويجري الانضمام إلى القبيلة العظمى أو صاحبة النفوذ بثلاث طرائق: تتلخص الطريقة الأولى بقيام القبيلة ككل بإعلان ولائها المطلق، وخاصة السياسي، للقبيلة العظمى. وتتمثل الطريقة الثانية في توزيع أفراد القبيلة المغلوبة أو أسرها أو خيمها كغنائم على أفراد القبيلة العظمى، أما الثالثة فتتمثل في تسخير وحدات من المدنيين التابعين لقبائل أخرى، ووضعهم في خدمة قادة عسكريين ينتمون إلى القبيلة العظمى.

وكثيراً ما تسمح مرونة الكيان السياسي للقبائل العظمى بتوسع حجم القبيلة أو تقلصه بمرور الزمن، مع استمرار مفهوم الرعية أو الأمة كعنصر قوي لمنح الشعور بالانتماء. فعندما وصل جنكيز خان إلى ذروة السلطة في العقد الثالث من القرن الثالث عشر، خصص مجموعة من الأفراد، يُشار إليهم باسم ألوس Ulus (8) وعليهم أن يحملوا أسماء أولاده، للاهتمام بتشكيل أساس الكيان السياسي والجغرافي للإمبراطورية لعدة قرون بعد وفاته.

المحافظة على السلطة

اتخذ جنكيز خان من الغزو والمعارك أساساً تقوم عليه سلطته، ومع كل نصر جديد كان يضيف رجالاً جدداً لجيشه، وخياماً أكثر لأتباعه. ولا ينبغي الظن بأن رؤساء تلك القبائل كثيري الاعتداد باستقلاليتهم، قد خضعوا له نتيجة للخوف، بل على العكس

(51) «Borjigit» بورجيغد، أو بورجيغن: وتعرف أيضاً باسم الأسرة الذهبية أو العشيرة الذهبية، وهي عشيرة جنكيز خان المالكة. ما زال الكثير من أمراء آسيا ينحدرون منها إلى اليوم.

من ذلك فقد كان ولاؤهم وخضوعهم نابعين من قناعتهم. فقد تقاطرت القبائل للانضواء تحت سلطته، يدفعها الإيمان بأهمية الوحدة وقدرتها على قلب الموازين، ليكونوا مهاجمين بدلاً من أن يكونوا مدافعين. وقد منح جنكيز خان أتباعه الكثير من المكافآت والغنائم. فسارعت القبائل لتلبية ندائه، إيماناً منها بأنه سيحقق لها الازدهار ويعوضها بالرخاء. وهكذا فإن ولاءهم وخضوعهم له مرهونان باستمرار تحقيق الانتصارات، وبالتالي استمرار تدفق الخيرات عليهم.

وكانت طاقة القائد وروحه، تشكلان عنصراً مهماً للحفاظ على وحدة القبيلة. فموت قائد القبيلة العظمى مثلاً، وهزيمته يهددان سلطة تلك القبيلة ويفككان وحدتها. فلو حدث أن ما يبنيه قادة القبائل الصغرى من آمال في الحصول على الجاه والازدهار لم يتحقق، لانفضوا من حول زعيم القبيلة العظمى وبالتالي لانهارت الوحدة. وأحياناً تتشكل الوحدة لهدف واحد فقط، كما حدث في اتحاد قبائل السهوب، طمعاً في مواجهة الصين للحصول على الامتيازات.

وغالباً ما يتحول سيد القبيلة المهيمنة إلى ممثل رمزي لجميع القبائل الداخلة في التحالف أو الاتحاد، ويصبح الناطق الرسمي باسمها، وبعد موته يخلفه الأمير الأقوى(9) في أداء هذا الدور وبهذا تستمر وحدة القبائل المتحالفة رغم موت زعيم القبيلة العظمى. وفي حالة جنكيز خان الذي كلّما استحوذ على مزيد من السلطة، كبر حجم توقعات أتباعه وآمالهم المبنية عليه، فقد تمكنت وحدته من الاستمرار نتيجة تحقيقة تلك التوقعات والآمال، إذ لعبت شخصيته القوية دوراً مهماً فمن دونها لا توجد توقعات أو وحدة.

ولم يكن قائد السهوب بحاجة ماسة إلى الأبهة والمراسيم، فلم يكن يرفل بزينة ملوك فارس المدعوين «بشاهان شاه» (ملك الملوك)، أو أباطرة الصين. ولم يكن بحاجة إلى أن يكون مغموراً باللغز ليتمكن من حفظ عالم «متمدن». فكان الاحترام والخضوع وحتى التزلف مكافآته لأنه مصدر جلب الازدهار والثروة لاتباعه. كان عليه قيادة جيوشه نحو الحرب، وكذلك تحقيق الانتصار والعودة بهم غانماً. وكانت تلك التوقعات وتلك المكافآت حقيقية تماماً. كما كان من المحتمل جعل قبائل أخرى هدفاً لغزواته

ومغامراته العسكرية، لكن اتساع حجم القبيلة العظمى المتزايد، جعل أنظاره تتجه على الدوام نحو المجتمعات الزراعية المستقرة ومراكزها ومدنها وقوافلها الثرية.

الإمبراطورية

قامت امبراطوريات السهوب، لا اتحادات السهوب، على أكتاف رجال أشداء مليئين بالطموح. وبينما يحكم الخان الأعظم[52] إمبراطورية السهوب، يحكم الخان اتحاد السهوب. ويعد جنكيز خان من أعظم خانات السهوب، وكان يزداد عظمة وطموحاً كلّما ازدادت متطلبات أتباعه.

أحياناً لا يحصل «الخان الأعظم» على سلطته المطلقة إلا بعد خوضه حرباً داخلية شرسة، وصراعاً دموياً حاداً على الخلافة ضد منافسين من خارج القبيلة أو من داخلها. وكذلك بعد حسبان جميع المكاسب والخسائر المترتبة على صعوده أو صعود غيره لسدة الحكم. إذ تعقد جلسة الجمعية الوطنية العامة «(القوريلتاي)»، وتدعى الأطراف المتنافسة، وزعماء القبائل، والقادة العسكريون، لتقييم الوقائع وتقرير مصير المتمردين. وغالباً ما يكون الخاسر غنيمة يكافأ بها الرابح. وفي النهاية يدخل الجانب الخاسر تحت جناح القبيلة العظمى، ليضيف إلى قوتها وحاجتها إلى ايجاد مزيد من المراعي. ولكي يتمكن خان القبيلة العظمى من الحفاظ على ولاء خانات القبائل الصغرى وزعمائها، يتوجب عليه مواصلة البحث عن مغامرات ومصادر جديدة للثروة لإرضاء حاجاتهم وأطماعهم. وقد وجد جنكيز خان نفسه في هذا المأزق مع بداية القرن الثالث عشر. فالبنسبة إليه «كخان أعظم» كان أمام خيار واحد، فرض عليه توجيه أنظاره إلى ذلك المصدر الذي لا ينضب من الغنائم والخيرات: المراكز المدنية في منشوريا[53] والصين.

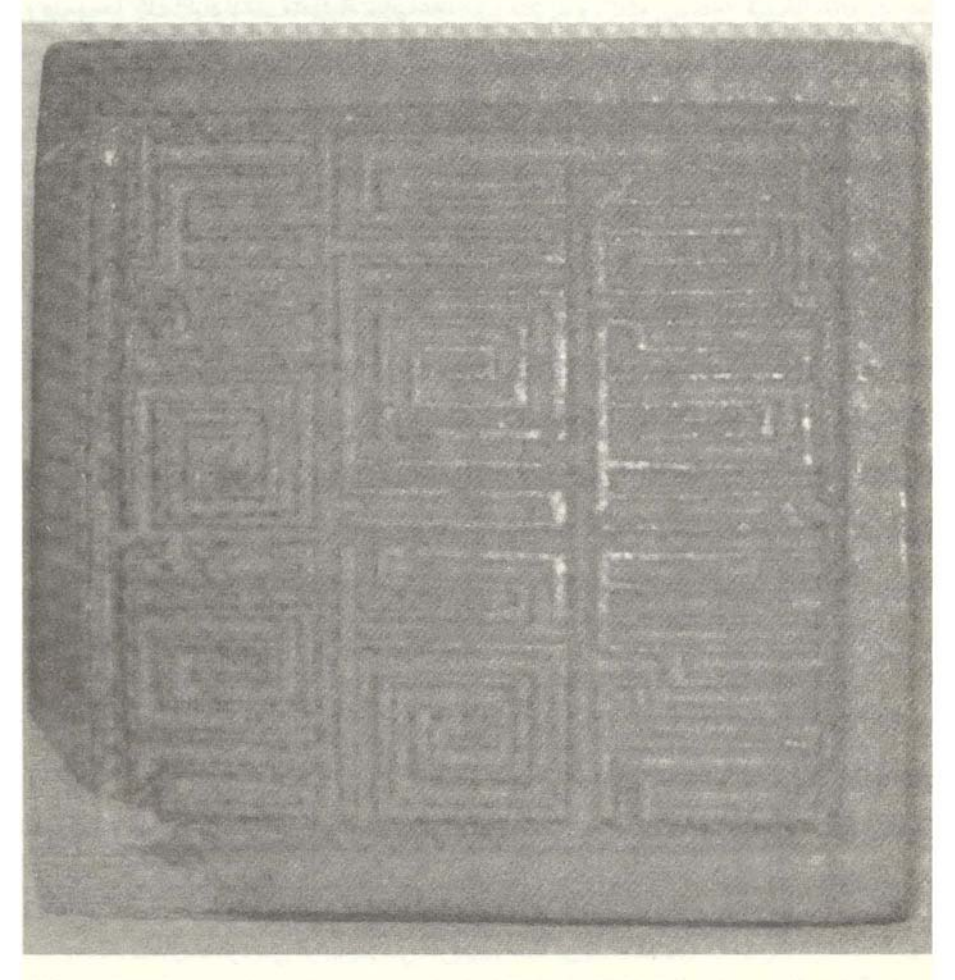
لم تسُد دائماً روح العداء في العلاقات الناشئة بين الشعوب المستقرة وغزاتها من المغول. وقد يعود هذا إلى عدم احتكار المغول السيادة المطلقة في المجالات السياسية

(52) أطلق المغول على رؤسائهم الذين يتولون أجزاء من الامبراطورية المغولية لقب خان، وهو يختلف عن لقب «خاقان» الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه «الخان الأعظم».

(53) Manchuria منشوريا: اسم تاريخي أطلق على المنطقة الجغرافية الواسعة الممتدة في شمال شرق آسيا. من المتعارف عليه أن يُشار إليها بوصفها منطقة شمال شرق الصين.

والاقتصادية والثقافية(10). ففي مجال التجارة كان يجري تبادل يعود بالمنفعة على الطرفين. وأما تقديم الحماية إلى تلك التجارة فكان من أسهل ما يمكن للقبائل المقايضة به. فمقابل المعادن لصناعة الأدوات والأسلحة، والحبوب للخبز، والأقمشة للخيام والملابس، والمعادن والأحجار الثمينة والمنسوجات المطرزة بالذهب والحرير للأسياد والنساء، قدّمت القبائل، اللحوم والصوف وجلود الحيوانات والخيول(11).

ومع أن جنكيز خان قد حظي بشرف العودة إلى حياة البساطة الأولى في أواخر حياته، بعيداً عن البذخ والبهرجة، إلا أن رغبة القواد والنبلاء الآخرين كانت تتعاظم



ختم مونغولي، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

للتنعم أكثر والانغماس في مزيد من حياة الرفاه والترف. فلم تعد خمرة القمز المعدة من تخمير حليب إناث الخيول في السهوب، قادرة على منافسة أنواع الخمور رفيعة المستوى والتي تتوافر في المدن والبلدات المجاورة، وعلى الرغم من استمرار أسياد السهول في ازدراء سكان الحواضر، إلا أن ذلك لم يحل دون تقديرهم كل ما قدّموه من ضروب الترف والرخاء.

نظام عالمي جديد

بعد اتجاه أنظار جنكيز خان إلى الخارج، لزمه اتباع نوعين من الاستراتيجية لإبقاء التماسك قائماً بين صفوف جنوده، يقوم أولهما على المحافظة على تركيب عام موحد لجميع قوى الجيش، وثانيهما على الاستعانة بسلطة الدين ورجال الدين (أو الشامانات) لصياغة وحدة وهدف مشتركين. ومع تناقص القبائل المتمردة كان الخيار الأكثر واقعية بالنسبة إليه، كي يضمن استمرار تدفق الغنائم لاشباع جيوشه الجائعة، هو القيام بغزو عظيم طويل الأمد للمناطق الزراعية.

تعود بدايات تشكيل جيش السهوب التقليدي إلى زمن الاتحاد الأول بين القبائل في آسيا الوسطى في القرن الثالث ق.م حين كان يطلق عليه اسم «سونغ - نو Hsiung– nu» أو «هانس Huns» والذي أكمله جنكيز خان وقسّم الجيوش حسب نظام الأعداد العشرية، فألّف وحدات مكوّنة من عشرة جنود، أطلق عليها اسم «هاربان Harban» ووحدات مكونة من مئة جندي سُميت جاكون Jagun وأخرى من ألف جندي سماها مينغان Minghan وعشرة آلاف سماها تومين Tumen. وكان بمقدور نظام كهذا، نظرياً، أن يحل محل النظام القبلي، إلا أن جنكيز خان نفسه عجز عن تحقيق ذلك. وكان يحدث أحياناً نتيجة تقسيم الجنود إلى وحدات من عشرة أو مئة أو ألف.. إلخ، – حيث تتلقى كل واحدة منها أوامرها من قائد عام– أن تلتف تلك الوحدات أو تنقض على سلطة القبيلة وتخرق ولاءها لها. وفي الوقت نفسه سهّل هذا النظام، دمج العناصر الخارجية أو القوى المهزومة في صُلب القبيلة. وقد ندُر في الواقع احتواء تلك الوحدات على أعداد الجنود الذين من المقرر أن يكونوا موجودين فيها، وخاصة

في الوحدات ذات الألف جندي وما فوق. إلا أنه كان من المألوف تنصيب قائد عام لمجموعة «المنغان» أو «التومين».

ومع تقلّص أهمية الولاء للقبيلة، صارت وحدة القبيلة العظمى تعتمد على قوى روحية مشتركة تسمو على المعتقدات الدينية الفردية، حيث إن الإيمان بالإله «تنغري»، إله السماء، يربط الجميع. وقد رافقت ذلك الإيمان قناعة بقدرته على منح النصر أو حجبه. وقد استُغلت في ما بعد فكرة هذا الإله الواحد الأعظم من قبل بعض أتباع المغول من المسلمين لتبرير دخولهم تحت سلطة القانون المغولي المُلحِد. لقد ساد اعتقاد بأن الإله تنغري يمنح بركته لمن يختاره من الأطراف المتحاربة على شكل نصر يقدّمه لذلك الطرف المُختار. وفي حالة سخطه وغضبه تنزل بالمغضوب عليه هزيمة نكراء. وبهذا تستمد سلطة الخان شرعيتها الروحية وقدسيتها من مدى الانتصارات التي تحققها قبيلته تحت زعامته، لأن النصر هنا يعني رضا الإله «تنغري» ومباركته. وبالإضافة إلى الشرعية المستمدة من النصر يعتمد الخان على تأييد «الشامان» الذي يتوجب عليه أن يلعب دور الوسيط بين الخان والإله «تنغري». ولذلك فمنصب الشامان على غاية الأهمية في القبيلة المغولية.

وبهذا الشكل تتحالف تركيبة الجيش «العُشرية» بدلاً من القبلية، وتأييد الإله «تنغري» الذي يسهم دور «شامان» جليل ذكي، في التمهيد له والطمع في نيله، في تهيئة زعيم القبيلة الرعوية للإغارة على المجتمعات الزراعية الغنية، وجر خيراتها نحو الخيام.

السهوب مقابل المدينة

توالت غزوات قبائل السهوب الرعوية للصين على مدار عدة قرون، لأسباب مختلفة، أحدها طبيعة هذه القبائل النهمة والطماعة، بالإضافة إلى تأثيرات المناخ المتقلبة التي حرمتهم من الرخاء والاستقرار، وتكاثر عددهم وبالتالي ازدياد احتياجاتهم، وكذلك ازدياد الضغوط الاقتصادية المترتبة على كل هذه الأسباب مجتمعة، وما جلبته تلك الضغوط من تغييرات مستمرة في حياتهم. والسبب غير المباشر يتلخص في عدم

رضا سكان السهوب عن ارتفاع مستوى الخلل التجاري لصالح الصين، الأمر الذي كان مصحوباً برغبة متواصلة للقبائل في تأكيد سيطرتها على حضارة المناطق الزراعية التي يغلب عليها الضعف. وأخيراً.. ما فرضه واقع تطوير كيان القبيلة العظمى من الحاجة الدائمة إلى الإغارة والغزو(12). وقد لعب كل من هذه الأسباب، بدرجة أو بأخرى، دوراً في تحريض الغزو المغولي للصين، ولكن السبب الأخير كان من أكثرها أهمية في جعل ذلك الغزو طويل الأمد. فمن دون غزو المناطق الزراعية لا يمكن الحفاظ على كيان القبيلة العظمى القائم على جمع شمل قبائل تسودها ثقافة المحاربين، التي أساسها الحركة، وشن الحرب بشكل دائم، والسطو والسيطرة على جيرانهم في المناطق الزراعية، فبالكاد يمكنهم تشكيل اقتصاد يرفد تلك الوحدة حتى وإن كان ضعيفاً. وما شكلته جماعة المحاربين تلك في الواقع هو مجتمع يقوم على فكرة التبعية لقائد يحقق لهم الازدهار والرخاء، من خلال الإغارة على الجيران المستقرين، فكيف إذاً حين يصل هذا المجتمع إلى ذروة قوته العسكرية، وبمحاذاته يمتد مجتمع مترهل سياسياً وعسكرياً، ومتنعم اقتصادياً؟ حينها ستكون فكرة الغزو منطقية تماماً.

فالحفاظ على تلك الوحدة يفسر لِمَ تحول نموذج غزوات القبائل الرعوية المتكررة للمناطق الزراعية، إلى غزو طويل الأمد للصين، خلال حكم جنكيز خان، فوحدها تلك الحواضر الثرية كانت قادرة على تأمين الإمدادات اللازمة لاستمرار وحدة كل ذلك العدد الهائل من القبائل، وبالتالي تثبيط همتها على الاقتتال في ما بينها.

وفي القديم كانت تلك الحواضر تختار بعضاً من القبائل المجاورة لحدودها وتدفع لها ثمناً مقابل حمايتها وحراسة حدودها، لكن حشد جنكيز خان لجميع القبائل في قوة واحدة هائلة، جعل من شراء الحماية أمراً مستحيلاً.

وعلى النقيض من الحكام السابقين للسهوب، واصل المغول النمو، وتعاظمت سيطرتهم. ففي الماضي كان نموذج غزوات القبائل للمناطق الحضرية يتمثل في الهجوم والسلب والنهب والتدمير ثم الانسحاب. ولكن الغزو المغولي الجديد شكل وجهاً آخر للعلاقة بين السهوب وتلك المناطق، وهو غالباً ما هُمش رغم أهميته، فنتيجة لدور الوسيط التجاري والثقافي الذي لعبه المغول في عهد جنكيز خان، ترسّخت العلاقة بين

الشرق والغرب، وخاصة بين الإمبراطوريتين العظميين، إيران والصين(13).

لطالما اجتاز التجار السهوب تحت سمع زعماء القبائل وبصرهم، ميسرين تبادل البضائع بين القبائل وسكان المدن، ما جعل حمايتهم وحماية بضائعهم هدفاً منشوداً من الطرفين معاً، حيث إن الاهتمام بتمتين العلاقة التجارية والروابط السياسية بين القبائل المسيطرة وحكام الصين حدّ من نزعات القبائل نحو السطو والسلب، إذ أدركوا أن توطيد علاقة ثابتة، وطويلة الأجل مع سكان المدن الصينية يمنحهم على المدى البعيد مكاسب أكثر بكثير من مجرد الفوز بغنائم الغزوات الآنية. وجنكيز خان الذي وجد أن كل تلك المناطق الزراعية والمدنية صارت في قبضته، فكر بالفعل في تسخير أولئك التجار، وخاصة المسلمين منهم، لخدمة مصلحة القبائل وسكان المدن في الوقت نفسه، وبذلك أصبحت التجارة، وما تدره الضرائب المفروضة عليها، مصدراً مهماً لدعم إمبراطوريته الصاعدة.

أهي النهاية؟

غالباً ما يثار سؤال حول اختفاء المغول المفاجئ. ولكن الحقيقة تؤكد أنهم لم يختفوا بل تعرضت ثقافتهم القبلية للتهميش نتيجة سيادة البارود[54]، ففي إيران اعتنق الإلخان غازان الإسلام عام 1295 ومنذ ذلك الحين بدأت حركة تفريس (نسبة إلى الفرس) النخبة الحاكمة، فأخذ المغول يقلدون الفرس في المأكل والمشرب وفنون الكلام والآداب العامة. كما أن القبيلة الذهبية في السهوب الروسية أخذت تخضع بشكل متزايد للسيطرة التركية، وربما كانت ولادة السلطنة العثمانية(14) نتيجة نزاع حصل بينهما. وفي الصين تعرضت أسرة «اليان» الحاكمة للانتقاد من قبل المحافظين المغول لانصرافها عن التقاليد القبلية القديمة وتبنيها طرائق ونمط حياة الصينيين، واستبدلت بأسرة «مينغ» عام (1371–1644م)، لكن آثارهم ما زالت تشهد على ذلك حتى اليوم.

(54) يؤكد أغلب المؤرخين والباحثين أن اختراع البارود قد تم في الصين في القرن التاسع للميلاد. وهناك من يزعم أنه قد تم قبل ذلك بأربعة قرون أي في القرن الخامس الميلادي، وأن سر البارود انتقل إلى العرب المسلمين زمن الخليفة هارون الرشيد الذي وعد بإطلاق سراح بعض الأسرى الصينيين لديه (نحو عام 800 م)، إذا كشفوا له سر صناعة البوصلة والبارود، فقاموا بذلك.

وأما مغول الهند الذين ساروا على خطى جدهم جنكيز خان، فقد تأثروا بتيار حكم «الراج» الإنجليزي[55] الذي دام من عام 1760 حتى عام 1947م.

تميّز جنكيز خان عن باقي حكام السهوب وقادتها العسكريين بعدة صفات سيجري التركيز عليها في فصول لاحقة، وأما هنا فأود التركيز فقط على ميزة مرتبطة بهذا الفصل وهي حنكة جنكيز خان، وقدرته الفذة على تمييز طبيعة العالم المتحضر وأهميته وقوته وتسخير معرفته تلك لخدمة أهدافه. لقد حقق جنكيز خان شهرة واسعة وسمعة عظيمة كحاكم للسهوب، وأُدرج في كتب التاريخ على أنه سيد العالم وباني إمبراطورية عالمية عظيمة، وتمكّن حفيداه قبلاي وهولاكو من حكم أعظم إمبراطوريتين في العالم: الصين وإيران.

الملكية والمغول

شكّلت كل من العلاقات العائلية، ونظام الوراثة، والسلطة، مسألة معقدة بالنسبة للقبائل التركو- مغولية في السهوب الأوراسية، وتعقدت تلك المسألة أكثر بصعود جنكيز خان لسدة الحكم. فقد سُمح للرجل المغولي باتخاذ أكثر من زوجة، بناء على قدرته المادية، مما أدى إلى نشوء تنافس بين الأبناء المولودين من زوجات مختلفات، وخاصة عندما لا تكون مكانة الزوجة محددة بوضوح كزوجة رئيسية، بالإضافة إلى ما ينشأ من تعقيدات ومنافسات جراء اتباع مبدأ تسليم القيادة للخليفة الأقوى والذي ساد بشكل واسع آنذاك، الأمر الذي يفسر قصر عمر أولئك الأمراء في الحكم أو استقرار حكمهم.

أعراف الزواج

رغم تقبل المجتمع المغولي نظام تعدد الزوجات، إلا أن معظم العائلات التزمت بزوجة واحدة. وقد شُجّع الإخلاص الزوجي وشُجب الزنا. كما زعم المؤرخون الأوائل

(55) British Raj: كلمة «راج» تعني الحكم، أي فترة الحكم البريطاني في الهند البريطانية وهي المرحلة التاريخية التي استعمرت فيها بريطانيا مناطق مثل الهند وباكستان وبنغلاديش وميانمار منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

مثل كاربيني وروبرك أن عقوبة الزنا كانت الموت. كذلك اعتبرت ممارسة الجنس مع العذراوات من دون زواج، جريمة بشعة يعاقب عليها القانون بشدة. الزوجات كان يتم شراؤهن، والزواج رابط أبدي بين الأزواج، ويستمر إلى ما بعد موتهم، وحسب هذا الإيمان توجب على الابن اتخاذ جميع زوجات أبيه بعد وفاته زوجات له، باستثناء أمه الطبيعية. وكان له حق الاختيار بين رعايتهن والاهتمام بشؤونهن فقط، أو التعامل معهن كزوجات حقيقيات، وهكذا يجري ضمان بقائهن في دائرة العائلة وعودتهن بعد موتهن إلى الأب المتوفى. فزوجة هولاكو خان الخاتون دوكوز Dokus Khatun، التي ورثها عن أبيه بعد موته، أصبحت زوجته الرئيسة، وجلس أولادها على عرش «الخانات» في إيران حتى عام 1335. وقد كانت آخر وأصغر زوجات أبيه تولوي Tolui[56] وقد شيع أن زواجهما لم يكن مكتملاً قبل وفاته. وحسب رابروك فإن المغول يستنكرون الزواج من الأعمام والعمات والأخوال والخالات أو أبناء العمومة والخالات المباشرين، لكنهم يسمحون بالزواج من أختين في الوقت نفسه أو على التوالي.

أما جنكيز خان فقد كان له عدد لا يحصى من الزوجات. وبعض الإحصائيات تشير إلى أن 16 مليوناً من ذريته يسعون فوق الأرض حالياً، ناشرين جيناته في أماكن لم تطرقها حوافر خيل المغول قط.

عند إتمام عقد الزواج يتولى الأب المهمة، في حين تتوارى الفتاة مختبئة عن عيني زوج المستقبل عند بعض الأقرباء. وحينئذ يعلن الأب خبر اختفاء ابنته، طالباً من الخطيب البحث عنها وإذا وجدها فإنه يمكنه أخذها. فيمتطي الخطيب جواده، وينطلق بصحبة أصدقائه بحثاً عن خطيبته. وحين يعثر عليها يتظاهر بالعنف ويجبرها على الركوب معه. وبينما يقيم أهلها ما يشبه مراسم العزاء حزناً على خسارتها، يقيم أهل الخطيب احتفالاً بقدومها.

المرونة

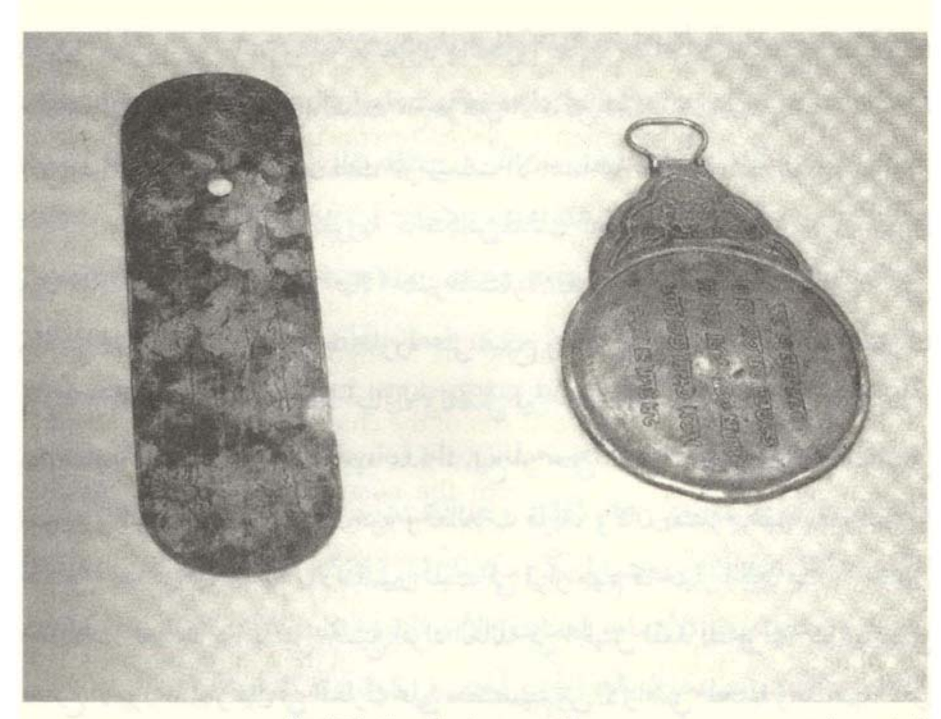
وضع المغول العديد من القوانين، لتنظيم حياتهم الاجتماعية، وتحديد حقوق الميراث، ولكن هذه القوانين كانت مرنة للغاية. فبعد خروج المغول من مضاربهم

(56) «Tolui» تولوي خان: وهو الابن الأصغر لجنكيز خان.

القبلية الأولى في السهوب، تشعبوا وانتشروا على مساحات واسعة، فتطورت مؤسساتهم الاجتماعية، وتأقلمت مع قوانين الأماكن الجديدة. ويمكن لمس التغيرات التي طرأت عليهم من خلال تلك المؤسسات الاجتماعية ذاتها، ونظام الوراثة، وتولي الحكم. وقد انبثقت الإمبراطورية كانعكاس لذلك التغير الذي نجم عن تحول المغول من حياة الرعي والبداوة إلى حياة الحضر المستقرة. ففي حين كانت مجموعة الخيام التي تشكل قبيلة واحدة، تتوزع متجاورة على سفح وادٍ أو تلة واحدة، صارت مضارب القبيلة الواحدة تمتد على عدة أميال، وتفصل بين حدود القبائل آلاف الأميال أيضاً، إذ يستلزم التواصل بين أخ وأخيه عدة أسابيع أو حتى أشهر. ومع ذلك ظل التواصل قائماً، وظلت الأواصر بين الأخوة والعائلات قوية، وكان يستلزم عقد «قوريلتاي» حضور جميع أفراد العائلة الأساسيين للبت في قرار مهم كاختيار الخان مثلاً. وخلال الحملات العسكرية، يتمثّل جميع أفراد العائلة في الجيش المعد للتحرك، كما يحصل جميع الأمراء المشاركين في المعارك على حصصهم من الأراضي المحتلة والغنائم. أُطلق على آخر حملة عسكرية مغولية اسم تاماه Tamma وهو اسم يشير إلى مجموعة الأمراء الذين شاركوا فيها، تحت قيادة هولاكو حين توجهوا إلى احتلال إيران عام 1250م. من بعدها عصفت رياح الانشقاق والضعف بالإمبراطورية المغولية فلم يكن بالإمكان تشكيل حملة منظمة بتلك الصورة مرة أخرى.

الوحدة القبلية

كان الناس مقسمين إلى عشائر وقبائل، وإن وجبت الإشارة إلى أن هذه المؤسسات فضفاضة التنظيم ولا تقتصر على رابطة الدم فقط، حيث إن النظرية القائلة إن جميع قبائل المغول مترابطة بقرابة الدم، أدت إلى الكثير من ادعاءات النسب غير الشرعية والكثير من سوء الفهم. معظم المجموعات القبلية تدعي اشتراكها في الإرث والنسب، إنما من المسلم به الآن أن ذلك الايمان كان مجرد وسيلة سياسية لتوحيد القبائل، وربطها بهدف واحد، ولا أساس له على أرض الواقع. ومما ساعد جنكيز خان على إعادة تركيب تلك القبائل في مجتمع موحد، وفرض نظمه الخاصة وأوامره على شعوب تلك



بايزا مونغولية من متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

القبائل السهوبية، هو تفككها. وعندما أعاد تنظيمها في وحدات، هي مزيج من عدة قبائل، شجّع على طاعة الأوامر العسكرية والإدانة بالولاء للقبيلة الذهبية، مع الاحتفاظ بالولاء الأساسي لنفسه.

ولم تكن تلك القبائل التركو – مغولية لا لغوياً ولا عرقياً ولا دينياً لتشكل كيانات متحدة لولا جهود جنكيز خان العظيمة. فقد جعل جنكيز خان من تلك الوحدة مصدراً للازدهار وجلب الثروات، وهو ما دفع إلى مزيد من الوحدة في الوقت نفسه. وداخل تلك القبائل شكلت العشائر تفرعات، إلا أنّه حتى على هذا المستوى لم تكن رابطة الدم بالضرورة تأخذ الصدارة، وكان نظام «الأخوة بالقسم» سائداً، حيث كان يجري تبادل الدم مصحوباً بالقسم على الإخلاص والولاء من قبل صديقين ليصبحا أخوين أو «أندا» Anda كما في حالة جنكيز خان أو تيموجين وصديق طفولته «تجاموكا» Jamuqa المذكورة في كتاب «التاريخ السري للمغول». وكانت علاقة «الأخوة بالقسم» أو «الأندا» معادلة لعلاقة «الأخوة بالدم» أو الأخوة الحقيقية، مع

فارق أن الأولى اختيارية، ولكنها تماماً مثل الأخوة الحقيقية يمكن الاعتماد عليها في الملمات، والمواقف الحرجة كما في طلب تيموجين من أخ أبيه بالقسم أو «بالأندا» وهو طغرل زعيم قبيلة «الكراييت» في أن يلبي نداء الأخوة، ويهرع لمساعدة «ابن أخيه بالقسم».

وهناك علاقة اختيارية أخرى وهي منصب «النوكر» Noker أو المساعد، الذي أصبحت مهامه أكثر وضوحاً بمرور الزمن، حتى صار يعني مؤخراً الخادم الشخصي. وقد بدأ الكثيرون من قادة جنكيز خان العسكريين حياتهم المهنية باحتلالهم هذا المنصب فكانوا من الخدم الذين يرافقونه شخصياً ويعملون على خدمته.

وأما انفتاح العشيرة أو تحول تركيبتها، فقد تم نتيجة لتعدد الزوجات، وتحديداً الزواج من خارج العشيرة أو القبيلة. وإحدى نتائج الحروب المستمرة التي طبعت مجتمع ما قبل جنكيز خان بطابعها الخاص، كانت دمج القبائل المهزومة من قبل القادة المنتصرين وتوزيع رجالها ونسائها كخدم أو كجوار، إذ كان يجري تأقلم هؤلاء القادمين الجدد، وانصهارهم في صلب القبيلة، ليساهموا في ما بعد في تغيير تركيبتها من خلال ما جلبوه معهم من عرق جديد، ولغة ودين مختلفين.

الميراث

تعتمد تقاليد الميراث عند المغول على الكثير من المرونة أيضاً. فخيم الأب وممتلكاته بما فيها الزوجات (باستثناء الأم الطبيعية طبعاً) والعبيد تُورث للابن الأصغر من زوجة الأب الرئيسية. ويقوم الابن الأكبر بالوصاية والإشراف ويرث أتباع أبيه، وأراضيه البعيدة عن مضارب العائلة. بالنسبة لعائلة جنكيز خان جرى تطبيق هذا التقليد على ابنه البكر «جوتشي» أو «جوجي»، الذي ورث جميع الأراضي الواقعة في الغرب، وتلك تشمل كل بقعة وصلت إليها حوافر خيل المغول. في حين ورث الابن الآخر «تولوي» جميع السهوب المغولية الأخرى. لكن عندما توفي «جوتشي» قبيل وفاة أبيه بقليل، حل مكانه أخوه الأصغر «باتو» في وراثة تلك الأرض ومنصب الأب.

وعلى الرغم من وجود التقاليد، إلا أنها تتسم بالكثير من المرونة والقابلية للتأقلم.

فمن الملاحظ مثلاً أن زوجة جنكيز خان الرئيسة بورته حافظت على مكانتها المميزة رغم أنها خطفت في بداية زواجهما. فلم يكن يجري التأكيد كثيراً على العذرية، رغم أن الزنا كان أمراً محرماً وممنوعاً، ولم تشكل مسألة الخلاف حول نسب ابنها البكر جوتشي عائقاً في طريقه نحو تسلم الحكم، وقد دعمه جنكيز خان دائماً وأكد على ضرورة احترامه كابن بكر لحاكم إمبراطورية.

وتميزت تقاليد تسلم الخلافة بالكثير من المرونة أيضاً، متأثرة بمبدأ تسليم الحكم للأقوى والأقدر. فخلال الجدل الذي نشب بعد وفاة جنكيز خان حول تسلم ابنه أوقطاي خان مراسيم الحكم (حكم 1229–1241م)، جرى التحفظ، أولاً لأنه حسب تقاليد المغول يجب إعطاء أحقية الوراثة للابن الأصغر من الزوجة الرئيسية أو من البيت الأساسي للزوج(15)، وثانياً لأن له إخوة وعمومة أكبر تعطيهم أسرهم أحقية الوراثة فيها، وفي تلك الحالة اتبع قرار جنكيز خان نفسه، أما في القضايا التي تلت وفاته فصار يتبع تقليد منح الخلافة للأقوى بين المتنافسين. وفي هذه الحالة يعقد شيوخ العشائر جلسة يقررون فيها من سيظفر بالخلافة. وغالباً ما يقود الاختلاف في وجهات النظر إلى اندلاع حرب أهلية تؤدي أحياناً إلى تفكك القبيلة. كما أن الحيرة في اتباع نظام توريث الابن الأصغر من الأسرة الرئيسية مباشرة، أم نظام توريث الأكبر في العائلة كالأعمام أو الأخوة، الخ، كانت تؤدي إلى نزاعات لم يكن بالإمكان تجنبها، مما سبب في مراحل متأخرة تفكك الإمبراطورية المغولية. وقد عانت أسرة «الإلخانات» في إيران (1256–1335م) من ورطة الاختيار تلك، فكان زمام الخلافة يتذبذب بين النظامين في الوقت نفسه، مسبباً الكثير من العنف والمكائد وإراقة الدماء.

وهكذا لعبت المَلَكية دوراً مهماً في حياة المجتمع المغولي. وكانت تشكل مؤسسة مرنة أكثر بكثير مما يدركه الأفراد المنضوون تحت لوائها، وعلى الرغم من أهمية رابطة الدم إلا أن إمكانية التحايل أو الالتفاف عليها كانت دائماً متوفرة، فتتغير العلاقات القبلية أو العشائرية من دون إثارة الكثير من الشكوك والتناقضات. وما صعود جنكيز خان لسدة الحكم إلا خير مثال على هذا، فقد استطاع تذويب روابط الدم القبلية، وسبكها في قالب واحد لتشكيل نصب الإمبراطورية المغولية.

الحواشي

1. للتعمق أكثر في هذا البحث الذي يتناوله هذا الفصل يرجى العودة إلى بحث جوزيف فلتشر «المغول: من منظور اجتماعي وبيئي»، مجلة هارفرد للدراسات الآسيوية، 46 (1986) ص. 11– 50.
2. «تاريخ جنكيز خان وحياته» ترجمة أرتونج أونن. « الحياة السرية للمغول» (ليدن، هولندا: بريل، 1990)، ص. 129.
3. Shamanism الشامانية: ديانة تقوم على الاعتقاد بوجود أرواح خيرة وأخرى شريرة، تتم السيطرة عليها من قبل الكاهن أو الشامان.
4. Nestorian Christianity النسطورية المسيحية: مذهب يؤمن بأن المسيح يتألف من قسمين: واحد إلهي والآخر بشري، وينكر أصحابه قداسة السيدة مريم العذراء. تقابلها اليوم نسطورية الكنيسة العراقية.
5. Primogeniture أي توريث الابن البكر، تقابلها كلمة Ultimogeniture أي توريث الابن الأصغر.
6. أونن، ص. 102.
7. لاحظ أن إل «Il» المضافة إلى كلمة «خانات «Khanat» كما في إلخانات إيران «Il-Khanat» (1256–1335)، تعني أولئك الذين اعترفوا بسلطة الخان الأعظم في العاصمة قره قورم، على عكس كلمة «بولخا» «Bulgha» التي تعني الذين رفضوا الخضوع.
8. Ulus ألوس: تشير إلى مجموعة من الناس أو القبائل التي يجري اختيار الأمراء من بين أفرادها، وتعني أيضاً الأرض.
9. Tanistry تنستري : كلمة كان يتم إطلاقها حين تؤول الخلافة في القبيلة للأمير الأقوى، وغالباً يجري نزال بين المتنافسين لتحديد الأقوى.
10. هذا يعني أنهم لم يكونوا مستقلين كلياً، بل كانوا معتمدين في أمور كثيرة على جيرانهم المتوطنين. وإذا أردنا استخدام عبارة أناتولي.م. خازانوف نقول بكلمة أخرى: «لم يكن المغول مستقلين تماماً بل تابعين لجيرانهم المستقرين ومعتمدين

عليهم في كثير من الأمور» (القبائل والعالم الخارجي) ماديسون، منشورات جامعة وسكونسن، 1994، ص. 69—84.

11. حول حب المغول للمطرزات الراقية ومتجارتهم بها انظر توماس آلسن «السلع والتجارة في الإمبراطورية المغولية: تاريخ ثقافي للمنسوجات الإسلامية» (كيمبردج، منشورات جامعة كيمبردج، 1997).

12. من كتاب تشي تشنغ سياو «Ch i ch ing Hsiao» وردت في كتاب فلتشر «المغول»، ص. 32.

13. انظر دراسة «توماس أولسين الرائعة حول هذا الموضوع في «الثقافة والغزو في أوراسيا المغولية» (كمبريدج. منشورات جامعة كمبريدج، 1991).

14. مازال الجدال قائماً حول هذه النقطة وقد ناقشها العالم بالتاريخ العثماني «كولن هايود» في بحثه «أيسد الثقب الأسود؟ انبثاق البيثينيون الأتامانات (1298—1304)».) يني توركي درغيزي، 1999) ص. 1—10.

15. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان، (منشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة منشستر، 1997)، ص. 186.

الفصل الثالث

المظهر

المرويات الأولى

حملت المرويات الأولى عن المغول، والتي وصلت إلى أوروبا والشرق الأوسط في بدايات القرن الثالث عشر، أوصافاً مفزعة للقبائل البربرية، التتارية، أو أهل الجحيم. ولكن غالبية تلك المرويات خلطت الحقيقة بالخيال، وكانت بعيدة عن الواقع، وحافلة بحكايات وقصص مخلوقات عجيبة، وأرض غرائبية. بيد أن الرعب الحقيقي بدأ يتسرب إلى النفوس بوصول أخبار الاحتلال التتاري. وعلى الرغم من أن الأخبار والأوصاف اللاحقة في القرن الثالث عشر، كانت أقرب إلى الواقع، إلا أنه بقيت للتقارير السابقة عليها أهميتها الكبيرة، وذلك لقدرتها على تصوير ذلك الانطباع العاطفي الذي تركته قبائل المغول في المجتمعات الأوروبية والعالم الإسلامي.

ويصف المؤرخ الأرمني كيراكوس المغول بأنهم «بشعون، ومن المخيف النظر إليهم» ويعلق على قلة كثافة الشعر في ذقونهم ويصف عيونهم بأنها «ضيقة وسريعة الومض»، وأصواتهم بأنها «حادة ثاقبة وعالية النغمة»، وقد لاحظ أنهم «يعمرون طويلاً وشديدو التحمل». وأما معاصره وزميله المسيحي الأرمني غريغور- من مقاطعة «آكانس»- فيصفهم بأسلوب أكثر زخرفة بعد أن يلقبهم بـ «أُمّة رُماة السهام»، فيقول: «النظر إليهم مخيف حتى أن اللسان ليعجز عن وصفهم، فرؤوسهم ضخمة كرؤوس بقر الوحش، وعيونهم ضيقة كعيون طيور حديثة الولادة، وأما الأنف فأفطس كأنف القطة، والخطم



خيّال مغولي، متحف زي يان، بموافقة «لان تيان لانج للنشر»

ناتئ كخطم كلب، وخصرهم نحيل كنملة، وأرجلهم قصيرة كخنزير، ووجوههم جرداء بالولادة، وهم أقوياء كالأسود، ولهم أصوات حادة ثاقبة كالنسور»(1).

والشاعر الفارسي أمير خسرو (1253–1324) يصف عدة مئات من الأسرى المغول على يد الجيش المسلم في بلاد السند[57] حيث كانت سلطنة دلهي[58] بمثابة ملاذ آمن

(57) السند: أحد أقاليم باكستان الأربعة. عاصمة الإقليم مدينة كراتشي التي تعد أكبر مدن البلاد. يجاور الإقليم من الشمال والغرب إقليم بلوشستان، ويجاوره أيضاً من الشمال إقليم البنجاب، أما من الشرق فتجاوره الهند، ومن الجنوب يطل الإقليم على بحر العرب.

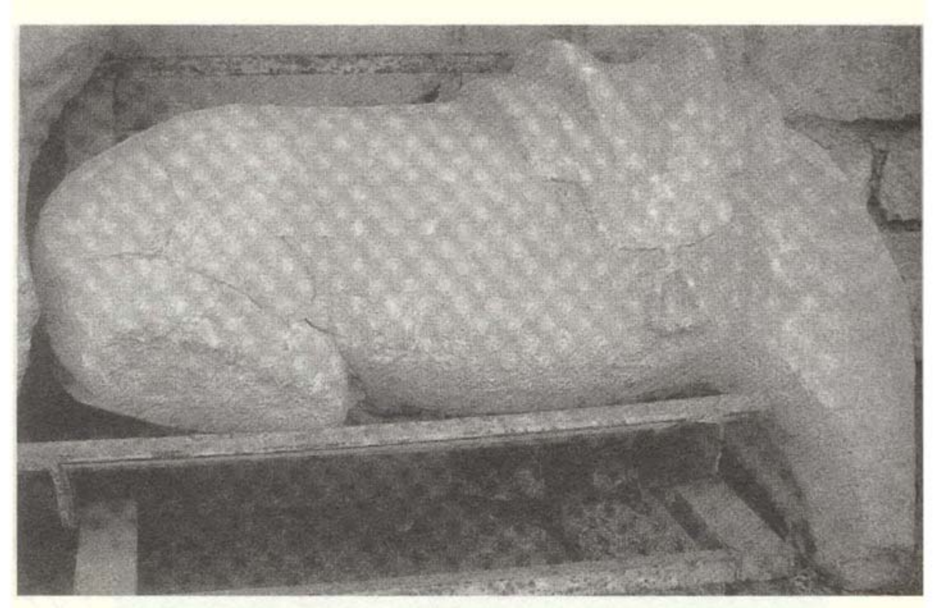
(58) Delhi Sultanate سلطنة دلهي: هي دولة إسلامية حكمت معظم الهند (1206–1526) أسسها محمد غور القائد الأفغاني الذي استولى على دلهي 1192 وأرسل محمد أحد قواده القديرين قطب الدين أيبك وهو من الرقيق الأتراك في جولة لغزو شمال الهند وفي عام 1206 أصبح قطب الدين سلطاناً على دلهي وأسس أسرة حاكمة فيها. وقد قضى تيمورلنك على تلك الدولة عام 1398.



نقوش موجودة في باكو، تعود إلى بدايات القرن الثالث عشر، بموافقة «لان تيان يانج للنشر»

لإيواء طالبي اللجوء السياسي من الحكم المغولي، فيقول: «عيونهم شديدة الضيق وثاقبة النظر حتى ليخيل إليك أن بمقدورها ثقب إناء من نحاس. وأما رائحتهم فنتنة وتثير الاشمئزاز أكثر من ألوان جلودهم.. رؤوسهم تلتصق مباشرة بأكتافهم كأنهم بلا رقاب، وخدودهم تشبه قِرباً من جلود مغطاة بالتجاعيد والعُقد. أنوفهم مفلطحة تمتد من الفك إلى الفك، وفتحاتها مثل عنب عطن، يخرج منها شعر طويل ليصل حتى الشفتين. شواربهم شديدة الطول ولكن لحاهم وخدودهم شبه جرداء. صدورهم مائلة إلى السواد، ومليئة بالقمل والصيبان التي تبدو مثل سمسم ينمو في تربة سيئة، والحقيقة أن تلك الحشرات تسعى في كل منطقة من أبدانهم. جلودهم محبّبة مثل جلود غير مدبوغة تصلح فقط لأن تكون أحذية»(2).

وأحد الرهبان من مبعوثي البابوية، الذي رافق فريق جمع الأخبار للحملة التبشيرية بقيادة الراهب جيوفاني دي بلانو كاربيني، والتي وصلت إلى عاصمة المغول قره قورم عام (1245–1247) يقدّم وصفاً أكثر موضوعية حين يقول: «يميل قوام المغول إلى القِصر والنحافة، وذلك يعود ربما إلى تناولهم حليب إناث الخيل، الذي لا يُكسبهم سمنة، وكذلك إلى نمط حياتهم الشاق. كما أن لهم وجوهاً عريضة ذات خدود محددة ناتئة،



حصان من باكو، بدايات القرن الثالث عشر، بموافقة «لان تيان يانج للنشر»

وفوق ذلك يحلقون قمة رؤوسهم على شكل دائري، كما يفعل رهباننا، ومن تحتها يحلقون شريطاً من الشعر بعرض ثلاث أصابع يصل من الأذن إلى الأذن. وفوق جبينهم تتهدل شعورهم مثل شراريب على شكل هلالات تصل حتى حواجبهم، ثم يجمعون ما تبقى من شعرهم ويجدلونه مثل المسلمين»(3).

أما الراهب «وليام» من مقاطعة «روبرك» «William of Rubruck» فقد وصل في رحلاته إلى بلاط مونكو خان بين عامي 1253– 1255 ثم أرسل لملك فرنسا لويس الرابع بعد عودته ملخصاً كاملاً عن رحلته تلك.

وقد وصف شعر الرأس عند المغول بطريقة مشابهة، إلا أنه ذكر أن الرقعة الحليقة في قمة الرأس تأخذ شكلاً مربعاً وليس دائرياً. وذكر أيضاً أن الجبهة والصدغين حليقة مع ترك خصلة من شعر غرّة الرأس متدلية نحو الحاجبين. وأما شعر قفا الرأس فيقسم إلى جديلتين تتدليان من خلف الأذنين. وقد لاحظ أن الفتيات بعد زفافهن بيوم يحلقن رؤوسهن من منتصفها وحتى الجبين. ولدهشته ذكر أن لدى المغول عادة غريبة للاعتناء بنظافة شعرهم وهي شرب كمية من الماء ثم وضعها في راحة كفهم لغسل الشعر بها.



باكو، بديدات القرن الثالث عشر، بموافقة لان تيان لانغ

ورغم أن الراهب وليام كان أقل تعاطفاً من الآخرين في وصفه، إلا أنه على عكسهم أتى على ذكر النساء. فقال يصفهن: «النساء سمينات بشكل ملفت للانتباه. وكلّما صغرت أنوفهن وبالكاد كانت ظاهرة، أُعتبرن أكثر حسناً. ويقمن بتشويه وجوههن بطليها وتلوينها»(4). ووصف في ما بعد زوجة أحد القادة المغول وكان اسمها سكاكاتاي التي وجدها منفرة بشكل خاص، فلكي تحسّن شكل أنفها وتكسبه أكبر قدر من الملاسة (وهي علامة جمال كما سبق وأن ذكرنا) لجأت إلى بتر عَظْمة أنفها فحولته إلى مجرد ثقبين قبيحين فوق شفتها، والأسوأ من ذلك أنها قامت بطلاء تلك المنطقة المشوهة بالإضافة إلى حاجبيها بمرهم أسود. وقد استنتج قائلاً: «لقد بدت قبيحة بكل معنى الكلمة».



رسوم من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين

التحول

لم تحمل التقارير الأولى عن مظهر المغول، الكثير من المديح والثناء، ومع ذلك صاحبت رغبتهم في الاحتلال والسيادة منذ البداية نزعة قوية لتدليل أنفسهم والتنعم بأشكال الرفاه القادمة من العوالم التي احتلوها. وقد ذكر المؤرخ الإيراني رشيد الدين ما قاله جنكيز خان في هذا المجال: «زوجاتي وزوجات أبنائي وبناتي، يشرقن باللون الأحمر كنار مشتعلة، وجُل مطمحي هو إسعادهن. أن أكسوهن بالأقمشة المطرزة، وبالذهب من رؤوسهن حتى كعوبهن، وأن أجعلهن يمتطين أحسن الخيل.. أن أسقيهن



خياطة أيغورية مع قماشة من الحرير التقليدي، كشغر، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

ماءً عذباً، وأوفر لحيواناتهن أخصب المروج، وأزيل الأشواك وكل ما هو مؤذٍ من دروبهن وطرقاتهن، وأمنع الأعشاب الضارة من النمو في مراعيهن»(5).

فجنكيز خان تطلع لأن يحيا شعبه حياة مختلفة، بعيدة عن حياة التقشف والخشونة التي كابدها أثناء طفولته في السهوب. كما رغب في تحسين صورة شعبه وجعلها بخلاف ما كانت عليه في الماضي. فورد على لسانه قوله: «في الزمن القادم، سترتدي ذريتنا أقمشة مطرزة بالذهب، وتأكل أطعمة فاخرة دسمة.. ستمتطي خيولاً أصيلة قوية، وتستمتع بالنساء الجميلات»(6).

قام المغول ممن حكموا أواخر القرن الثالث عشر لتحسين صورتهم ومكانتهم الجديدة، وخاصة تلك التي تؤكد على وصفهم بالبرابرة المتوحشين، بزخرفة، ليس أنفسهم فحسب، وإنما منازلهم، بالأقمشة والمنسوجات المطرزة بالذهب والأحجار الثمينة. فصارت فخامة خيامهم الشبيهة بالقصور أساطير يضرب بها المثل، وغدوا بمظهرهم الخارجي، ومظهر بلاطاتهم على النقيض من صورتهم في بدايات خروجهم

من السهوب.

جرى تصوير هذا التحول في مظهر المغول من مجرد أفظاظ متوحشين يجوبون السهوب إلى سادة يتنعمون بالرفاه في إمبراطوريتهم الصينية، في مدونة المؤرخ الإنجليزي ماثيو باريس، وكذلك القس أودوريك البوردونوني في إيطاليا Odoric of Pordenone المتوفى عام 1331، والذي أوصلته أسفاره إلى بلاط سلالة «اليان» المغولية في الصين (1260– 1370) وقد كتب واصفاً رحلة الخان بين قصري الشتاء والصيف: «كان الملك يسافر على عربة ذات عجلتين مصنوعتين من الخشب المعطر، والذهب. تغطيها جلود ثمينة نادرة، ومزخرفة بالعديد من الأحجار الثمينة. كما كانت تجرها أربعة فيلة وأربعة خيول رائعة، وتزينها كسوة ثمينة. وكان الملك يحمل معه اثني عشر صقراً من صقور الجير[59] وكلّما رأى من مقعده في الداخل طائراً يحلق بمحاذاته يطلق عليه صقوره الجارحة»(7).

المغول والملابس

قدّم القس والرحالة والمبشر «وليام» ابن مقاطعة روبرك تقريراً مطولاً للملك الفرنسي لويس الرابع، وصف فيه عادات المغول وملابسهم، وذلك بعد مراقبتهم عن كثب خلال رحلته الملحمية ما بين عامي 1253 و1255. وقد ركز فيه على التغييرات المهمة التي حدثت بعدما شب جنكيز خان، إذ ازداد المغول ثراءً، وبدأوا يتزينون بالنفائس التي يقتنونها من كل بقعة يصل زحفهم إليها. كتب في تقريره يقول:

> «يرتدون صيفاً ملابس مزخرفة بالحرير والذهب، يجلبونها من كاثاي ومناطق أخرى في الشرق، ومن بلاد فارس ومناطق أخرى في الغرب. من روسكيا وموكسيل ومن بلغاريا الكبرى وباسكاتير التي هي هنغاريا الكبرى ومن كركيس، وكلها بلاد تقع إلى الشمال من إمبراطوريتهم، عامرة بالغابات وخاضعة لسلطتهم، يُحضرون منها مختلف أنواع الفراء الثمينة والتي لم يسبق لي رؤيتها في أنحاء بلادنا. يجعلون منها معاطف تقيهم برد الشتاء، ويرتدون

(59) Gerfalacons صقور الجير أو السنقر: وهي صقور تعيش في الأماكن الباردة التي تحيط بالقطب الشمالي بشكل طبيعي وتتكاثر فيها وتعتبر أضخم فصائل الصقور.

معطفين منها في الوقت نفسه: واحد فراؤه نحو الداخل، والآخر للخارج ليحميهم من لسع الرياح والثلوج، وهذا الأخير يكون عادة من جلود الذئاب أو الثعالب، في حين يرتدون في منازلهم معاطف خفيفة أكثر.

وأما فقراؤهم فيصنعون معاطفهم من جلود الكلاب والجِداء. عندما يبغون صيد حيوان مفترس ما، يتجمعون بأعداد كبيرة ويتحلّقون حول المنطقة التي يتوقعون وجود الطريدة فيها، وبالتدريج يبدأون بالاقتراب من بعضهم بعضاً حتى يحبسوا الطريدة داخل دائرة يشكّلونها بأجسادهم، ثم يُطلقون عليها سهامهم. ومن الفراء يصنعون كذلك السراويل القصيرة. الأغنياء منهم يبطنون ملابسهم بحرير فريد في نعومته وطراوته وخفته وقدرته على منحهم الدفء. أما الفقراء فيبطنون ملابسهم بالقطن أو الصوف. ومن ذلك الصوف يصنعون أيضاً لباداً لتغطية بيوتهم ومخازنهم، وكذلك لتنجيد فرش نومهم. ومن الصوف المجدول مع شعر الخيل يصنعون حبالهم، وكذلك اللباد للأغطية وسروج الخيل والمعاطف المطرية.

يحلق الرجال مربعاً في قمة رؤوسهم، ومن الزاوية الأمامية لهذا المربع يتابعون الحلاقة



رسم منغولي في حصن باكو يعود إلى عام 1222.. بموافقة لان تيان يانغ للنشر

حتى الصدغين. ويحلقون أيضاً الصدغين، وقفا الرأس حتى حفرة قوس الرقبة، ويحلقون الجبين حتى منتصف الرأس، حيث يتركون خصلة متدلية من هناك نحو الحاجبين. كما كانوا يتركون الشعر غير حليق عند جانبي الرأس ويجعلونه جدائل يصالبونها بين الأذنين. وأما النساء فلا يختلف زيهن كثيراً عن الرجال باستثناء أن ملابسهن أطول. وفي اليوم الذي يتلو زفاف المرأة، تقوم بحلق رأسها من الجبين حتى منتصف الرأس. كما ترتدي ثوباً فضفاضاً كأثواب الراهبات. وبهذا تختلف المرأة التتارية عن نظيرتها التركية التي تعقد طرف ثوبها الأيسر، في حين تعقد التتارية طرفه الأيمن. كما ترتدي النساء غطاء للرأس يسمى بوكا، وهو مثل طربوش يُصنع من أي مادة خفيفة تتوافر لديهن، وغالباً ما كان يصنع من لحاء الشجر، وهو بارتفاع ذراع أو أكثر ومربع كتاج العمود، ويغطينه بحرير ثمين وهو مجوف من الداخل. وعلى رأس العمود أو المربع كن يضعن جديلة من الريش أو من الخيزران الخفيف بارتفاع ذراع أو أكثر أيضاً. يقمن بتزيين هذه الجديلة بريش من ذيل الطاووس والبط البري والأحجار الثمينة. وكانت النساء الثريات يرتدين شيئاً مشابها لهذا فوق رؤوسهن، يثبتنه على رؤوسهن من خلال فتحة في أعلاه لهذا الغرض، ويضعن شعرهن في داخله، بعد أن يعقدنه فوق رؤوسهن كأنه عقدة كبيرة واحدة. وكن يعقدن أيضا البوكا تحت ذقونهن. مما يجعلهن من بعيد كالرجال، إذ تبدو البوكا مثل خوذة والجديلة فوقها مثل رمح. وكن يربطن أثوابهن عند الخصر بنطاق من حرير أزرق، وواحد آخر يعقدنه فوق الصدر كما كن يربطن قطعة قماش أبيض تتدلى من تحت العينين حتى الصدر. وهن ممتلآت القوام بشكل جميل، وكلّما قل حجم أنوفهن زاد حسنهن، ويقمن بتشويه أنفسهن بطلاء وجوههن. ومن المستحيل أن يلدن أطفالهن وهن مستلقيات في الفراش»(8).

وهكذا نرى أن الانشغال بالملابس احتل حيزاً مهماً في حياة المغول منذ وقت مبكر، خلال القرون الوسطى، أي قبل بدأ تشكل الإمبراطورية المغولية. وفي زمن الإمبراطورية جرى ترحيل خيرة النساجين والخياطين المسلمين إلى الصين لخدمة بلاط أسرة اليان المغولية وطلب أفراد المجتمع المتزايد للظهور بأفضل الأزياء. وحملت الملابس وإكسسواراتها وطريقة لبسها رسالة ومعنىً خاصين عند سكان السهوب ولدى المغول بالتحديد.

وتُصنع الملابس الأساسية من الفرو والجلد والصوف وشعر الجمل والكتان. كما

يتم تأمين القطن والحرير من جيرانهم قاطني المدن. وملبسهم الأساسي عبارة عن ثوب يتكون من قطعة واحدة تصل حتى الكاحل. من تحته يرتدون سروالاً فضفاضاً، ويربطون حزاماً من قماش طري حول خصورهم. ولحمايتهم من البرد أو الحرّ يرتدون قبعات من اللباد. والراهب وليام الروبريكي الذي سافر من روسيا إلى بلادهم ما بين (1235–1255م) يذكر أن ملابسهم الصيفية كانت تُصنع من الحرير والذهب والقطن، في حين يرتدون في الشتاء ثياباً تصنع من مختلف أنواع الفراء. ويشرح كيف تبطن معاطف الفراء من الداخل والخارج، في حين يستخدم الفقراء جلود الكلاب أو الماعز. كذلك كانت سراويلهم تصنع من جلود حيوانات غير مدبوغة، مخاطة بالذهب للأغنياء وبالقطن للفقراء.

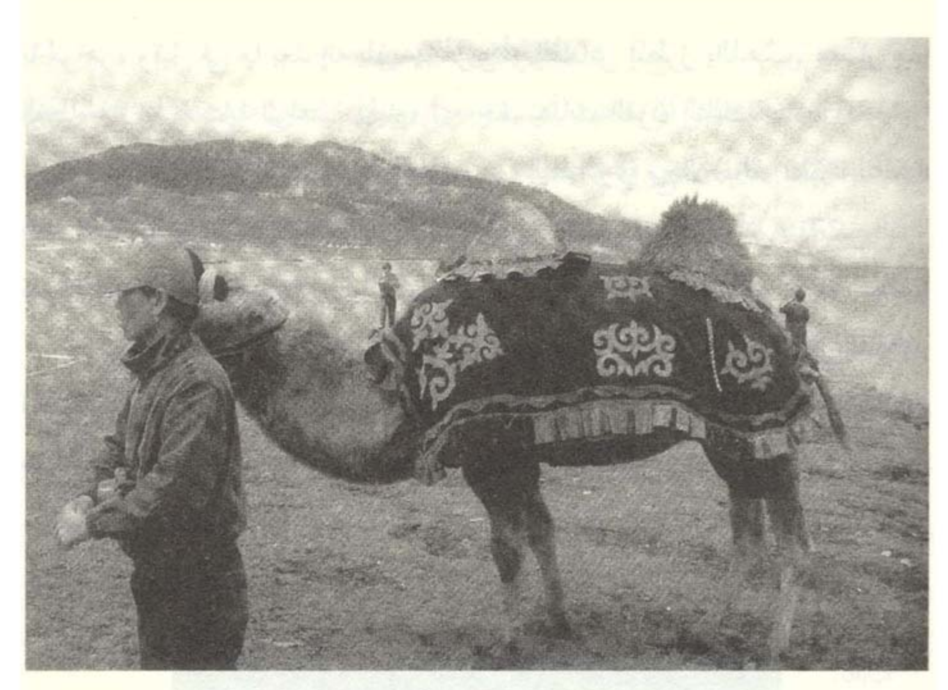


تمثال صغير يعود إلى القرن الثالث عشر، متحف زيان، بموافقة لان تيان يانغ للنشر



ثوب مغولي تقليدي، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

والراهب جون كاربيني Carpini مبعوث البابا إنوسنت الرابع، الذي سبق الراهب «وليام» في السفر إلى الشرق (1245– 1247م)، ذكر في وصفه للمغول أنه غالباً لا يوجد فرق بين ملابس الرجال وملابس النساء، وأشار إلى أنه لاقى صعوبة في كثير من الأحيان للتفريق بين الجنسين من خلال النظر إلى الملابس فقط. إذ يرتدون رداء من قماش قاسٍ، أو كتان نفيس أو حرير، مفتوح من جهة واحدة، ومثبت عند الصدر بأحزمة من أقمشة مبطنة. والنساء المتزوجات يرتدين رداء مشابهاً طويلاً ومفتوحاً من الأمام.



جمل ذو سنامين على ضفاف بحيرة سارايام، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

البوغتا

جاءت جميع التقارير بما فيها تقرير كاربيني على ذكر «البوغتا» Boghta وهو غطاء الرأس المميز الذي ترتديه النساء المتزوجات. وقد كتب بالتفصيل عنه «لي تشن تشانغ» الذي رافق الراهب الطاوي[60] «تشانغ تشنغ» إلى آسيا الوسطى لزيارة جنكيز خان. وهو عادة غطاء يصنع قالبه من لحاء شجرة البتولا، بارتفاع قدمين، ويُغطى ببطانة صوفية غالباً ما تكون سوداء، باستثناء بعض النساء الثريات اللواتي يفضلن الحرير الأحمر.

ولهذا الغطاء رأس على شكل بطة.. صورته بعض الأوصاف اللاحقة على شكل أنبوب معدني بارتفاع ثلاث أقدام، يُزّين بقماش مقصب أحمر أو أزرق اللون، أو

(60) Taoism الطاوية: مجموعة مبادئ تشكل فلسفة وعقيدة دينية، مشتقة من المعتقدات الصينية راسخة القدم. وتعتبر المدرسة الطاوية الثانية من حيث تأثيرها على المجتمع الصيني بعد الكونفشيوسية.

بالجواهر، وقيل في ما بعد إنه يلف بالحرير أو القماش المطرز بالذهب. وصار هذا الغطاء في زمن كتابة الراهب وليام، أي خمسينيات القرن الثالث عشر، أكثر تميزاً وبهرجة. فأضيفت إلى قمته أرياش الطواويس والبط البري مع الأحجار الثمينة للتأكيد على المكانة الاجتماعية الراقية للمرأة التي ترتديه. ويتم تثبيته إلى الرأس بتاج من الفرو تلم به شعرها أيضاً، ويربط تحت العنق بشرائط.

ويمكن للبوغتا أن يحمل مدلولات أبعد من مجرد التركيز على المكانة الاجتماعية. فأم جنكيز خان «هويلون» Hoelun كانت تشد حزام خصرها وتثبت البوغتا بإحكام على رأسها كإشارة إلى البدء في رحلة أو مغامرة شاقة. والحاكم المغولي في إيران أرغون خان (1284–1291م) أعلن عن قبول الخاتون أو السيدة «توداي» Tudai زوجة له من خلال تثبيت البوغتا على رأسها.



تمثال مونغولي صغير يعود إلى القرن الثالث عشر، متحف زيان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

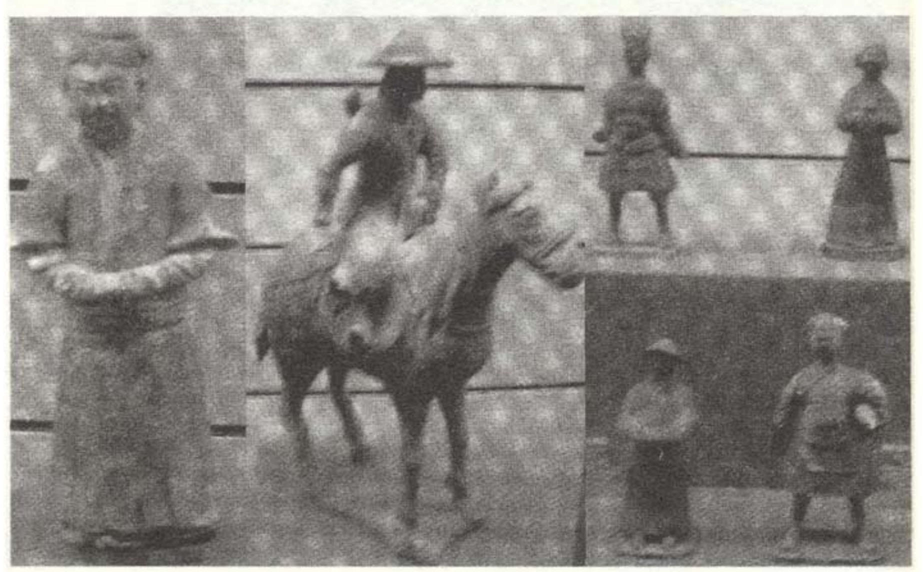
التهادي بالملابس

حمل تقديم الملابس أو منحها، أهمية ومعنىً رمزياً خاصين عند المغول. فتيموجين (جنكيز خان شاباً) حين قدّم معطفاً من جلد «السمور»(61) إلى عمه حاكم قبيلة الكرايت قوية الشأن «أونغ خان» Ong Khan(62) كان يبتغي طلب الحماية منه ومن قبيلته، وقبول الهدية من عمه أونغ يعني القبول بطلبه، أي أن تيموجين صار تحت جناحه ورعايته.

كما أن تبادل الأحزمة بين الأصدقاء، يرمز إلى توطيد علاقة الصداقة أكثر في ما بينهم، مثلما حدث بين تيموجين وصديق طفولته تجاموكا الذي آخاه بالدم أيضاً.

(61) Sable السمور: من حيوانات سيبيريا النادرة التي تربى في المزارع لفرائها الثمينة. وهو حيوان صغير من فصيلة ابن عرس يعيش في المناطق الواقعة بين شرقي روسيا عبر سيبيريا ومنغوليا إلى هوكايدو في شمال اليابان.

(62) Ong Khan أو Toghrul Khan أو Wang Khan: أونغ خان أو طغرل خان: هو حاكم قبيلة الكرايت وعم جنكيز خان، ربما كان كبقية أفراد قبيلته مسيحياً نسطورياً. عمل بداية على نصرة جنكيز خان ومساندته ولكنه حين اشتدت قوته خشيه وتنكر له وخطط مع آخرين لاغتياله لكنّه أخفق في ذلك.



أشكال مغولية من القرن الثالث عشر، متحف زيان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

وتتبادل الشخصيات الملكية أو التابعة للبلاط، هدايا الأقمشة الفاخرة، المرصعة بالذهب والفضة في المناسبات الرسمية أو الخاصة كالتهنئة بالمواليد الجدد مثلاً، أو للتعبير عن العزاء والولاء للطقوس والتقاليد المغولية، فتقدّم الأثواب والبوغتا للزوجات الأرامل، حتى وإن كان الشخص المتقدّم بالهدية، طرفاً في مؤامرة تُحاك ضدهن، وضد أبنائهن، مثلما كانت الحال عندما مات جويوك خان (1249م) وقامت أرملته أوغول غايميش بقبول هدايا مماثلة من أبناء عمومتها، رغم أنهم كانوا يخططون لإبادة نسلها كله.. نسل أوقطاي خان. وغالباً يعتبر تبادل الهدايا بين أطراف متنازعين، إشارة إلى الترحيب بالحلول السلمية، والرغبة في فض النزاع، وفي هذه الحالة يتم تبادل الذهب والجواهر والسراويل المطرزة بالخيوط النفيسة والقبعات المزخرفة بالأحجار الكريمة.

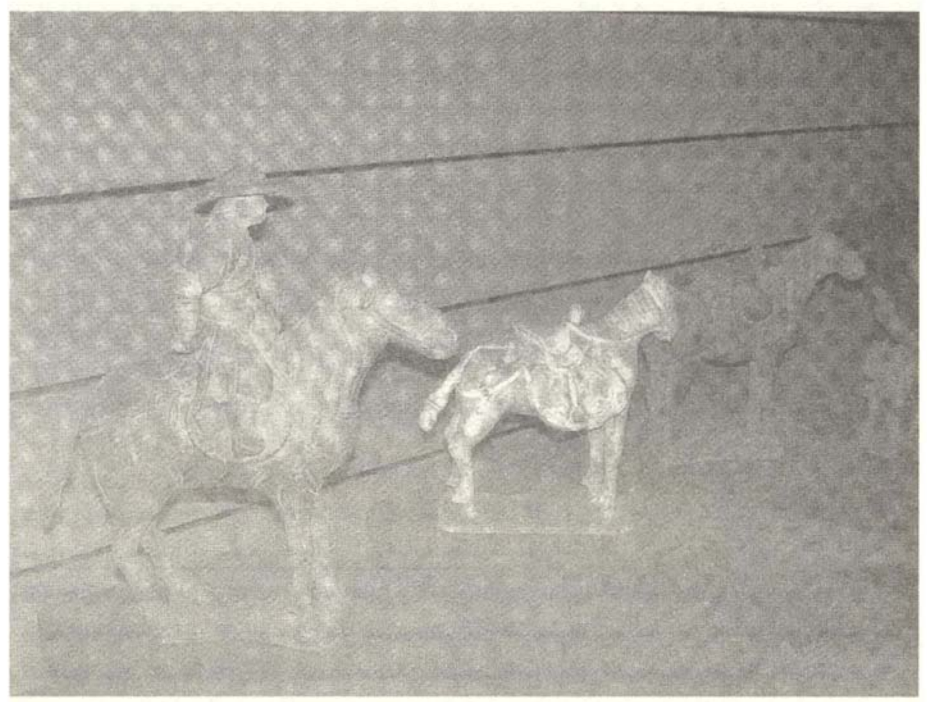


أشكال مغولية من القرن الثالث عشر، متحف زيان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

كذلك ترمز طريقة تقبل الهدايا إلى دلالات معينة، فقبل بدء جنكيز خان صلاته للإله تنغري، يقوم بإزاحة قبعته وفك حزامه، ليشير إلى ضعفه واستسلامه المطلق أمام القوى الإلهية الأعتى والأقوى من الجميع، وإعلاناً منه عن حاجته إلى المساعدة. وعندما قام جنكيز خان بفك حزام أخيه جوتشي، وإزاحة القبعة عن رأسه، كان يشير إلى زوال ثقته بأخيه. وفي مراسم تنصيب خليفة الخان الأعظم، يقوم الحضور بإزاحة قبعاتهم، وفك أحزمتهم، وحملها على أذرعهم كرمز لتقبلهم للحاكم الجديد.

ثوب التشريف أو «الخِلعات Khil cat»

ساد مفهوم ثوب التشريف، أو الخِلعات مع صعود نجم الإمبراطورية المغولية، واحتل مكانة مهمة في ما بعد، عندما صار يُقدّم لمكافأة وتشريف النبلاء والأمراء والسلاطين وبعض الحكام ممن أثبتوا ولاءهم لسادتهم المغول. واكتسب هذا الثوب منزلة أرقى مع توسع الإمبراطورية، ومن خلال المادة الأولية لقماشه وما يزينه من حلي وزخارف،



أشكال مغولية من القرن الثالث عشر، متحف زيان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

عكس المكانة الاجتماعية لمرتديه. وغالباً ما كانت هذه الأثواب، التي تُرتدى في المناسبات الرسمية، مشغولة من خيوط الذهب ومرصعة به.

وقد أظهرت الدراسات الحديثة أن الإقبال المتزايد لحاشية البلاط المغولي على استخدام الذهب في ملابسهم، كان سبباً مهماً وراء توسع الإمبراطورية المغولية، وانغماس المغول في نمط الحياة الحضرية المستقرة. فقد كان البحث عن الذهب، وعن اليد الماهرة القادرة على تحويله إلى حلي وخيوط، الشغل الشاغل لمعظم حكامهم. ولم يلتفت الدارسون إلى أهمية دور الملابس في حياة المجتمع المغولي حتى وقت متقدّم.

وقد تطرق لدراسة هذا الثوب، بالإضافة إلى المنسوجات النفيسة التي كانت مستخدمة، الباحث الأمريكي توماس آلسن، إذ وجد أن استهلاك هذه الأثواب والمنسوجات الثمينة، قد شكّل أساساً قامت عليه تجارة الإمبراطورية المغولية، وأن الحاجة المستمرة إلى المنسوجات والأقمشة، إضافة إلى اليد العاملة التي ستشتغل عليها كانت وراء توسعات الإمبراطورية، والرغبة المتعطشة على الدوام إلى غزو مناطق جديدة من العالم.

كذلك لاحظ الرحالة والمستكشف ماركو بولو[63] تلك الأهمية البالغة التي يوليها المغول لمظهرهم في كتاب «رحلاته». فقد أتى على ذكر ثوب التشريف أو الخِلعات، وهو الثوب عينه الذي ارتداه في المحافل الرسمية رجال القرون الوسطى في العالم الإسلامي، وقد شرح ذلك التعلق المغولي بالملابس عبر فصلين من كتاب رحلاته كما يلي.

(63) Marco Polo ماركو بولو: رحالة إيطالي ولد عام 1254 في مدينة البندقية، إيطاليا وتوفي عام 1324. وهو تاجر ومستكشف، كان أبوه نيكولو وعمه مافيو أول الغربيين الذين سلكوا طريق الحرير إلى الصين والتي أطلق عليها اسم «كاتاي»، وكانت له علاقات دبلوماسية مع قبلاي خان، حفيد جنكيز خان، وقد دون في رحلاته في كتابه « إل ميليوني» وهو تصغير «إيميليوني» اسم الشهرة لعائلة بولو والذي يدعى أيضاً «رحلات ماركو بولو».

الفصل السادس عشر

يدور حول الاثني عشر ألف بارون ممن منحهم الإمبراطور أكسية من القماش المطرز بالذهب في كل كساء منها ثلاث عشرة قطعة.

«صار معلوماً لكم الآن أن جنكيز خان قد اصطفى اثني عشر ألفاً من الفرسان لحمايته وحراسة قصره، عُرفوا باسم كِشيكان «Keshican[64]» كما سبق وأن أخبرتكم من قبل. وكان يوزع لكل واحد منهم ثلاثة عشر ثوباً، لا يشبه أحدها الآخر، وأقصد بذلك أن لون كل اثني عشر ألف بَدَل من تلك الأثواب، يختلف عن لون الاثني عشر ألف بدل الأخرى، وهكذا، أي أن لتلك الأثواب ثلاثة عشر لوناً مختلفاً. وتلك الأثواب مزينة بالجواهر والأحجار الثمينة ومطرزة بالخيوط النفيسة. ويوزع مع هذه الكسوة مثل عددها من الأحزمة الثمينة والجِزَم المطرّقة بخيوط الفضة فيبدون وقت ارتدائها كالملوك. وهناك نظام يحدد أياً من هذه الكسوات يجب ارتداؤها بناء على نوع الوليمة المدعوين إليها. والإمبراطور نفسه لديه ثلاثة عشر زياً موازية لكسواتهم من حيث اللون مع فارق أنها أكثر فخامة وبهرجة من كسواتهم، وبهذا يبدو على نفس السوية مع نبلائه الذين هم بمعنىً أو بآخر رفاقه. ويصعب بالفعل حسبان ما يكلفه كل هذا البذخ من أثمان.

الآن وقد أخبرتكم عن هذه الأكسية التي يبلغ عددها سنوياً 156,000 ليرة ذهبية وجعلتكم تتخيلون كلفتها، وخاصة حين تأخذون بعين الاعتبار الأحزمة والجزم ذات الأثمان الباهظة أيضاً، ما عليكم معرفته هو أن هذا كله يطلبه الخان الأعظم ليؤكد مكانته وسلطته ويضفي رونقاً يليق بمقامه على احتفالاته. وعليّ أن أذكر لكم الآن شيئاً كنت قد أغفلت ذكره، مما سيثير دهشتكم وهو أسد يُساق يوم الاحتفال، للمثول أمام الإمبراطور بكل احترام وخشوع ويبقى ماثلاً أمامه من دون قيد، للتأكيد على عظمة الإمبراطور التي تنحني لها حتى الأسود. وكم سيبدو هذا غريباً وغير حقيقي لأولئك الذين لم يشهدوه بأعينهم»(9).

(64) Keshican كِشيكان: كلمة استنبطها «هنري يال Henry Yule» مترجم كتاب «رحلات ماركو بولو» إلى الانجليزية، كمحاولة لإيجاد مقاربة في اللغة الإنجليزية لكلمة «Quescican» والتي يذكر ماركو باولو، في الفصل 12 من الجزء 2 من كتاب رحلاته أنها تسمية للفرسان الذين اختارهم جنكيز خان للسهر على خدمته وحراسة قصره، ليس خوفاً من بطش أي رجل على الأرض بقدر ما كانوا لتشريفه وإظهار عزة مكانته. يقود هؤلاء الفرسان أربعة قادة، لكل منهم ثلاثة آلاف، حيث يتسلم كل منهم الخدمة لمدة ثلاثة أيام بلياليها فيقومون بالحراسة ويتناولون وجبات طعامهم في قصر الخان. بعد مضي ثلاثة أيام بلياليها، يغادرون لتحل مكانهم في الخدمة فرقة أخرى، وهكذا على مدار العام» (من كتاب رحلات ماركو بولو ترجمة هنري يال Henry Yule).

الفصل الرابع عشر

يدور حول الوليمة الفاخرة التي يحييها الخان الأعظم سنوياً بذكرى عيد ميلاده

«يقيم التتار في كل عام، احتفالاً فخماً بمناسبة أعياد ميلادهم. ويصادف عيد ميلاد الخان الأعظم في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر، فيقام في هذا اليوم احتفال يضاهي بفخامتة الاحتفال بقدوم عام جديد. وفي هذا الاحتفال يتزين الخان الأعظم بأفخر ملابسه وأجملها مما يزدان باللآلئ والذهب، ويحف به اثنا عشر ألف فارس يرتدون أردية مشابهة لردائه في اللون، ومادة الصنع لكنّها أقل فخامة وأقل تكلفة. أحزمة الجميع من الذهب الخالص، وينبغي القول إن كل رداء من تلك الأردية مزدان باللآلئ والأحجار الكريمة، مما يجعله يعادل في تكلفته 10,000 ليرة ذهبية.

ويتكرر مثل هذا الاحتفال ثلاث عشرة مرة كل عام، يرتدي فيها الخان الأعظم مع حاشيته الاثني عشر ألف فارس، الأردية الفاخرة نفسها، مع اختلاف اللون في كل مناسبة. مما يؤكد لنا سعة ثراء الخان الأعظم نادرة الوجود، والتي تؤهله للإنفاق على هذا الرفاه كله(10).

الحواشي

1. غريغور الآكانسي، «تاريخ رماة السهام»، ترجمة ر. بليك، و ر. فراي (كمبريدج: منشورات جامعة هارفرد، 1954) ص. 295، مجلة هارفرد للدراسات الآسيوية، 4،3،2،1(1949).
2. كوليات.ي. أمير خسرو. (طهران، 1996) ص. 532.
3. ر. أ. سكيلتون، تي. ي. مارستون، وجورج د. بينتر، «خريطة السهل وعلاقتها بالتتار» (مدينة نيوهيفن، ولاية كونيكتيكت، منشورات جامعة ييل، 1995) ص. 85، أعيد نشر هذا الاقتباس بموافقة القسم الخاص بمنشورات جامعة ييل).
4. وليام الروبريكي، «بعثة وليام الروبريكي» ترجمة وتنقيح: بيتر جاكسون وديفيد مورغان (لندن: جمعية هاكلوت، 1990) ص. 89، سمح بإعادة اقتباس هذا المقطع بموافقة مجتمع هاكلوت.

5. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 587–88.
6. المصدر السابق، ص. 585–86.
7. «رحلات الراهب أودوريك»، في «هنري يال، «كاثاي والطريق إلى هناك» (ميلوود، نيويورك، كراوس لإعادة الطباعة، 1967) ص. 228–29.
8. وليام وودفيل روكهل «رحلة وليام الروبريكي إلى الأجزاء الشرقية من العالم»، 1253–55، مثلما رويت على لسانه، مع وصف لرحلتين سابقتين لجان كاربيني ، ترجمها عن اللاتينية ونقحها، مع التقديم لها «وليام وودفيل روكهل» (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900) الفصل 6.
9. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال و كورديـيل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني متوافران على الموقع: http// www.gutenberg.net.
10. المصدر السابق.

الفصل الرابع

المسكن

لم يشتهر المغول بمهارتهم في فن البناء. وللحقيقة، فإنهم كانوا مُدمِرين أكثر منهم بُناة. ومما كان يثير ريبتهم أن يختار إنسان ما بمحض إرادته العيش في كنف جدران صماء. فقد كانت السهوب المفتوحة بيتهم المفضل، والسماء والجبال جدرانهم، ومن عناصر الطبيعة يفترشون بيوتهم ويزينونها. بيد أنهم وبقدر ما تركوا من بصمات على حيوات سكان المدن التي احتلوها، فقد تركت تلك المدن بصماتها عليهم.

المساكن في زمن البدايات

قبل شروع المغول بتأسيس مدنهم الإمبراطورية المستقرة، وتشييدها مع مدن تستطيع الصمود أمام تصاريف الزمن، أنشأوا ما وصف بأنه نوع من المدن المتحركة على عجلات، وبالتأكيد كانت بيوتاً متحركة لمجتمعات متحركة وبنى متحركة. وحين عبر الرحالة الراهب جيوفاني كاربيني، وهو جاسوس بابوي، السهوب الأوراسية عام 1245 مرّ بالقرب من مخيّم مغولي ووجده غاية في الضخامة والتعقيد حتى يعاد فكه وتركيبه في كل مرة يغيّرون فيها مكان تخييمهم. ويصف كاربيني الذي ليس من المحتمل أن يكون جايمس بوند القرون الوسطى، كيف «تُحمل أصغر الخيام أو ما يسمى «يورت» Yurt على عربة يجرها ثور واحد والخيمة الأكبر على عربة يجرها ثوران أو ثلاثة أو حتى أكثر حسب ضخامة حجمها»(1).



خيام مغولية على الطريق بين يينينج وبحيرة سارايام، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

ويذكر وليام الروبريكي، الذي زار ذلك المكان بعد كاربيني بعشر سنوات، في تقريره رؤيته خياماً تُنقل على عربات بعجلات، ويصفها بأنها «بحجم صارية السفينة» ويجرها أكثر من 22 ثوراً(2).

قبل اجتماع القوريلتاي عام (1206م) لتنصيب تيموجين خاناً أعظم لجميع القبائل التركو – مغولية كان تعامل المغول مع المجتمعات المتحضرة يقتصر على الاقتتال أو التحالفات العسكرية. فقد عاش المجتمعان الرعوي والمتحضر منفصلين، وقد تطلع كل منهما نحو الآخر بكثير من النفور والرفض. ورغم ذلك، فخلال جيلين صرت تجد في قلب المخيّمات المغولية من بز سكان المدن المتحضرين في الكتابة والتعلم وفن الجدال. وخلال جيلين أيضاً، صارت بإمكانك رؤية أبناء أولئك المحاربين الرعاة الذين كان مجرد ذكرهم يثير الرعب في نفوس أقرانهم من أبناء أعدائهم التقليديين من سكان الحضر، وصرت تراهم متفرقين في زوايا المدن التي تطورت منذ ذلك الحين لتصبح من أجمل مدن العالم وأقواها.

كتب وليام الروبريكي عام (1255م) يقول: «لا يعمّرون في مكان واحد قط» وقد ظلّ يصف مضيفيه من المغول بأنهم قبائل بدوية محضة، على الرغم من أن أوصافاً كهذه لم تكن دقيقة تماماً في تلك الحقبة بعد تأسيس المغول سلالة يان في الصين بقيادة قبلاي خان، وجعلهم «بكين» أو «تا تو» عاصمة لهم عام (1272م)، وكذلك إمبراطوريتهم في إيران وعاصمتها «مراغه» Maragheh بقيادة هولاكو عام (1258م). وقد حدث تطورهم باتجاه المدنية عبر مراحل متدرجة من السهل لمسها من خلال التغيرات التي طرأت على نمط حياتهم. فمخيّماتهم التي تميّزت بالبساطة من قَبل، تحوّلت إلى مدن متحركة، لكثرة ما أدخلوا عليها من زينة وبهرجة، مستخدمين الأقمشة النفيسة المطرزة بالذهب، والتي غالباً ما يُشار إليها بكلمة «نسيج» nasij أو قماش التتار «the cloth of Tartary» كما تسميها المصادر الأوروبية.

وبكل الأحوال فقد كانت تلك المساكن زمن زيارة كل من الراهبين الفرانسيسكانيين، أقل فخامة وحداثة مما صارت عليه فيما بعد. ويصف وليام الروبريكي (1210–1270م) مساكنهم بالتفصيل قائلاً:

> ليس لهم مسكن مستقر. كما لا يعرفون حين يعزمون على الرحيل أين سيكون مسكنهم التالي. لأنه ليست لهم هنا «مدينة باقية»، وعن المدينة «العتيدة» لا فكرة لديهم (الكتاب المقدس، سفر العبرانيين، 13:14). وقد قسموا سيثيا Scythia[65] فيما بينهم، تلك التي تمتد من نهر الدانوب حتى مشرق الشمس. ولكل قائد منهم حصته من الأرض، حسب عدد الرجال التابعين له، حيث يسمح لقطعانهم بالرعي في تلك المساحة من الأرض في كل الفصول. وفي الشتاء عليهم التوجه نحو المناطق الأكثر دفئاً في الجنوب، وفي الصيف يتحركون شمالاً لاعتدال الطقس. وأما المناطق الجرداء قليلة المياه، فيتوجهون إليها شتاء حيث يستعيضون بالثلج عن الماء.
>
> بيوتهم خيام دائرية، تتكون من هيكل يصنعونه من أعواد يضفرونها لتشكل طارة أو طوقاً في الأعلى، تاركين فتحة مخصصة للمدخنة ثم يغطون الهيكل باللباد الأبيض[66] ويطلون اللباد بالطبشور أو الطين الأبيض أو مسحوق العظام لتبييضه حين يتسخ. وأحياناً

(65) Scythia سيثيا: هي تسمية قديمة لمنطقة في السهوب الأوراسية سكنتها شعوب السيثيون منذ القرن الثامن ق.م وحتى القرن الثاني م. امتداداتها وحدودها اختلفت عبر مرور الزمن.

(66) قديماً كان اللباد يصنع بنقع ألياف الصوف بالماء وضغطها على شكل مستو أو على شكل قالب محدد مثل قبعة أو طربوش أو أي شكل آخر مطلوب ويلون باللون المطلوب.

يصبغون اللباد باللون الأسود. وهم يزيّنون اللباد القريب من قمة الخيمة بمختلف التصاميم الجميلة. وعند المدخل يطرزونه بخيوط ملوّنة جذابة، مشكّلين بها زخارف فاتنة تمثّل في الغالب طيوراً وأشجاراً ووحوشاً. كما أنهم يجعلون هذه المساكن كثيرة الاتساع حتى أن الواحد منها يصل عرضه إلى ثلاثين قدماً. وقد قِستُ مرة بنفسي، المسافة بين عجلات العربة التي ستحمل أحد هذه المساكن ووجدتها عشرين قدماً، وعندما حمّلوا المسكن على العربة، برز طرفاه عن كلا الجانبين مسافة تعادل خمس أقدام على الأقل. وقمتُ بنفسي بعدّ اثنين وعشرين ثوراً، سخّرت لجر عربة تحمل مسكناً واحداً، فعند كل جانب من جوانبها مشى أحد عشر ثوراً. وكانت كل عجلة من عجلاتها بضخامة صارية سفينة. ويقود تلك الثيران التي تجر العربة رجل واحد يقف عند مدخل المسكن الذي تحمله فوقها. وأكثر من هذا كانوا يقومون بغزل مكعّب بمساحة صدر عريض من أماليد طرية وخفيفة ويضعون فوقه من النهاية إلى النهاية غطاءً على شكل قُبة أو ظهر سلحفاة، يصنعونه من تلك الأماليد نفسها، وعند زاوية المقدّمة يصنعون فتحة على شكل باب، ويغطون هذا الصندوق أو المخزن الصغير باللباد الأسود المبطن بالشحم، أو بحليب النعاج حتى لا يتخلله ماء المطر، وبعدها يزخرفونه بالتطريزات الجميلة نفسها، ثم يستخدمونه لحفظ جميع أمتعة نومهم وملابسهم ومقتنياتهم الثمينة، ويثبّتون هذا الصندوق عادة في مكان عالٍ من حافلة مقفلة تجرها الجمال، ويمكنها خوض الأنهار من دون أن يتعرض ما في داخلها إلى البلل، علماً أنهم كانوا لا ينزلون هذه الصناديق من الحافلات على الإطلاق.

وعندما كانوا يقومون بإنزال مساكنهم عن العربات لنصب مخيّمهم، كانوا يديرون أبوابها دائماً باتجاه الجنوب، ويثبّتون الحافلات المقفلة التي تحمل تلك الصناديق بجانب المسكن، على بعد نصف رمية حجر منه، حيث يستقر المسكن بين صفين من الحافلات وكأنه بين جدارين.

توضب السيدات عادة لأنفسهن أجمل الحافلات، التي تحمل صناديق أمتعتهن، إلى حد لا تستطيع وصف روعتها، إلا إذا قمتُ برسمها، لكنني لا أجيد الرسم مع الأسف. ولابدّ لكل رجل مغولي ثري من اقتناء حافلة أمتعة أو اثنتين على الأقل. فباتو خان كانت له 26 زوجة، لكل واحدة منهن مسكن ضخم، ناهيك عن حافلات الأمتعة الصغيرة التي تتبع عربة المسكن الأساسية، وفيها تستقر الفتيات اللواتي يقمن بالغزل والتطريز. وعندما تُثبت المساكن تضع الزوجة الأولى مسكنها في أقصى الغرب، وتتلوها الأخريات بالتدريج حسب منزلتهن، إلى أن يصل الدور إلى آخرهن حيث عليها نصب مسكنها في أقصى الشرق. ويجب ترك مسافة رمية حجر بين مسكن كل زوجة وزوجة. ويمكن لفتاة واحدة أن تقود عشرين

أو ثلاثين ثوراً، لأن أراضي تلك البلاد مستوية وبالتالي فهي سهلة المراس، وعادة ما يربطون العربات مع بعضها، كما يربطون الحيوانات التي تجرها. وإذا ما صادفتهم أرض أو منطقة وعرة كانوا يفكّون الحبال التي تربط الحيوانات إلى بعضها، ويجعلون المساكن التي فوقها تعبر واحداً بعد الآخر بالتدريج.

بعد تثبيت المسكن على الأرض، يوجهون بابه نحو الجنوب، كما يوجهون مقعد سيد البيت أو رجل البيت إلى الغرب، ومقعد المرأة إلى الشرق. ويدخل الضيوف إلى البيت عن جانب الرجل من جهة الغرب، ويعلقون رماحهم على الجدار المحاذي للباب من تلك الجهة، لذلك يحرّم جلوس المرأة في تلك الجهة، لأنه لا يجب على رجل أن يعلّق رمحه قرب امرأة»(3).

أما الكاهن جيوفاني دي بلانو كاربيني فرسم لنا صورة مشابهة، شارحاً كيف أن الخيام كانت دائرية ومُعدّة بذكاء من العصي أو ألواح الخشب الرقيقة، وكيف أن المدخنة تتركز في الوسط، لكي تسمح للدخان بالخروج من المسكن، كما تسمح للضوء بالدخول، وتُبطّن الجدران والأبواب بطبقة سميكة من اللباد، ولكنّه لم يذكر أي شيء عن زينة هذه الجدران. ويذكر أن حجم المسكن يعكس المكانة الاجتماعية لصاحبه. فالمسكن الصغير من الممكن بكل بساطة أن يُفَك ويُحمل على حافلة نقل البضائع المقفلة في حين أن المنزل الكبير يجب أن يحمل على عربة تجرها عدة ثيران(4). وكانت هذه المساكن المتحركة تُسمى «جير تيرجن» ger tergen. ولاحظ الرحالة ماركو بولو، الذي زار تلك السهوب بعد عدة عقود، أن تلك المساكن المتحركة كانت تُستخدم من قبل عامة الناس وكانت أبوابها تتجه نحو الجنوب، وهي صفة تشترك فيها جميع المنازل في آسيا الوسطى.

أما الحافلات المقفلة فلها عدة مقاسات، وغالباً ما يبالغ في تزيينها، وهي مخصصة لنقل المؤن والنساء والأطفال. وقد ذكر ماركو بولو أن تلك الحافلات المقفلة وعجلاتها كانت تغطى أحياناً بلباد أسود سميك بهدف حمايتها من تأثيرات الطقس «فحتى لو أمطرت طوال اليوم، فالماء لا يتخلل تلك الحافلات»(5). وأضاف أن هذه الحافلات المقفلة لا تستخدم لحمل المساكن والنساء والأطفال والمؤن فحسب، بل سُخّرت أيضاً من قبل النساء لأعمال التجارة، إذ تُحمل عليها البضائع، وتتم عملية البيع والشراء فيها.

الحركة مقابل الثبات

عاش المغول، مثل بقية القبائل الرعوية، في خيام. وباعتبارهم رعاة فقد استمروا يعيشون في خيام حتى بعد أن أصبحت قصورهم الفخمة، والمبهرجة، بعيدة كل البعد عن تلك المساكن البسيطة التي عاشوا فيها قبل انعقاد جمعيتهم الوطنية «القوريلتاي» عام (1206م)[67]. ومع أن تلك المساكن الأولى كانت بسيطة، ويكثُر فكها وتركيبها إلا أنها حوت بعض العناصر التي لا يمكن الاستغناء عنها فهي تستخدم دائماً في مراعي رحلتي الشتاء «قيشلاق» Qishlaqs والصيف «يايلاق» Yaylaqa. ويعود زمن تلك العناصر الأساسية المكونة للمسكن المغولي إلى حقبة جنكيز خان. فالصخور وقطع الآجر استُخدمت لتدعيم الخشب والقماش. وقد طوّرت هذه العناصر عبر الزمن فاستُخدمت الجدران الثابتة، وصارت التقسيمات والأساسات أكثر تعمقاً ورسوخاً في الأرض. ومع تقدّم الزمن أقصت هذه العناصر الثابتة والجديدة، العناصر المتحركة والقديمة، واحتلت مكانها، فتحوّل المخيّم إلى مدينة، حتى إنه في المدن العظمى كما في الصين صار الحنين ينتاب الأمراء والقادة العسكريين لجذورهم الأولى: زمن الخيام والترحال المستمر.

وقد احتفظ القيشاني، المؤرخ الذي اهتم بدراسة تاريخ المغول في إيران، بتقرير مفصل لخط سير رحلات الإلخان أولجايتو وتفاصيل إقامته وترحاله، وذلك أثناء فترة حكمه التي امتدت من عام (1303م) حتى عام (1316م)[68]. وهذا التفصيل التأريخي الدقيق لرحلات الإلخان أولجايتو من داخل منطقة حكمه وإليها، يشرح ما قصده تشارلز ملفيل بعبارته: «استمرارية التفاعل بين القبائل البدوية وأخلاقيات سلطة الحضر»(6).

وعلى الرغم من كثرة تنقلات الإلخان أولجايتو، إلا أنه وبسبب قصر فترات غيابه، والمناطق المحدودة التي كان يتجول فيها، لم يحدث قط أن أهمل شؤون حكمه، فكان

(67) أي سنة تولي تيموجين (جنكيز خان) العرش.

(68) Oljeitu محمد خودابندا أولجايتو (1280–1316): ثامن ملوك الإلخانية. ابن حفيد هولاكو وابن أرغون وشقيق وخليفة محمود غازان على عرش الإلخانية. تحول من المسيحية إلى الإسلام السني ثم اعتنق الإسلام الشيعي على يد أحد علماء المسلمين الشيعة في العراق. حارب المماليك وهُزِم، وصفه المؤرخ ابن الفوطي بأنه أعدل حكام المغول وأكرمهم.

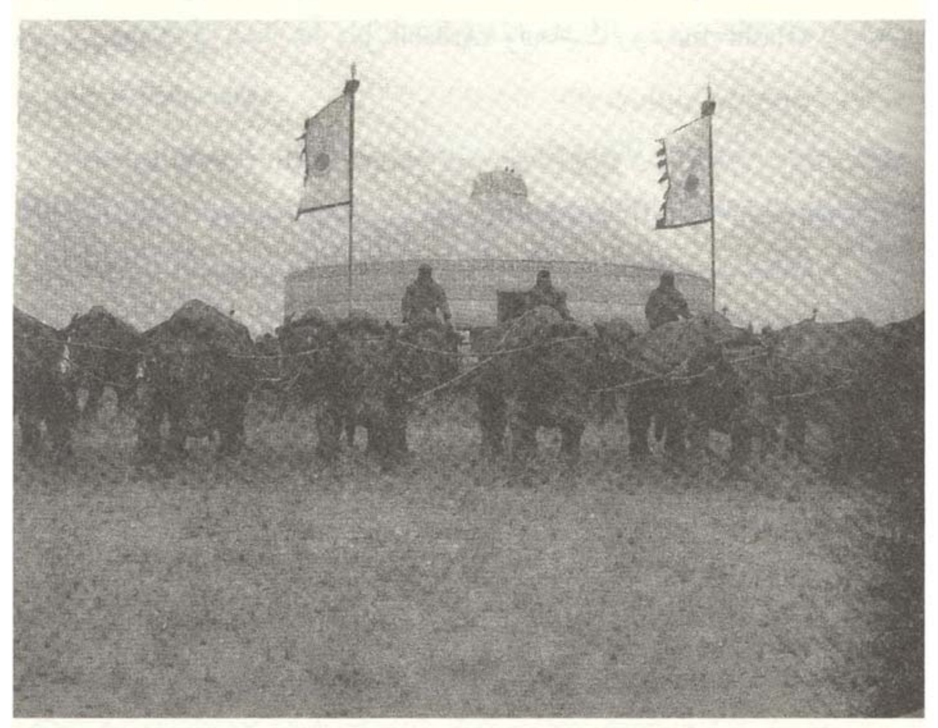
يغيب ثم يعود ليتابع بنفسه ما يحدث. وقبل ذلك بستين عاماً خلال حكم آرغون أقا، حاكم غرب آسيا، اشتكى المؤرخ الفارسي أبو المعالي الجويني، من كثرة تنقلاته التي وصفها بأنها مثل تحركات «موظّف جوال»، والتي أفسدت عليه تدوين تاريخه الشهير. أما الإلخان أولجايتو فقد كان بشكل شبه مستمر على رأس إدارته، ولم يجد المبعوثون الأجانب أية صعوبة في تحديد موقعه. فقد كانت ممتلكات الحكومة الشخصية وجميع ملفاتها وديوانها الكامل وطاقم موظفيه في متناول يده على الدوام. وقد جرى الحرص زمن حكمه على رعاية الجانبين الإداري والقانوني لما لهما من أهمية في ظل الازدياد السكاني والعمراني. فوثّقت رحلتا الصيف والشتاء على أكمل وجه. ودوّنت أسماء المناطق التي تم الارتحال إليها خلال مخيّم الصيف مثل «آلا تاغ أو آلا داو بالتركية Ala Tagh» و «صياه كوه في شمال غرب حماداان Siah Kuh» و «سوغورلوخ أو تختي سليمان Sughurlukh Or Takhti– Suleiman» و «خونخور أولنغ khonkhur Oleng» التي أصبحت في ما بعد العاصمة «سلطانية» و«آجان Ujan» في جنوب غرب تبريز، و«ساين Sayn» في شمال «آردابل Ardabil» و«هاشت رود Hasht–rud» إلى الشرق من «مراغة Maragheh».

وأما تقرير مخيّم الشتاء فتضمّن مناطق مثل: «جاغاتو jaghatu» جنوب بحيرة «آروميا Urumia»، وبغداد، و«هولان مورين Hulan Moren»، و«قاراباغ Qarabagh» شمال شرق «ناخشيفان Nakhchivan»، والعديد من المناطق غير المحددة في «آران Arran»، و«مزندران Mazandaran»، و«موغان Mughan». ومن هذه المعلومات يمكننا الاستنتاج أن المخيّمين الصيفي والشتوي كانا يضربان في مناطق واقعة في أو بالقرب مما يعرف اليوم بأذربيجان. وقد أصبحت تبريز عاصمة بكل معنى الكلمة خلال حكم غازان خان (1295–1304). كما أصبحت «السلطانية» عاصمة أثناء حكم أولجايتو، الذي لم يولِ حياة البداوة وما تمليه من بساطة واقتصاد أي اهتمام، وركز على تأثيث مساكن عاصمته وقصورها بأفخر الأقمشة والمنسوجات وأمّن من المعدات والأدوات ما يكفي لاستمرار وسائل الراحة والرفاه، بانياً الكثير من القصور والأبنية الحكومية والرسمية. كما اعتُبر إنجازه ست طرق رئيسية تصل العاصمة بمناطق متفرقة

من مملكته من أعظم أعماله، وكانت إقامته الصيفية تتركز في العاصمة.

ويتم الإبقاء على الخيام المتقنة، التي تُصنع من أجل إقامة الأمراء أثناء رحلاتهم حول البلاد، منصوبة عدداً من الأشهر في كل مرة. وعندما لا يتم استخدام هذه الخيام تُخزّن في انتظار عودة الحاكم وحاشيته في السنة القادمة، كما لا تُحمل المواد الأساسية لبناء تلك الخيام من مكان إلى آخر، وإنما تبقى مخزنة حتى يحتاجوا إليها. فخيمة «السيرا أوردو Sira–Ordu» التي يغلب عليها اللون الأصفر (سيجري الحديث عنها بالتفصيل في ما بعد)، والتي كانت تُستخدم لاجتماعات «القوريلتاي» مع عدد من الخيام البيضاء أيضاً، هي واحدة من تلك الخيام التي يجري تخزينها، وقد لفَتَ جمالها عدداً من الزائرين فرسموها بكثرة.

وفي الصين استخدموا التركيبين الدائم وشبه الدائم للخيمة معاً، لكنّهم استخدموا أحياناً نمط الخيمة شبه الدائمة كعنصر تزييني، ولأجل التسلية فقط. ففي العاصمة



الخيمة الملكية، دينجشينغ، بموافقة لان تيان لانج للنشر

الصيفية[69] «شانغدو» لأسرة اليان الحاكمة في الصين، ساد نمط من الخيام دعي «دآنجج» وكان مستخدماً لمشاهدة العروض، وفي أجزاء أخرى من المدينة استخدم نمط الخيمة الدائمة التي انتشرت أيضاً في الاحتفالات، حيث تقام الولائم داخلها، كما تستخدم من أجل استقبال الشخصيات الأجنبية الرفيعة. وفي شمال مدينة «شانغدو» كان يقع «قصر الخيزران»[70] الخلاّب، إلى جانب حديقة حيوانات وحديقة نباتات. وكانت تلك الخيام شبه الدائمة وهائلة الاتساع والتي اشتهرت بتسمية «زونغديان» مصنوعة من أعواد الخيزران المدعومة بأعمدة من ذهب ولَك[71] يجلس فوق كل منها تنين مذهّب. وأمر بتحديث قصر الخيزران عام 1325 يسون تيمور خان الذي حكم ما بين (1323–28م)، فجرى توسيعه وإعادة تأثيثه، فحيكت لتغطية أرضيته سجادتان كبيرتان امتدتا على مساحة 850 مترا مربعاً، وقد أُستهلك لصنعهما 3,000 رطل من الصوف المصبوغ بالأبيض والأزرق.

وهكذا اشتهرت أربعة أنواع من المساكن التي اسُتخدمت لبناء بلاطات الخانات: المساكن المؤقتة مثل نمط «السيرا أوردو» الذي مُزج فيه بين عناصر بناء الخيمة الدائمة والخيمة المؤقتة، ومن المعروف أنه نمط خيمة جنكيز خان. والمساكن الدائمة أو شبه الدائمة– كما في مدينة شانغدو– هي مساكن أقيمت لتعمّر مثل أبنية عاصمة قبلاي خان «دا دو، أو تا تو» وهي بكين اليوم.

الخيام الفاخرة

شاع عن أمراء القبيلة الذهبية ولعهم بالولائم التي كانت تُعد لنيل رضاهم أو كانوا يعدونها لنيل رضا بعضهم بعضاً، وكانت تلك الولائم تُقام في خيام باذخة، إذ لم ينقطع غرامهم بالخيمة في أي يوم من الأيام. وتشهد حياة هولاكو في إيران على ذلك، إذ

(69) في ما بعد قرر قبلاي خان زعيم أسرة اليان في الصين نقل العاصمة إلى بكين (دا– دو أو تا تو في ذلك الزمن).

(70) Cane palace قصر الخيزران: هو عبارة عن خيمة متحركة كبيرة جداً، ومزخرفة الجدران وفاخرة الأثاث، يحيط بها سور وحدائق كقصر حقيقي.

(71) اللك: نوع من الطلاء اللامع والشفاف.

حفلت بالكثير من تلك الولائم، التي بدد فيها تابعوه من الإداريين المحليين، كميات وافرة من المال، لإرضاء ذوقه الميال إلى الترف والبذخ. وفي سمرقند نصب الحاكم المغولي لآسيا الوسطى «مسعود بج»، خيمة منسوجة من قماش «نسيج» المشهور وهو قماش موشى بالذهب والحرير، مع بطانة من اللباد الأبيض، من أجل حفلة ملكية استمرت أربعين يوماً، وكانت مليئة بالمرح والعربدة والصخب. وبعد ذلك بفترة قصيرة، في ربيع عام 1256 بالقرب من بلدة «توس» Tus نصب آرغون آغا حاكم خراسان خيمة أخرى ساحرة لوليمة جديدة. وقد تألفت تلك الخيمة من حجرة كبيرة على شكل بهو واسع، وقاعة لحضور العروض، كما استخدم ألف مسمار ذهبي لتثبيتها في مكانها. وصفها علاء الدين عطا مالك الجويني قائلاً: «في ربيع الثاني (أبريل ومايو) نصبوا خيمة من قماش «نسيج» في «جنهال فوقارا Jinhal–Fuqara» بالقرب من بلدة توس على مدخل الحديقة، التي أنشأها الأمير أرغون. نصبت تلك الخيمة بأمر من إمبراطور العالم مونكو خان، إذ طلب من الأمير أرغون أن ينصبها من أجل أخيه هولاكو. وتنفيذاً لأوامر الإمبراطور، سخّر جميع الحرفيين المهرة لخدمة تلك المهمة، فقرروا بعد المشاورات بناءها من قطعة قماش واحدة، على أن يكون لها وجهان. وقد جاءت في غاية الروعة والإتقان، إذ بزّت شغل اليمن في تطريزاتها وصباغتها، وامتازت بخلفية ومقدّمة متناسقتين ومتماثلتين، كما اتسمت من الداخل والخارج باتساق ألوانها. ولضخامتها كلّت أسنان المقصات التي قصّت قماشها. فتلك الخيمة في روعتها مثل قبة سماء مذهبة، حتى إن الشمس فقدت بريقها غيرة منها، والقمر قطّب جبينه حاسداً استدارتها»(7).

وتماماً كما كان يفعل أبناء عمومتهم في الصين، فإن مغول إيران مزجوا بين نمط الخيمة الدائمة، ونمط الخيمة شبه الدائمة في بناء قصورهم، وظلت الفوارق بين النمطين تختفي أكثر فأكثر. فغازان خان نصب خيمته الذهبية في آجان (جنوب غرب تبريز) وهو الموقع الذي يزوره كل صيف والذي يحوي، حسب ما جاء في أخبار رشيد الدين: «أكشاكاً وأبراجاً، وطرقات، وأبنية فخمة» وكلها أقيمت لتكون ثابتة ودائمة. أما خيمته هناك فقد استغرق المهندسون شهراً كاملاً لإتمام نصبها. وأطلق

الإلخانات والأمراء والنبلاء وأتباعهم من الإداريين الإيرانيين، أسماءهم الشخصية على تلك الأبنية التي بنوها لتدوم، ونتيجة لذلك نرى مناطق في تبريز، تحمل أسماءهم حتى يومنا هذا، كالراشدية، وآرغونيا، وغازانيا، كما فعل الخان أولجايتو حين أطلق على عاصمته البديعة اسم «سلطانية»، والتي مازالت آثارها قائمة في شمال غرب إيران، قبلة السياح إلى اليوم.

وتتشابه الأنشطة التي تجري داخل هذه الخيام، سواء أكانت دائمة أم شبه دائمة، في كل من الصين وإيران. فقد سُخرت للمتعة والتسلية، والاجتماعات الحكومية والرسمية في الوقت نفسه كمراسيم تقليد العرش، وكذلك جميع اجتماعات «القوريلتاي» الأساسية. ففي بدايات عام 1257 احتفل هولاكو بعيد رأس السنة «كيونوكميشي Keyunukemishi» في مخيّم بالقرب من «قازفين Qazvin» في شمال إيران. كما احتفل جميع الإلخانات بتوليهم منصب العرش في مخيّماتهم الموسمية، بدلاً من عواصمهم، وقبل ولاية غازان خان عام (1295م) كانوا يحتفظون بخزائن أموالهم في مخيّماتهم الموسمية أيضاً، حيث يقيم المسؤولون عن الأمن والحراسة فيها بشكل دائم. وأما كنوز هولاكو ومقتنياته التي سلبها عام (1256م) من قلعة ألموت[72] في إيران، ومن بغداد عام (1258م)، فقد كان يخزنها في جزيرة تقع قرب بحيرة أروميا[73] وقد دفن هناك بعد موته (1265م) مع كنوزه والكثير من الطعام والخمرة وست عذراوات. ولم يُكتشف ذلك الموقع بعد، ومن المعروف أن كنوزه لا تزال مدفونة هناك بالقرب من جزيرة «شاهي shahi» (يطلق عليها اليوم اسم إسلامية) على الجانب الشرقي من بحيرة أروميا.

في تلك المخيّمات الموسمية كان يدار العديد من الأعمال الحكومية التي تطلب إنجازها إقامة ولائم حافلة، وذلك طقس ساد في كل أنحاء الإمبراطورية، حيث يجلس الخان في تلك الخيام مواجهاً الجنوب على منصة في النهاية الشمالية للقاعة، وتجلس زوجته الرئيسية بالقرب منه عن جانبه الأيسر، ويجلس الضيوف الذكور عن يمينه وبمواجهتهم تجلس السيدات. وتستمر الوليمة عدة أيام. وأحياناً، ينبغي على

(72) Alamut قلعة ألموت: كانت بمثابة البلاط الرئيسي للحكام الإسماعيليين، شمال قازفن. دمرت على يد هولاكو عام 1256.

(73) قرب كردستان حالياً.

المشاركين في تلك الولائم الظهور بملابس ذات تصاميم وألوان معينة، والتي تُبدّل كل يوم. ويتناوب الأمراء من العائلة الذهبية، الإشراف على طقوس الضيافة، فيولم كل منهم حسب دوره، تاركاً بصماته على تلك المناسبة، ومشجّعاً الجميع على تجرع كؤوس «الجامها jamha»، مرتدياً «الجاماها Jamaha» الخاصة بالاحتفالات، وكل ذلك من دون أن يُهمل مهامه الرسمية»(8).

وكانت فرصة المغول لإرضاء أهوائهم في ممارسة الصيد ورمي الرمح والصيد باستخدام الصقور، تشكل أحد أهم الإغراءات لإقامة تلك المخيّمات الموسمية. فهم يتعلمون الفروسية، ويتدربون على استخدام الرمح في وقت مبكر.

وحتى بعد تشكيل المدن والقصور الدائمة لم يتخلوا عن الخيمة، فقد ظلوا ينقلونها معهم أينما حلوا. فقبلاي خان أمر بنصب خيام في حدائق وقصور عاصمته الجديدة تا تو (بكين)، خصصت لأبنائه وأقرانهم من الأقرباء والأصدقاء. ومن الملفت للانتباه أن تلك الخيام كانت تُستخدم من قبل سيدات البلاط الحوامل، حيث يبقين فيها عدة أسابيع قبل الولادة للاستجمام والراحة. واحتراماً لارتباطه بحياة أجداده، أمر قبلاي خان بشحن تراب وعشب من أراضي السهوب لاستخدامهما في حدائق قصوره المدنية. ولم يكتفِ بذلك بل أحضر نماذج لنمور اصطناعية تتحرك ميكانيكياً، لكي يذكّرهم النظر إليها بحيوانات السهوب الأصلية.

قره قورم

كان أوقطاي خان، أول حاكم مغولي أسس مدينة. فعلى عكس أبيه جنكيز خان الذي آمن بأن الممالك التي يُسيطَر عليها من فوق صهوة الحصان، يجب أن تُحكَم بالطريقة عينها أيضاً، صمم هو على بناء عاصمته الخاصة مبقياً فقط على ما يناسب غايته من المقاييس الرعوية القديمة. وقره قورم التي تعني «الحجارة السوداء» أو «الجدران السوداء» بُنيت في قلب الأراضي المغولية على نهر «أورخون Orkhon»، وهي المنطقة التي كانت من قبل تابعة لأونغ خان (أو طغرل خان) زعيم قبيلة الكرايت. وكانت في القديم أيضاً موقعاً تابعاً للمملكة التركية، وبقايا جدران «أوردو باليك –Ordu

Baligh»[74] شاهدة على ذلك.

أقيمت قره قورم فوق سهب مفتوح، مما يسمح للرياح بأن تلفحها من جميع الجهات، منقية هواءها من البعوض. وقد روعي أن تكون مصادر المياه قريبة، لكن ليس إلى الدرجة التي تجعل الماء ملوثاً بمخلفات التجمع السكاني. كما أن الجبال قريبة منها أيضاً فتشكل ملجأ موسمياً لقطعان الحيوانات. وبشكل عام إنه موقع مثالي لمخيّم رعوي مؤقت، ولكنّه لا يعدو أن يكون لعنة كموقع اختير ليكون عاصمة دائمة. فلا مفر له من قبضة الرياح القارسة التي تعصف بالسهوب شتاء. كما يتحتم استيراد المواد الغذائية من مناطق بعيدة، إذ لا قدرة للمدينة على إنتاجها محلياً. وقد بدأ إنشاؤها بشكل فعلي حين أطلق أوقطاي خان، سهماً لتقرير موقع أول حجر أساس، ولتحديد طول البناء. وهكذا ولدت قره قورم عاصمة الإمبراطورية، برمية رمح.

ذكر رشيد الدين عن أوقطاي خان قوله إنه يريد لمدينته أن تكون بروعة مدينة بغداد، التي يعتبرها أجمل مدن العالم. وهكذا بدأوا بجمع البنائين المهرة والحرفيين المتخصصين والفنانين البارعين من كل أنحاء البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، ثم جيء بهم إلى موقع البناء. وقد أقيمت مكاتب بريد سُميت «يام yam» كل 15 ميلاً، لربط قره قورم بمدن الصين، فبني ما يعادل 37 مركزاً للبريد(9) وكانت تلك المراكز بمثابة محطّات مجهزة بالأَسِرة والطعام والخيول. كما خصصت لكل محطة منها ثكنة عسكرية «هازارا hazara» تضم 1,000 جندي لتنظيم سير العمل وإحلال الأمن وحراسة العربات المحملة بمواد البناء والمؤن والتي يصل منها زهاء 500 واحدة يومياً. وأما الحافلات المحملة بجعة الشعير والزنجبيل فقد كانت تحتاج إلى ستة ثيران لجرها.

بدأت قصة بناء العاصمة بأمر من أوقطاي خان لتشييد قصر فخم لنفسه، ولكنه بعد وقت قصير قرر بأنه يتوجب أن تكون لإخوته وأبنائه والأمراء الآخرين مساكن ثابتة بالقرب من قصره، وبهذه الطريقة بُنيت المدينة. وفي رأي الخان إن ذلك البناء هو «رفع الأساس لسيادة العالم وتشييد صرح الازدهار»(10). وكان قصره ذا جدران

(74) Ordu – Baliq أوردو باليك: أو مدينة البلاط، أو الجيش، كانت أول عاصمة للإمبراطورية الأوغورية (التركية)، تقع على بعد 17 كم من عاصمة المغول الأولى قره قورم.

بالغة الطول، ودعائم فخمة لتناسب ملكاً نبيلاً مثله»(11) وقد طُلي بألوان مختلفة وزُين بزخارف من تصميم الفنانين الخيتانيين. عمل أوقطاي خان على أن تُمنح تزيينات مخازن الخمرة اهتماماً خاصاً، فأمر بصناعة الأواني المصبوغة بماء الذهب والفضة على شكل فيلة وأسود وخيول... تنسكب الخمرة و«القُمز Kumiss»[75] من أفواهها إلى أحواض من ذهب. وفي حين كان العمل جارياً على إنشاء العاصمة، تابع النبلاء، والأمراء السكن في خيام خاصة على مقربة منها.

ومع أنه بدأ العمل على بعض الأبنية عام (1220م) إلا أن تشكل المدينة لم يبدأ حتى عام (1235م). كان بلاط الحكم (والذي هو قيد الإنشاء حينها) يبعد مسافة سفر يوم كامل على الحصان، حسب بعد مخيّم أوقطاي خان أو قربه في ذلك الحين.

كُلّف البناؤون المسلمون ببناء سُرادق للعائلات. وقد خصص أوقطاي خان قصره «ساوري Sa uri» لممارسة تسلية تتلخص في استخدام الصقور لصيد طائر الماء (نوع من البط والإوز البري). وقد ألف الجويني قصيدة حول تلك القلعة الفارهة المليئة بكل أنواع المطرزات المرصعة بالجواهر، وبكل أنواع السجاد الفاخر. وقد وصف إقامة الخان مدة أربعين يوماً فيها، أثناء فصل الربيع حيث كعادته «ينغمس كلّية في المتع واللهو والشراب، باسطاً إلى اللانهاية سجادة الكرم والسخاء»(12). كما أنشئ سرادق وقصور أخرى كي يتنقل أوقطاي خان في ما بينها كلّما طاب له ذلك. وأتى على ذكر هذا السرادق أو السيرا أوردو بشكل خاص، العديد من المراجع بما فيها الأوروبية، فقيل: إن له أسقفاً مشبكة من الخشب، مع سقف أساسي من القماش المطرز بالحرير والذهب (نسيج)، وجدرانه ملفوفة باللباد الأبيض. وهذا السرادق كان فارهاً وضخماً لدرجة أن بإمكانه استيعاب 10,000 شخص، أما السيرا أوردو فيمكنها استيعاب 1000 شخص وهي مثبتة من الخارج بمسامير ذهبية، ومن الداخل مبطنة بقماش ثخين مطرز (نسيج). وحين زار الراهب كاربيني خيمة كويوك خان وصفها بأنها «مدعمة بأعمدة مغطاة بصفائح من الذهب، وعرائضها الخشبية مثبتة إلى بعضها بعضاً بمسامير من ذهب، وأما سقفها فمن القماش المطرز بالذهب والحرير»(13). كما ذكر أن لديه قصراً

(75) Kumiss القُمز: شراب يصنع من تخمير اللبن.

صغيراً مقاماً على قمة التلة على بعد ثلاثة أميال من العاصمة.

وفي الحقيقة إن قره قورم كانت بمثابة بيت كبير للبنائين والحرفيين وأتباع الطبقة الحاكمة وخدمهم. ورغم أنها لا تنتج إلا القليل، إلا أن استهلاكها كبير. فكانت تشكل محطة للقوافل التي تأتي محملة بالرسل والهدايا والبضائع والقادمة من كل أنحاء العالم. ومن المحتمل أن الأسرة الحاكمة، وحاشيتها من النبلاء والأمراء وعوائلهم لم تكونا لتمضيا فيها الكثير من الوقت، ولكنّها كانت مزدحمة بكل أنواع الموظفين والإداريين بمن فيهم الكتاب والمترجمون الذين جاؤوا من شعوب وأنحاء مختلفة من الإمبراطورية لخدمة البلاط في العاصمة.

وعلى تلة فوق العاصمة، أقيمت حديقة للخان أوقطاي لها أربع بوابات، ولكل واحدة منها مهمة مختلفة. واحدة مخصصة لخروج الخان ودخوله، وواحدة لأميراته، والثالثة لأولاده وأقربائه وأما الرابعة فلعامة الناس. وفي داخل تلك الحديقة بنى المعماريون الصينيون، قلعة لها أربع بوابات أيضاً، ومجموعات مختلفة من الأدراج، واحدة منها للخان نفسه ومجموعة منها لسيداته والمجموعة الثالثة للندل والخدم والطباخين. وتوضع عادة كمية كبيرة من المشروبات الكحولية التي يصعب تحريكها لثقلها في أماكن معيشة النُدل إلى جانب الفيلة والجمال والخيول والخدم القائمين على خدمتها، لتكون في متناول اليد وقت الولائم العامة. وجميع أدوات الطعام في قصر الخان مصنوعة من الذهب والفضة ومرصعة بالجواهر، إذ يستمتع الإمبراطور بها مرتين في السنة. «فكلّما دخلت الشمس في نطاق برج الحمل، وعمت السعادة العالم، يبتسم وجه الأرض بعد أن تبكي الغيوم فوقه، مشرقاً ومعلناً عن فرحه بتفتح الزهور»(14). هكذا يصف الجويني إقامة الخان هناك.

وبالتدريج بدأ ينمو في قره قورم مجتمع ديني مزدهر، عاكساً التنوعات الروحية للإمبراطورية. وكان من السهل إيجاد أماكن عبادة لمختلف الديانات كالطاوية والمسيحية والبوذية والإسلامية، وكانت تجري حولها نقاشات عامة لإمتاع الخان. وأحد هذه النقاشات حدث أمام مونكو خان، وقد افتتح وليام الروبريكي الجدال محذراً جميع الأطراف بقوله: «هذا حكم مونكو خان، وأتحدى أن يتجرأ أحدكم على

نفي قدسيته التي تشبه قدسية مرسوم إلهي، ويجب ألا تسول لكم أنفسكم العصيان والتمرد، لأن ذلك عاقبته الموت المحتوم»(15). وفي مثل هذا الوقت كان هناك زهاء 12 معبداً لأديان غير محددة أو واضحة المعالم، ومسجدان وكنيسة واحدة. وكانت الجدران الطينية تحيط بالمدينة، ولكل من بوابات المدينة الأربع عملها التجاري الخاص. ففي البوابة الشرقية تباع الذرة البيضاء وبعض الحبوب الأخرى، وعند البوابة الغربية تباع الخراف والماعز، في حين كانت البوابة الشمالية مخصصة لبيع الخيول، أما البوابة الجنوبية فكانت لبيع قطعان البقر والحافلات.

لم يكن وليام الروبريكي راضياً تماماً عما رآه في العاصمة حين زارها عام (1254م) فقد أعلن عدم سروره قائلاً: «ليست هذه المدينة بمثل حسن مدينة القديس دينيس، فدير تلك أفضل بعشرات المرات من قصر هذه»(16).

وإذا استثنينا أسوار القصور، فإن المدينة مقسمة إلى قسمين: قسم «ساراسينز Saracens» مثلما يطلق الأوروبيون هذه التسمية على المسلمين في غرب آسيا، وفي هذا القسم توجد الأسواق، حيث يتجمع التجار قريباً من أراضي المخيّمات، وقريباً من أماكن وجود المبعوثين الأجانب والزوار. والقسم الآخر كان للصينيين الذين يدعي وليام الروبريكي بأنهم كانوا جميعاً من الحرفيين المهرة.

وقد أعجبه قصر مونكو خان أكثر من المدينة نفسها، التي لم تكن بالفعل تنشط إلا أثناء وجود أهل البلاط فيها. وقد وصف القصر بأنه يشبه كنيسة «بصحنها المعتاد في الوسط، وجانبيها الممتدين خلف صفين من الأعمدة وثلاثة أبواب إلى جهة الجنوب»(17). ولم يذكر مثل الجويني، المزيد من التفاصيل عن الكنيسة، ولكنّه جاء على ذكر ما يشبه آنية ثابتة على شكل شجرة للشراب صنعها الحرفي الفارسي «وليام» الذي صار صديقاً لوليام الروبريكي.

وعندما وقعت أراضي الفُرس والمناطق الجنوبية في يد المغول، انتقلت عاصمتهم للجنوب وأخذ الخراب يغزو قره قورم بالتدريج. كما أخذت مدن أخرى تحتل مكانها في خدمة الخانات.

«بكين Beijing» «خان باليق Khan Baliq»، «تا– تو Ta-To»، «تايدو Taidu»،

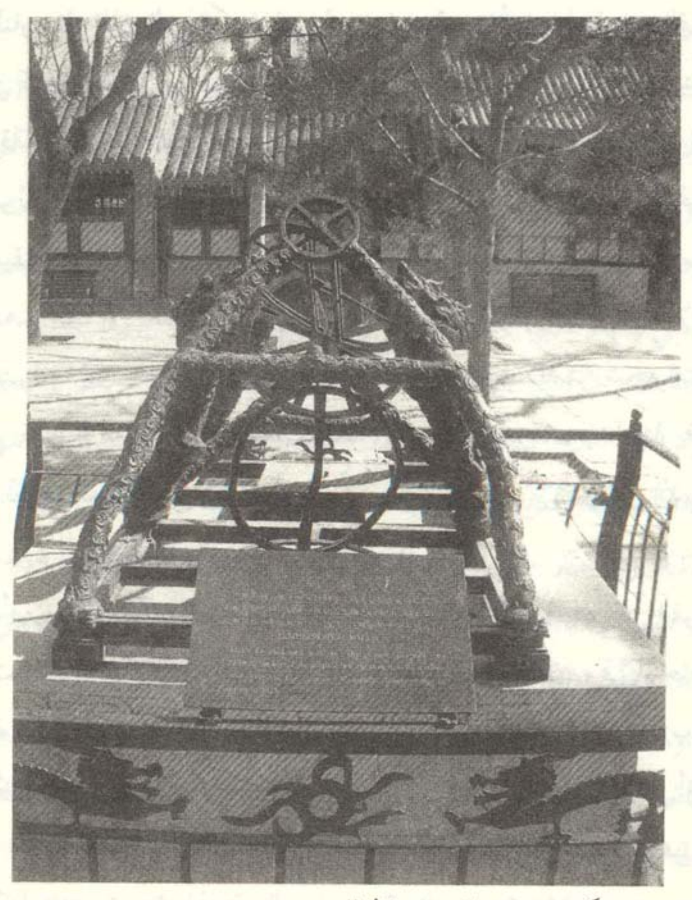
«دا- دو Da-Du»، «يان- دو Jung-Du»، «وزونغدو Zhongdu»

أصبحت بكين، عاصمة للإمبراطورية المغولية عندما تولى قبلاي خان عرش الصين الموحدة. وكان جنكيز خان عام 1215 قد سلبها من أيدي الصينيين الذين كانوا يعتبرونها عاصمة لمناطق الشمال، ويطلقون عليها اسم «زونغدو». وكان قد عين فيها أحد أتباعه من المسلمين المخلصين (محمود)«يالاواش» Yalavach كأول حاكم عليها. ويصف عبد الله بن فضل الله شرف الدين الشيرازي، مؤرخ الإمبراطورية المغولية في إيران نحو عام 1320 خان باليق في تأريخه لزمن الإلخانات في إيران، فيقول إن قبلاي خان بنى جدران المدينة في أوج حكمه، وأطلق عليها اسم «تايدو» Taidu الذي يعني في الصينية المدينة العظيمة. طليت الجدران باللون الأبيض، وكانت لها فوهات لإطلاق النار مثل تلك التي تكون في الحصون. وقد ملأها بالحرفيين والفنانين الذين جلبهم من كل أنحاء الإمبراطورية. وسرعان ما صارت مكاناً متألقاً ومزيناً في جميع أنحائه. وقد ذكر رشيد الدين أنها حوت 17 برجاً يبعد أحدها عن الآخر نحو فرسخ (ما يقارب ثلاثة أميال). وفيها جادات (شوارع عريضة مشجرة) أكثر مما فيها حارات أو أزقة ضيقة كعادة المدن الصينية. وهذه الجادات، تسمح بمرور تسعة فرسان يخبون على جيادهم جنباً إلى جنب. ومن كل بوابة فيها يمتد البصر حراً حتى البوابة المقابلة. وداخل جدرانها تمتد حدائق وبساتين مشجرة وأسيجة مشكلة من شجيرات مستوردة من جميع بقاع الإمبراطورية. ومعظم هذه الأشجار مثمرة. وقد اختار قبلاي خان هذا الموقع لعاصمته بدلاً من «شانغدو» حتى يهدّئ من روع الصينيين الذين ارتبطت الأخيرة في ذاكرتهم بالقبائل الرعوية وغزواتهم المرعبة.

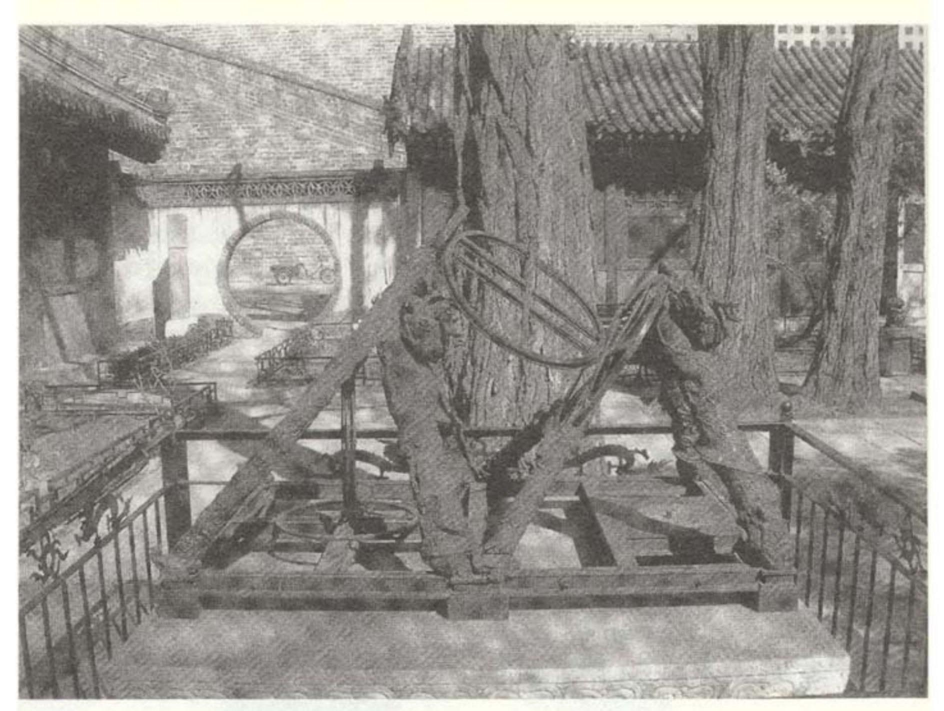
وكان تأمين احتياجات العاصمة الجديدة شغله الشاغل. فحتى في القرن الثالث عشر، كانت بلاد الخيتانيين مترامية الأطراف ومكتظة بالسكان، وفي أرجاء المعمورة كلها لن تجد مثل هذه الكثافة السكانية كما هي في هذه المدينة»(18). كان موقع المدينة على بعد اثنين وسبعين فرسخاً من خليج بو هاي. وكان نهر بونغ تينج أو سانكان المتدفق عبر المدينة يوفر المياه والانتقال إلى المناطق الداخلية من الخليج. ويمر هذا النهر عبر ممر «ناكناو»، ويؤمن ممراً للمقر الصيفي ومقر الصيد في «شانغدو».

بيد أن هذا النهر أثبت أنه غير مناسب لتلبية حاجات المدينة. فقد أمر قبلاي بإعادة ترميم القناة الكبرى وتوسيعها، وكانت المدينة قبل ذلك قد عانت طويلاً من الإهمال منذ بنائها في القرن السابع. وكان الشمال في حاجة إلى استيراد الحنطة والمواد الغذائية من الجنوب الخصب، وفي وسع القناة أن تكون أكثر فعالية في تحقيق ذلك من الطريق البحري. وقد زعم رشيد الدين أن القناة يمكن أن تؤمن الوصول إلى ميناء «زيتون» في غضون أربعين يوماً، وهو الميناء الذي يمكن أن تبحر السفن منه إلى الهند وبالعكس، ويمكن للقوارب أيضاً أن تربطه بموانئ أخرى في ماتشين (جنوب الصين).

كان توسيع القناة وتعزيزها، عملاً طموحاً وباهظ الكلفة. وقد كلف كبير وزراء قبلاي، سانجا، الذي عرف لاحقاً بلقب «الوزير الخسيس»، بهذا المشروع، الذي



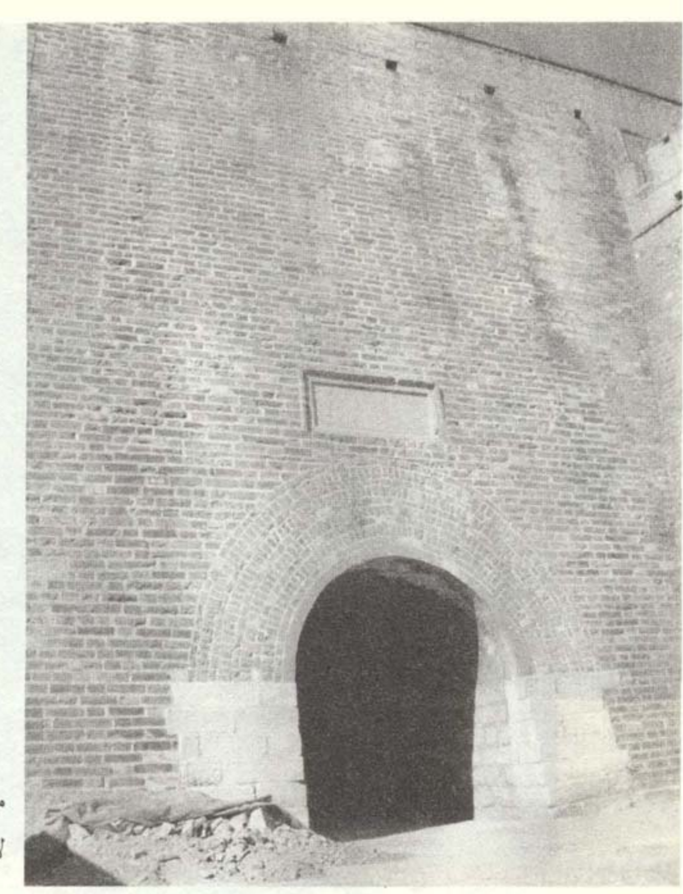
جزء من مرصد يان، بكين، بموافقة لان تيان لانج للنشر



جزء من مرصد يان، بكين، بموافقة لان تيان لانج للنشر

تضمن إضافة ألف وتسعين ميلاً إلى طول القناة، بأيدي مليونين ونصف مليون عامل. وزوّدت القناة التي يبلغ عرضها في بعض المواضع أربعين متراً، بحواجز مائية لخدمة السفن الضخمة، كما أنها سورت بالجدران. وقد شيد طريق ضخم في الوقت نفسه، وصنع أيضاً من الحجر كما زرعت على جانبيه أشجار الصفصاف وغيرها من الأشجار لتوفير الفيء للطريق والمسافرين عليه. كما أنشئت القرى والمتاجر الجانبية على امتداد الطريق الجديد. وقد أمن هذا مدّ طريق البريد الشهير «اليام» حتى يصل إلى شرقي الصين، رابطاً تبريز ببكين، عبر الخيالة الذين يمكنهم قطع 250 ميلاً يومياً.

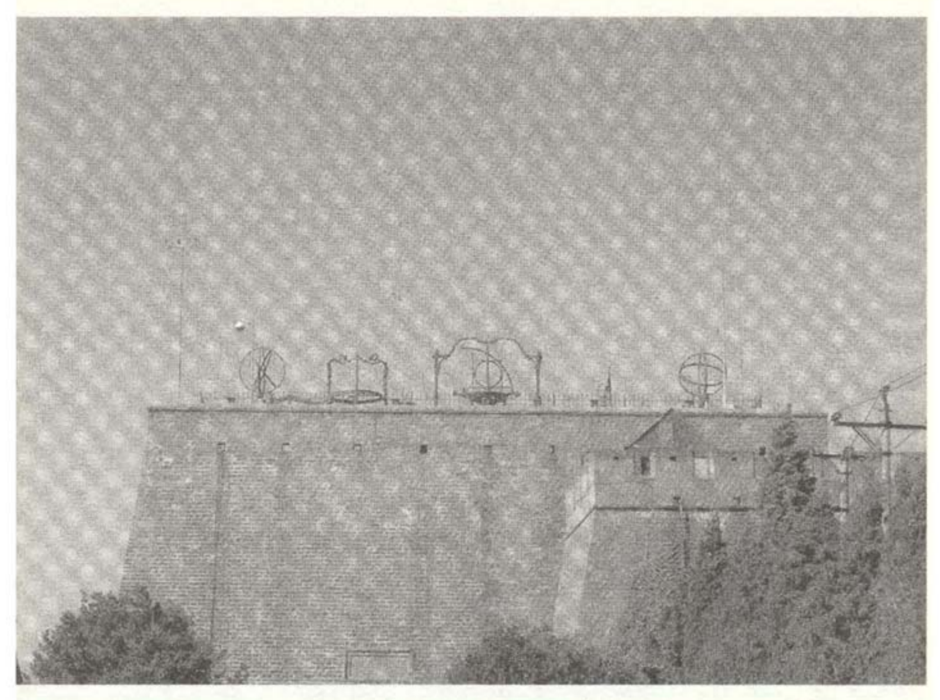
ولكي يعزّز مكانتها كمدينة عالمية خصص قبلاي أجزاء معينة من المدينة لسكن جماعات معينة. وهكذا باتت هناك منطقة للمسلمين، وأخرى للهنود، ومناطق أخرى يستطيع الأوروبيون التجمع فيها، كما يمكن أن تتركز فيها حرف معينة. وقد ذكر ماركو بولو اللومبارديين والألمان والفرنسيين الذين كانت لكل جماعة منهم



مرصد يان، بكين، بموافقة
لان تيان لانج للنشر

منطقة تخصهم. وبهذا المعنى كانت المدينة تشبه قره قورم، لكن على نطاق أكبر بكثير. إذ يروى أن زهاء عشرين ألف بائعة هوى عملن وعشن في المدينة. وأولئك النسوة أشرف ضابط على عملهن عبر فيالق من رجال الشرطة.. كل واحد منها مسؤول عما بين مئة وألف امرأة. وبعض هؤلاء النسوة كان يتوقع منهن الترفيه عن السفراء الكثر الذين يحلون ضيوفاً على الخان الأعظم. فكان السفراء وحاشيتهم يحصلون كل ليلة على نسوة مختلفات عمن يتوقع منهن تقديم خدماتهن بالمجان كنوع من الضريبة التي يدفعنها للدولة. وقد أقام الكثير من السكان في واقع الأمر في ضواحي المدينة، حيث انتشروا على بعد عدة أميال في كل اتجاه. كما انتشرت البيوت الفخمة البديعة وكذلك النزل التي تستقبل التجار القادمين من كل أنحاء العالم. وقد ذكر ماركو بولو أن أكثر من 1,000 عربة محملة بالحرير تصل إلى المدينة كل يوم، وبرّر هذا العدد الكبير بعدم





مرصد يان، بكين، بموافقة لان تيان لانج للنشر

توافر الكتان والقنب والقطن فيها أساساً، ولأنها تخدم بشكل مباشر أكثر من 200 مدينة مجاورة لها، حيث يتوافر فيها كل شيء غريب، ونادر ومن الصعب إيجاده في أماكن أخرى من العالم(19)، مما جعلها عاصمة دولية بكل معنى الكلمة. كما لم يكن بناء قبلاي خان مركزاً لسك العملة فيها بالسبب القليل وراء ازدياد وتيرة تميزها وتوجه الأنظار إليها.

الفصل الثامن عشر (مقطع من كتاب رحلات ماركو بولو)[76]

عن نوع العملة الورقية التي أصدرها الخان الأعظم وأمر بتداولها بكل أوجه مملكته

توجد بمدينة كانبالا هذه[77] دار سك النقود التابعة للخان الأعظم، الذي يمكن أن يقال

(76) المقطع التالي مقتبس من ترجمة عبد العزيز جاويد لرحلات ماركو بولو، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

(77) Kanbalu جبال كانبالو: الواقعة في شمال شرق آسيا.

عنه حقاً إنه يمتلك سرّ صنعة الكيميائي القديم. وبذلك يمتلك فن إنتاج النقود باتباع الطريقة التالية: فإنه يأمر بنزع اللحاء من أشجار التوت التي تُستخدم أوراقها لتغذية دودة القز، ويأخذ منها تلك القشرة الداخلية الرقيقة التي تقع بين اللحاء اليابس الخشن وخشب الشجرة. فتنقع تلك القشرة، ثم تدق بعد ذلك في هاون، حتى تتحول إلى عجينة، يصنع منها الورق الذي يماثل في مادته الورق الذي يصنع من القطن ولكنه أسود تماماً.

فإذا أصبح معداً للاستعمال، أمر به فقطع ليكون نقداً ذا أحجام مختلفة، وهو مربع تقريباً، ولكن طوله أطول قليلاً من عرضه، وأصغر هذه العملات يعدّ معادلاً للدنيير التورنوازي (نسبة إلى مدينة تور الفرنسية)، ويعادل الحجم التالي غروتا فضياً بندقياً، ويعادل آخر غروتين وخمس عشرة، وثمة آخر يعدل بيزنطياً واحداً من الذهب واثنين وثلاثة وما يصل إلى عشرة.

وتعطى هذه العملة شرعيتها بكل وقايات الشكل والمراسم، كأنما هي مصنوعة من الذهب الخالص أو الفضة، ذلك أنه في كل عملة منها هناك عدد من الموظفين المخصّصين، لا يقتصرون فقط على وضع أسمائهم، بل يمهرونها بأختامهم أيضاً. فإذا صدرت هذه العملة منهم جميعاً على المنوال المتبع، تولى كبيرهم، المفوض من جلالته، وقد غمس في صباغ الزنجفر القرمزي الخاتم الملكي الموضوع في حيازته، وختم قطعة الورق به، بحيث يبقى شكل الخاتم المصبوغ بالزنجفر مطبوعاً عليها، وبهذا تكتسب صفة الشرعية التامة لعملة متداولة، ويعدّ تزويرها جريمة كبرى عقوبتها الإعدام.

فإذا تمّ سك هذه العملة الورقية هكذا في مقادير كبيرة، تم تداولها بكل جزء من أجزاء دولة الخان الأعظم، كما لا يجرؤ أيّ إنسان - وإلا عرض حياته للموت - على رفض قبولها عملة للدفع.

ومن ثم فإن كل رعاياه يتقبلونها بغير تردّد، ذلك لأنهم يستطيعون التصرف بها، باستخدامها ثانية في شراء البضائع التي قد يحتاجون إليها، مثل اللآلئ أو الجواهر أو الذهب أو الفضة، وخلاصة القول إن في الإمكان الحصول بها على كل سلعة.

ويحدث عدة مرات على مدار السنة أن تصل قيراوانات (قوافل) ضخمة من التجار، تحمل السلع الوارد ذكرها تواً، ومعها المنسوجات الذهبية، فيضعونها بين يدي الخان الأعظم وعندئذ يستدعي اثني عشر شخصاً من ذوي الخبرة والمهارة، يُختارون لهذا الغرض، فيأمرهم بفحص السلع ببالغ العناية، وتحديد القيمة التي ينبغي أن تباع بها، ثم يسمح بمكسب معقول يضاف إلى المبلغ الذي قُدّرت به البضاعة على هذا النحو من الضمير الحيّ، ثم يدفع لهم الثمن على الفور بهذه العملة الورقية، وهو أمر لا يستطيع الاعتراض عليه أصحاب البضائع،

لأن هذا يتجاوب مع أهداف إنفاقاتهم ومصروفاتهم. ومع أنهم قد يكونون من سكان إقليم لا يُتعامل فيه بهذا النوع من النقود، فإنهم كانوا يستثمرون المبلغ في سلع تجارية أخرى تناسب أسواقهم الخاصة.

وعندما يتصادف أن يمتلك أيّ شخص نقوداً ورقية بليت من كثرة الاستعمال فإنه يحملها إلى دار الضرب، حيث يستطيع الحصول على أوراق جديدة بدلاً منها مقابل دفع ثلاثة في المائة فقط. فإن شاء أيّ امرئ الحصول على الذهب أو الفضة بقصد تصنيعها، مثل صياغتها كؤوساً للشراب أو نطاقات (أحزمة) أو أي أشياء أخرى تصنع من هذه المعادن، وجب عليه بالمثل التقدم بطلبه إلى دار الضرب، حيث يحصل في مقابل ما بيده من عملة ورقية، على ما يحتاج إليه من سبائك. وتصرف أعطيات جيوش جلالته كلها بهذه العملة الورقيةالتي تعد عندهم بنفس قيمة الذهب أو الفضة، وعلى هذا يمكن التأكيد حقاً أن الخان الأعظم يملك في حوزته قدراً من الأموال والكنوز يفوق كل ما يملكه أيّ عاهل آخر على وجه البسيطة»(20).

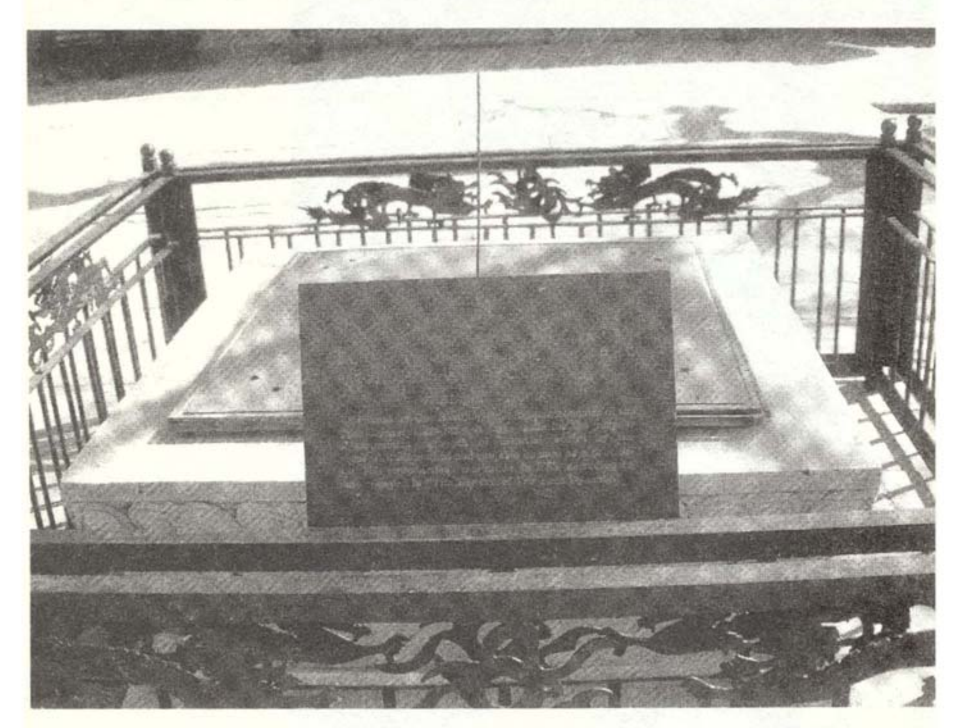


مرصد يان، بكين، بموافقة
لان تيان لانج للنشر

يحرس بوابات المدينة الاثنتي عشرة 1,000 حارس مسلح، حيث لم تكن هذه الحراسة المسلحة تحسباً لأي تمرد محتمل بقدر ما كانت لتعزيز مكانة الخان الأعظم وسلطته، كما هي الحال بالنسبة للحرس الشخصي لقبلاي خان، ويسمون الـ «كشيكتن Keshikten»، وهم بعددهم الذي يتجاوز 12,000 فارس يؤكدون قوة واتساع ثراء من يعملون في حماه وتحت سلطته. ويقرع حراس المدينة ناقوس منع التجول داخل أسوار المدينة عند الغروب، لتنبيه أهل المدينة بضرورة إغلاق أبوابهم والتوقف عن التجول في الشوارع، ويقوم ما يقارب 30 حارساً بالتجول في المدينة، لإلقاء القبض على كل من يخالف تلك الأوامر حيث يعاقب بالضرب المبرح.

وأما عقوبة الإعدام فتتم خارج أسوار المدينة، لأن إراقة الدماء داخلها أمر ممنوع. كذلك يمنع إحراق جثث الأموات أو دفنهم داخل أسوارها.

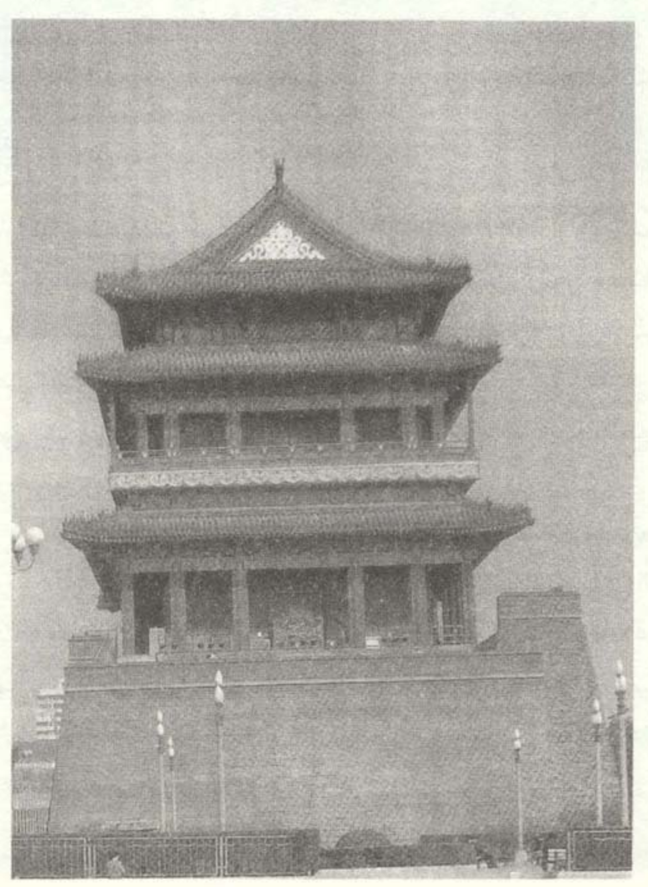
وقد بني قصر قبلاي خان (قارشي) من الخشب، وامتد على مساحة تعادل 400



مرصد يان، بكين، ألواح جاو جوشينغ السماوية، بموافقة لان تيان لانج للنشر

«بيس pace»[78] في كل اتجاه، وكان يقضي فيه شهور الشتاء. وكما جاء على لسان المؤرخ وصّاف حسب طريقته التفخيمية المعتادة أنه كان بناءً «مليئاً بالنوافذ والقباب، بهياً... حتى لتخجل قبة السماء من سنائه وروعته»، وهو لا يشبه في شيء القصر البسيط الذي ترعرع فيه جده جنكيز خان. فقد رصعت أرضيته بالأحجار الكريمة، وصنعت أطر النوافذ من الذهب والفضة، وحفل بالعديد من التماثيل الموزعة في كل أنحائه والتي تمزج بين روعة الفن والحكمة والذكاء. كما علق رشيد الدين على أرضيته وأعمدته الرخامية وأشار إلى نظافتها وجمالها الأخاذ. وقد ذكر أن لكل من الجدران مهمته الخاصة، فالجدار الخارجي مخصص لربط الخيول، والجدار الداخلي لجلوس

(78) Pace بيس: وحدة قياس للمسافة سادت قديماً في روما، وتعادل قدمين ونصف القدم.



ساحة تيان مين، بكين، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

الأمراء في اجتماعاتهم اليومية، والجدار الثالث للحرس والرابع لحاشية البلاط.

كذلك عبّر الراهب أوديرك من بوردينون، والذي تنقّل في الصين سنة 1320، عن إعجابه ودهشته بعد زيارة ذلك القصر، وقال يصف ما رآه:

«لهذه المدينة اثنتا عشرة بوابة تفصل بينها مسافة ميلين، وتتوزع بين جزءيها القديم والجديد، حيث تغطي مجتمعة ما يعادل 40 ميلاً. وهنا شُيد قصر الخان الأعظم، كما انتشرت عدة قصور رائعة أخرى. وتضم أسوار قصر الخان داخلها بناء آخر، يبعد عن القصر مسافة رمية رمح، وهو لمخازن الخان وعبيده. في حين أن البناء الأكبر من القصر له ولعائلته الكبيرة من الأبناء والبنات والأصهار والأحفاد. وهكذا يشغل قصر الخان مسافة أربعة أميال. وبالقرب من البناء المجاور للقصر والتابع لحاشية الخان، ترتفع تلة شُيّد فوقها قصر آخر للخان، هو غاية في الجمال، وأما التلة فمغطاة بالأشجار مما جعلهم يطلقون عليها اسم «الجبل الأخضر» وإلى جانبها تقع بحيرة تمتد مسافة ميل، أقيم فوقها جسر بديع من المبهج الوقوف عليه لتأمل البط والإوز البري الذي يسبح في تلك البحيرة، فلا يحتاج سيد القصر إلى مغادرة المكان طلباً للتريض والتسلية. وداخل تلك الجدران ترتفع أجمة مليئة بالحيوانات البرية المختلفة التي يستطيع مطاردتها وصيدها من دون اضطرار إلى الخروج من المنطقة. ولكن قصره الأساسي أكثر اتساعاً وروعة. فالدور السفلي من البناء يرتفع مسافة بيسين (نحو خمسة أقدام) عن الأرض، وفيه 24 عموداً من الذهب، وأما الجدران جميعاً فمغطاة بجلود صبغت باللون الأحمر، ويقال إنها من أجود جلود الأرض. توجد في وسطه جرة كبيرة على ارتفاع بيسين أو أكثر، وهي مشكّلة كلية من حجر اليشم[79] باهظ الثمن، إذ قيل لي إن ثمنه يعادل ثمن أربع بلدات مجتمعة. وهي مؤطرة بالذهب، وعند كل زاوية منها، وقف تنين على وشك الانقضاض على فريسته، كما أنها مزينة بشراريب عُلقت جواهر ثمينة فيها، ويصل الشراب إليها من أنبوب ممدود في البلاط وبجانبها عدة طاسات ذهبية لاستخدامها في الشرب. وفي قاعته أيضاً هناك عدد من الطواويس الذهبية. وعندما يرغبون في تسلية الخان الأعظم يسيرون خلف بعضهم بعضاً، مصفقين بأيديهم فتتحرك أجنحة الطواويس تزامناً مع حركة التصفيق وكأن تلك الطواويس ترقص مع الراقصين، ويتمكنون من فعل هذا بدافع فن شيطاني ما، أو ربما بنصب محركات تحت الأرض»(21).

---

(79) Jade اليشم أو اليشب: حجر كريم.



ساحة تيان مين، بكين، بموافقة لان تيان لانج للنشر

كما أعلن ماركو بولو عن إعجابه بهذا القصر أيضاً ووصفه على النحو التالي: «غُطيت الجدران من الداخل بالذهب والفضة، وزُخرفت برسوم فرسان وتنانين وكل نوع من أنواع الطيور والحيوانات»(22). وقد استمر هذا النوع من الزينة ليغطي السقف المقبب لغرفة الاستقبال في القصر والتي تستوعب 6,000 شخص. وفيه عدد لا يحصى من الغرف، ويرى ماركو بولو أن تصميمه من أجمل ما رآه في حياته. وذكر أيضاً وجود قصور أخرى إلى جانبه تابعة له، لتضم ممتلكات الخان الشخصية مثل «كنوزه من سبائك الذهب والفضة والأحجار الثمينة والجواهر وأدواته وأوعيته من الذهب والفضة»(23). وفيها أيضاً الأجنحة الخاصة بزوجاته ومحظياته. وجميع أوصاف تلك القصور تؤكد حيوية زخارفها وألوانها الأخاذة وخاصة الأسقف التي كانت مصبوغة بالأرجواني والأخضر والأزرق السماوي والأزرق والأصفر، وكلها تبرق تحت أشعة الشمس كالجواهر. وهذه القصور الواضحة للعيان عن بعد عدة أميال بُنيت لتدوم وتعمر.

كما ذكر ماركو بولو قصر «الجبل الأخضر» وحدائقه، والبحيرة وما يحيط بها من أجمات وحيوانات بريّة غريبة. وذكر أنه بين الجدران الداخلية والخارجية للقصور شُيدت الحدائق والأيكات والبساتين، حيث تتجول الحيوانات وتحلق الطيور. فالغزلان والأيائل ترعى بكثرة في تلك المناطق، التي كانت هضبة اصطناعية من الأرض بارتفاع 100 بيس، وبمحيط ميل واحد، وقد جُرّت تربة تلك التلة من مكان حُفِر ليكون بحيرة لتربية الأسماك. تُوِج قصر «الجبل الأخضر» بسرادق، وأُحيط بأشجار دائمة الخضرة جُلبت من كل أنحاء الإمبراطورية. فقد قيل إن قبلاي خان كان كلّما سمع بنوع جديد من الأشجار، أمر بإحضاره وغرسه في حديقة قصر «الجبل الأخضر». كذلك تزود بحيرة القصر مائدته بأنواع مختلفة من لحوم الأسماك والبط البري.

كساندو Xanadu، كيمن– فو Kemin-Fu، تشيمنفو، كاي– بينج Chemeinfu, K ai –Ping، شانج – تو Shang-Tu، شانغدو Shangdu)

«في كساندو
صدر مرسوم قبلاي خان المبجل
لإنشاء قبة السعادة
حيث يجري نهر ألف المقدس
عابراً كهوفاً لا تحصى
ومتجهاً إلى بحر الظلمات»

(صموئيل تايلر كولريدج، قبلاي خان)[80]

كانت كساندو مدينة قائمة حقاً، وهي بمثابة عاصمة صيفية لقبلاي خان، وهو من أطلق عليها اسم «كاي–بينج K ai –Ping»، كما اختار موقعها أيضاً، والذي يبعد شمالاً نحو 125كم عن عاصمة الصين الحالية «بكين»، مستعيناً بعلم الجيومانسي

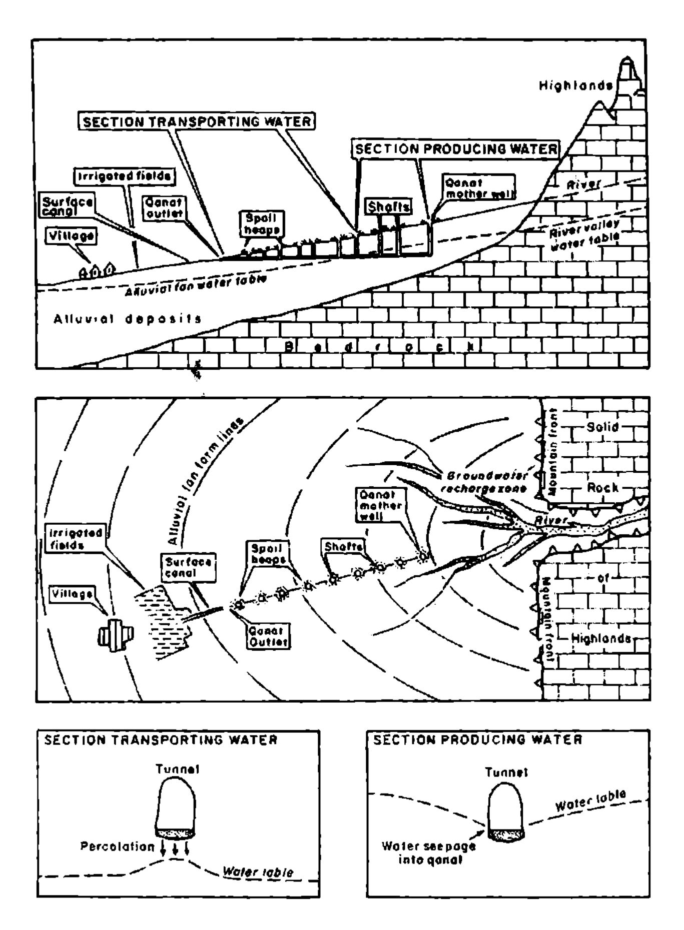
(80) المقطع مأخوذ من قصيدة بعنوان «قبلاي خان» لصموئيل تايلر كولريدج التي نشرت عام 1816. ونهر ألف «Alph» المذكور فيها هو نهر يعبر القطب الجنوبي أطلق عليه هذا الاسم جريفث تايلر مأخوذاً من هذا المقطع نفسه في قصيدة كولريدج.

القديم «Geomancy» المعتمد على موقع الرياح والماء، وكذلك على خبرات الصينيين وحكمتهم. ومن خلال بناء هذا المركز الحضري المهم على الحد الفاصل بين السهوب وأراضي الصين الزراعية أرسل قبلاي خان رسالة لكل رعيته، مفادها أنه لم يأت محتلاً وإنما حاكماً، وأن سلطته واسعة، وتشمل السهوب والمناطق الزراعية معاً. وفي عام 1263 غيّر اسم المدينة مرة أخرى وسماها «شانج – تو Shang –Tu» أو «العاصمة العليا» وصارت تلك المدينة التي كانت بلدة صغيرة، عاصمة صيفية ومنطقة مخصصة للصيد. فقد اعتمد في تخطيط مساحاتها على أساليب تُسهّل المطاردة والصيد، مُستمدة من خبرات المغول والصينيين معاً، وكذلك جرت الاستفادة من أشكال بناء المدن الصينية الأخرى. فتألفت المدينة من ثلاثة أقسام أساسية محاطة بجدار ترابي مربع بارتفاع يعادل 12 إلى 18 قدماً. كما كانت لها ست بوابات للدخول والخروج، أربع منها على الجدارين الغربي والشرقي واثنتان على الجدارين الشمالي والجنوبي. كل بوابة مزودة ببرج للمراقبة والحماية. وكان يعيش أكثر من 200,000 مواطن داخل تلك الأسوار في بيوت من طين وخشب. كما شُيدت المعابد البوذية في هذا القسم الخارجي أيضاً تماشياً مع طقوسهم الصينية. وبالإضافة إلى وجود الكثير من الأبنية الأخرى التي جرى تأسيسها بناء على إرشادات من «كتاب آل شينغ» أو «التغيرات»[81] الذي ما زال متداولاً إلى اليوم.

يحوي الجزء الداخلي من المدينة قصر قبلاي خان، والأبنية المخصصة لحاشيته وخدمه. وهو مربع الشكل أيضاً، ويحيطه سور من الآجر أو القرميد بارتفاع 10 إلى 16 قدماً، وله أربعة أبراج صغيرة. يرتفع القصر على أساس ترابي مقوى بالصخور وعوارض الخشب، بسبب رطوبة التربة ولزوجتها في تلك المنطقة، حسب ما ذكره رشيد الدين: «ولأن الماء يتسرب إلى جوف الأرض، ثم ينبع بعد مدة من أماكن أخرى

(81) The Book of Changes كتاب التغيرات أو آل شينغ: هو أحد أهم خمسة كتب في التراث الفلسفي الصيني. اعتمده الصينيون في الأزمنة الغابرة في قراءة الطالع، ونقله ريتشارد فلهلم إلى الألمانية في القرن العشرين ثم نقلته المترجمة س.ف. باينز إلى الانجليزية، وبعد ذلك نقله إلى العربية بشارعبدالله ونشره عام 2008 عن دار فضاءات في عمان، الأردن. ويعد واحداً من أقدم الكتب الصينية والذي نجا بأعجوبة من عدة محارق تعرضت لها المكتبة الصينية على مر الزمن على أيدي طغاة حكموا الصين.

في المروج البعيدة، ويسيل فوق التربة، وجب بناء ذلك القصر الصيني على قاعدة متينة»(24). ولابدّ من أن مشهد قصر يرتفع على هضبة مبقعة بالينابيع كهذا مشهد ساحر خلاّب. وأما داخل القصر فليس أقل روعة من خارجه، حيث إن جدران الأروقة والحجرات مطلية بألوان زاهية ومزخرفة بصور الطيور والحيوانات والزهور والأشجار. وجميع هذه الأبنية في القسم الداخلي من المدينة بما فيها القصر، مبنية من الرخام. وعلى الرغم من فنائها جميعها إلا أن بقايا الرخام والآجر والسيراميك تشهد اليوم على مدى فخامتها وروعتها.



أساليب ريّ تدعى «كوانت» ما زالت رائجة حتى اليوم في إيران وأفغانستان، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

وقد خُصص القسم الثالث من المدينة ليكون حديقة واسعة لممارسة الصيد، الشيء الذي لا نراه في معظم المدن الصينية الأخرى. تقع حديقة الصيد هذه شمال القسم الخارجي للمدينة وغربها، وتحوي الكثير من المروج والغابات والخمائل والجداول والبحيرات الصغيرة، وقد كان التجول مسموحاً للعامة بين النوافير والجداول الإصطناعية التي تغطي سطح مساحة كبيرة من تلك الحديقة، حيث ترعى أنواع مختلفة من الحيوانات المروضة غالبيتها من الغزلان.

كما انتشرت في تلك الحديقة، رياضة تربية الصقور والصيد بها، والتي كانت من الرياضات المعروفة والمحببة عند أبناء الطبقة النبيلة. وفيها أيضاً جرب تربية الأفراس البيض. وكان حليب الأبقار حكراً على أسرة الخان الأعظم فقط. يحيط بالحديقة سور من الطين وخندق مائي وأربع بوابات. ولم يبقَ إلى يومنا هذا منها إلا القليل، ويرجع الفضل لماركو بولو الذي خلد ذكراها في كتاب رحلاته بوصفه الدقيق.

وهكذا كانت تلك المدينة المحاطة بالجبال والأشجار والمياه الجارية محطة استجمام وهرب من أشهر الصيف القائظة والدبقة، لكن فخامة مظهرها دفعت الكثيرين من نبلاء المغول المحافظين، إلى التساؤل حول صلاح حكامهم المبذرين. فقد أخذوا عليها تطبعها بالطابع الصيني أكثر من اللازم، ما يشكّل خيانة لروح المغول وقيمهم القبلية. ومن تلك اللحظة بدأ الانشقاق داخل الإمبراطورية يأخذ منحى ثقافياً أكثر منه سياسياً.

هانغزو Hangzhou

وقعت عاصمة مملكة سونغ في أيدي المغول عام 1276. وقد تعلّق ماركو بولو بها وخاصة ببحيرتها الشاعرية، التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، ببيوتها ومطاعمها العائمة فوق الماء، مؤثراً الهرب من زحمة المدينة وضوضائها.

بدأ القائد المغولي «بايان Bayan» تسلله إلى عاصمة ملك أسرة سونغ عام 1275، وأُجبرت الإمبراطورة «دوغر سيه Dowager Hsieh» التي كانت في بداية حكمها بعد وفاة ابنها «تو – تسن Tu–tsung» على هجر عاصمتها الحبيبة والعيش في المنفى. ولكنّها

بعد وقت، أجرت تسوية مع المغول، وانضمت إلى بقية أفراد العائلة المالكة الذين فروا بأرواحهم إلى الجنوب، بعد أن كانت قد تخلفت عنهم مع ابنها ذي الأربعة أعوام.

سقطت مدن مملكة سونغ، الواحدة بعد الأخرى في يد الجنرال «بايان» من دون أي مقاومة تذكر. ولكن الإمبراطورة المعزولة قررت التفاوض مع المغول، بدلاً من الاستسلام الكامل كملكة مهزومة. وفي 23 ديسمبر 1275، أرسلت مبعوثين للتفاوض مع «بايان»، فعرضوا عليه دفع جزية منتظمة مقابل قبوله بالتراجع عن حملته، ولكنه كان على بعد خطوات من تحقيق نصر عظيم، فلم يلقِ بالاً لعرض متهور كهذا. فصرف رُسل الإمبراطورة مع رسالة فظة مفادها أن تابعين لها قد قتلوا للتو رسولاً مغولياً، وأنهم تطاولوا على مستشار قبلاي خان الحكيم الكونفوشيوسي الصيني «هاو تشنغ



محفّة من قرية سونغ في هانغزو. بموافقة لان تيان لانج للنشر

«Hao Ching» واحتجزوه. وهكذا فحتى جزية سنوية مقدارها 250,000 تايل[82] من الفضة وكذلك 250,000 تايل من سبائك الذهب لم تغير موقف الجنرال «بايان» ولم تصرفه عن مطالبة الإمبراطورة بالاستسلام غير المشروط. ولم يقبل حتى بالمفاوضات إلا في وقت متأخر عندما أذعنت الإمبراطورة لسلطة قبلاي خان، وأعلنت أنها صارت من رعاياه، لكنّها ساومت كثيراً قبل أن تسلمه ختم أسرة سونغ، وهو الأمر الذي أُعتبر استسلاماً بطريقة أو بأخرى. ورغم أن «بايان» كان يعلم أن معظم أفراد عائلتها المالكة قد هربوا نحو الجنوب بعد أن تملصوا من قبضة فرق البحث التي أرسلها خلفهم، ومع أنه اعتبر ذلك نوعاً من التمرد المبطّن على سلطته إلا أنه عامل الإمبراطورة وابنها الصغير معاملة حسنة، وأمر بعدم العبث بممتلكاتهما الشخصية أو بأضرحة عائلتهما، وترك الموظفين الرسميين في مناصبهم. وبشكل عام لم يخرّب الاحتلال مجد المدينة المعهود. وبالنسبة إلى الإمبراطور السابق فقد منح لقباً، وبعض المؤونة، وراتباً شهرياً ونفي إلى التيبت حيث أصبح راهباً في ما بعد.

حظي الجنرال «بايان» بشهرة واسعة، ومكانة مرموقة في حياته، فسجلت مآثره في تاريخ الصين، كما سجلت مآثر الجنرال «يوان شي Yuan Shih»[83] في ما بعد، وورد ذكره في مدونات رشيد الدين، وبعض المؤرخين الفارسيين الذين وصفوا شخصيته وانتصاراته، وقد خصص ماركو بولو المقطع التالي[84] لوصف سقوط مدينة هانغزو في يد المغول، والدور المهم الذي لعبه «بايان» خلال تلك الحقبة:

«فلما رفضوا الإذعان، تقدّم إلى المدينة التالية، بدل أن يصدر أوامره بالهجوم عليها، وعندما تلقى هناك إجابة مماثلة، تقدّم نحو مدينة ثالثة، ثم نحو رابعة، وكانت النتيجة واحدة في جميع الحالات. حتى إذا رأى أنه لم يعد من الحكمة ترك هذا العدد الكبير من المدن وراءه، بينما لم يكن جيشه قوياً فقط، بل إنه كان يتوقع أن تنضم إليه قوة أخرى مساوية لقوته كان

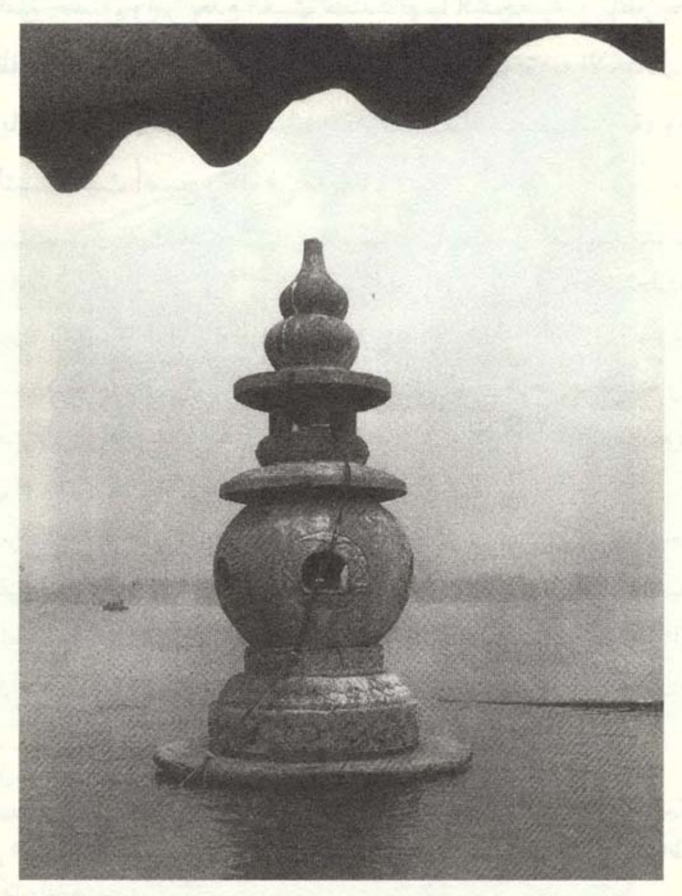
---

(82) Tael تايل: وحدة لقياس الوزن، تزن نحو 40 غراماً.

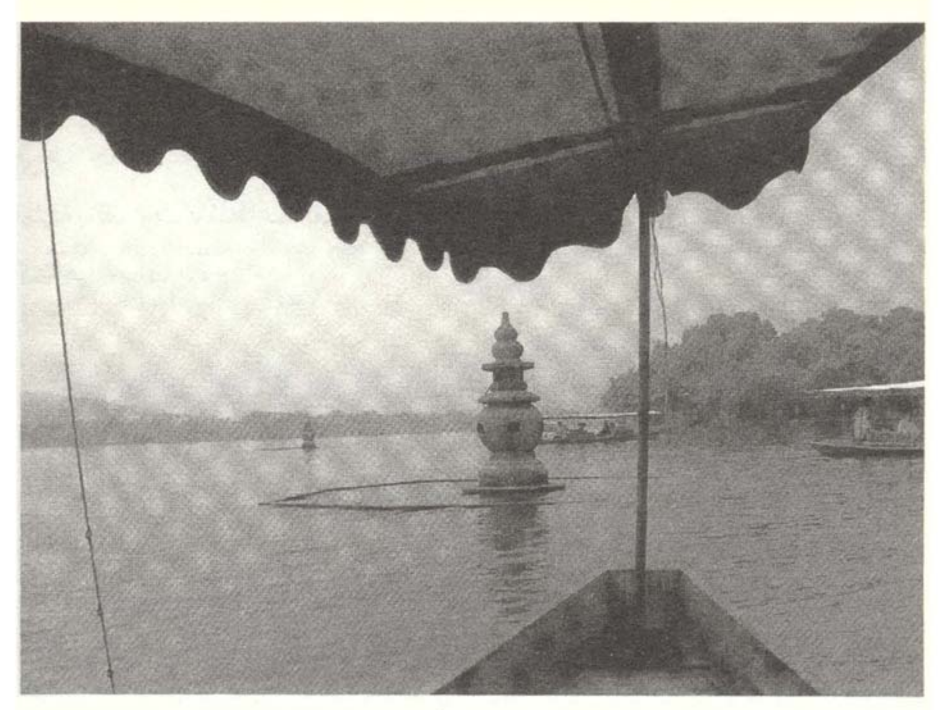
(83) Yuan Shih يان شي: جنرال صيني (1859 –1916) عرف بتأثيره السياسي خلال فترة حكم آخر سلالة ملكية في الصين «كين» وقد لعب دوراً مهماً في توجيه الأحداث لتقود إلى تنازل الإمبراطور عن العرش واحتلّ مكانه لفترة قصيرة.

(84) المقطع التالي مقتبس من ترجمة عبد العزيز جاويد لرحلات ماركو بولو، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

الخان الأعظم على وشك أن يرسلها إليه من داخلية البلاد، عقد العزم على مهاجمة إحدى هذه المدن، حتى إذا تمكّن ببذل بالغ الجهد وعظيم المهارة من اجتياح المكان، أمر بقتل كلّ فرد وجد فيه بحدّ السيف. وما كادت أنباء هذا الحدث تبلغ المدن الأخرى، حتى ملأت قلوب سكانها جزعاً ورعباً لا مثيل لهما، فسارعوا من تلقاء أنفسهم بتقديم خضوعهم. فلما أن تمّ له ذلك، تقدّم بالقوة الموحدة لجيشيه، على مدينة كنساي الملكية، وهي مقر حكم الملك «فكفور»، الذي امتلأت نفسه باضطراب ورهبة من لم يشهد معركة في حياته قط، أو اشترك في أيّ نوع من القتال، وحمله خوفه على سلامة شخصه على التماس النجاة باللجوء إلى أسطول من السفن كان على قدم الاستعداد لهذا الغرض، فأنزل فيه كل ممتلكاته وكنوزه وأدواته الثمينة، وترك رعاية شؤون مدينته لملكته مع تعليمات بالدفاع عنها حتى



عوامة تعود إلى حقبة سلالة سونغ، البحيرة الغربية، هانغزو، بموافقة لان تيان لانج للنشر



عوامة في البحيرة الغربية، هانغزو، بموافقة لان تيان لانج للنشر

آخر رمق، وهو على يقين بأن أنوثتها ستكون خير واق لها، لو وقعت أسيرة في أيدي الأعداء. ومن هنا انطلق إلى البحر حتى إذا بلغ بعض الجزر التي تقوم فيها بعض الأماكن قوية التحصين، بقي هناك حتى وافته المنية. وبعد أن تركت الملكة على الحال سالفة الذكر، يقال إنه بلغ مسامعها أن الملك أبلغه منجموه أنه لا يمكن أبداً حرمانه من ولايته، إلا على يد رئيس تكون له مائة عين. وتأسيساً على هذا التصريح أيقنت رغم أن المدينة كانت تزداد في كل يوم توتراً وضنكاً أنه ليس في المستطاع أن تسقط، إذ بدا من المحال أن يكون لأي إنسان هذا العدد من الأعين. على أنها عندما سألت عن اسم القائد الذي يقود جند الأعداء وأبلغوها أن اسمه تشن سان بايان، ومعناه مائة عين، تملكها الفزع لدى سماعها إياه، وذلك لأنها أحست اقتناعاً بأن هذا لابدّ من أن يكون الشخص الذي قد يخلع زوجها عن عرشه، طبقاً لأقوال المنجمين. وغلبها الخوف النسوي فلم تحاول بعدها إظهار أيّ مقاومة، بل عمدت على الفور إلى التسليم. حتى إذا تم للتتار امتلاك العاصمة، لم يلبثوا أن أخضعوا بقية الولاية»(25).

وكانت «هانغزو» المنتجع المفضل لدى حكام المغول وحاشيتهم بمن فيهم ماركو بولو. فقد اكتسبت شهرتها كمركز استجمام إلى يومنا هذا. وقد شيدت القاعة المركزية في مسجد المدينة الأساسي، أي «مسجد طائر الفينيق» في عام 1270، أما البحيرة الغربية المليئة بالقوارب والمطاعم العائمة اليوم فقد اجتذبت إليها قبل سبعة قرون محبي المياه كما هي حالها اليوم.

وصف مدينة كنساي العظيمة الرائعة، عاصمة بلاد منجي كلها

«وفي نهاية اليوم الثالث، تصل إلى مدينة «كين ساي» العظيمة الفخمة، ويعني اسمها «المدينة السماوية»»، وهو اسم يليق بها تماماً، نظراً لما تتمتع به من امتياز وشهرة فاقا جميع مدن العالم، من ناحية العظمة والجمال، ناهيك عن مباهجها الكثيرة التي قد تدفع ساكنيها إلى أن يظنوا أنفسهم في الفردوس... وطبقاً للتقدير المألوف فإن محيط هذه المدينة مائة ميل، وشوارعها وقنواتها رحبة، وفيها الميادين أو الأسواق التي لابدّ لها من أن تكون مفرطة الرحابة، حتى تتناسب بالضرورة مع الاحتشاد الهائل للناس الذين يترددون عليها... والشائع أن عدد الجسور فيها من مختلف الأحجام يبلغ اثني عشر ألفاً، وجعلوا القناطر التي بنيت فوق الترع الرئيسية ولها ارتباط بالشوارع الكبرى، عقوداً بالغة الارتفاع، حيث إنها بنيت بمهارة فائقة، وتستطيع السفن بسواريها المرور من تحتها.

كما أنها تحتوي على12 سوقاً لمختلف الحرف والمهن، ويضم كل سوق منها زهاء 12,000 بيت يعمل فيها الحرفيون التابعون لتلك النقابات، وفي كل بيت منها نحو 12 رجلاً، وبعضها يحوي 20 أو 40 رجلاً.. ليسوا جميعاً معلمين محترفين بالطبع، فبعضهم أجراء يعملون تحت إشراف المعلمين، ولكن لكل منهم تخصصه، إذ تزود هذه المدينة بقية المدن بكل ما تحتاج إليه من أدوات ومواد وصناعات. ويحيا المعلمون، وأصحاب تلك الحرف وزوجاتهم وأولادهم حياة مترفة كالملوك، فهم لا يشتغلون بأيديهم ومهمتهم تتمثل في الإشراف والإدارة فقط. وتورّث الحرفة من الأب للابن، وذلك بقرار من الملك. وتُخبر الوثيقة أيضاً أن ثروة تجار تلك المدينة لا تقدر بثمن.

وتوجد داخل المدينة بحيرة تمتد على مساحة تقدر بنحو 30 ميلاً، وهي محاطة بقصور وأبنية فخمة رائعة التصميم والزخارف، يقطنها نبلاء تلك المدينة وسادتها. وعلى شواطئها أيضاً الكثير من الكنائس والأديرة والمعابد الوثنية، وفي وسطها ترتفع جزيرتان، تنتشر في كل منهما صروح من الأبنية المؤثثة بطريقة تليق بالأباطرة، لتستخدم من قبل المواطنين للاحتفال

بمناسباتهم الخاصة كالزفاف مثلاً، حيث يجدون في تلك القصور كل ما يحتاجون إليه للضيافة كأطقم الموائد، ومختلف الأشياء الأخرى. وقد سمح الملك باستخدام هذه الأماكن للعامة بلا استثناء. وأحياناً تستضيف هذه الأماكن أكثر من مئة حفلة تُقام في الوقت عينه، من دون أن تعترض حفلة منها طريق الأخرى، وذلك نتيجة التنظيم الدقيق لجدول مواعيدها.

وبيوت المدينة مصنوعة من الخشب، ومزودة بأبراج حجرية متينة لحفظ المقتنيات الثمينة بعيداً عن ألسنة النيران في حال نشوب الحرائق التي يكثر اندلاعها في تلك المدينة. وغالبية سكان المدينة يدينون بالوثنية، ويستخدمون العملة الورقية التي سكها الخان الأعظم.

يعتني الرجال والنساء فيها بأناقتهم ونظافتهم، ومعظمهم يلبس الحرير المصنوع بكثرة في تلك البلاد، أو المستورد من مناطق أخرى وهم يأكلون جميع أنواع اللحوم بما فيها لحوم الكلاب وبعض الأنواع الأخرى من الوحوش القذرة التي يتورع المسيحيون عن تناولها.

ومنذ احتلال الخان الأعظم لتلك المدينة أمر بأن يوضع عشرة حراس على كل جسر من جسورها الاثني عشر ألفاً، تحسباً لحوادث الشغب أو التمرد ضده. وقد زود الحرس بعصي خشبية مجوفة، وحوض معدني، وأداة لمعرفة الوقت، فعندما تمر ساعة من الليل يقوم الحارس بقرع الحوض المعدني بالعصا ليعرف سكان المنطقة أن ساعة واحدة قد انقضت من الليل، وبعد انقضاء الساعة الثانية يضرب ضربتين وهكذا، مما يبقي الجميع متيقظين وحذرين حتى شروق الشمس، عندما تتكرر العملية نفسها بالنسبة لساعات النهار. وتنحصر مهمة بعض الحراس في مراقبة إشعال النار في البيوت خارج الأوقات المسموح بها رسمياً، فإن خرق القانون أي بيت من تلك البيوت، ضربوا على الحوض لاستدعاء الحراس المشرفين على ذلك الجزء من المدينة، فيأتون لوضع علامة على بابه ليتم في الصباح استدعاء صاحبه للمثول أمام القضاء، وما لم يقدّم عذراً مقبولاً يكون العقاب من نصيبه. كما أن التجول ممنوع بعد ساعة معينة ويعاقب كل من يخالف ذلك. وفي الصباح إذا ما وجد أي شخص معوّق وعاطل عن العمل جرى إدخاله إلى أحد المستشفيات التي وفرها الحكام القدماء لعامة الشعب. لكنهم إذا وجدوه قادراً على العمل اجبروه على القيام به، كأن يمارس أي نوع من التجارة. وفي حال حدوث حريق لا يجرؤ أحد على ترك بيته ليلاً أو الاقتراب من النار إلا صاحب البيت نفسه، والحراس الذين يأتون للمساعدة على نقل الأغراض الثمينة والبضائع لوضعها في أحد تلك الأبراج المشيدة فوق الجسور، غالباً ما يأتي منهم ألف أو ألفا حارس على الأقل.

وتوجد بعض الأبراج المبنية على تلة داخل المدينة، يعلق عليها لوح خشبي، وكلما شبّ حريق ما، قام رجل مخصص لهذه المهمة بقرع اللوح الخشبي بمطرقة ذات رأس خشبي، ليعلن بصوت قرعه المدوي عن نشوب الحريق.

يعتني الخان بهذه المدينة بشكل خاص، لكونها تمثل العصب الأساسي لمملكة مانجي كلها، ولأهمية موقعها بالنسبة للتبادل التجاري وعوائده المادية الضخمة على خزائنه. فجميع طرقاتها مرصوفة بالحجارة أو بالآجر، كما هي حال كل الطرق السريعة في مملكة مانجي، مما يسهل السفر، ويحل مشكلة الانزلاقات التي تحدث بسبب طبيعة الأرض المسطحة والمنخفضة التي يجعلها تجمع المطر فيها لزجة وبالتالي عرضة للانزلاق. وقد تُركت مساحة من دون رصف في الطرقات لمرور خيول الخان الأعظم وحاشيته.

وتجب الإشارة أيضاً إلى أن في هذه المدينة نحو 3000 حمام تزودها الينابيع بالمياه التي تُسخّن في ما بعد ويستمتع الناس بها عدة مرات في الشهر، فهم شعب محب للنظافة والأناقة كما ذكرنا. وتلك الحمامات من أكبر الحمامات وأجملها في العالم، إذ بإمكان الواحد منها استيعاب 100 مُستحم في آن معاً.

ويجرّ ماء البحر إلى المدينة من مكان يبعد نحو 25 ميلاً ويدعى «جانفو Ganfu» حيث هناك بلدة، وميناء رائع تؤمّه الكثير من السفن القادمة من الهند، ومناطق أجنبية أخرى، محملة ببضائع وسلع كثيرة مهمة. والنهر القادم من جانفو يتابع طريقه مخترقاً المدينة إلى أماكن أبعد في الداخل.

وكذلك يجب أن نعلم أن الخان الأعظم قسّم المملكة إلى تسعة أجزاء، وحوّلها إلى تسع ممالك، يحكمها تسعة ملوك، يخضعون لسلطة الخان الأعظم مباشرة، ويقدّمون كل سنة حسابات ممالكهم لمكتبه المالي في العاصمة. وهكذا فمدينة كينساي محكومة من قبل أحد أولئك الملوك، الذي تخضع له نحو 140 مدينة ثرية أخرى. إذ توجد في مملكة منزي واسعة الثراء ما يقارب 1200 مدينة عظيمة، ناهيك عن القرى والبلدات كثيرة العدد أيضاً. والأمر المدهش أن للخان الأعظم قلعة في كل مدينة من هذه المدن الكثيرة، والأغرب من هذا أن كل قلعة منها تحوي ما لا يقل عن 1000 رجل، بل إن بعضها يحوي عشرة آلاف أو عشرين أو حتى ثلاثين ألفاً. ولا ينتمي غالبية هؤلاء الحرس إلى العرق المغولي، فأكثرهم كانوا من «كاثاي Cathay»[85] نفسها، وهم جنود مميزون بالفعل. وليسوا جميعاً من الفرسان، فعدد كبير منهم كان من الجنود المشاة، حسب حاجة كل مدينة، وجميعهم تابعون للخان الأعظم.

ولا حاجة بي إلى التذكير ثانية بأن كل ما يتعلق بهذه المدينة فخم، وعظيم، وأن دخل الخان الأعظم السنوي منها كبير جداً، ومن الصعب كتابته بالأرقام أو تصديقه، ومع هذا فسوف أكتبه لكم، ولكنني في البداية سأخبركم بأمر آخر. فكما ذكرت سابقاً إن أهل تلك البلاد

(85) Cathay كاثاي: اسم أطلقه ماركو بولو على الصين، ويشير عادة إلى المنطقة الممتدة شمال نهر تشان زيان في الصين.

يتبعون عادة تسجيل اسماء المواليد الجدد، وتاريخ، ومكان ولادتهم وطالعهم، حتى يتمكنوا فيما بعد من قراءة طالعهم والتنبؤ بمستقبلهم ومصير الرحلات أو الأسفار التي ينوون القيام بها، من خلال استشارة العرافين بعد تزويدهم بتلك المعلومات، وإذا كان جواب العراف بالمنع أو النفي يؤجلون ذلك الأمر، حتى يأتي الوقت المناسب. ويتمتع العرافون بخبرة ومهارة فائقتين مما يكسبهم، مكانة وثقة كبيرتين في قلوب الناس. ومن إحدى مهامهم كذلك إحراق جثث الموتى.

وفي حالة الوفاة فإن الأصدقاء والأقرباء يقيمون حداداً عظيماً، فيرتدون ثياباً من القنب، ويرافقون الجثمان بالعزف، وإنشاد التراتيل لرثاء الميت. وعندما يصلون إلى المحرقة يضعون فوق الجثة عدداً لابأس به من العبيد (رجالاً كانوا أم نساءً) والحيوانات مثل الخيول المسرجة والجمال، والكثير من المقتنيات الثمينة كالذهب والنقود والملابس الفخمة، حيث يضعون كل هذا فوق الجثة ليتم حرقه معها، وذلك لإيمانهم بأن الرجل الميت سيحتاج إليها في العالم الآخر، وأن الموسيقى التي عُزفت والأناشيد التي رُتلت سوف تتكرر ثانية في لحظة وصوله إلى ذلك العالم للترحيب بقدومه، وتشريفه هناك.

وفي تلك المدينة يقع قصر الإمبراطور السابق الذي هرب من المدينة، وهو أعظم قصر في العالم، كما سأخبركم عنه بالتفصيل، إذ تمتد مساحته فوق ما يعادل عشرة أميال، ويحيطه سور مرصع بشرفات جميلة، وداخل تلك الأسوار تقبع أروع حديقة على هذه الأرض، مملوءة بأفضل ما يكون من الأشجار المثمرة، كما أن فيها نوافير بديعة فخمة، وبحيرات عامرة بالأسماك، وفي وسطها يرتفع بناء القصر، الذي يحوي 20 قاعة عظيمة بهية، وإحدى أكبرها مخصصة لإحياء الولائم الفخمة، وجدرانها وسقفها مطليان بالذهب، إلى جانب رسوم تجسد أحداثاً ماضية وقصص تحلق فيها الطيور وتتجول الوحوش ويخب الفرسان على خيولهم مع سيدات فاتنات، وأشياء ساحرة أخرى. وبالإضافة لهذه القاعات يحتوي القصر على 100 حجرة كبيرة وأنيقة مطلية بالذهب والألوان المتنوعة.

كما تحتوي المدينة على 1,600,000 بيت، بينها عدد كبير من القصور الفخمة، وهناك كنيسة واحدة فقط لممارسة طقوس الديانة المسيحية النسطورية.

وسادت عادة تسجيل أسماء السكان فوق أبواب منازلهم، بالإضافة إلى كتابة أسماء الزوجات والأبناء والخدم وأي من القاطنين معهم في المنزل، وعدد الحيوانات التي يملكونها. وفي حالة وفاة أي شخص في ذلك المنزل، يجري حذف اسمه من القائمة، كما يضاف اسم المواليد الجدد إليها، فتسهل على الحاكم معرفة عدد سكان المدينة بالضبط، وهذا التقليد كان

متبعاً في كل من منزي وكاثاي. وأما ساسة الخيل الذين يعتنون بخيول المسافرين فيسجلون أسماء أصحابها وكنيتهم، بالإضافة إلى تاريخ وصولهم ومغادرتهم، وبهذه الطريقة يتوصل الحاكم – إذا أراد – إلى معرفة الخارجين والداخلين إلى منطقة حكمه، وهذا حقاً إجراء حكيم»(26).

إلا أنه لم تعد لمدينة هانجتشو اليوم تلك الأهمية نفسها، فقد قُزِّمت من قِبل جارتها شانغهاي، بيد أنها احتفظت بأهميتها كمركز للاستجمام، وهي في طريقها سريعاً لأن تصبح من أكثر المدن الصينية تميزاً لجهة إقبال السياح عليها بسبب «بحيرتها الغربية» المتميزة بسكونها الذي حافظت عليه منذ عهد مملكة سونغ، وحكم أسرة يان المغولية، وكذلك جامع «طائر الفينيق»، الذي يعد من أهم المواقع الإسلامية في البلاد، وقبته صينية التصميم يرجع بناؤها إلى عهد قبلاي خان.

تبريز ومراغه

أصبحت تبريز عاصمة المغول في الغرب وبوابتهم إلى أوروبا وأفريقيا والعالم العربي. كما غدت مركزاً للتبادل التجاري بين الشرق والغرب. وقد اعتبر الرحالة المغربي ابن بطوطة (1304–1369) أن سوقها الرئيسي من أهم وأجمل الأسواق التي رآها خلال أسفاره. وماركو بولو الذي زارها قبله بزهاء نصف قرن، اعتبرها من أعظم المدن في ذلك الجزء من العالم، وركّز على إعجابه بحدائقها ونباتاتها. وأقام هولاكو خان عام 1258 عاصمته الأولى «خارياتي مراغه» على بعد 70 ميلاً إلى الشمال منها. واسمها الكامل يعني «القرية ذات الكلأ». وقد ذكرّته خضرة مراعيها، ومناخها بأيام السهوب، وبقي أتباعه فيها حتى بعد أن وضعوا أيديهم على الحكم، وأسسوا ما عُرف بإمبراطورية الإلخانات. وقد جعلها أباقا خان (1265–1282) عاصمة لدولة المغول في إيران، ومنذ ذلك الزمن لم تتراجع أهمية المدينة سياسياً أو تجارياً، حتى قيل إنه لكي تحكم إيران، فعليك أن تسيطر أولاً على تبريز.

وتقع تبريز على بعد 30 ميلاً شرق بحيرة أروميا والتي تسمى اليوم منطقة أذربيجان

في شمال غرب إيران. ومراغه قريبة في موقعها من البحيرة وخلال العصور الوسطى كانت ممراً لأساطيل الصيد التي كانت تسعى في مياه بحيرة، أروميا المالحة. وهي تعدّ اليوم مركزاً صناعياً وتجارياً وسياسياً مهماً، يصل بين إيران وتركيا والشرق، في حين لا تزال مراغه بلدة بسيطة، يعاني سوقها من الركود، وهي مغمورة بسلاسل جبال «سهند» التي تنتشر قممها فوق البحيرة من الغرب في حين تقع تبريز إلى شمالها.

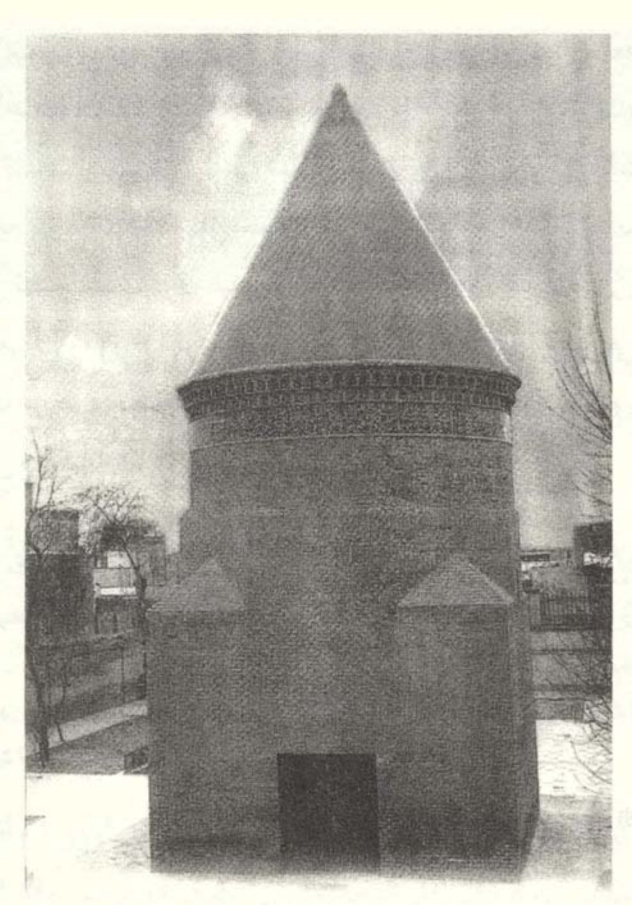
يقول الجغرافي ومؤرخ القرن الرابع عشر والذي يعود إليه الفضل في توضيح كثير من المعلومات عن فترة حكم الإلخانات في إيران، حمدالله مستوفي القزويني في وصف تبريز المتضمّن في كتابه «نزهة القلوب»:

«تبريز مثل الجنة، وناسها أنقياء مثلما هي المرآة نقية من غبار الصدأ. وإن تزعم أنهم ليسوا بالأصدقاء الأوفياء، فكأنك تطلب من مرآة أن تعكس صورة ليست أمامها. وناسها مثل الملائكة، يتصرفون بإحساس وهمة، ولا يعرفون الضغينة والكره. لا يختلطون قط بالسفهاء والحثالة، إذ لا يمكن الجمع بين رائحة القذارة ورائحة الطيب».

(حمدالله مستوفي القزويني، نزهة القلوب).

بقيت تبريز أشبه بقرية صغيرة حتى القرن التاسع. ويُقال: إن زبيدة (توفيت عام809) زوجة الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد هي التي أمرت بتأسيسها. ويُذكر أنه سنة 1213 في بدايات الاجتياح المغولي كانت تترأس قائمة المدن الأذربيجانية في أهميتها، وقد لمع صيتها بسبب مسجد «الجمعة» الشهير الذي يجاور سوقها العام، وبساتينها الغنّاء، وأقمشتها المميزة وخاصة «العتابي» الشهير بخيطه الذي هو مزيج من الحرير والذهب؛ ومخملها الرائع، ومنسوجاتها الأخرى.

وقد قدّمت تبريز جزية سنوية للمغول في بداية غزواتهم عام 1221 لكي تنجو من الدمار. وحين قدِم هولاكو عام 1257 لم يخترها عاصمة له، وإنما اختار مراغه ربما لاحتضان الجبال لها، مما يجعلها أكثر أمناً من الشمال. وجدير بالذكر أن مراغه أصبحت بعد عدة أعوام من حكمه لها مدينة مفعمة بالحيوية، ومركزاً لالتقاء الثقافات



ضريح المستوفي، بموافقة مؤسسة أبي حجل

على قدر كبير من الأهمية. وقد شيّد فيها مرصد فلكي بأمر من مونكو خان (توفي عام1259) مما كرّس أهميتها وأدخلها خريطة العالم. فلم يكن الخراب الذي أحدق بها بعد تدمير قلعتها «ألموت» عام 1256 إلا جزءاً من حركة التجديد والإعمار التي ستطرأ عليها. وقد انتقل نصير الدين الطوسي[86] الفلكي الذي كان يعمل لصالح زعيم قلعة «ألموت» لخدمة الزعيم المغولي الجديد هولاكو. وحسب رشيد الدين فإن شهرة نصير الدين الطوسي عمّت الآفاق، ولمع اسمه في العالم كله مقترناً باسم مونكو خان الذي

(86) أبو جعفر حمد بن محمد الحسن الطوسي (1201—1274) فيلسوف وفلكي فارسي، ومن علماء الشيعة الاثني عشرية. ولد بمدينة طوس الايرانية، ثم احتجزته فرقة الحشاشين الإسماعيلية المتمركزة في قلعة ألموت في شمال إيران، وهناك أتم معظم إنجازاته في الفلك والعلوم وبعد تسليم القلعة إلى الجيش المغولي انضم إليهم وعمل مستشاراً لدى هولاكو الذي بنى له مرصداً فلكياً متميزاً في «مراغة».

قال مودّعاً أخاه هولاكو: «بعد أن تسقط قلعة الزنادقة في يدك (قلعة ألموت)، أرسل نصير الدين الطوسي إلى هنا»(27).

كان نصير الدين واسع المعرفة، وما زالت أعماله في الفلسفة والعلوم الدينية والفلكية والتنجيم تُدرّس إلى يومنا هذا. وقد جلبت جامعته شهرة عالمية لمدينة مراغه.

حصل الطوسي على تأييد سيده الجديد هولاكو، ودعمه، بعد أن أكد له إمكانية غزو بغداد، وإطاحة خليفتها واحتلالها بنجاح وذلك من خلال استقراء النجوم وهو ما رغب هولاكو في سماعه.

وكانت «مراغه» موطناً احتضن العديد من العلماء والمبدعين من مختلف الثقافات والأعراق. فالمرصد الفلكي كان مجهزاً بأفضل التقنيات والمعدات التي سلب المغول معظمها من بغداد وخراسان وسوريا والكثير من المراكز الإسلامية التعليمية الأخرى. كانت تلك المعدات تتضمّن اسطرلابات، ومخططات للنجوم والأفلاك والكواكب. كان أحدها من اختراع الطوسي نفسه وقد سماه «الزيج» المكوّن من مستويين أو سطحين. وقد وضع كتاباً عن هذا الموضوع سماه «الزيج الايلخاني» نسبة إلى هولاكو خان، والذي كان ثمرة 12 سنة من الجهد المتواصل بالاشتراك مع مجموعة من العلماء والباحثين الآخرين. ورغم أن إنجاز عمل كهذا كان يتطلب 30 عاماً، إلاّ أن الطوسي أتمه خلال 12 سنة فقط انصياعاً لأمر هولاكو. وقد قامت جداول الزيج الإيلخاني على مراقبة عملية بالدرجة الأولى، ولكنّها كانت مبنية على مجموعة واسعة من المعارف الفلكية والتنجيمية. وقد أشار في كتابه إلى العديد من العيوب التي يعاني منها منهج بطليموس، والتي مهّدت الطريق لثورة كوبرنيكوس الفلكي، الذي يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرماً يدور في فلكها. وبقي جدول الزيج الإيلخاني الذي وضعه الطوسي، معتمداً لأكثر من 200 سنة على الأقل، حيث لم يكن استخدامه مقتصراً على علماء الفرس أو المسلمين فحسب، ففي المخطوطة التي يُعتقد أنها كُتبت بعد وفاته بثلاث سنوات تفاصيل مختلفة تشير إلى تنوع طبيعة المتلقي الذي يتوقعه الطوسي من خلال لغة بحثه، إذ لم يكن يتوجه إلى المتلقي المحلي فقط. استخدم فيها لغة فارسية مباشرة، وهي اللغة الرسمية للإمبراطورية، بالإضافة إلى لغة لها طابع بحثي خاص بالطوسي نفسه. كما استعار مفردات من اللغة

الصينية، حين تحدّث عن نظام تقويمهم الذي يقسم السنة إلى 12 غصناً أرضياً و10 أغصان سماوية(28). وكذلك حين ترجم تاريخ سنة الخنزير 1203، للتقويم الإسلامي والزرادشتي والمسيحي الشرقي والصيني. كما كتب يشرح لقرائه عن الدين الإسلامي، وكيف أن أصل الرسول محمد «صلى الله عليه وسلم» يعود إلى مكة المكرمة(29)، حيث إن شرحاً كهذا لم يكن ضرورياً لو خص به القراء المسلمين أو القريبين منهم، وهو يدل أيضاً على قدرته على تخطي قيود الطائفية التي لوثت عقول كثير من معاصريه والانطلاق بعلمه نحو آفاق أرحب. وقد استفاد من كل ما قدّمه المغول من مساعدات وإمدادات لتطوير علومه ونشر معارفه.

لكن الطوسي لم يكن الوحيد الذي نعم بسخاء هولاكو وعنايته. فالكاتب السرياني ابن العبري[87] Bar Hebraeus كان له باع طويل من قبل في التعامل مع المغول. إذ دعي إلى «مراغه» لتأسيس مكتبة كبيرة في الكنيسة التي ترعاها زوجة هولاكو، الخاتون دوكوز، النصرانية، بعد أن اشتهر بسعة علمه وثقافته. ويخبرنا عنها بقوله: «منذ دخولي مكتبة مدينة مراغه الأذربيجانية، وأنا لا أتوقف عن تسجيل أحداث وحكايات جديرة بالتذكر، أتحصّل عليها من كتب سورية وعربية وفارسية من تلك التي تزخر بها هذه المكتبة»(30).

ويسود افتراض بأن هذه المكتبة التي ظهرت فجأة، قد استفادت من مراجع ومصادر كثيرة أخذت من مكتبة «قلعة ألموت» عام 1256 ومن مكتبة بغداد عام 1258، ورغم أن هذا الافتراض لم يصرّح به بشكل مباشر أو رسمي، إلاّ أننا لا يمكننا أن نتصور أن عالِمين على ذلك القدر من الشغف بالمعرفة مثل نصير الدين الطوسي، وعطا مالك علاء الدين الجويني قد وقفا مكتوفي الأيدي أمام تدمير أعظم مجموعتين عالميتين من الكتب من دون أن يسارعا لإنقاذهما وحفظهما في مكان آخر. وبهذا فإن مكتبة مراغه كانت ثمرة جهدهما وتدخلهما لحماية بقايا المكتبتين سابقتي الذكر. هذا ويزعم الجويني أنه قام بإنقاذ نسخ من القرآن الكريم وبعض المختارات الإسلامية الأخرى، ثم يعترف قائلاً:

(87) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي: لاهوتي وفيلسوف وعالم سرياني، ولد في مدينة ملاطيه ولقب بابن العبري لأن جده أو والده قدم من قرية عبري الواقعة قرب نهر الفرات، في حين ذهب بعضهم إلى اعتباره من أصول عبرانية. له مؤلفات عدة.

«أما الكتب المتعلقة بالمذهب الشيعي المنحرف فقد أحرقتها كلها»(31). لكن مزاعمه هذه في تدمير جميع الكتب المتعلقة بالمذهب الشيعي، تبدو غامضة بعض الشيء وغير صحيحة أمام اقتباسه مقطعاً مطولاً من كتاب السيرة الذاتية لمؤسس الطائفة النزارية الإسماعيلية في إيران، حسن الصباح، وتضمينه في كتاب تاريخه الخاص. فحفظه هذا الكتاب يؤكد إمكانية حفظه جميع الكتب المتعلقة بتلك الطائفة. ولطالما سودت تلك التهمة في إحراق الكتب وخاصة مكتبة بغداد سمعة هولاكو خان. ومع الأسف لا توجد اليوم أي بقايا من مكتبة مراغه لتدل بشكل قاطع على أن كتب بغداد وقلعة ألموت قد نقلت إليها. وما زالت قصة جريان نهر دجلة بلون الحبر الأسود لعدة أيام بعد الغزو المغولي لبغداد تملأ المراجع والكتب. لكن قصصاً كهذه من الممكن إهمالها وإسنادها إلى الدعاية المضادة للمغول والتي انتعشت مع مرور الزمن. فمن المعروف عن جنكيز خان إظهاره التقدير والاحترام الشديدين للعلماء والعلم، وكذلك هولاكو خان الذي ترعرع في بيت تسوده المعرفة، وكان محاطاً على الدوام بنصائح العلماء ومشورتهم، مما يشكك بقصة تدميره تلك المكتبات. ومن الجائز أن يتورط الطوسي الذي كان إلى جانبه، حين اجتاح بغداد، في التضحية ببعض معاصريه من العلماء أو الموظفين في بغداد، ولكنّه لن يتورط في التضحية بمقتنيات مكتبة كاملة.

وأما ابن العبري فقد أمضى آخر أيام حياته في مكتبة مراغة، عاصمة الإلخانات. وكانت مراغه قد وطدت علاقة طيبة مع الكنيسة السورية «الأرثوذكسية» حين دخل الربّان شمعون في خدمة هولاكو، وأسهمت في تقديم جزء من راتبه السنوي المقدر بـِ 5000 دينار(32).

وصل ابن العبري لزيارة مراغه قادماً من تبريز عام 1268 وهو الزمن الذي بدأ فيه بالاطلاع على مؤلفات إقليدس، وزارها مرة أخرى في عام 1273 عندما بدأ بدراسة المجلدات الثلاثة عشر لكتاب بطليموس «المجسطي»(33). وخلال تلك الفترة كان يخطط بشكل فعلي لإقامة كنيسة في غرب أذربيجان. وحين عاد إلى مراغه في عام 1279 وجد «قطاي خاتون» أم الإلخان «أحمد تاكودار» (فترة الحكم 1282– 1284) تعمل على إحياء الموكب المسيحي لـ «عيد الغِطاس» الذي سيشمل تأدية طقوس معينة

لتقديس مياه نهر «صافي»، والذي كان قد أُوقف في ما مضى، بسبب الصراع الذي نشب بين المسلمين والمسيحيين. يقول ابن العبري في وصف ذلك الحدث: «جاءت قطاي خان بنفسها إلى مدينة مراغه، وأمرت المسيحيين بالتقدّم في موكبهم، معلقين حسب طقوسهم صلباناً على رؤوس رماحهم. وحين تقدّموا حلت فيهم الروح المخلّصة، وزال عنهم بردهم، ودبت الحيوية في أجسادهم، واخضرّ العشب من حولهم، وازدهرت الحقول والمراعي. فعمت البهجة قلوب المغول لأنهم أمنّوا البقاء لخيولهم، وفرح المسيحيون لانتصار دينهم»(34).

وحسب ما ذكره المؤرخ السمعاني عام 1282 فإن الخان أحمد تاكودار منح ابن العبري رخصة بناء الكنائس في أذربيجان، والمناطق التي كانت تابعة لمملكة آشور وبلاد ما بين النهرين(35). كما كان لكل من تبريز ومراغه حظها من تلك الأبنية. ولم يكن راغباً في مغادرة الموصل للتوجه إلى مراغه عاصمة المغول، وذلك لإحساسه بأن تلك الرحلة ستكون الأخيرة. ولكنّ أخاه الذي تنبأ بموته على يد لصوص وقطاع طرق، أصر عليه لمغادرة الموصل والذهاب إلى العاصمة، لكي ينعم فيها بالإقامة الآمنة في كنيسته وديره الخاصين. وهكذا قضى الشيخ ابن العبري ما تبقى له من عمره في مراغه عاكفاً على تأليف كتابه الشهير في علم الأخلاق. ليس هذا فحسب بل عمل أيضاً بمساعدة نصير الدين الطوسي على تأليف كتابه، المهم أيضاً، «كتاب الصعود العقلي في شكل الرقيع والأرض»(36). ويُقال إنه لا تزال بالإمكان إلى الآن رؤية بقايا كنيسته وديره في بلدة مراغه الخضراء. فتلك الكنيسة القابعة على هضبة مواجهة للمدينة من الغرب، كانت بمثابة مسكن مثالي لذلك الشيخ صاحب الاهتمام الواضح بالفلك والنجوم، حيث تمتد الكهوف التي شكلت جسد الكنيسة على بعد يتراوح بين 30 و 40 متراً من مرصد مراغه الفلكي، الذي بناه هولاكو لمرشده وعالمه المقرب نصير الدين الطوسي(37). والدليل على وجود دير وكنيسة جديدين في ذلك الوقت هو ما ورد في كتاب ابن العبري «التاريخ الشامل»[88] فهو وعلى الرغم من يقينه من اقتراب

(88) التاريخ الشامل، ج3، ص. 443؛ في ابن العبري، إثيكون، ترجمة هنري تيول، ج2 (لوفيان، بلجيكا، إبيترز، 1993)، ج11، ص. 12.

أجله، ظل حتى آخر لحظة في حياته ينشر المرح والضحك بقصصه المسلية، «قبل أن ينطفئ فجأة كقنديل»(38). وحين انتشر خبر وفاته، أمر الأوغور الكاثوليك بإغلاق أسواق مراغه، وعمّ الحزن جميع أنحاء المعمورة.

ومن بين النصب التذكارية المنتشرة بكثرة في أرجاء مراغه، نصبان مهمان، أحدهما ضريح أم هولاكو، علماً أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الزعم سوى أن المواطنين يؤمنون به. وقد بني ذلك الضريح بجانب برج دائري عام 1168 قرب باحة مدرسة، ولرؤيته يحتاج الأمر إلى طلب الإذن والمفتاح الخاص من إدارة المدرسة. وهناك برج آخر مربع الشكل، ويسهل الوصول إليه أكثر من هذا البرج الدائري، يقع قرب مركز البلدة وقد أطلق عليه اسم «برج الغرافيه»، بني عام (1325–28) للقائد المغولي المحلي «شمس الدين قره سنقر».

ويحوي متحف البلدة الصغير، مجموعة من الحلي والفخار، ونصباً تذكارياً للشاعر أوحدي مراغي (1272–1338) الذي تمتع بحماية المغول مثل بقية الشعراء في ذلك العصر. وقد كتب أوحدي، شاعر تبريز الشهير، شعراً رائعاً في مديح سيده المغولي أبي سعيد (توفي سنة 1335) وكذلك في مدح صاحب الديوان غياث الدين، الذي تربع في ذلك المنصب منذ عام 1327 وحتى عام 1336، ابن المؤرخ المشهور رشيد الدين (توفي سنة 1318).

معظم شعراء تبريز كانوا من أتباع الصوفية، وهو المذهب الذي ازدهر في عصرهم في ظل الحكم المغولي. كان رئيسهم الذي يدير الحلقة الصوفية أو البيت الصوفي يدعى «خانقاه» وكانوا يجتمعون في مساجد أو مدارس تتوزع في تبريز، وقد بناها رشيد الدين، الوزير الأعظم غازان خان (توفي عام 1304م)، وأطلق عليها اسم «الربع الرشيدي»، ولم يبقَ حتى يومنا هذا الكثير من تلك التكايا في تبريز، إذ دُمر القسم الأعظم منها في زمن الاضطرابات التي سادت عام (1218م) بعد انحسار مجده ثم إعدامه[89]. وبمبالغة شعرية يصف أوحدي إحداها قائلاً: «يسطع النور الإلهي المقدس منها فوق تبريز، أرضها من مِسك، وحجارتها من رخام، نسيمها عطر من الجنة،

(89) اتهمه منافسوه بتسميم أولجايتو خان وأعدم بسبب ذلك.

وماؤها من نهر الكوثر». وكانت هذه التكايا أو الأركان بمثابة ملاجئ وبيوت وأماكن يلتقي فيها الشعراء الصوفيون والفنانون زمن الإلخانات في إيران (1256–1335م).

وقد ارتقت تبريز إلى أوج عزها زمن غازان خان (1295–1304م) السلطان المغولي الذي اعتنق الإسلام، وجعله الدين الرسمي لإمبراطوريته التي امتدت من نهر أكسوس في الشمال الشرقي إلى مصر في الجنوب الغربي. واحتلت تبريز مكان بغداد كمركز تجاري في غرب آسيا، وشكلت محوراً رئيسياً لطريق الحرير. وقد نقل باقا خان (توفي عام 1282م) العاصمة من مراغه إليها، ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية القرن الرابع عشر حافظت على دورها كمدينة مركزية، ليس فقط على الصعيد التجاري، وإنما ثقافياً وروحياً أيضاً. فالانفتاح الديني لحكامها، لعب دوراً مهماً في جعلها «المدينة الفاضلة» لجهة تمتع سكانها بحيز واسع من الحرية الدينية والثقافية. ففي البلاط الإمبراطوري كان هناك تنافس بين المسيحيين والبوذيين والمسلمين. ولم تكن القوانين الوحشية التي يفترض أنها فرضت أحياناً على البلاد لتشمل البلاط من الداخل، فمثلاً حين أمر أولجايتو خان (حكم 1304–1316) بإغلاق كل مخازن ومتاجر بيع الخمور، لم يسرِ ذلك القانون على ما يجري داخل قصره لناحية السماح بالخمرة. والمراسيم كانت تسن بوحي من كتب التاريخ أكثر منها بواعز أخلاقي من الحكام الذين يسنونها أو الرعية التي ستطبقها. وكان المناخ الثقافي السائد في تبريز خلال ذلك الزمن حيوياً، وإبداعياً، وخلاقاً، مما جعل فترة حكم الإلخانات في إيران عصراً ذهبياً بحق.

وتبريز مرتع الشعراء الصوفيين، تحتل المرتبة التالية مباشرة بعد «قونية»[90] عاصمة السلطنة السلجوقية، كمركز للتصوف، وأعمال الشعراء المعاصرين تحتشد بمديحها: «هيا ابحث عن الجنة، آه أيها الورع، كمال يفضل تبريز، وجبلها الحاضن للقديسين». «لا تبعد مملكة السماء أرض الله المجيدة الرائعة، عن مدينة تبريز سوى مسافة فرسخ واحد» هذه كلمات كمال خوجندي (توفي في 1400) تشير إلى أهمية مقابر تبريز التي تؤوي شخصيات تبريزية مهمة. وقد حظي جمال عالمها الأرضي بمقدار مماثل من

(90) قونية: من مدن تركيا تقع في وسط جنوب الأناضول. بلغت ذروة مجدها عندما كانت عاصمة السلاجقة قبل الغزو المغولي. تعتبر اليوم معقل الإسلاميين في تركيا.

المديح، إذ قال فيها شاعر صوفي آخر هو خواجو كيرماني (توفي في 1342): «في بغداد بجانب دجلة، تمتد الجنة، وهناك تبريز الأكثر روعة من الجنة نفسها». والرحالة المغربي ابن بطوطة زار تبريز عام 1330 وترك لنا هذا الوصف الموحي:

«وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام بصحبة الأمير علاء الدين محمدٍ إلى بلدة تبريز، وكان من الأمراء الكبار الفضلاء، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز، ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام. وهنالك قبر قازان ملك العراق، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء. وأنزلني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة، وأشجار مورقة. وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد، ووصلنا إلى سوق عظيم يعرف بسوق قازان، وهو من أحسن أسواق بلاد الدنيا، وكل صناعة فيه على حدة، ولا تخالطها أخرى.. مررت بسوق الجوهريين، فحار بصري مما رأيته من أنواع الجواهر، وهي بأيدي مماليك حسان الصور، عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك، وهن يشترينه كثيراً، ويتنافسن فيه. فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ الله منها. ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم، ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان، وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة، وعن يساره زاوية. وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني، وهو شبه الزليج، ويشقه نهر ماء، وفيه أنواع الأشجار ودوالي العنب وشجر الياسمين»(39).

بعد مرور قرن على ذلك، وفي يونيو 1404م، وصل إلى تبريز السفير الإسباني في إيران، يحمل رسالة خاصة من الملك هنري السابع، وتحدث عن المدينة بالحماسة نفسها قائلاً:

«دخلنا مدينة تبريز العظيمة وقت الغروب، يوم الأربعاء، الواقع في الحادي عشر من يونيو، والتي تمتد على سهل محاط بالكثير من الهضاب العارية من الأشجار... وتقطع تلك المدينة طرقات عريضة أنيقة، ومن حولها تُشاهد أبنية وبيوت فخمة، لكل منها بوابة تواجه الساحة. وهي تشبه في هذا خان المسافرين الذي يحوي من الداخل شققاً منفصلة ومحلات ومكاتب مخصصة لشتى الأغراض. وعندما تخرج من هذا النزل فإنك تمشي في الأسواق

حيث تباع أنواع مختلفة من البضائع، مثل الحرائر بكل أنواعها كالتفتا (نوع من القماش الحريري الرقيق والصقيل)، والحرير الخام (قماش يصنع من حرير غير معالج)، والأقمشة القطنية، والكريب (قماش رقيق مجعد)، والحلي والمجوهرات بكل أنواعها. وتسهّل هذه الأسواق فرص اللقاء بين الرجال والنساء، أو بين بعضهم بعضاً، لكونها تلبي حاجات الجميع، فالنساء يأتين إليها طلباً للأقمشة والعطور وأدوات الزينة والحلي. والمرأة منهن تخرج إلى السوق بثوب يعلوه رداء أبيض رقيق وفوق وجهها تضع نقاباً مصنوعاً من شعر الخيل، مما يجعلها محجوبة تماماً. وخارج تبريز كذلك ترى العديد من الأبنية البديعة، ومن أجملها على الإطلاق الجوامع بجدرانها المزخرفة بالخزف المشغول باللونين الأزرق والذهبي، وتعلق فيها قناديل زجاجية مثلما هي الحال في بلاد الأتراك. تبريز بالفعل مدينة واسعة الثراء، وتغتني كل يوم بتجارتها المزدهرة.. سمعتُ أن عدد سكانها كان في ما مضى أكثر مما هو في الوقت الحاضر، ومع هذا فإنها تحوي في يومنا هذا داخل أسوارها ما يقارب 200,000 بيت على الأقل»(40).

وتواجه تبريز اليوم مصاعب عدة، فالحرب تحوم حول حدودها الغربية، ومن الشمال يتهددها خطر التوسع الأوروبي، وجارتها تركيا بخطاها السريعة نحو الديمقراطية والازدهار تشكل تحدياً لها. ومع ذلك ما زلتَ ترى ماضيها مرسوماً على وجوه أناسها. ففي أسواقها القديمة والمسقوفة، غالباً ما تلمح عينين مشرقيتين، تسترقان النظر إليك من خلف الحجاب أو من مداخل البيوت الظليلة، كأنهما تؤكدان إصرار المدينة، رغم خوفها وحيائها، على التجدد والانبعاث.

الحواشي

1. جيوفاني دي بلانو كاربيني، «قصة المغول الذين ندعوهم بالتتار»، ترجمة: إريك هلدينجر(بوسطن، براندن، 1996)، ص. 41.
2. كوليات إي أمير خوسرو (طهران، 1996)، ص. 532.
3. وليام الروبريكي، «رحلة وليام الروبريكي».
4. كاربيني، «قصة المغول»، ص. 41.

5. ماركو بولو وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب رحلات ماركو بولو. الجزءان الأول والثاني. htt//www.gutenberg.net..
6. تشارلز ملفيل، «يوميات رحلة السلطان أولجايتو»: 1304–16، إيران: دوريات المعهد البريطاني للدراسات الفارسية 28 (1990): 64.
7. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم» ترجمة جون آندرو بويل، تقديم ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، منشورات جامعة مانشيستر، 1997) ص. 616.
8. المصدر السابق، ص. 610–11.
9. رشيد الدين، «الموجز في التاريخ»، ص. 328–29.
10. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان، ترجمة: جون آندرو بويل (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 1971) ص. 61. أخذ الاقتباس بموافقة منشورات جامعة كولومبيا.
11. المصدر السابق.
12. الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ص. 237–38.
13. كاربيني، «قصة المغول»، ص. 109.
14. الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ص. 237.
15. وليام الروبريكي. «بعثة الراهب وليام الروبريكي»، ترجمة وتنقيح بيتر جاكسون وديفيد مورغان (لندن، مجتمع الهاكلوت،1990) ص. 231.
16. المصدر السابق، 221.
17. المصدر السابق، ص. 210.
18. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان»، ص. 247.
19. ماركو بولو وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبرغ للكتب الإلكترونية وكتاب رحلات ماركو بولو، الجزءان الأول والثاني.
20. ماركو بولو وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ للكتب الإلكترونية وكتاب رحلات ماركو بولو، الفصل الثامن عشر.
21. الراهب أوديرك البوردينوني، «رحلات الراهب أوديرك»، تحرير هنري يول، كتاب

«كاثاي و الطريق إلى هناك» الأجزاء الثلاثة، (الطبعة الثانية، ميلوود، نيويورك، كراوس لإعادة الطباعة [1914] 1967)، ص. 217–22.

22. ماركو بولو، «رحلات ماركو بولو»، ترجمة: تريسا واو غ (لندن، سايدجويك وجاكسون، 1985)، ص. 72–73، 1985.

23. ماركو بولو وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ للكتاب الإلكتروني، من رحلات ماركو بولو، الجزءان الأول والثاني. http//www.gutenberg.net.

24. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي (طهران: مطابع البراز، 1994)، ترجمة جورج لاين.

25. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال وكورديـيل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني وهو متوافر على الموقع: http// www.gutenberg.net.

26. من كتاب «السيد ماركو بولو الإيطالي المهتم بممالك وعجائب الشرق»، ترجمة وتحرير هنري يول، الطبعة الثالثة، مراجعة هنري كوردير (لندن: جون موريه، 1903)، ج2، ص. 185–193، 200–205، 215– 216.

27. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، 1024، رشيد الدين فضل الله «جامع التواريخ»، ص. 501–2.

28. انظر دراسة «توماس آلسن «الثقافة والغزو في أوراسيا المغولية» (كمبريدج. منشورات جامعة كمبريدج، 2001)، ص. 162–65.

29. جي. أيه. بويل. «إمبراطورية العالم المغولي، 1206–1370» (ألدرشات، إنجلترا، فاريورم، إعادة الطباعة، 1977)، نصير الدين الطوسي «مقدمة مطولة للزيج الإلخاني لنصير الدين الطوسي»، ترجمة وتقديم: جون آندرو بويل، مجلة الدراسات السامية، 8.

30. ابن العبري، تاريخ غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم الجزء الأول « ترجمة إيرنست أ. ووليس بدج (لندن، 1932)، ص. 2.

31. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جون آندرو بويل،

مقدمة ديفيد مورغان (مانشيستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشيستر، 1997)، ص. 719.

32. ابن العبري، تاريخ غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم، ج 1، ص. 437.

33. ج. إم، فاي، المسيحيون السوريون في ظل المغول، (لوفاين، 1975)، ص. 99.

34. ابن العبري، تاريخ غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم الجزء الأول، ص. 460، «المسيحيون السوريون تحت الحكم المغولي»، ص. 38.

35. المكتبة الشرقية، المجلد الثاني، 258، وردت في جون باومن و تجي. أيه. تومسن، «دير كنيسة ابن العبري في مراغه غرب أذربيجان»، عابر النهرين، المجلد الخامس (ليدن، هولندا، بريل، 1966)، ص. 38.

36. كتاب الصعود العقلي في شكل الرقيع والأرض ، مكتبة المدرسة للدراسات العليا والعلوم اللغوية والتاريخية، المجلد الثاني (باريس، 1899–1900)، ص. 121.

37. لمزيد من وصف تلك الكنيسة راجع بومن وتومسن «دير كنيسة ابن العبري في مراغه غرب أذربيجان»، ص. 35–61. وللمزيد عن الكهوف المحيطة بها والمبنية عليها راجع ويرويك بول، «ملمحان من بوذية إيران»، نشرة معهد آسيا التابع لجامعة بهلوي، 1–4 (1976) 63–103 «متحف إمام زادا في فاردجوفي: «مباني الإلخانات المقدودة من صخر في مراغه»، ص. 12 (1979): 329–40.

38. ابن العبري، التاريخ الشامل، xxix.

39. ابن بطوطة، رحلات ابن بطوطة، ترجمة هـ أ. ر. جيب، الأجزاء 1–3 (نيودلهي: مونشريم)، ص. 344–45.

40. جاي لي سترينج، «البعثة إلى تيمورلنك» 1404–1406 (نيويورك، لندن، جامعة هاربر، 1928).

الفصل الخامس

الجيش

نصيحة من ملك أرمينيا هيتوم، الحليف السياسي والعسكري لدولة المغول(1)

«الشروط الضرورية لإعلان الحرب:

يجب توافر أربعة شروط ضرورية لخوض الحرب: أولاً أن يكون السبب عادلاً ومشروعاً، وثانياً أن تتوافر الحاجة إلى بدء الحرب أو إنهائها، وثالثاً فهم وضع العدو ومدى قوته، ورابعاً إعلان الحرب في الوقت المناسب.

فلكي يشنّ الحاكم حرباً ما، يجب ألا تخفى عليه أي أسرار تتعلق بعدوه. فالمعرفة المسبقة لا تضر، أما الجهل بما سيأتي فيحبط حتى أشجع المحاربين، لأن الوقت لا يسمح زمن الانخراط في القتال بمعرفة الأخطار الخفية أو طبيعة العدو المقابل. وهكذا فإن الهفوات التي تُرتكب في أي زمن آخر يمكن إصلاحها، أما في وقت الحرب فلا، فحتى الأخطاء الصغيرة في المعركة تكون وخيمة العواقب».

يُعتبر الجيش، العمود الفقري للحكم المغولي في زمن إمبراطوريته. أما خلال الوقت الذي امتدت فيه سيادة الإمبراطورية على السهوب فقط، فقد كان الجيش بمثابة العمود الفقري والجسد والأعصاب والرأس معاً. فالجميع كانوا جزءاً من الجيش، والجميع كانوا جزءاً من معسكر ما أو مشتركين في معركة ما. فلكي يكون الإنسان مغولياً يجب أن يكون محارباً. والمؤرخ الإيراني وحاكم بغداد الجويني يصف الجيش المغولي هكذا:

في وقت الحرب يتحول الجنود إلى وحوش مدربة على الهجوم والدفاع، وفي وقت السلم يغدون مسالمين كالنعاج الحلوبة.. إنه جيش يشبه جماعة الفلاحين، مستعد لتقديم التضحيات من دون امتعاض أو شكوى مهما كلفهم الأمر من أثمان.. وهم جميعاً بصغيرهم وكبيرهم، أناساً عاديين كانوا أم نبلاء، يغدون فعلاً كفلاحين متنكرين بزي المحاربين. حين يدعوهم نداء الحرب، يتقلدون سيوفهم، ويمتشقون سهامهم ورماحهم وينطلقون للقتال وكأنهم لم يكونوا يوماً إلاّ فرساناً مستعدين للمعركة فحسب. وعندما يرحل الجيش ترحل القبيلة معه. فمباشرة بعد اجتماع «القوريلتاي الأعظم» عام 1206 والذي أقر جنكيز خان «خاناً أعظم» بدأ بتحضير جيوشه وإعادة تنظيمها للمشاركة في التوسع والانطلاق نحو المناطق الحضرية، بعيداً نحو الغرب والغرب الشرقي خارج السهوب. وكان يدرك أن طبيعة جيشه قد تتغير نتيجة وجودهم في تلك المناطق، مما قد يعرض وحدتهم القبلية للخطر، لذلك بدأ بتحصين جيشه وتقويته.

الإصلاحات الأولية

اعتمد جنكيز خان لتقوية جيشه على تأليف وحداته العسكرية بناءً على تقليد قديم للسهوب، وهو النظام العشري، فقسم الفرق العسكرية إلى مجموعات تبدأ بعشرة جنود، ثم مئة، ثم ألف، ثم عشرة آلاف، وهذه الأخيرة تسمّى «تومان». وبالإضافة إلى ذلك، وحيث أمكن ذلك، قام بتفكيك الوحدات القبلية، ومكافأة من كانوا موالين له خلال سنوات صعوده إلى الحكم، بمنحهم مواقع قيادية. وكان الهدف من تفكيك البنى القبلية تلك هو إحداث تأثير عميق على ولاء جيشه وانضباطه وفعاليته. فحلت الفرقة العسكرية محلّ العائلة والقبيلة، وصار الولاء أولاً للفرقة وقائدها، وبالطبع في نهاية المطاف للخان نفسه. وقد قوض النظام العشري الجديد، البنية الاجتماعية التركو- مغولية القديمة، ليسيطر محلها إصلاح جوهري. لم تختف الهويات القبلية القديمة كلياً، فتلك القبائل مثل الأونغوت والكونغاريت، التي أبقت ولاءها لتيموجين خلال السنوات الشاقة، احتفظت ببعض وحدتها واستمرار هويتها، في حين أن التتار والمركيت والكرايت والنايمان، وغيرها من العشائر العدوة السابقة، جرى تفكيكها

بالقوة والشدة. وهكذا وجدنا أمثلة عن «تومان» من الأونغوت إلا أننا لم نجد مثالاً كذلك من التتار. فقد استبدل الولاء القبلي بالولاء للفرقة، وبطاعة قائد التومان، وفي نهاية المطاف حظيت العائلة الذهبية بالولاء والطاعة. فما دامت الثروة والازدهار متوافرين فإن الطاعة والولاء لا يتعرضان للاهتزاز. وقد منح الانضباط الصارم، والتسلسل القيادي الواضح تماماً، مع تحديد المسؤوليات والواجبات، كل جندي موقعه في العالم الشجاع الجديد الذي كان يصنعه المغول لأنفسهم.

وكان الأوردو (المعسكر الأساسي) منظماً بإحكام ودقة تامين، بحيث يتمكن أي وافد جديد من تحديد موقع مستودع السلاح، وخيمة الطبيب، ومقرّ القائد. وكان عمر الجنود يتراوح بين 14 و60 سنة، موزعين على الوحدات العشرية السابق ذكرها، والتي تبدأ بالأربان (عشرة جنود) والجاغون (مئة جندي) والمينغان (ألف جندي) والتومان (عشرة آلاف جندي)، ويتم الإشراف على هذه الوحدات من قبل قائد يسمى جورتشي، ولا يجوز في الوقت ذاته إعطاء أمر لأي مجموعة جنود تتجاوز العشرة عناصر. وأما التنقل بين الوحدات فأمر ممنوع، فالجنود يقاتلون كجزء من وحدة لا كعناصر منفصلين. ولكن الجندي الواحد مسؤول عن سلاحه ومعداته وعن خمسة خيول. علماً أن هؤلاء الجنود ترافقهم عوائلهم وحتى قطعانهم في حلهم وترحالهم.

الكشيج Keshig (الحرس الإمبراطوري)

أضاف جنكيز خان لتشكيلات جيشه الأساسية، فرقة من خيرة الجنود وأكثرهم وفاءً وأطولهم باعاً في خدمته، لتكون بمثابة حرس شخصي له. ويعكس عدد أفرادها الكبير مقدار سطوته وثرائه، أكثر مما يوحي بخوفه أو تحسبه من خطر حقيقي يتهدد حياته. فقد وصل عدد أفرادها إلى 10,000 جندي وقت اجتماع «القوريلتاي» عام 1206م. أُطلق على تلك الفرقة اسم «كشيج» أو الحرس الإمبراطوري، وقد شُكّلت من عناصر ينتمون إلى مختلف القبائل. وعُدّ انتماء الرجل إليها بمثابة تشريف له، والترفّع في مراتبها يُعادل شرف التحدُر من سلالة نبيلة الأصل. كما أن وجوده في أي مكان يضفي مزيداً من الشرف والرفعة عليه. وبما أن الخدمة في البيت الملكي تتطلب تدريباً عسكرياً وإدارياً

خاصين، فقد كانت هذه الفرقة بمثابة (الحاضنة) التي ترعى جيلاً جديداً من قادة المستقبل. ويتم استقطاب أبناء المنافسين المحتملين إليها، وتشجيعهم على خدمة البلاط، وبذلك يزول احتمال خطرهم في المستقبل، ويصبحون مناصرين للسلطة بدلاً من مناوئين لها. وعناصرها مجهزة بالأسلحة والمعدات الضرورية. فأبسط جندي في الحرس الإمبراطوري يتمتع بحق الطاعة من قبل أفراد الجيش العاديين الآخرين، لكونه يُعدّ ويُؤهّل بطريقة تجعله مشروع قائد في المستقبل. وهكذا فقد اعتبر الانخراط في هذه الفرقة، أشبه بدخول أكاديمية عسكرية. وأما تدريب بقية عناصر الجيش فكان من مهام الضباط. فمن واجبهم مراقبة فرقهم بانتظام أثناء الخدمة، والتأكد من جاهزيتهم واستعدادهم الكامل، وذلك يتضمّن إيلاء الانتباه لأدقّ الأمور كالتأكد من حيازة جميع الجنود إبرة وخيطاً مثلاً، وإن حدث ووجدوا نقصاً في معدات أو أسلحة أو ملابس أحد الجنود فإنهم يعاقبونه بشدة. وإذا فقد أحد الجنود شيئاً من مقتنياته أثناء الاصطفاف، فسوف يتحمل الشخص الذي يتلوه في الصف مباشرة مهمة إرجاع الغرض الضائع لصاحبه، وإذا لم يفعل فسيتعرض للجزاء الذي قد يصل حدّ الإعدام أحياناً. كما أن عقوبة الإعدام تشمل أي جندي يفر من ساحة المعركة قبل إصدار أوامر الانسحاب الرسمي من قيادته، وكذلك من يبدأ بالسلب قبل إصدار الأوامر الرسمية بذلك. وبشكل عام كان الالتزام بالنظام والروح الانضباطية من أهم ما يُحرص عليه في الجيش المغولي.

الزيّ العسكري

أضفت المعاطف السميكة والجِزم والقبعات، مزيداً من المهابة على مظهر الجندي المغولي، الذي اشتهر «بوجهه العريض، وأنفه المفلطح، وفكه البارزة، وعينيه المشقوقتين، وشفتيه المكتنزين، ولحيته ذات الشعر الخفيف المتفرق، وشعره الأسود الناعم، وبشرته الداكنة الملوحة من الشمس والرياح والصقيع، وجسده الممتلئ فوق رجلين قصيرتين ومقوستين(2).

والشاعر الإيراني أمير خسرو(1253–1324م)، الذي تأجج حقده على المغول بعد إرغامهم أباه على الفرار بحياته هرباً من غزوهم لمسقط رأسه بلخ، كتب من خارج

الإمبراطورية المغولية، واصفاً بالتفصيل مجموعة من جنودهم الأسرى في سلطنة دلهي في الهند: «عيونهم شديدة الضيق، وثاقبة النظر حتى ليخيل إليك أن بمقدورها ثقب إناء من نحاس. أما رائحتهم فنتنة، وتثير الاشمئزاز أكثر من ألوان جلودهم.. رؤوسهم تلتصق بأكتافهم فيبدون وكأنهم بلا رقاب، وخدودهم تشبه قِرباً من جلود مغطاة بالتجاعيد والعُقد. أنوفهم مفلطحة، وتمتد من الفك إلى الفك، كما أن فتحاتها مثل عنب عطن، يخرج منها شعر طويل يصل حتى الشفتين. أما شواربهم فشديدة الطول، ولكن لحاهم وخدودهم شبه جراء. صدورهم مائلة للسواد.. مليئة بالقمل والصيبان التي تبدو مثل سمسم ينمو في تربة سيئة، والحقيقة أن تلك الحشرات تسعى في كل منطقة من أبدانهم. جلودهم محببة مثل جلود غير مدبوغة تصلح فقط لأن تكون أحذية(3).

الزي العسكري الأساسي

الزيّ الرسمي للمحارب المغولي، هو كسوته التي يرتديها بشكل يوميّ. ويتألف من معطف ثقيل مثبت إلى الخصر بحزام جلديّ يتدلى منه سيف وخنجر وبلطة في أغلب الأحيان. وتمتد قطعة من قماش هذا المعطف الطويل من اليسار إلى اليمين، فوق الصدر وتثبّت بصف من الأزرار تحت الإبط الإيسر. وأحياناً يبطّن بجلد ثعلب أو ذئب أو سنور غالباً ما تحوي جيوبه حجراً لسن الأسلحة ورؤوس السهام. كما قد تتوفر تلك الجيوب على قطعة من اللحم المقدد والمبهّر والملفوفة بقطعة قماش. يُلبس عادة تحته قميص طويل بأكمام طويلة فضفاضة.

درج الجنود الأغنياء على تفصيل معاطفهم من جلود الذئاب والثعالب، بل والقرود أحياناً، في حين لجأ الفقراء إلى جلود الكلاب والماعز.

وكانت بطانة معاطف الجنود الأغنياء تُصنع من حشوة الحرير ذات القدرة العالية على العزل. وقد أخذ استخدام الحرير بالانتشار أكثر فأكثر منذ احتلال الصين. أما بطانة معاطف الفقراء فتصنع من القطن أو من نوع جيد من الصوف المتبقي من صناعة اللباد.

وكانت تصنع أحذيتهم من اللباد والجلد. فهي وعلى الرغم من أنها ثقيلة إلا أنها كانت مريحة بما فيه الكفاية لحشو حواف السروال داخلها قبل ربط عروتها. وتلك

الأحذية كانت من دون كعوب، رغم أن أسفلها سميك ومبطن بالفرو. وكانت تُنتعل مع جوارب من اللباد لحماية القدمين من البرد القارس. أما القبعات فكانت تصنع من اللباد والفرو.

وقد اعتادوا على ارتداء درع فوق المعطف، مُؤلفة من صفائح وسلاسل وزرد، كلها من الحديد، ومترابطة مع بعضها ويتجاوز وزنها غالباً 10 كغ. كانت تتم عملية تطرية الجلود المستخدمة فيها بغليها على النار، ثم تطلى بالورنيش أو باللك الخام المصنوع من القار، ما يجعلها مقاومة للماء. وأحياناً يُقوى معطف الجنود ببساطة باستخدام الصفائح المعدنية. وقد تحدث الراهب والمخبر البابوي جيوفاني كاربيني



خوذة جندي مغولي، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

بالتفصيل عن ملابس الجنود ومعداتهم.

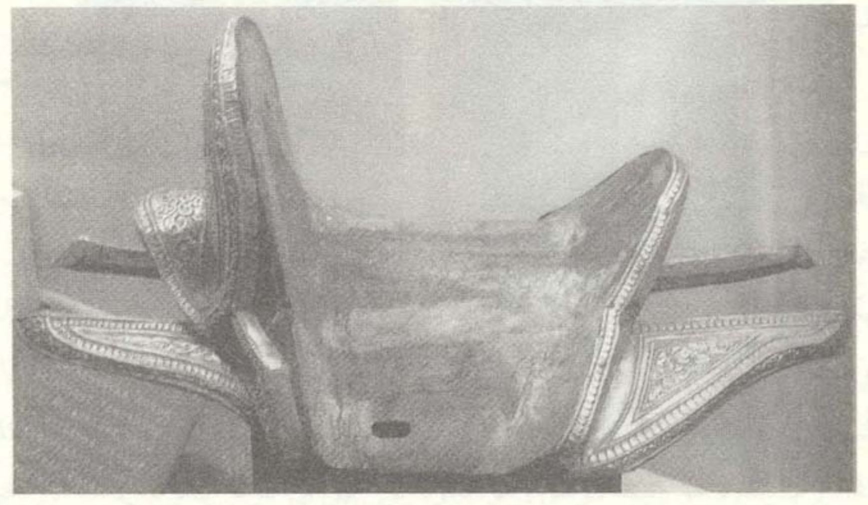
أما خوذاتهم فكانت على شكل أقماع، مصنوعة من صفائح معدنية أو حديدية بأحجام مختلفة وبعضها كان يشتمل على صفيحة لحماية العنق.

وقد ارتدى المحاربون تحت دروعهم قمصان الحرير سابقة الذكر، والتي تعتبر بمثابة دروع لما لمادتها الأولية من قدرة على التحمل، فحتى لو اخترق رأس السهم جلد المعطف الخارجي، فإنه لا يستطيع اختراق بطانة الحرير مما يصد خطر الجروح عن جسد المحارب.

وأما الخوذة فكانت تصنع من الجلد أو المعدن حسب الرتبة العسكرية. وهناك رسوم توضيحية معاصرة لتلك الخوذ، حيث نجد لبعضها عموداً فقرياً من المعدن ينحني إلى الخلف، وينتهي بعضها الآخر بكرة مع ريشة وصفيحة عريضة لحماية العنق والكتفين والفكين.

الخيول

اعتنى المغول بحماية خيولهم، مثلما اعتنوا بحماية أنفسهم، فكسوها بدروع من الصفائح المعدنية. وكانت تلك الدروع مقسمة خمسة أقسام، مهمة كل واحد منها



سرج مغولي، خشب مطلي بخيوط الذهب، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

حماية جزء معين من بدن الحصان، بما في ذلك جبينه الذي كان يغطى بجزء مصنوع من صفيحة مشغولة بدقة، تثبت بإحكام على الرقبة.

وجياد المغول صغيرة لكنها قوية. وقد كان جميع المغول يتعلمون امتطاء الخيل منذ الطفولة ويلازمونها على الدوام. ويتراوح عدد الجياد التي يملكها واحدهم بين جوادين و18 جواداً، بمتوسط خمسة خيول لكل فرد. وتورد الخيول الماء كل يوم، وتعلف بالأعشاب. ولا يجوز ركوبها قبل اجتيازها الثلاث سنوات، ومن المستبعد هروبها بعد ترويضها، كما يمكن بسهولة ضم عدة آلاف منها إلى القطيع في آن معاً. كانت الخيول تميز حسب قوتها، وقد ورد ذكر أحدها في قائمة أسرع الخيول إذ تمكن من قطع 600 ميل في تسعة أيام. وكان من النادر حذو الخيول في البدايات، وقد ذكر رشيد الدين أن حذو الخيل جاء في مراحل متقدّمة. أما شاهد عيان من المخيمات الأوروبية وهو توماس دي سبالاتو فقد لاحظ أن خيول المغول «تجري على الصخور والحجارة من دون حذوات، وكأنها ماعز برّي». لكنهم كانوا يسرجونها بسروج مصنوعة من خشب مُزيّت، وهي عالية من الخلف والأمام لتؤمن ركوباً مستقراً لرماة



سروج عسكرية مغولية، وعصي وكرات بولو، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

الرماح حتى يمكنهم الاستدارة عليها وإطلاق الرماح إلى الوراء بينما يستمرون في العدو إلى الأمام، وهي مهارة برع فيها المغول.

ويعود الفضل في تميز البريد المغولي (اليام) بأدائه العالي إلى قوة خيولهم وسرعتها.

الأسلحة

اشتهر المغول بمهارتهم في الرماية، سواء أكانوا راجلين أم فرساناً يمتطون صهوات الخيول. وهم يضعون سلاحهم دائماً في جعبة مثبتة على ظهورهم تحوي 60 سهماً، وقوسين مصنوعين من أعواد الخيزران وأوتار ثور التيبت الضخم الذي يُسمى «ياك yak» وقرونه، وهي تُلصق مع بعضها بعضاً وتُثبّت بطريقة معينة بحيث تصبح قطعة واحدة شديدة التماسك والمرونة والقوة في الوقت نفسه. يُشد القوس باتجاه انحنائه الطبيعي بوتر، مما يعطيه قوة دفع مميزة تمنح راميه قدرة على التسديد والإصابة بدقة متناهية وقاتلة في أغلب الأحيان. تعادل قوة دفع هذه الأقواس 166 باونداً (الرطل الإنجليزي) وبإمكان سهامها الوصول إلى مسافة تبعد 200 و 300 ياردة (3 أقدام). ورامي السهام الراكب (أو الراجل) عادة ما يحمل قوسين أو ثلاثاً في جعبة ضخمة بالإضافة إلى جعبة السهام ذات الرؤوس مختلفة الأشكال. ولجعل رؤوس السهام حادة تسخّن بداية على النار لدرجة الاحمرار، ثم تُغمس في ماء شديد الملوحة.

وسهام كهذه بإمكانها اختراق الدروع. وأحياناً يضاف السُم لرؤوسها. ويُستخدم ريش النسور لموازنتها، حين تستقر على الهدف، وأحياناً تُصنع بطريقة تُصدر صفيراً يُفيد في تبادل الإشارات. وأثناء الاشتباك المباشر يعتبر الترس أهم وسيلة للدفاع.وهو غالباً صغير ومدور ويصنع من الخشب أوالأماليد أو أعواد الصفصاف. ويجب أن يكون خفيفاً بما فيه الكفاية ليتمكن المحارب من السيطرة على سيفه وبلطته أو فأسه. ويدّعي كاربيني أن التروس كانت مستعملة من قبل حراس المخيمات فقط. وكانت تُستخدم الرماح أيضاً بمختلف أشكالها وأنواعها وأحجامها وأوزانها. ومما يُثقل كاهل المحارب أكثر، هو حمله الوهق وهو عبارة عن حبل في طرفه أنشوطة لاقتناص الخيل، وكذلك مبرداً، وإناء معدنياً لطهو طعامه، وقربتين جلديتين وحقيبة جلدية للمحافظة

على جفاف الملابس والمعدات أثناء عبور الأنهار. كما يجب حمل خيمة تتسع لعشرة رجال. وسلاح المحارب الخفيف الراجل هو عبارة عن سيف صغير ورمحين أو ثلاثة، في حين يحمل الفارس رمحاً بطول أربعة أمتار، ثبّت عليه خطاف، وعصا ثخينة (مثل الصولجان) أو فأس، وسيف معقوف. ويُستخدم الخطاف لإيقاع فرسان العدو عن صهوات جيادهم. وقد سافر الراهب الفرنسيسكاني كاربيني إلى بلاد الخان الأعظم كويوك ما بين عامي (1245 و1247) كممثل للبابا إنوسنت الرابع، وقد أوكلت إليه مهمة التجسس على المغول رغم أن تقدّمه في السن، وضعف لياقته الجسدية جعلاه غير جدير بتلك المهمة الصعبة، ومع ذلك مكنته معرفته بلغات أخرى إلى جانب اللاتينية وتجربته في التعامل كراهب مع مختلف أنواع الناس، من الاضطلاع بها. وكانت وظيفته تتلخص في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنهم، وهو ما أتقنه بجدارة، وخاصة في ما تعلق بالأمور الحربية والعسكرية. وهذا مقطع يلخص ملاحظاته عن أسلحة الجنود، إذ كتب يقول:

«يتعيّن على كل واحد من المحاربين، حمل قوسين أو ثلاثاً، أو واحد جيد على الأقل، وثلاث جعب كبيرة مملوءة بالسهام، وبلطة، وحبال لجر المعدات. والمحارب الغني منهم يمتلك سيوفاً حادة معقوفة، ودرعاً لحصانه، ودرعاً لساقيه، ودرعاً لحماية صدره مع خوذة لرأسه. وتصنع الدروع هكذا: يقصون قطعاً من جلود البقر أو أي حيوانات أخرى بعرض كف اليد، ويثبتون ثلاثاً أو أربعاً منها إلى بعضها بعضاً، بربطها بأوتار وفي أعلى الدرع يغرسون الأوتار على حافة القطع، ثم ينزلقون بمكان الوتر على كل قطعة بالتدريج وهكذا حتى النهاية. وبهذه الطريقة عندما ينحني الجندي تنزلق القطع السفلى فوق العليا وتتضاعف قوتها في حماية جسده.

ويصنعون دروع الخيل من خمسة أجزاء هكذا: يغطون جانبي الحصان بقطعة طولية من الجلد تحميه من ذيله حتى رأسه، وتكون مثبتة من خلف السرج إلى عنقه. وفوق ظهره يضعون قطعة أخرى يصلونها بالقطعتين الجانبيتين من الدرع، ويقصون فيها مكاناً لخروج الذيل. وفي المقدّمة فوق الصدر يضعون قطعة تحمي قائمتيه وركبتيه. وعلى جبينه يضعون قطعة من الصفيح يربطونها إلى الرأس من الجانبين»(4).

وخلال رصّ الصفوف استعداداً للمعركة، يتعيّن على جميع المحاربين حمل معداتهم ومؤنهم بالإضافة إلى أسلحتهم. وتُحمل المعدات (الحبل وقرب الجلد والأنشوطة والمبرد الخ) في حقيبة جلدية كبيرة تُثبت تحت بطن الفرس، حيث تعمل كقارب نجاة في حالة التعرض لطوفانات خلال عبور الأنهار.

وبما أن واجبات الرجل المغولي لا تختلف في أوقات السلم عما هي عليه وقت التخييم من أجل القتال، فالحرب لا تضفي إلا بعض التعديلات البسيطة فقط على حياتهم، وتتلخص في تكثيف عملية الإعداد. فأصولهم البدوية تحتم عليهم الارتحال المستمر من السهوب المفتوحة في الصيف إلى الأودية المحمية في شهور الشتاء – رغم أنها مسافة ليست بالكبيرة، ما يعادل 100 ميل – مما يجعل تأقلمهم مع مناخ الحرب التي تتطلب التنقل المستمر، أمراً سهلاً بالنسبة إليهم.

المعركة

يمضي الجيش المغولي إلى المعركة على دفعات، ولكنه لا يهاجم إلا موحداً. فينطلق الجنود في أرتال متباعدة، ولكنهم يحافظون على التواصل بينهم. فالرسل المجهزون بخيول سريعة ومسرجة يبقون على أهبة الاستعداد في كل الوحدات. كما يشعلون النيران ويستخدمون دخانها كإشارات للتواصل. وكنتيجة لهذا المستوى العالي من التواصل، تسهل عليهم إعادة توحيد أرتالهم المتفرقة بسرعة، واستخدام واحدة من أكثر طرقهم الحربية تفضيلاً وهي الارتداد المخاتل. فكم من مرة تظاهر المغول بالتراجع لاستدراج عدوهم كي يلحق بهم، ثم ليكتشف ذلك العدو – بعد فوات الأوان طبعاً – أنه أصبح في قبضة المزيد منهم بعد التحامهم بالأرتال التي كانت متخلفة عنهم.

وقبل بدء المعركة يرسل المغول مجموعات من الجنود لجمع ما أمكن من معلومات عن العدو. فيطوفون الأراضي المحيطة كلها، بحثاً عما قد يفيد جيوشهم الزاحفة. وهكذا يأخذون بعين الاعتبار قبل تحرّك الجيش كل ما ذكرته تقارير مجموعات التجسس من مراعٍ ومصادر للمياه والغذاء، وأرض آمنة لمخيماتهم، ومواقع لمعاركهم المفترضة، والنقاط الأفضل للمراقبة. كما يستخدمون تلك المجموعات التجسسية في

نشر معلومات زائفة عن أنفسهم، لخداع العدو، والتغرير به، ولكي يدب الضعف والفرقة في صفوف أفراده، وللتجسس على رتبه واكتشاف إن كان بإمكانهم تسخير بعض أفراده كجواسيس لصالحهم. وهكذا فقد أولوا أهمية قصوى لما تحققه لهم الحرب النفسية من مكاسب تضاف إلى مكاسب القتال، ونتيجة لتقديرهم العالي لدور الاستخبارات، واستغلاله الفعّال زمن الحروب، لم يتمكن أحد على الإطلاق من مفاجأتهم. فبعد أن يتم الاتصال بالعدو من خلال الجواسيس الذين يُرسلون غالباً قبل انطلاق الجيش لمسافة لا تقل عن 70 ميلاً، يبدأ الجيش الأساسي بتوسيع نطاق مقدّمته لتتحول إلى ما يشبه الكماشة التي ستحيط بجيش العدو أثناء الصدام. بعد ذلك تبدأ المناوشات لاختبار جَلَد العدو، ولكن المواجهة الفعلية لا تتم إلا بعد استعداد الجيش المغولي تماماً. فإذا كان العدو ضعيفاً وقليل العدد فإن طليعة الجيش المغولي يمكنها أن تتولى أمر انهاء المعركة من دون تدخل الجيش الأساسي، وأما إذا كان العدو قوياً ولا يمكن هزمه بسهولة فتعمل تلك الطلائع على خداعه واستدراجه للوقوع بين ذراعي الجيش الأساسي المنتظر في الخلف، حيث لا أمل له بالنجاة من بعدها.

ويتم التمرن على إتقان هذه الحبكة عدة مرات خلال ما يسمى بالـ «نيرج nerge» وهو تمرين على الصيد يستخدم أيضاً كتدريب عسكري يشارك فيه الجميع.

وتشكيل الجيش الأساسي، يتألف من خمس فرق «جاغون» (100 محارب) تفصل بينها مسافات واسعة. وتضم الفرقتان الأماميتان منها فرساناً مسلحين بالعصي الغليظة (صولجانات)، والسيوف والرماح، يمتطون خيولاً مغطاة بالدروع. من خلفهم ثلاث فرق أخرى (جاغون أيضاً) تضم فرساناً بأسلحة خفيفة وبالكاد ترتدي دروعاً، ومسلحة بالأقواس والرماح. وهذه الفرق الخفيفة تتسلل عادة من بين ثغرات في صفوف الفرقتين الثقيلتين وتُطلق أسراباً من الرماح والسهام على صفوف العدو، في حين تتقدّم الفرقتان الثقيلتان في آن معاً، من الجهتين، مما يشكّل حركة دائرية تحيط بالعدو وتُعرف بِـ «تولوغما tulughma». وإذا أجبر الهجوم الأساسيّ العدو على التراجع، فإن رماة الرماح بدورهم، يرتدون بهدوء وبطء مثلما جاؤوا، ويأخذ مكانهم بالتدريج فرسان خفاف جدد. وعندما يتم إضعاف العدو بشكل واضح وتتم تفرقة

صفوفه، تُرسل فرق ثقيلة من الفرسان للقضاء المبرم على من بقي حياً من أفراد جيشه.

يجري تنفيذ جميع تلك الخطط قبل تدخل الفرق الثقيلة بسرية، وصمت مطلقين، إذ يتم التواصل والتفاهم من دون استخدام الكلام، فتستعمل الرايات البيضاء والسوداء خلال النهار، والقناديل أثناء الليل. وعندما تُعطى إشارة التدخل للفرق الثقيلة يسمع زئير قوي وقرع طبول الـ «ناكّارا naccara» المعلنة عن الحرب والتي تأتي محمولة على جمال الـ «باكتريان Bactrian» (ذات السنامين) حاملة معها صراخ الفرسان واندفاعهم في الوقت نفسه من جميع الجهات ليطبقوا مثل كماشة على العدو. لكن يجب ألا تنغلق تلك الكماشة تماماً كي لا يُجبر العدو على القتال حتى الرمق الأخير، ففي تلك الحالة سيتكبد جيش المغول خسائر فادحة في الأرواح، وهو ما يبذلون قصارى جهدهم لتفاديه. وعلى العكس فإن منح جيش العدو فرصة التشتت، كعناصر منفردة هنا وهناك في السهوب، سيسهل إمكانية اصطيادهم وقتلهم أو أسرهم. وأحياناً تستمر ملاحقة الجيش المهزوم لعدة أيّام، مما يؤمن تسلية للجيوش المغولية، ويساعد على انحطاط صورة العدو. بعد أن يتفرق جنوده جوعى، وأشباه عراة، ومرضى أو جرحى، ينشرون النفور في نفوس الناس، في حين تتعزز صورة الجيش المغولي كجبار لا يقهر. فقد بقي الجيش المنكسر للسلطان خوارزم شاه عدة سنوات – بعد هزيمته عام 1220– هائماً على وجهه في إيران، ينشر الأساطير والقصص المرعبة عن جبروت جيش المغول. لكن الأمر انقلب ضدهم فبدأ الناس يتجنبونهم ويخشونهم أكثر من خشيتهم من جيش المغول نفسه.

وعلى الرغم من أن خطة المغول في الارتداد المخاتل كانت معروفة من قبل أعدائهم إلا أنها ظلت طريقة فعالة، وناجعة في كل مرة استخدموها. وأحد الأمثلة الشهيرة على تراجع المغول الزائف الذي استمر تسعة أيام، هو ما حدث خلال رحلة الجنرالين تجبيه[91]

(91) Jebe تجبيه: كان واحداً من جنرالات جنكيز خان الدائمين، ويحكى أن جنكيز خان أعطاه هذا الاسم المركب الذي يعني السهم والصدأ، بعد أن غزا قبيلته وقام تجبيه بتسديد رمح باتجاهه، أصاب حصان جنكيز خان الذي سأل من فعلها فاعترف تجبيه على الفور قائلاً: «إن أراد جنكيز قتلي فأنا جاهز وإن أراد العفو عني فسأخدمه مدى الحياة بكل إخلاص»، وهكذا أعجب جنكيز خان بشجاعته وصدقه وعينه جنرالاً ومنحه اسم تجبيه.

وسوبوتاي[92] الاستطلاعية الأسطورية عام 1222 في مواجهة الأمراء الروس وحلفائهم من الترك الـ «كومان Cuman»[93]. فحينها تراجع المغول أمام طلائع العدو الملاحقة لهم، ولكنهم قاموا بهدوء بنشر قواتهم على مدىً أرحب بحيث تمكنوا في النهاية من الالتفاف وتشكيل الكماشة حول أعدائهم المتقدّمين الذين كانوا قد انفصلوا عن جيشهم الأصليّ. وقد حذّر الجاسوس والراهب الفرنسيسكاني كاربيني من ذلك التكتيك في تقريره الذي أرسله إلى البابا والذي قال فيه: «حتى لو تراجع التتار، يتوجب على رجالنا عدم الانفصال عن بعضهم بعضاً، لأن التتار يتظاهرون بذلك لتفكيك صفوف أعدائهم». اقترح كاربيني استخدام القوس النشاب ضد المغول، ملاحظاً كيف أنهم يخشون مثل هذا النوع من السلاح، كما اقترح أيضاً استخدام رماح بخطاطيف لرميهم عن صهوات جيادهم. وهذا المقطع التالي من ملحمة المستوفي «ظفرنامة»[94] يصف معركة غير متكافئة انخرط فيها خاسرون. ورغم أنه كتب قصيدته الملحمية بعد مضي زهاء قرن على تلك المعركة، إلا أنه سمع عنها من شهود عيان ممن عاصروها من أقربائه (وهو الذي كان دائم البحث عن أمثالهم ليستفيد من شهاداتهم في تدوين تاريخه)، كتب يقول فيها:

«هناك، من زنجان [95] إلى قزوين
زحف سوبوتاي بسرعة كالنمر الغاضب
وقت تحولت المدينة الجميلة بحيرة دم
تملؤها المآسي وصرخات الأسى
فكُلّف حاكمها مُظفّر الشهير
بدرء الزحف المدمر عنها
فأغلق بوابتها بإحكام كأنها صخرة
وتمركز الجنود على الأسوار

(92) Subodai سوبوتاي: كان من أشهر قادة جنكيز خان وأوقطاي خان، وهو مخطط استراتيجي مهم، أشرف على أكثر من 20 حملة عسكرية، فاق خلالها أي قائد آخر في العالم كله في حجم الأراضي والمستعمرات التي سيطر عليها. وشملت خططه زحف جيوش متباعدة مسافة 500 كم عن بعضها بعضاً.

(93) Cuman الكومان: قبائل رعوية تركية سكنت في منطقة شمال البحر الأسود وعرفت باسم كومانيا.

(94) Zafarnameh ظفرنامة: وتعني حرفياً كتاب النصر، وهي كلمة مركبة من الفارسية والعربية.

(95) Zanjan زنجان: هي إحدى محافظات إيران الثلاثين. ثلاثة أرباع سكانها من الأذريين الأتراك والبقية من الفرس والكرد.

مشرعين أسلحتهم نحو المغول
عدوهم الشرس الذي انتظروه ثلاثة أيام بلياليها،
وفي اليوم الرابع أريقت الدماء بغزارة،
حين اقتحم المغول قزوين
فطأطأت الرؤوس الشامخة المرفوعة.
ولم يبقَ شبر لم يأخذوه
أو قائد شجاع لم يهزموه
وسقطت المدينة في قدرها المحتوم
فدفن صغيرها وكبيرها، عاليها ودانيها، في قبر كبير
وتطايرت الأشلاء كالغبار
ولف الخراب الجميع
كقدر بائس لا يرحم رجلاً أو امرأة
وصار نشدان الموت في تلك الساعة المرعبة
حلماً لخلاص الحسناوات من قبضة الغزاة.
فالعذراوات العفيفات من حفيدات النبي،
اللواتي يبرقن طهارة كالنجوم،
أفزعتهن شهوة العدو الضاري،
فأسلمن أجسادهن كأشباح لا روح فيها.
كثير من سكان تلك الأرض شافعي،
بينما واحد في الألف منهم حنفي،
ومع ذلك تفرقت فوق السهل جثث اثني عشر ألف حنفي
تكوّمت كالتلال في كل صوب وعلى كل درب
حتى ليصعب المشي من دون أن يُداس عليها.
فرّق الرعب شمل الناس هنا وهناك،
وبقلوب ملأى بالأسى
وأزواح يعتصرها الألم
لاذ البعض بالمسجد
وأعمى الذعر بصيرتهم فعجزوا عن الاختباء
وكأن جميع الأسوار والأشجار والخنادق اختفت من أمامهم فجأة
وأما المغول القساة فأضرموا النيران في كل شيء

حتى اخترقت ألسنة اللهب السماء
فتداعت الأسطح والسقوف والقناطر والعقود والأقواس
كأنك في محرقة وثنية من الموت والجحيم»(5)

النيرج (التكتيك بالصيد)

«النيرج» أوالتكتيك بالصيد لم يكن نشاطاً للتسلية وتحصيل الغذاء فقط، وإنما كان جزءاً حيوياً ومهماً في تدريب الجيش المغولي كقوة قتالية ومنظمة ومنسقة. فالإمدادات والتحضيرات التي يتطلبها النيرج وقت السلم يمكن الاستفادة منها بشكل كبير في ما بعد في ساحة الحرب. وهو نشاط أساسي في حياة أبناء السهوب وثقافتهم، ينخرط فيه جميع أفراد القبيلة، ويضطلع كل منهم بدور ما في أداء مهماته وواجباته ومتطلباته المختلفة، ويتعاملون معه زمن الحرب على النحو ذاته، ولكن بدلاً من صيد الحيوانات يتم صيد البشر.

يبدأ الطفل المغولي منذ نعومة أظفاره بتعلم الفروسية والرماية بالرمح عن صهوة الجواد فهو صيّاد بالفطرة. ومع ذلك ارتأى جنكيز خان أن يجعل من تدريبات النيرج تمريناً عسكرياً يترتب على جميع أفراد الجيش الخضوع له، وأسس له قوانين واضحة يعرفها الجميع ويتقيدون بها. فكان على درجة عالية من دقّة التنظيم، لكونه نشاطاً سيقود إلى تأمين غذاء القبيلة كلها للشتاء التالي، ويهدف في الوقت عينه إلى أبعد من ذلك، وهو ما لاحظه الجويني، حين حذّر من الاستخفاف به واعتباره كرحلة للتسوق قائلاً: «لو نظرنا إلى الحرب بكل قتلاها وكثرة ضحاياها وقلة الناجين من ويلاتها، لوجدناها تشبه الصيد العظيم(النيرج)، فتفاصيلهما ونتائجهما متشابهة، وكل ما تراه بعد انتهائهما هو الأشلاء»(6).

ولأنه نشاط يدخل ضمن نطاق التدريبات العسكرية، فقد جرى التركيز خلاله على الرشاقة والفروسية والقدرة على التواصل الدقيق، وتعلم المغول منه دروساً في الانضباط الذي أثار الإعجاب والخوف معاً، في نفوس أعدائهم.

يتم اختيار فصل الشتاء عادة لأنشطة «النيرج»، ويستمر لمدة ثلاثة أشهر، ويشارك

فيه جميع الجنود ومعظم أفراد القبيلة. وقلما تغيرت استراتيجيته، فهناك خط البداية الممتد إلى مسافة 80 ميلاً، ويحدده الصيادون بوضع رايات عند نقاط متباعدة، لتحديد موقع التومان (وحدة مؤلفة من 10,000 جندي). وتوضع رايات خط النهاية على بعد مئات الأميال. ويبدأ خط البداية الطويل، المؤلف من حشود جيدة التسلح، بالتقدّم نحو الأمام بعد الحصول على إشارة من الخان. وبتوالي الأسابيع – حيث من المفترض ازدياد عدد الطرائد – يبدأ الخطان بالاقتراب من بعضهما بعضاً، ليطبقا بهدوء وبطء، ومن جميع الجهات، على الفرائس. يشكّل الصيادون حلقة واسعة تمتد على مساحة كبيرة من الأرض، وهذه الحلقة تضيق بالتدريج دافعة نحو مركزها كل ما تصادفه في طريقها من حيوانات برية.. أليفة أو مفترسة. وخلال ذلك يتم تبديل الجنود بشكل دوريّ، كي تُنفّذ المهمة على خير وجه فلا تمر لحظة واحدة من دون وجود عناصر متيقظة، بمن فيهم عناصر الفرقة المستريحة الذين يحرصون على النوم بكامل ملابسهم استعداداً للطوارئ. فأي صياد يسمح لطريدة بالهرب من الحلقة، قد يتعرض لعقوبات قاسية توازي عقوبة قتل الطرائد قبل الوقت المقرر. «وإن حدث وفرّت إحدى الطرائد عن طريق الخطأ، تُراجع الأسباب لبرهة، ومن ثم قد يعاقب لأجل ذلك العشرات والمئات بل وحتى الآلاف ومن الممكن أن يقاصصوا بالموت. وإذا تقدم أحد الرجال أو تراجع خطوة إضافية عن الخطة المفترضة، يُعتبر ذلك غلطة لا تُغتفر، ويُحاسب عليها بصرامة»(7). وينتظر الخان مع مجموعة صغيرة من أتباعه عند نقطة محددة مسبقاً، قد تبعد مئات الأميال عن نقطة البداية، حيث يسهل على الجميع رؤيته حين إطلاقه الإشارات «وفي وسط الحلقة تحتشد مجموعة هائلة من الوحوش كالأسود والثيران البرية والدببة والعديد من الحيوانات الأخرى، وجميعها في حالة تحفز وقلق. ويستفز الصراخ والضجيج المرتفع تلك الطرائد أكثر، ويجعلها في حالة هلع قصوى»(8). وتماماً في تلك اللحظة يقوم الخان بقتل أول طريدة، وذلك إشارة لبدء المجزرة. فتقتل الحيوانات التي ستُخصص للطهو بمهارة وسرعة، في حين تعاني الطرائد الأخرى قبل أن تعرف الرحمة، ففي كثير من الأحيان ينتشي الخان الأعظم ورفاقه بمتعة ملاحقة الطرائد وتعذيبها لفترة طويلة قبل السماح لأصغر أمير بالبدء في القتل. وبعد أن يكتفي

أولئك الأمراء بدورهم من المطاردة والقتل، تُطلق حشود الجنود العادين لمتابعة اللعبة ضد الوحوش المسكينة. ولعلم الجميع بوجود الخان الأعظم بينهم، ولنيل الحظوة عنده، يسعى واحدهم بكل طاقته لإظهار مهارته وقدرته على الكرّ والفرّ والتسديد. فالنزال غير المسلح، والقتال بالسيف والخنجر، على الأرض أو على صهوة الحصان، كلّها مهارات تُستعرض لإدهاش الخان الأعظم والقادة الآخرين، ولفت أنظار هذا المحارب أو ذاك.

ولأجل التكاثر، وحفظ النوع، يُبقون على حياة بعض الطرائد، ويُطلقون سراح بعضها كرمز، ولكن معظمها ينتهي تحت سكاكين الطباخين. كما يستدعي أحد تقاليدهم قدوم مجموعة من الشبان والشابات، والمثول أمام الخان الأعظم يتوسلونه خلاص الحيوانات الأخرى. ويُعتبر صمت الخان وهدوؤه، علامة أو إشارة إلى انتهاء الصيد.

وتتلو «النيرج» تسعة أيام من الاحتفال واللهو. وتوزع الغنائم على كل الوحدات والأفراد الذين شاركوا فيه، كحصة يتقاضونها عن تعبهم.

و«النيرج» إضافة إلى كل ما تقدّم كان وسيلة لتعزيز نظام الاتصال المغولي. فهناك رحلات الرسل المستمرة بين خطي البداية والنهاية، والتلويح بالرايات، وإشعال المشاعل. ولكن أهم ميزاته أنه تمرين مباشر على فنون الحرب والقتال. فهو لم يلفت أنظار الرحالة المستشرقين الذين شهدوه بأنفسهم وحسب - كالراهب أودوريك البوردونوني (1316- 1330) - وإنما أيضاً أولئك الذين سمعوا بذكره مجرد سماع في أوروبا. قدّم لنا إدوارد جيبون وصفاً حياً ودقيقاً في ملحمته التاريخية «أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» قال فيه:

> «الحياة الرعوية، مقارنة بحياة الفلاحين والعمال هي بلا أدنى شك حياة مثالية. فقلما يسمحون للأعباء والهموم النابعة من طبيعة الحياة المدنية بتعكير صفوهم ووقت تسليتهم، وجل اهتمامهم هو رعاية قطعانهم التي غالباً ما تتيح لهم حيزاً لا بأس به من وقت الفراغ الذي لا يصرفونه كله على اللهو والمتعة فقط، وإنما يسخرونه لتمارين «النيرج» العنيفة والدموية. وسهوبهم ملأى بسلالات خيول يروضونها بسهولة ويسخرونها أثناء الحرب

أو الصيد. والأطفال السكوثيون[96] من مختلف الأعمار اشتهروا بمهاراتهم العالية في الفروسية، وقد جعلهم التمرين المتواصل، يبرعون في الثبات على صهوات خيولهم لدرجة أنهم يأكلون ويشربون، بل وينامون من دون أن يسقطوا عنها. وهم بارعون في استخدام الرمح والقوس النشاب لصيد حيوانات الصحراء كالأرانب البرية والماعز البري والأيل والغزلان والظبي الضخم المسمى بالإلكة وبقر الوحش. ويرجع مقدار إحراز النجاح في هذه المطاردات إلى صبر الرجال والخيول معاً، وطول مدة المطاردة، بل وإلى جو المخيم، وكفاءة معداته ووفرة أسلحته. لكن مآثر أولئك الصيادين لم تنحصر فقط بقدرتهم على الفوز بمثل هذه الحيوانات المسالمة، فغالباً ما يطاردون وحوشاً ضارية، ويستمتعون بالدفاع عن أنفسهم حين ترتد عليهم بهجوم مضاد. كأن يثيروا غضب الدب البري فينفض عنه كسله المعتاد ليلاحقهم، أو يؤججوا غضب النمور فتطاردهم بأنيابها الضارية. وببساطة فإنهم ينتشون في مواجهة الخطر ويعتزون بالمخاطرة بأرواحهم. ويعتبرون خوض تلك التجارب تماماً كالتخرج من مدرسة عسكرية. فجولات الصيد بحد ذاتها، وما يُحسّ به الأمراء من كبرياء ومتعة خلالها، يشكّلان تمريناً بغاية الأهمية لتطوير قدراتهم الفروسية زمن الحرب الحقيقية.

ويتم «النيرج» برسم دائرة قد يصل محيطها إلى عدة أميال، كي تطوق الطرائد لأقصى مسافة ممكنة، وبالتدريج تبدأ حلقة الصيادين بالتقدم نحو مركز تلك الدائرة، وهو النقطة التي أُجبرت الطرائد على الاحتشاد فيها لتكون في متناول أسلحة الجميع. ويستمر التقدم هكذا ببطء لعدة أيام، يُجبر خلالها الصيادون على تخطي أي تضاريس طبيعية أو عوائق تواجههم كتسلق الهضاب العالية، أو عبور الأنهار أو الانزلاق على سفوح الوديان، من دون الإخلال بخطة تقدمهم المرسومة مسبقاً. يتقدمون بتركيز وتنسيق بين خطواتهم وأبصارهم وكأن مكان الطرائد يتحكّم بهم عن بعد، فلا يسرعون مقدار خطوة واحدة أو يؤخرون مقدار خطوة عن مسار الصيادين الآخرين المحيطين بهم، مع استمرارهم في المراقبة وترديد الإشارات المرسلة إليهم من قبل قادتهم، الذين تلقوا بدورهم خلال تمرينات «النيرج»، أهم درس في فن القتال، وهو القدرة على التقييم الفوري والدقيق للأرض والمسافة والوقت. وإذا

(96) Scythians السكوثيون: أو الإصقوث هم شعب رعوي متنقل ينحدر من أصول إيرانية، وقد حل محل السيريين الذين كانوا قد جاؤوا من سهول روسيا، وقد نزح السكوثيون من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن 8 ق.م ، واستقروا غربي نهر الفولغا شمال البحر الأسود حيث كانوا على صلة بالمستعمرات الإغريقية حول البحر الأسود. تعرف اليوم بشبه جزيرة القرم أو أوكرانيا حالياً. تمكن السكوثيون من تأسيس إمبراطورية غنية وقوية استمرت لقرون عديدة قبل أن يخضعوا للسارماتيين بين القرنين الرابع قبل الميلاد، والثاني الميلادي.

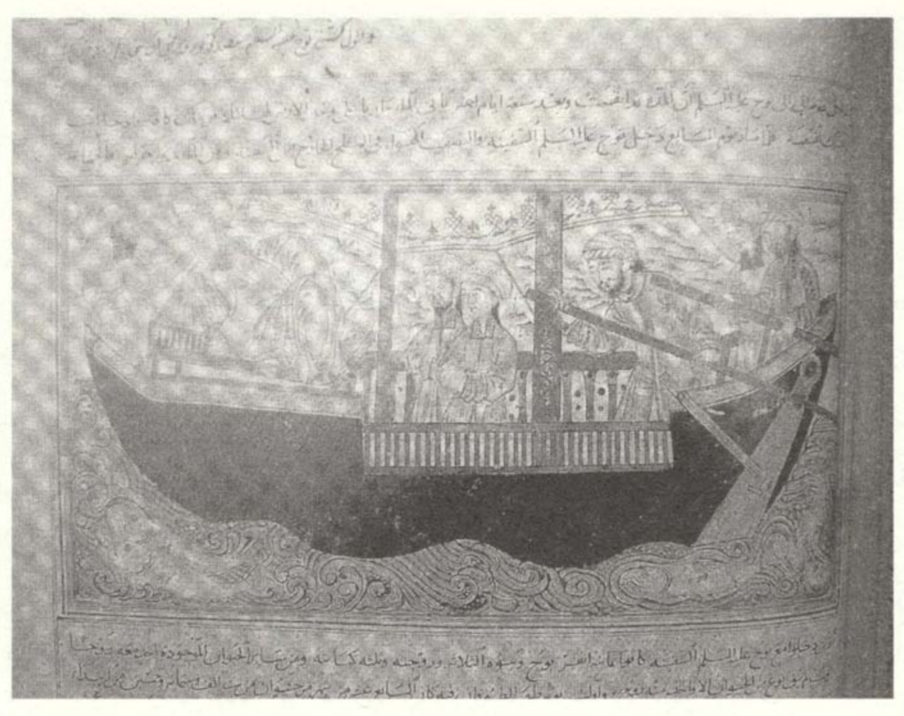
أضفنا إلى هذه الخطة، التزوّد بالصبر، والتحلي بالشجاعة، مع استخدام المهارة والانضباط عينهما، لحصلنا على وصفة الجيش المغولي السحريّة التي مكنتهم من سحق أعدائهم وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف»(9).

لا شك إذاً في أن «النيرج» شكل عنصراً مهماً في حياة المغول. وفي ما سيأتي سأستشهد بوصف أربعة كتّاب ممن تابعوا هذا النشاط المدهش لكل من زار الإمبراطورية في ذلك الحين. الجويني، كاتب الوصف الأول، ترعرع في البلاط المغولي، وأصبح في ما بعد حاكماً لبغداد تحت حكم هولاكو، ومن المؤكد أنه شاهد تمارين النيرج، بل وحتى شارك في العديد منها. والراهب أودوريك البوردونيني ارتحل باتجاه الشرق بين عامي 1316 و 1330، وشاهد بنفسه إحدى مطاردات «النيرج» العظيمة في الصين، وذلك أثناء حكم أسرة اليان المغولية. ووليام الروبريكي تنقّل في الأراضي الروسية والسهوب الأوراسية للوصول إلى قره قورم ما بين عامي 1253 و 1255 وسجل ملاحظات عن أهمية «النيرج». ورشيد الدين المعروف بكونه أول من ألّف كتاباً عن تاريخ العالم، والذي أصبح رئيس وزراء الإمبراطورية الفارسية تحت حكم غازان خان، وأول من أنشأ روابط تجارية وثقافية قوية مع الصين، والتي توطدت أكثر بسبب علاقته بمبعوثها في إيران بولاد آغا أو بولاد تشنسانج ما بين عامي 1240 و1313.

وصف علاء الدين عطا مالك الجويني للنيرج

«أولى جنكيز خان، نشاط النيرج اهتماماً كبيراً، واعتبر أن اتقان الصيد هو أحد واجبات كل محارب في جيشه، لذلك كان التمرين على المطاردة أمراً عسكرياً مُلزماً، حيث يعلمهم كيف يعثرون على طريدتهم، وكيف يصيدونها، وكيف يتسلّحون لذلك، وكيف يحاصرونها اعتماداً على حجمها. فحين يبدأ المغول صيدهم، يرسلون أولاً مستكشفين لاستطلاع المكان، وتحديد أنواع الطرائد المتوافرة فيه وأعدادها. وفي أوقات السلم (التي لا ينشغلون فيها بإحدى الغزوات أو المعارك) فإنهم شديدو الحماسة للمطاردة. كما يتم حث الجنود أنفسهم خلال فترات الراحة (أي عدم الانخراط المباشر في معركة ما) على خوض تلك المطاردات مع

الصيادين. ليس الهدف غنم الطرائد بقدر ما هو تمرين على إتقان فنون الصيد من استعمال للقوس، وتحمل للمشقات. وكلّما شرع الخان في رحلة صيد عظمى (وهي غالباً تحدث في بداية فصل الشتاء) يُصدر أوامره للمعسكرات القريبة من المكان الذي سيخيّم فيه بالاستعداد للانخراط معه، ومع جماعته في تمارين المطاردة. وهكذا يجب إسراج عشرة خيول لعشرة رجال من كل فرقة، وتوزيع المعدات والأسلحة عليهم والتي تختلف حسب موقع الصيد. يتم تعيين الفرق المشكِلة للجناح الأيمن، والجناح الأيسر، والمركز، ويُشرف على هذه الفرق الأمراء الذين سيستقرون في مخيّم دائري يُنصب لهذا الغرض، وتصحبهم السيدات النبيلات والمحظيات والكثير من المؤن والخمر. ولمدة شهر أو أكثر يعملون على تضييق تلك الحلقة، وتطويق الطرائد، وحصرها في الوسط مع الاحتياط لعدم هرب أي منها. فأي صياد يسمح لطريدة بالفرار من الحلقة قد يتعرض لعقوبات قاسية توازي عقوبة قتل الطرائد قبل الوقت المقرر أيضاً. وإن حدث وفرت إحدى الطرائد عن طريق الخطأ، تُراجع الأسباب لبرهة، ومن ثم قد يعاقب العشرات والمئات، بل وحتى الآلاف بسبب ذلك، ومن الممكن أن يقاصصوا بالموت. وإذا تقدم أحد الرجال أو تراجع خطوة إضافية عن الخطة المفترضة، يعتبر ذلك غلطة لا تُغتفر، ويحاسب عليها هذا الرجل بكل صرامة. يستمرون في دفع الطرائد بهذه الطريقة كقطيع من الخراف لمدة ثلاثة أشهر، نهاراً وليلاً. ويرسل بعض الرجال إلى الخان لإطلاعه على آخر تطورات الصيد.. قلته أو كثرته، وإلى أي مدى وصلت الطرائد وإلى أي اتجاه تفر. وأخيراً.. عندما تضيق الحلقة، حيث لا يتعدى قطرها براسانين أو ثلاثة (البراسان Parasangs وحدة قياس فارسية تعادل ثلاثة أميال ونصف الميل) يربطون حبالاً بعضها ويغطونها باللباد. وفي هذه الأثناء تقترب الفرق لمنتصف الدائرة، ويقف الرجال جنباً إلى جنب (أو الكتف ملاصقاً للكتف)، في حين يرتفع صراخ الحيوانات التي تتوسط الدائرة وزئيرها، وعادة ما يعقد الخوف، وغريزة البقاء صداقات تقوم على التعاطف بين حيوانات كانت تكن لبعضها العداء، فترى الأسد لطيفاً مع حمار الوحش، والضباع تتصادق مع الثعالب، والذئاب تحنو على الأرانب. وعندما تحتشد الدائرة بالحيوانات لدرجة لا تسمح لها بالحركة، يركب الخان مع بعض أتباعه ويتجول وسطها، وحين ينال نصيبه من المتعة وينتابه الضجر يتمدد مع أتباعه على أرض مرتفعة في منتصف النيرج لمراقبة الأميرات، وهن يدخلن الحلقة بالطريقة عينها التي دخلها هو من قبل، ومن بعدهن يتقدم «النويانز noyans» (رتبة عسكرية لقائد مجموعة التومين المؤلفة من 10,000 جندي) ثم فرقهم. وتنقضي عدة أيام بهذه الطريقة، حتى لا يبقى في الحلبة سوى بعض الحيوانات الجريحة، وحينها تتقدم مجموعة من الشيوخ بتواضع وبطء وتركع أمام الخان لتلاوة الصلوات والدعاء له بالصحة وطول العمر، ثم يتوسلونه لكي يبقي



رسم مركب من كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين، بموافقة لان تيان لانج للنشر

على أرواح ما تبقى حياً من تلك الطرائد، والسماح لها بالفرار لترعى في مكان ما. وفي النهاية يجمعون الطرائد التي استولوا عليها أو ذبحوها، وإذا فاض بعض هذه الحيوانات عن حاجتهم أخذوا الوحوش المفترسة، وحمير الوحش فقط، وأطلقوا الباقي»(10).

وصف الراهب أودوريك للنيرج

هناك خلاف حول سنة ولادة الراهب الفرنسيسكاني أودوريك، فبعضهم يزعم أنه ولد في عام 1286، وآخرون يرجّحون أنه ولد في عام 1274 وتوفي في يناير من عام 1331. وقد انطلق في رحلته نحو الصين والهند ما بين عامي 1316 و1318 وعاد في 1330. وقبل قيامه بتلك الرحلة تمتّع على الدوام بسمعة طيبة ومكانة مقدسة واشتهر بكراماته. استهل رحلته منطلقاً من القسطنطينية (إسطنبول في تركيا حالياً) إلى إيران. وتجول وقتاً طويلاً فيها قبل إبحاره إلى الهند. حط رحاله أولاً في «مالابار» (في الهند)

قبل أن يتابع رحلته شرقاً ماراً بسيلان (أو سريلانكا) وسومطره، وجزيرة جاوا، وفيتنام، وقوانغتشو وهانجتشو في الصين، وصولاً إلى عاصمة المغول في الصين «خان باليق» (أو بكين). وعاد إلى موطنه البندقية في إيطاليا بعد مروره بكابول وتبريز. وقد رافقه في تلك الرحلة الملحمية الراهب الإيرلندي جيمس. ويُعتبر وصفه لمطاردات الصيد في الصين المغولية على جانب من الأهمية لكونه جاء بعد تقرير الجويني الإيراني بزهاء نصف قرن:

«تستغرق رحلة صيد الخان الأعظم زهاء عشرين يوماً، ينطلق فيها من خان باليق (بكين) إلى غابة رائعة محيطها يعادل المسافة التي يقطعها الحصان في ثمانية أيام. وفيها تنوّع مذهل من الحيوانات. والخان يقصدها كل ثلاث أو أربع سنوات، وخلال غيابه يحرسها ويعتني بها رجال من أتباعه.

يتوزع قارعو الطبول في البداية حول محيط الغابة عند وصول الخان الأعظم مع حاشيته. ثم يطلقون كلاب الصيد والصقور والأسود المدربة لهذه الغاية، ومن بعدها يبدأون تدريجياً بالزحف نحو مركز الغابة، دافعين أمامهم الطرائد إلى نقطة واحدة. وهكذا تحتشد في وسط الحلقة، مجموعة هائلة من الوحوش كالأسود والثيران البرية والدببة والعديد من الحيوانات الأخرى، وجميعها في حالة تحفز وقلق. ويستفز الصراخ والضجيج المرتفع تلك الطرائد أكثر، ويجعلها في حالة هلع قصوى. وفي تلك اللحظة يبرز الخان الأعظم مع حاشيته قادمين على ثلاثة فيلة، ويطلقون خمسة سهام على الطرائد، تكون بمثابة إشارة لبدء الهجوم من قبل الصيادين الآخرين. ويطلق الخان الأعظم صيحة لتحفيز الصقور والكلاب على الهجوم أيضاً. يتبع ذلك صراخ جميع الصيادين بالطريقة عينها وللغاية ذاتها. ويتقدم جميع النبلاء نحو الوسط لجمع الطرائد الذبيحة، واسترجاع سهامهم من أجسادها (وكل واحد منهم يميّز سهامه من علامة محفورة عليها ويفوز بالذبيحة التي اخترقها سهمه)(11).

وصف وليام الروبريكي للنيرج

«يوفر الصيد للمغول قسطاً عظيماً من مواردهم الغذائية. وهم عندما يعتزمون الصيد يتجمعون بأعداد كبيرة في المنطقة التي يعلمون بوجود الكثير من الحيوانات

البرية فيها، ويبدأون الزحف بالتدريج مطوقينها من جميع الجهات حتى يحاصروها في الوسط، ثم يطلقون سهامهم عليها»(12).

وصف رشيد الدين للنيرج

«أمر أوقطاي خان ببناء جدار من الخشب والطين في مخيمه الشتوي. زود ببوابات وسُميّ تشيهيك. وحين يُقرَر وقت الصيد يُنادى على جميع الجنود بالتجمع وتشكيل دائرة يبعد محيطها سفر شهر من ذلك الجدار، ثم يتوجهون نحوه، دافعين الطرائد أمامهم باتجاهه. وحين يقتربون منه يضيقون المسافة بين الواحد والآخر حتى تتلاصق أكتافهم، ثم يدخل أوقطاي خان الدائرة مع حاشيته ويسلون أنفسهم بمتعة القتل. وعندما يتعب الخان وينتابه الملل يتمدد فوق تلة مرتفعة داخل الدائرة ليحلّ مكانه في الحلبة بقية الأمراء حسب دورهم، يتلوهم القادة وأخيراً الجنود. وعادة ما يطلقون سراح بعض تلك الحيوانات لأجل التناسل، ثم يقوم المشرفون على مؤن الجيش بتوزيع ما تبقى منها على الأمراء والنبلاء والجنود فيحظى كل منهم بنصيبه، ثم يجتمع الجميع لإحياء حفل تقديم الهدايا المسمى «تجيش مش» وبعد تسعة أيام من الاحتفالات واللهو، تعود كل قبيلة إلى مضاربها»(13).

وفي أفغانستان مثلاً، هناك لعبة مازالت تُمارس إلى يومنا هذا وتحظى بشعبية واسعة، تسمى «بوزكاشي buzkashi» (قتل الماعز أو جر الماعز)، وهي لعبة يُعتقد بأن أصولها تعود إلى رياضات في زمن المغول.

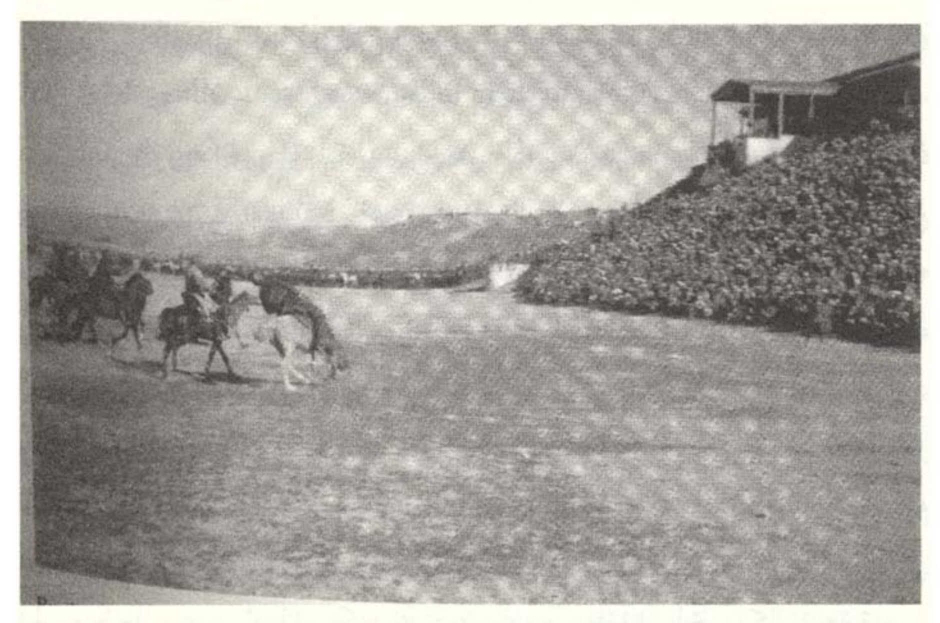
حجم الجيش

حين يتعلق الأمر بحروب القرون الوسطى، يسود الاعتقاد بأن حجم الجيش يلعب دوراً مهماً في تحديد النصر، فالجيش الأضخم يتغلب على الأصغر. ولكن الجيش المغولي خرق هذه القاعدة. فلم يكن سبب انتصاره عائداً إلى ضخامة عدده بقدر ما كان عائداً إلى التزام أفراده الدقيق بالنظام، وتدريبهم الصارم، وخططهم الحربية الذكية.

يشهد روبرت ابن سبولاتو الذي عاصر اجتياحهم أوروبا، على أنهم محاربون لا يقهرون في ساحة المعركة، ويتمتعون بمهارات عسكرية فائقة. ولم يكن الجيش المملوكي



الرياضة القومية في أفغانستان، البوزكاشي، تعود إلى زمن المغول، بموافقة شركة أبي حجل



البوزكاشي، بموافقة شركة أبي حجل

ليهزمهم في معركة «عين جالوت» الشهيرة عام 1260 إلا لأنه صورة طبق الأصل عنهم، وتركيبته تشبه تركيبة جيشهم وهي مزيج من فرق الأتراك والمغول والقوقاز.

وقد بدا الجيش المغولي دائماً، أكبر حجماً مما هو عليه في الحقيقة، بسبب سرعة حركته وخطته التطويقية أثناء الهجوم والكرّ والفرّ. وبفضل تنظيمه على شكل جناح أيمن، وأيسر، وفرقة ضخمة في الوسط، تتألف من العناصر الرائدة بقيادة ضباط مهرة بارعين في فنون القتال، شكّل جيشهم ما يشبه طيراً كاسراً ينقضّ بجناحيه (الجناح الأيسر والأيمن للجيش) ومنقاره الجارح (فرقة الوسط) على عدوه، مطبقاً عليه مثل كماشة قاتلة.

يذكر كتاب «التاريخ السري للمغول» أن عدد أفراد جيشهم فاق الـ 105,000 جندي، زمن اجتماع «القوريلتاي» الأعظم عام 1206. وحين توفي جنكيز خان، وزّع رشيد الدين الجيش المؤلف من 123,000 جندي كالتالي: 62,000 جندي في الجناح الأيسر، و38,000 جندي في الجناح الأيمن و23,000 جندي في الوسط. وخلال مسيرة ذلك الجيش منطلقاً جنوباً وشرقاً وغرباً، امتص في طريقه جموعاً جديدة من محاربين صادفهم في المناطق التي اجتاحها، فتصاعد عدد أفراده بالتدريج. وحين توفي أوقطاي خان عام 1241 كان حجم الجيش قد ازداد بشكل ملحوظ.

ويذكر المؤرخ الجزجاني أن عديد الجيش المغولي الذي هاجم «الخوارزم شاه» كان يفوق الـ 700,000 أو 800,000 جندي. في حين تراوح عدده حسب المؤرخ المملوكي العُمري (القرن الرابع عشر) ما بين 200,000 و300,000 جندي فقط.

ويعتقد بعض المؤرخين المعاصرين أن عديد الجيش المغولي بلغ في عام 1220 زهاء 800,000 جندي. ويشبّهون تربصه أو هجومه على أي مدينة بالعاصفة أو الكابوس. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الخمسة جياد والعنزة والمعدات والأسلحة الفردية المقرر حملها من قبل جميع المحاربين بالإضافة إلى عربات الأسلحة والمؤن، فإننا نصبح أمام جيش جرار مؤلف من 4 ملايين حصان، و24 مليون عنزة وخروف، بالإضافة إلى الجنود طبعاً. وجيش كهذا سيكون مجرد عبوره من منطقة إلى أخرى كارثة حقيقية.

ومع ذلك تبقى مسألة تقرير العدد الحقيقي لذلك الجيش، في زمنه، غير محسومة

تماماً. ومن المحتمل أن عدم الوضوح عائد إلى الطريقة الإحصائية المتبعة حينها، فقد عمد معظم المؤرخين إلى إحصاء الجيش بناء على عدد الفرق العسكرية المشاركة فيه (التومان المؤلفة من 10,000 جندي)، ولكن هذه الطريقة لا تنطبق على أرض الواقع. فقد لجأ المغول إلى خداع أعدائهم بوضع أصنام محشوة بالخرق والقش على ظهور الجياد الخمسة المرافقة لكل فارس حقيقي، ليبدو عددهم أكثر، وأحياناً كانوا يجرون خلفهم غصوناً لتشوش رؤية العدو وتهول من انطباعه عنهم.

ويؤكد حقيقة المبالغة في عدد جيوشهم، المؤرخ ديفيد مورغان الذي دعم نظريته ببساطة قائلاً: إن مساحة الأراضي المذكورة كمواقع للمعارك في ذلك الزمن لم تكن على تلك الدرجة من الاتساع، لتحتمل كل هذا العدد المذكور من قبل بعض المؤرخين (أي لا تتوافر على المراعي المطلوبة للتخييم ورعي حيواناتهم.. الخ). ويشرح الجويني كيف استطاع المغول وخاصة هولاكو استخدام مهاراتهم العسكرية الفائقة للسيطرة على مساحات الأرض الصغيرة المتوافرة، وتحويلها لصالح انتصاراتهم. لكن مهما كانت تلك المهارات متطورة، وعلى درجة عالية من الكفاءة يبقى العدد المطروح لجيش المغول من قبل معظم المؤرخين – وخاصة المماليك في مصر– باعثاً على الشك حسب رأي ديفيد مورغان، الذي يخلص إلى أن إخفاق المغول في احتلال سوريا (الطبيعية) عائد إلى فقر أراضيها بالمراعي الضرورية لجيش المغول. وإن أفضل نتيجة مقترحة لحل هذا الجدال تتلخص في القول: إن حجم الجيش المغولي كان أكبر من حجم الجيش الأوروبي في ذلك الزمن، إلا أنه كان أصغر من حجم الجيوش الثلاثة التي انتصر عليها وهي جيش السلطان خوارزم شاه وجيش مملكة سونغ ومملكة تشن، مما يؤكد أن براعة الجيش المغولي لم تكن تكمن في عديده، وإنما في تكتيكاته الحربية وانضباطيته العسكرية.

الدعاية

اعتمد المغول على الدعاية والترويج لأسطورة الجيش الذي لا يُقهر كوسيلة لإحراز النصر. وقد سبقت سمعتهم المرعبة سيوفهم في جزّ أعناق العدو. فقد تقصدوا المبالغة

بشأن قوتهم وشجّعوا على نشر القصص التي تؤكد على جبروتهم وشراستهم، لتكون عاملاً نفسياً يساعد على شلّ إرادة أعدائهم قبل الالتحام المباشر معهم فوق أرض المعركة الحقيقية. وأسطورة الوحش المغولي الذي لا يهزم ما زالت إلى يومنا هذا مقترنة باسمهم.

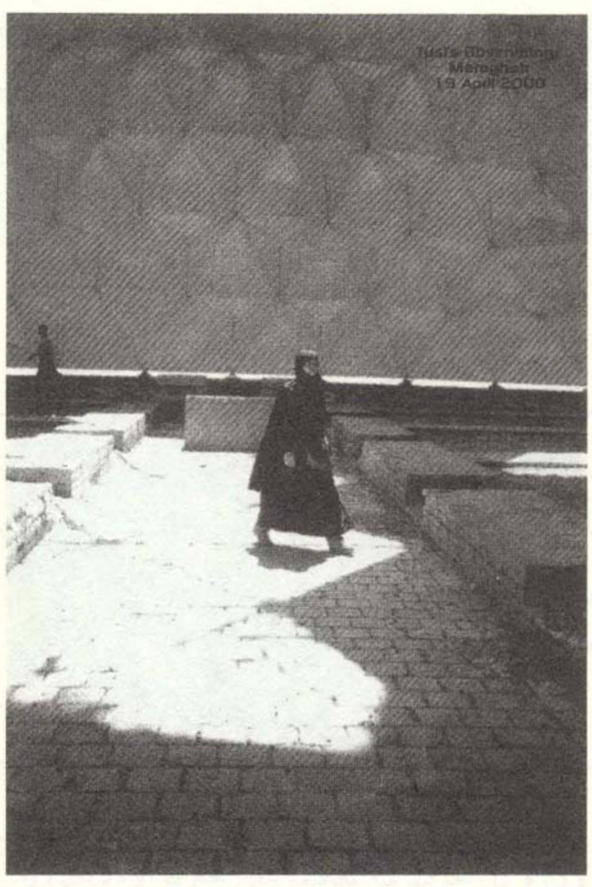
وكان عرض خيار الاستسلام على العدو، قبل الانخراط الفعلي في معركة معه من القوانين المهمة التي سنها جنكيز خان لإنجاح خططه الحربية. ومصيدة الاستسلام هذه كانت تُعرض عادة على العدو عبر رسالة شفهية أو خطية، تقشعر الأبدان خوفاً من كلماتها رغم بساطتها، إذ يقول فيها: «وإن لم ترغبوا في الاستسلام، فوحده الرب يعلم بما سيؤول إليه مصيركم»(14).

وقد ساهمت كلمات المؤرخ ابن الأثير في نشر دعاية الرعب المغولي في كل مكان قُرأت فيه سواء أكان جامعاً أم مدرسة أو مقهى. علماً أن ابن الأثير لم يكن شاهد عيان وإنما كان يكرر ما سمعه من أشخاص فروا من تلك المناطق التي وصل إليها الزحف المغولي. كتب يقول: «لقد بقيت عدة سنوات معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها وكارهاً لذكرها، فقد كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. إلا أن جماعة من الأصدقاء حثتني على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل: إن بني آدم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً حيث إن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو يدانيها»(15).

وهكذا كان مجرد خبر مفاده أن المغول على الأبواب لا يسبب الإحساس بالذعر فقط وإنما قد يدفع إلى الاستسلام مباشرة. مما قلل كثيراً من إراقة الدماء، وحَفِظ الأرواح وبخاصة أرواح المغول أنفسهم، الذين عرفوا قيمة تلك الدعاية الشائعة عنهم، ووظفوها

بنجاح لإحراز النصر بأقل الأثمان، وخاصة بعد اتساع أرجاء إمبراطوريتهم، وازدياد عدد جيوشهم، فحاولوا حقن الدماء، وتجنب القتال كلّما أمكنهم ذلك. فلم يأنفوا من وصفهم بالعنف والتوحش إن كان ذلك سيقلل من فرص ارتكابهم العنف على أرض الواقع. ومن المحتمل أن الجرائم المرتكبة من قبل هولاكو لدى غزوه بلاد الفرس عام 1250 (رغم أنه دخلها دون أية مقاومة) تعود إلى رغبته في تكريس تلك الصورة الوحشية عنه وعن جيشه كي يتفادى أي تمرد منهم في ما بعد.

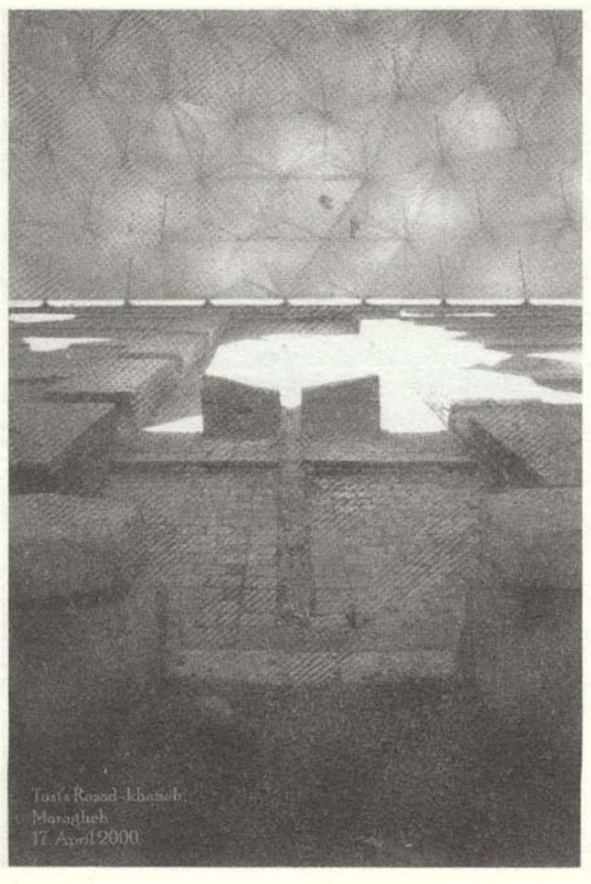
والمقطع التالي المقتبس من كتاب المستوفي «ظفرنامة» يؤكد مقدار ما ارتكب من عنف وبشاعات في القرون الوسطى على يد قادة مثل هولاكو: «ألقى الجيش القبض على الملك جميل وسجنوه. وقاده الأتراك مباشرة مع أخيه للمثول بين يدي



مرصد الطوسي الذي أمر هولاكو ببنائه، بموافقة شركة أبي حجل

الأمير. ومن هناك أرسله الأمير إلى بلاط هولاكو المعظم. وعندما أبصرهما هولاكو استشاط غضباً وحقداً عليهما. وقد انصب غضبه على جميل بالتحديد، بعد أن تذكر إساءاته. فاستدعى جلاده وأمره باختيار الطريقة الأكثر إيلاماً لقتله. فقام الجلاد بسلخ جلد جميل وحشوه في فمه حتى قضى نحبه بهذه الطريقة الشنيعة، ثم قطع أخاه إلى نصفين، فامتلأت قلوب الناس بالجزع من هولاكو»(16).

ولم يكد يمضي وقت طويل على تلك الحادثة حتى عاقب هولاكو بقسوة أحد النبلاء (صالح مالك) لسوء تصرفه وإساءة معاملة الزوجة التي قدمها له هدية شخصية، ورغم جميع توسلاته لم يعطف عليه هولاكو أو يسامحه. فيتابع المستوفي واصفاً ما حدث حينها قائلاً:



مرصد الطوسي الذي أمر هولاكو ببنائه، بموافقة شركة أبي حجل

«أرسله الأمير مباشرة إلى حاكم العالم (هولاكو) الذي كان غاضباً عليه أشد الغضب لنقضه أحد عهوده بمنتهى الوقاحة. فأمر بتعريته من ثيابه، ثم لفه باللباد، وربطه بحبل من شعر الحيوانات، وإلباسه ثوب «تشريف العدو»، وأخذه إلى السهل، وتركه مرمياً في العراء تحت الشمس حتى يموت من ألمه ومعاناته. حدث ذلك في شهر يوليو عندما كان الحر لا يطاق، والشمس في برج الأسد فكأن القدر تعاون ضد ذلك الرجل لتحقيق أمر الشاه. فعندما سقطت حرارة الشمس على ذيل الحيوان المربوط امتصها وازداد سخونة ومن ثم تعفن مثلما حدث للرجل المربوط به بعد شهر من التمدد في العراء. وبعد أن أكلت الديدان الذيل بدأت تنهش جسد الرجل نفسه حتى مات. فأي مصير بائس لاقاه ذلك المسكين! وأي شر ذاك الذي يسكن هذا العالم؟ وما كان ذنبه يا ترى؟ فمن لا يجني على أحد لا أحد يجني عليه. كان لدى صالح ولد في الثالثة من عمره تعرض للمصير ذاته، فقد أرسله الأمير إلى مدينة الموصل وهناك قطعوا جسده إلى نصفين، وعلقوا كل نصف على إحدى ضفتي النهر ردحاً من الزمن حتى لم يبقَ منهما سوى رمة عظام، بعد أن تعفن اللحم واندثر متحولاً إلى مجرد غبار. وفرح القوم لفناء سلالة صالح بهذه الشاكلة»(17).

نظام البريد (اليام)

بدأت خدمات البريد الفعلية في زمن أوقطاي خان، علماً أن والده جنكيز خان مهّد لها خلال حكمه. وقد أسس أوقطاي خان في عام 1234 شبكة اتصالات منظمة أصبحت في ما بعد مثار عجب جميع التجار الذين زاروا الإمبراطورية ودهشتهم.

أطلقت على نظام البريد المغولي تسمية «اليام» وهي كلمة تعود إلى أصول فارسية، كما أطلقت عليه تسمية البريد وهي كلمة عربية سادت في العصر العباسي (749–1258) لوصف الخدمات البريدية في ذلك الوقت، كما أطلقت تلك التسمية على شبكة الاتصالات زمن المماليك في مصر، والتي تطورت عن نظام البريد المغولي.

والتفاصيل التي وصلت لاحقاً عن بريد المغول، يركز بعضها على أسباب نجاحه أو إخفاقه تبعاً لإدارة كل حاكم ممن تعاقبوا على خلافة الإمبراطورية. فالرحالة ماركو بولو كان واحداً ممن مدحوا نظام البريد المغولي، وزعم أن سعاة البريد كانوا يغطون

مسافة 200 إلى 300 ميل في اليوم الواحد. «وهم رجال أشداء ومحل ثقة ويكافؤون بسخاء»(18). وتزعم بعض المصادر أن الخدمة البريدية في الصين المغولية، كانت أكثر فاعلية منها في إيران، وتناقض مصادر أخرى هذا القول، بناء على مواقف كاتبيها وانحيازاتهم السياسية. وفي كل الأحوال فقد كان النظام البريدي المغولي، متقدماً وفعالاً مقارنة بذاك الزمن وباتساع الإمبراطورية.

أشرفت على البريد، شبكة سعاة مجهزين بالزاد والملابس الضرورية والخيول ومحطات للاستراحة والإقامة. وأُدير من قبل الجيش، مما جعله يغطي جميع المناطق الواقعة تحت حكم المغول بدءاً بأوروبا الشرقية وحتى بحر اليابان. وأقيمت مراكز بريدية على مسافات متباعدة، تفصل بينها ثلاثة أو أربعة فراسخ (الفرسخ يعادل 4 أميال). وكل مركز مزود بما لا يقل عن 15 حصاناً قوياً بمقدورها اجتياز مسافة تتراوح بين 200 و400 ميل من دون توقف (حسب أقوال ماركو بولو، وأما رشيد الدين فيزعم أن المسافة قد تصل إلى 500 ميل، وربما يعود الخلاف بينهما إلى اختلاف الطرق المتبعة من قبل الجياد). وتقع مسؤولية رعاية هذه الخيول على عاتق السُعاة، الذين يُطلق عليهم اسم «إلش ilchis»، حيث يتوجب عليهم إطعامها وتوفير أوقات وأماكن لإراحتها بعد السفر الطويل. وغالباً ما استُغلت خدمة البريد من قبل التجار، علماً أنه لم يكن يُسمح رسمياً بالاستفادة من تلك الخدمة لغير الأشخاص من حاملي رخصة معينة (تسمى «البايزا paiza» وهي عبارة عن قطعة معدنية أو خشبية محفورة عليها بالأحرف الأوغرية وعلى رأسها صورة نمر أو صقر). ونظراً للأعباء الثقيلة التي فرضتها مراكز البريد على السكان المحليين، فقد سُمح لبعضهم ممن لا يحملون تلك الرخصة بالاستفادة من خدماتها كتسخير خيولها لرحلاتهم أو التزود بالمؤونة. ويسافر السعاة مسافة 25 ميلاً بالرحلة الواحدة، ومن ثم للواحد منهم مطلق الحرية في أن يغيّر حصانه بحصان آخر ويكمل مسيره، أو يسلّم البريد للمراسل المنتظر في المحطة فيكمل عنه الطريق. وحسب أقوال ماركو بولو فإن السعاة كانوا يرتدون أحزمة تتدلى منها الأجراس لإعلام الموجودين في المحطة التالية عن وصولهم فيستعدون بدورهم لإكمال الرحلة. ويؤكد ماركو بولو أنهم لا ينقلون الرسائل المهمة فقط، بل الأغراض أيضاً، كإيصال الفواكه لبلاط الخان

الأعظم. كما كانوا يتنقّلون من قرية إلى قرية ومن محطة إلى محطة قاطعين في يوم وليلة مسافة تتراوح بين 30 و 40 ميلاً. وعلى الرغم من اختلاف الأرقام في مراجع العصور الوسطى، الأمر الذي يبعث على الحيرة والشك أحياناً، فإنه لا يمكننا التقليل من أهمية البريد في ذلك الزمن والدور الذي لعبه في وصل أطراف الإمبراطورية المغولية مترامية الأطراف. ويمكننا القول من دون أي مبالغة: إن الخدمة البريدية كانت العصب المحرك للحياة التجارية والسياسية في الإمبراطورية المغولية، ومما يعزّز اعتقادنا هذا تكليف شخصية مهمة كرشيد الدين – الذي كان يحتل منصب كبير وزراء الإلخان الأعظم في إيران – بالإشراف عليه بنفسه. فقد أخذ على عاتقه حمل بعض الأعباء عن كاهل الجيش، وكذلك التخفيف عن السكان المحليين المجاورين لمراكز البريد بأن أوكل الإشراف على كل محطة بريد لأمير من الأمراء، مع تخصيص ميزانية كبيرة للخدمات البريدية، بالإضافة إلى ضرورة تقديم كشوفات إنفاق دقيقة للسيطرة على تلك الميزانية، ومنع العبث بها واستغلالها لأغراض شخصية. كما فرض استخدام وثائق مختومة بأختام رسمية بعد كل استخدام لخيول البريد أو خدمات السعاة أو المؤن.

وفي عهد غازان خان وصل النظام البريدي إلى أوج ازدهاره، فخلّصه من المسحة الرعوية والفوضى التي اعترته أيام جنكيز خان، وحاول تسخير كل إمكانياته لتتماشى مع حجم الإمبراطورية المغولية الجديد.

وقد اقتدى المماليك في مصر بنظام البريد المغولي فطوروا بريدهم مستلهمين الكثير من تجربة سلفهم. كذلك انتقل في ما بعد تأثير النظام البريدي المغولي لسلطنة دلهي في الهند والإمبراطورية العثمانية.

المحاربون الأبطال

خرجت جميع الشخصيات المهمة في تاريخ الإمبراطورية المغولية من معطف الجيش، حيث يعود جزء كبير من أهميتها وشهرتها لنجاحاتها العسكرية. وكان المجتمع المغولي مثل آلة عسكرية تنتج المحاربين المغاوير، وليس من فرق كبير بين حياة الجندي وحياة المدني. وانصبّ التركيز على قدرات الرجل الجسدية أكثر من الفكرية.

ومنذ بدايات القرن الثالث عشر، وصعود نجم الإمبراطورية المغولية، لم يحظَ أحد بمجد الشهرة إلا لكونه قد أبلى بلاءً حسناً في المعارك، والغزوات التوسعية، باستثناء أرغون آقا (1210–75) الذي تفوق في مجال الإدارة.

سوبوتاي وتجيبه

ومن الذين كسبوا سمعتهم الطيبة، من خلال إنجازاتهم العسكرية، القائدان سوبوتاي وتجيبه. فمن جولتهما الاستكشافية الأسطورية – والتي تكللت بالنصر – حول بحر قزوين خلال عامي 1221 و1222 كسبا شرفاً، ومكانة رفيعة في تاريخ المغول العسكري. فقد خرجا في تلك الجولة يستطلعان مصير السلطان محمد خوارزم شاه، الذي تُرك ليموت من جروحه ببطء على جزيرة «آبسكون Abaskun» على الطرف الجنوبي الشرقي من شواطئ بحر قزوين، بعد أن جرَّ الويلات على شعبه الممزّق في آسيا الغربية، وفتح بوابات المدن الإيرانية الخرافية على مصراعيها لقبائل الطورانيين الأسطورية. ففضل جنكيز خان في البداية التحالف معه، تفادياً لأعباء مواجهته، ولكن تعالي السلطان محمد في ما بعد جعله يأمر بقتل بعض التجار المغول، مما أدى لقرار جنكيز خان بسحق السلطنة وتدميرها بشراسة لا مثيل لها. وحين وصل بخارى وقف خاطباً في مواطنيها المرتعبين قائلاً: «أنا عقاب الله على الأرض. فلو أنكم لم تخطئوا لما أرسلني إليكم»(19). واعتبر سكان المناطق المحاذية لبحر قزوين وسهوب «القبجاق» ما قاله في بخارى بمثابة إنذار لهم أيضاً، بعد أن زار بلادهم كل من سوبوتاي وتجيبه.

ولد القائد سوبوتاي بهدور لأب حداد من عشيرة «أوريانقاداي»، وحين شبَّ انضم إلى جيش تيموجين عام 1190. وحين بلغ الخامسة والعشرين عُيّن قائداً لفرقة الخيالة. ويقال إنه كان ضخم الجثة حتى إن الحصان المغولي النحيل لا يقدر على حمله، فكان يذهب إلى المعركة راكباً عربة خاصة. وقد عُرف بإخلاصه لجنكيز خان، وتمكنه زمن اجتماع «القوريلتاي» الأعظم عام 1206 من الانتصار له على خصميه «كوتو» و«تشيلاون»، وهما ابنا عدوه العتيد «توختو»، زعيم قبيلة الماركييت. ولقي إخلاصه

تشجيعاً من جنكيز خان الذي كافأه بسخاء، فنصبه قائداً لفرقة تومان (10,000 محارب) أثناء غزواته المدمرة لـ «زيزيا» عام 1209. وقد ذاع صيته بعد رحلته إلى شواطئ بحر قزوين مع زميله القائد تجيبه طلباً لرأس السلطان خوارزم شاه، فوصلا إلى غرب إيران وبدآ مسيرة دموية أورثت المغول صيتهم الوحشي إلى يومنا هذا، فلم تنجُ من مجازرهما إلا مدينة تبريز التي قدّمت فدية ضخمة لتجنّب الكارثة. ولم يتوانيا عن مهاجمة جيش «الجورجيين» بقيادة «جورج الرابع» لمنعهم من ادعاء النصر في ما لو تباطآ في سحقهم. إلا أنه بعد مواجهة 20,000 جندي مغولي، وتحمل خسارة ساحقة، ارتد القوقازيون (الجورجيون) فزعين إلى عاصمتهم «تبليسي» وظلوا يترقبون قدوم جحافل المغول لحصارهم.. الشيء الذي لم يحدث قط، لأن المغول تابعوا زحفهم باتجاه الشمال، مما دفع جورج الرابع إلى الظن بأن قواته (المتواضعة) تمكنت من رد المغول على أعقابهم، ولكن ظنه هذا لم يلقَ أذناً صاغية إلا عند القلة القليلة. وبينما ركن جورج الرابع إلى قناعته تلك، تابع الجنرالان سوبوتاي وتجيبه زحفهما المدمر باتجاه الشمال مخلفين الجورجيين كخرقة رثة حتى وصولهما إلى «دربند» الحاجز (المذكور في التوراة) بين نهري يأجوج ومأجوج(20)، حيث انقسما، وواصل كل قائد مع جيشه في طريق مختلفة باتجاه سهوب «القبجاق» للاشتباك مع قبائل «كومانيا» التركية ومقاتلة الروس في روسيا (حالياً). وفي مدونة نوفغورود التاريخية[97] وصف دقيق لما حدث هناك، جاء على لسان شاهد عيان:

«حلّت علينا في السنة نفسها – وكأنما كان عقاباً لنا على أخطائنا– قبيلة غريبة لم نعرف أصلها أو عرقها أو ديانتها، ولم نسمع من قبل باللغة التي تنطقها، أو المكان الذي قدمت منه. كل ما نعرفه هو تسمية التتار، التي اشتهرت بها، ووحده الله يعلم من هم ومن أين جاؤوا»(21).

كان من المفترض أن ينضمّ الجيشان إلى الجيش المغولي الأساسي في خوارزم لتعزيز قوته وتحقيق النصر، بعد أن قضيا عامين كاملين يوسعان سلطة الخان الأعظم التي

(97) Chronicle of Novgorod مدونة نوفغورود التاريخية: وهي أقدم نص سجل تاريخ سكان مدينة «فيليكي نوفغورود» الروسية وتعد أهم مرجع لتاريخ روسيا القديمة.

امتدت لتشمل حدود أوروبا الشرقية وقلب العالم الإسلامي. وليس بوسعي هنا في هذه العجالة تلخيص حكايات الرعب والدمار والبطولة وإراقة الدماء واليأس، التي امتلأت بها المدونات التاريخية المسطرة بلغات عدة. ومع هذا فإن معركة «كلكا» (1223) (22) الشهيرة التي وقعت على ضفاف نهر «كلكا» تستحق الذكر بشكل خاص. فهي نموذج مثالي لخبث المغول في التخطيط ومهاراتهم القتالية العالية. وقد نتج عنها الفتك بجيوش روسيا والترك من الكومان، وتشتيت أمرائهم، والتنكيل بمن بقي حياً منهم على سبيل الاحتفال بالنصر، فدفنوا أحياء تحت منصة خشبية ضخمة، رقص وشرب فوقها قادة المغول المنتشين بعظمة انتصارهم.

قصة مجيء «تجيبه» و«سوبوتاي» إلى إقليم العراق و«أذربيجان» و«آران»
وما حدث في تلك البلاد من قتل ونهب، ومرورهما على «دربند» و«القبجاق»
في طريقهما إلى منغوليا

عندما هرب السلطان جلال الدين من نيسابور (في مقاطعة خراسان في إيران) واتجه إلى «غزنة» (في أفغانستان)، أرسل تجيبه وسوبوتاي رسالة إلى جنكيز خان يخبرانه فيها بانتهاء أمر السلطان محمد، وعن هرب ابنه جلال الدين واتجاهه نحو منغوليا وجاء فيها: «لم يعد شأنه يقلقنا قط. ونستأذنك بالاستمرار في حملات التوسع للسيطرة على أكبر قدر ممكن من الأراضي التي نصادفها في طريقنا، ثم سيكون بمقدورنا العودة عبر بوابات دربند– نقطة التقائنا في سهول القبجاق كما كان مقرراً في منغوليا– ونسأل الرب أن يوفقنا ويجعل حظ جنكيز خان حليفنا». فأراد جنكيز خان إرسال الدعم لهما، ولأن تلك الأراضي لم تكن آمنة بعد، فقد ارتأى إرسال ما لا يزيد على 300 أو 400 مبعوث فقط. وباختصار فعندما بدأ غزو العراق (بلاد فارس) سيطر المغول أولاً على «لوندخور Khwar» (في باكستان) و «سمنان Simnan» (في إيران) ومنها إلى مدينة «ري Ray» (في جورجيا) حيث أعملوا الفتك والنهب. ثم انطلقوا إلى «قم» (في إيران) فقتلوا جميع سكانها، وأسروا كل أطفالها. ومن بعد ذلك تابعوا زحفهم نحو «همدان» (في إيران).

استسلم سيدي مجد الدين علاء الدولة، مرسلاً إتاوة من الخيول المطهمة والأقمشة النفيسة وقَبِلَ بوجود مراقب «shahna». واتجهت أنظار المغول نحو الجيش الضخم للسلطان الذي

كان يحتشد في «سجاز Sejas» تحت قيادة «بج تيجين سيلاحي Beg–Tegin Silahi» و«كتش بوقا خان Kuch Buqa Khan» وأبادوهم عن بكرة أبيهم، ثم أنطلقوا بعدها إلى «زنجان» التي ارتكبوا فيها المزيد من المجازر والعنف لدرجة فاقت ما فعلوه في أية منطقة أخرى من قبل، ثم عادوا إلى قزوين حيث اشتبكوا مع سكانها في معركة انتهت باحتلالهم المدينة. قاتل سكان قزوين دفاعاً عن مدينتهم بالمدي والخناجر إلى أن سقط ما يقارب 50,000 رجل من الجانبين. وكرر المغول ما حدث في قزوين على طول بلاد العراق (بلاد فارس).

وبحلول الشتاء، انخرطوا في معركة كبيرة بالقرب من مدينة ري. وحدث أنه في ذلك الوقت كان جنكيز خان في منطقة «نخشاب Nakhshab» و« ترميز Tarmez». وجاء البرد قارساً ومبكراً في تلك السنة، فاتجهوا إلى أذربيجان ذابحين، ومنكّلين بكل من يعترض طريقهم. وعندما وصلوا إلى تبريز، اختبأ حاكمها «أتابك أوزبك» ابن جهان بهلوان وأرسل يطلب هدنة من المغول، كما أرسل مع مبعوثيه إتاوة كبيرة والكثير من الحيوانات. قبل المغول بالهدنة وأمضوا الشتاء في مخيم هناك قبل انطلاقهم باتجاه آران، في طريقهم إلى جورجيا، ليواجهوا هناك 10,000 جندي جورجي ويشتبكوا معهم في معركة طاحنة، كانت نتيجتها خسائر كبيرة في أرواح الجورجيين وانهزامهم. وبسبب وعورة الأراضي هناك وضيق الممرات فيها تراجعت جحافل المغول إلى «مراغه».

عندما علم حاكم تبريز شمس الدين الطغرائي باقترابهم، أرسل إتاوة لإرضائهم، فتابعوا طريقهم دون أن يدخلوها، ولكنهم حاصروا مراغه التي تجاورها، ولأنها كانت محكومة من قبل امرأة حكمت من رواندز فلم يكن هناك من حاكم (رجل) يدافع عنها أو يرسم خطة للمقاومة، مما جعل المدينة لقمة سائغة في يد المغول.

ثم قام المغول بصف أسراهم من المسلمين في مقدمة الجيش الذي سيدك أسوار المدينة، وقتلوا كل من حاول منهم الفرار أو التراجع. واستمروا يحاربون بهذه الطريقة لعدة أيام، إلى أن فتحوا المدينة ودخلوها وفتكوا بصغيرها وكبيرها، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم وما استطاعوا حمله، وأما الباقي فأحرقوه ودمروه. من بعدها انطلقوا إلى ديار بكر وأربيل ولكن حين وصلتهم سمعة جيش مظفر الدين كوك بوري عادوا على أعقابهم.

...وحاصروا همدان ثم ارتكبوا فيها مجزرة رهيبة في رجب 618 هجري (أغسطس وسبتمبر 1221). وبعد تدمير المدينة شدوا الرحال باتجاه «ناختشيفان» التي نكلوا بها بالمثل، حتى استسلم الأتابك خاموش فختموا له رخصة البايزا (التي تبيح له استعمال خدماتهم البريدية)، ومن هناك اتجهوا إلى إقليم «آران» ففتكوا بداية بِ ساراو ثم فعلوا الشيء نفسه في أردبيل. وبعد ذلك دخلوا مدينة «بيلغان Baylaghan» فحاصروها وهبوا على سكانها

بالقتل والتذبيح مثل عاصفة هوجاء، فلم ينجُ أحد من أبنائها، ثم هاجموا «كانجا» أعظم مدن آران، فحاصروها وسحقوها تماماً. وبعدها انطلقوا إلى جورجيا التي نظّم سكانها جيشاً للدفاع عن المدينة، وأثناء اشتباك الجيشين، كمن القائد المغولي تجيبه مع 5000 من جنوده في موضع قريب، بينما افتتح القائد سوبوتاي المعركة ثم ادعى الانسحاب (خطة الارتداد المخاتل) فانطلق الجيش الجورجي في إثرهم ليقع في مصيدة القائد تجيبه المرابط في الخلف. وعلى الفور قتل من الجورجيين أكثر من 30,000 جندي. وبعدها تابعوا إلى دربند وشروان، وفي طريقهم دمروا بالعنف ذاته مدينة شماخي بعد أن حاصروها، وأسروا الكثير من سكانها. وحين أيقنوا أن من الصعب عليهم العبور إلى دربند، أرسلوا الحاكم شروان للاتفاق على هدنة، فأرسل عشرة من أمرائه لسماع شروطهم، ولكن المغول قتلوا واحداً منهم وقالوا للآخرين: «إن أريتمونا الطريق إلى دربند، نعفُ عنكم ولا نقتلكم مثلما فعلنا مع رفيقكم»، وهكذا ولكي ينجو النبلاء التسعة بأرواحهم دلوهم على الطريق إلى دربند. وعندما وصلوا إلى إقليم «آلان» وجدوا حشداً من السكان بانتظارهم هناك، وبمساعدة القبجاق اشتبكوا مع الجيش المغولي في معركة طاحنة لم يخرج منها أحد حياً. بعدها أرسل المغول رسالة إلى القبجاق قائلين فيها: «نحن وأنتم قبيلة واحدة ومن دم واحد، والآلانيون دخلاء علينا، وقد تعاهدنا على ألا نؤذي بعضنا بعضاً. سنعطيكم ما ترغبون فيه من الذهب والغنائم على أن تتخلوا عنهم وتتركوهم لنا. ثم أرسلوا لهم كمية كبيرة من الذهب، جعلتهم ينسحبون، وهكذا حقق المغول النصر على الآلانيين بعد أن مثّلوا بهم أبشع تمثيل. وأما القبجاق وطلباً للسلامة فقد اختبأوا في مناطقهم بعد عودتهم إليها. ولكن المغول هاجموهم فجأة وقتلوا الكثيرين منهم، بعد أن تمكّن قسم ضئيل من الهرب إلى روسيا. قضى المغول الشتاء في تلك البقعة الخصبة، ثم انطلقوا في الربيع إلى مدينة سوداق الواقعة على شواطئ البوسفور المتصلة بخليج تابع لمدينة القسطنطينية، فاحتلوها، ومن بعدها قرروا مهاجمة الأراضي الروسية، وملاحقة فلول القبجاق الذين فروا إليها. ولكن الروس والقبجاق استعدوا وجهزوا جيشاً ضخماً مجبرين المغول على الارتداد قبل حدوث المواجهة، وحين ظنّوا بأن المغول تراجعوا خوفاً منهم، لاحقوهم 12 يوماً، لكن المغول التفوا عليهم فجأة وهاجموهم، وقبل أن يتمكّنوا من لمّ شملهم قتل الكثيرون منهم، واستمر القتال مدة أسبوع كامل انتهى بهزيمتهم، واندفع المغول بعدها يسحقون مدنهم واحدة بعد الأخرى حتى عم الخراب، وفرغت البلاد من ساكنيها. ومن هناك سافر المغول لينضموا إلى صفوف جنكيز خان الذي كان قد عاد من بلاد الطاجيك»(23).

تابع سوبوتاي مهماته العسكرية بنجاح رافقه العديد من حكايات البطولة والعظمة، وكانت آخر حملاته العسكرية على المجر (هنغاريا) حيث أهلك قواتها بعد أن قادها إلى مصيدة قومه من رماة الرماح المغول الذين اصطادوهم واحداً بعد الآخر. تقول بعض التقارير إن جثث القتلى تناثرت على مساحة من الأرض تعادل مسافة يومين من المشي. وفي نهاية عام 1241 كان سوبوتاي يناقش خطة مع جنرالاته للهجوم على النمسا وإيطاليا وألمانيا. ولكن موت أوقطاي خان، واجتماع «القوريلتاي» حميا أوروبا من النير المغولي.

قايدو خان

توفي سوبوتاي في عام 1248 ولكن ذريته سارت على خطاه. فابنه «أوريان خاداي» قاد الجيش المغولي إلى ما يعرف اليوم بغابات فيتنام. أما حفيده بايان فقد أحرز سمعة كانت ستكون مبعث فخر لجده لو كان حياً. فقد حقق أخيراً النصر على مملكة سونغ في جنوب الصين في عام 1276.

من الواضح أن جنكيز خان نجح في تحويل مجموعة من القبائل المتشرذمة من قطاع الطرق إلى قوة حربية منظمة تبعث على الرهبة. فعل ذلك حين أنعش مجتمع السهوب بتنظيم وضبط المهارات التي وجدها عند شعبه بالفطرة، كالفروسية ورمي الرمح والقتال على صهوة الحصان، والانضباط في المعركة، مضيفاً إليها مهارات وتقنيات الشعوب الأخرى التي خضعت لسيطرته. وكانت تلك الجيوش الجرارة التي قادها أولاده نحو انتصارات أوسع بمثابة قوة عسكرية متعددة الجنسيات. وكان إصلاحه للجيش أمراً محتوماً ومصيرياً وحين أدرك أتباعه ذلك ساروا على النهج نفسه، مع أن كثراً من المغول الآخرين لم يكونوا من مؤيديه. وقد جاءت الاعتراضات بشكل خاص من بيت تولوي، وأسرة اليان، والإلخانات. فقايدو خان (1236–1301) آخر حي من بيت أوقطاي خان، اعتبر بطلاً مدافعاً عن تقاليد السهوب، وعن تلك الأيام التي كان المغول ما زالوا فيها مجموعة من القبائل الرعوية. فقد تحرّر من مصيدة الحياة الحضرية وتأثير الصينيين والفرس، وعمل على تحدى إرادة قبلاي خان إمبراطور الصين المغولية

العظيم. كما تمرّد على سلطة أباقا خان الإمبراطور المغولي لإيران. وكان يحدوه الأمل في إعادة قومه إلى ما كانوا عليه قبل توسع الإمبراطورية واختلاطها بحياة الحضر في هذين البلدين، وأن يصلح ما استطاع من الرزايا التي لحقت بسلالته من الأوقطيين (نسبة إلى أوقطاي خان) على يد التولويين زمن حكم مونكو خان الذي صعد إلى السلطة بين عامي 1250—51. فحين استلم التولويون السلطة، قاموا بذبح أي أمير أو نبيل (ينحدر من الأوقطيين) ارتأوا أنه قد يشكل تهديداً لسلطتهم. فدمر البيت (الأوقطاوي) تماماً بعد أن خسر قادته، وممتلكاته من الأراضي والحيوانات، فأراد قايدو خان إعادة الحق إلى أصحابه. لكنه لم يكن طامعاً في السلطة، وقد أراد فقط استرجاع ممتلكات أسرته المسلوبة. ولتحقيق ذلك أراد أن يجعل من سلالة أوقطاي خان مرة أخرى سلالة لها من الحقوق والامتيازات ما لغيرها من السلالات. وفي عام 1271 الذي تلا هزيمة جاغاتاي باراق خان وموته على يد أباقا خان في معركة «هرات» (مدينة تقع غرب أفغانستان اليوم)، ادعى قايدو خان، الحق في ملكية آسيا الوسطى والإشراف على إدارة ممتلكات الأسرة الأوقطاوية. وقد استطاع تحقيق بعض حلمه هذا أثناء حياته باللجوء إلى السياسة مدعمة باستخدام قوته العسكرية. لكن أبناءه الذين لم يتمتعوا بعظمة أبيهم وعبقريته، بدّدوا إنجازاته الكبيرة، وبعد موته بعشر سنوات، أي عام 1301، كانوا قد خسروا معظم سلطتهم السياسية التي لم يبقَ منها سوى الاسم: «زمن خانات الجاغاتاي». ومع ذلك بقي قايدو بطلاً عسكرياً ونصيراً للتقاليد المغولية. ورغم أنه شخصية هامشية في تاريخهم فإنه يمثل قيمهم ومهاراتهم الفطرية كقائد عسكري وسياسي. وقد نسب إليه العديد من الأساطير والحكايات وسنأتي لاحقاً (في هذا الكتاب) على ذكر ابنته «قوتولون».

المغول أثناء الحرب: المغول والمماليك(24)

قال أحد الحكماء: «لا يمكنك مقارنة النجوم بالشمس حين تشرق». فكما يهيج البحر، تجيش نفوس العدو بالعويل. فمن هو ناصر[98] مقارنة بِـغازان[99] في ذلك الوقت؟ وما النملة

(98) حاكم المماليك في مصر بين عامي 1299—1341.

(99) الإلخان الذي حكم المغول ما بين عامي 1295—1304.

مقارنة بالفيل؟

انطلق أميران من مصر لقتال غازان خان، فقتلهما على الفور بحربة كانت في يده. قال له النبيل أوداي: «إذا كان عليك أن تحارب، فلم لا تسخّر جيشك الضخم للقيام بذلك؟ فليس من المستحب أن يلّطخ الشاه يده بالدم. ومن الآن فصاعداً لن نقتدي بك». وبجرأة ترك مكانه في المعركة ووقف أمام الشاه وأظهر له الحب والتبجيل، وعندما رأى الجيش ذلك استعاد شجاعته واندفع لمهاجمة العدو مردداً اسم الرب.

انطلقت بداية فرق الحرس الأمامية، مثل الأسود الهائجة، يقودها الأمير «جوبان Choban». ولم يكن المصريون قد رأوا بعد شجاعة كشجاعته، وعندما قابلوه فزعوا كأنهم يقابلون الموت. لقد كان يدمرهم في المعركة بمجرد رفع يده. وهاجمهم الأمير «ياساوال Yasawal» الضاري كالأسد أيضاً، وانهمرت السهام كالمطر فوق رؤوسهم عندما انخرط الأمير «باراانداق Barandaq» في المعركة، وظلوا هكذا حتى قضو على العدو.

وقام جناح الجيش الأيمن بالهجوم كذلك تحت قيادة الشاه «قوتلو Qutluh» الذي هاجم كأسد جبّار فقتل وأسر الكثيرين. والوسيم «سولامش Sulamish» إلى جانب حسنه كان شجاعاً وقوياً، فأوقع بكل سهم من سهامه رجلاً عربياً. وأما «مولاي Mulai» فقد اندفع وسط المعركة وفرّق صفوف الأعداء. وعندما رأى «آبشجاي Abshgai» جسارته هرع لمساعدته. وهاجم «بيناق Binaq» المصريين كفيل غاضب. وعندما انضم السلطان «تكفور Takfur» إلى المعركة اصفرت وجوه الأعداء خوفاً. ولم يستطيعوا الفرار من قبضة «يولدار Yauldar» العاتية. و«بولادقيا Boladqiya» أظهر الكثير من العنف حتى تحوّل لونه إلى الأسود المحمّر، لكثرة ما تلطّخ بالدم، وتطاير جيش العدو من حوله كالذباب. أسرع «بامان Baman» للهجوم هو الآخر، فكان قتاله كيوم الحساب لخصمه. وأما «قورومشي Qurumshi» فتلخصت رغبته في القتال فقط، ولم يكن أي شيء ليقف في طريقه أو بقادر على صد سهامه. وحوّل «طق تيمور Taq–Timur» حشود العدو التي وقفت أمامه مثل جبل شاهق، إلى مجرد قش يتطاير في الهواء. وعندما انخرط «ألتامش Altamish» في المعركة، اسودّ العالم من حول المصريين، وأصبحت أرض المعركة مثل الدائرة المرسومة حول الفرائس في مطاردة الصيد. واخترقت سهام كل من «توغان Toghan» و هولاكو وجوه الأعداء.

وفي الوسط عرض القادة شجاعتهم أمام الشاه. فتطايرت رؤوس العدو من بلطة «ألغو Alghu». ومن بطولة «جورتيمور Gur–Timur» و«تارامتاز Taramtaz» امتلأت قلوب المصريين باليأس والفزع. في حين اسود العالم أمام الملك المصري على يدي «تاشفاراد

Tashfarad» و« تامتاش Tamatash». الأسد الجبار «قوتلوغ قيا Qutlugh–qiya» جرد العدو من مجده، في حين هاجم «يوسف بوقا Yusuf Buqa» بشراسة تطايرت لها دماء العدو في كل اتجاه. و«توجاي Tughai» بن «سوتاي Sutai» كان كالنار في الهشيم، فقد قاتل ببسالة أثارت إعجاب الشاه وثناءه».

الملحق (أ) مقتبس عن الراهب جيوفاني دي بلانو كاربيني
كيف يتصرف التتار (المغول) في الحرب

«قسم جنكيز خان جنوده إلى وحدات. أصغرها تتألف من عشرة جنود، ثم من مئة ثم من ألف. ووضع كل وحدة تحت قيادة قائد، كما وضع الجيش كله تحت قيادة قائدين رئيسيين. وإذا فرّ أي قائد منهما أثناء مواجهة العدو (إلا في حالات التراجع المنظم) فإنه يعاقب بالموت. وكذلك يعاقب بالموت أي جندي أو قائد يتصرف بمفرده فيهاجم قبل تلقيه الأوامر الرسمية بالهجوم. وإذا أخفق بعضهم في إنقاذ رفاقهم من الأسر يلاقون المصير نفسه.

وأما أسلحتهم فكانت رمحين طويلين أو واحداً جيداً على الأقل، إلى جانب ثلاث جعب مليئة بالسهام، وبلطة وحبال لجر معدات الحرب. أما الأغنياء منهم فكانوا يحملون سيوفاً بحد واحد ورؤوس حادة معقوفة، وكانوا يمتلكون خيولاً مسرجة ومكسية بالدروع. كما كانوا يعتمرون الخوذ ويلبسون الدروع. وبعضهم كانت لديهم معاطف لخيولهم مصنوعة من الجلد المبطن تغطيها بالكامل، ويصنع جزؤها العلوي الذي يغطي الرأس من المعدن. وبعض الخيول كانت لها دروع مصنوعة بالكامل من المعدن على الشكل التالي: يدقون المعدن صفائح رقيقة بطول الكف، وعرض الإصبع، محدثين ثمانية ثقوب في كل منها، ثم يحبكونها ببعضها بثلاثة خيوط متينة من الجلد يدخلونها في تلك الثقوب. وبالنحو ذاته يصنع المحاربون الدروع لأجسادهم. وهي صقيلة ولامعة لدرجة أن الرجل يمكنه أن يتمرّى بها. يزودون بعضها

بخطاف ليستخدم في اصطياد رجال العدو، وإيقاعهم عن خيولهم.. رؤوس سهامهم حادة للغاية، ويمكنها أن تجرح من الجهتين كسيف ذي حدين، وغالباً ما يتزودون بمبرد لشحذها.

صقلت ممارسة الحرب لعدة سنوات (أكثر من 42 سنة) مهاراتهم، وخلقت منهم محاربين أشداء يصعب كسرهم، ومنحتهم الكثير من الخبرة والقدرة على ترويض الصعاب. فمثلاً حين يقتربون من نهر ما، يوزع عليهم قائد الفرقة أو الرئيس قطعاً جلدية خفيفة (يحملها معه لهذه الغاية)، ليثبتوا في العرى المخاطة عن جوانبها حبلاً ويضموها به إلى بعضها كحقيبة كتف كروية الشكل وكبيرة الحجم، فيضعون فيها جميع مقتنياتهم الثمينة من الأقمشة والملابس والمعدات والأشياء الشخصية، ثم يرمون أسرجتهم عليها، ويجلسون فوقها بعد أن يلقوا بها في الماء لتكون مثل طوافة تنقلهم من جهة لأخرى. يقودها أحياناً رجل يعبر الماء على ظهر جواده، وأحياناً أخرى يستخدمون المجاديف. يعبر الرجال بتلك الطريقة في حين تتبعهم بقية الجياد. وعادة ما تكون لدى كل جندي منهم حقيبة جلدية كهذه يحملها معه إلى المعركة ويعلقها عادة على ذيل حصانه حين يعبر النهر»[100].

الملحق (ب) مقتبس عن الراهب جيوفاني دي بلانو كاربيني جواسيس المغول وكيف تعرّضوا للمقاومة أحياناً

«لم تتمكن أية مملكة أو إقليم من الصمود في وجه المغول، لأنهم كانوا يستخدمون جنوداً من أماكن متفرقة ومتباعدة. فإذا لم يساعدهم الإقليم المجاور للإقليم الذي يحاولون احتلاله، فإنهم يعملون على تدميره في الحال، جارين معهم سكانه كأسرى ليصبحوا فيما بعد محاربين في جيشهم. وغالباً ما يضعونهم في الصفوف الأمامية للجيش، وإذا حاولوا الفرار أو تقاعسوا عن القتال قاموا بإعدامهم. وهكذا إن أراد المسيحيون محاربتهم فيجب أن تتحد صفوف جميع ممالكهم وأقاليمهم لخوض تلك الحرب.

(100)

وهم يزودون جنودهم برماح وحراب قوية، تبثّ الرعب في قلوب أعدائهم. كذلك كانوا يحملون سهاماً حادة وخطاطيف من معادن صلبة، وبلطات بأيدٍ طويلة قوية. وتقضي تقاليدهم بتسخين رؤوس سهامهم على النار حتى الاحمرار ثم بغمسها في الماء المالح مما يجعلها على درجة من القوة تمكنها من اختراق درع العدو. ولديهم خطاطيف لإيقاع العدو عن حصانه، وجره خلفهم. لذلك على العدو أن يكون جاهزاً بالنسبة إلى الدروع التي سيرتديها المحاربون والخيول معاً، ويجب أن تكون من المعدن القاسي.

وإن سارع أحد جنودهم إلى جمع الغنائم أو هاجم قبل أن يتلقى الإشارة الرسمية بالهجوم من قادته يعاقب أشد العقاب، ومن المحتمل أن يقتل دون أي شفقة أو رحمة.

ويتم اختيار مكان المعركة في حقل واسع، لكي يتمكن جميع أفراد الجيش من رؤية بعضهم بعضاً، كما يوَزّعون على وحدات متفرقة، تفصل الواحدة عن الأخرى مسافة لابأس بها. فتهجم الفرقة الأولى أولاً، في حين تقف الأخرى خلفها بكامل الاستعداد لمدّ يد العون في الوقت الملائم. ويحرصون على نشر جواسيسهم في كل مكان لالتقاط تحركات العدو. ويرسلون وحدة في إثر وحدة، وفرقة في إثر فرقة لمحاصرة العدو، وحشره في الوسط بينهم. لذلك يتعيّن على جماعتنا التمسك بالنصيحة التالية: إن تراجع العدو (أي المغول) أمامنا، علينا ألا نلحق به، فعلى الأرجح تراجعه بمثابة كمين ينصبه لنا. فالمغول يلجأون إلى الدهاء والخبث في المعركة أكثر مما يلجأون إلى القوة الحربية. وكذلك فإن ملاحقة طويلة الأمد ستنهك خيولنا، خاصة وأننا لسنا مجهزين بخيول قوية كخيولهم. فهم يستبدلون خيولهم المتعبة بأخرى قوية مفعمة بالنشاط بين يوم وآخر. وكذلك على فرقنا إذا رأت المغول يتراجعون باتجاه بلادهم، ألا تتفرق بدورها وتطاردهم، فعلى الأغلب أنهم يفعلون ذلك بقصد تشتيت صفوفنا، وإخلاء بلادنا من المدافعين عنها، فيرتدون عليها ويحتلونها بسهولة. فيجب على قوادنا البقاء في حالة استعداد وتحفز لخوض المعركة ليلاً نهاراً، فالمغول مثل الشياطين يراقبوننا على الدوام ويحاولون اقتناص أي فرصة لخداعنا والنيل منا. وإضافة إلى هذا فإن سقط أحد فرسانهم أرضاً في المعركة علينا أسره فوراً، لأنهم يصبحون أقوى بكثير، حين يترجلون فيقتلون ويجرحون محاربينا وخيولنا في الوقت نفسه»(26).

الهجوم المغولي على أراضي الأمراء الروس (عام 1237)(27)

تحرك أمراء «ريازان Riazan» و«موروم Murom» و«برونسك Pronsk»[101] لخوض الحرب ضد الكفّار (المغول). كان الصراع طاحناً بينهم وبين المسلمين، حيث أبلى كل أمير بلاءً حسناً. وبدأ غزو التتار لأرض «ريازان» بكل وحشية. كذلك فعلوا بالمدن الأخرى فدمروها وقتلوا سكانها وأحرقوا بيوتها وأسروا الناس وجروهم كالعبيد معهم. وفي السادس من يناير (عام 1237) وصل الغاصبون الملعونون إلى عاصمة إقليم «ريازان»، وبنوا بجيشهم سوراً يحاصرها من كل الجهات. استبسل سكانها في الدفاع عنها، وقد اشترك الأمراء بأنفسهم في المعارك وقاتلوا بشجاعة حتى الموت. وفي الحادي والعشرين من يناير دخل التتار مدينة «ريازان»، واحتلوها بعد أن أحرقوها تماماً وقتلوا الأمير يوري إغورفيتش وزوجته، وذبحوا الأمراء الآخرين، وقتلوا بعضاً من الرجال والنساء والأطفال بحد السيف، وبعضهم برميهم بالسهام ثم إحراقهم بالنار، وبعضهم الآخر قيدوه ومثلوا بجسده. كما أحرقوا الكثير من الكنائس المقدسة والأديرة والقرى بعد أن سلبوا جميع ما فيها.

ثم انطلق التتار باتجاه «كولومنا» (مدينة قديمة في روسيا). وإلى هناك أرسل الأمير العظيم يوري سيفولودوفيتش ابنه الأمير سيفولود لمحاربتهم. وقد رافقه أيضاً بصحبة جيشه أمير ريازان رومان إيغوريفتش. كما انضمت إليهم قوات القائد إيريمي جليبوفيتش. وحاصرهم المغول حين التقوا جميعاً في «كولومنا». اشتد القتال، وأجبر الروس على التراجع إلى الهضاب، حيث قتل الأمير رومان إيغوريفتش وإيريمي جليبوفتش وفر الأمير سوفولود مع مجموعة صغيرة من جيشه إلى «فلاديمير» (مدينة روسية تبعد 200 كم عن العاصمة موسكو) ثم توجه التتار إلى موسكو فاحتلوها بعد أن قتلوا حاكمها العسكري فيليب نيانكا وأسروا أميرها فلاديمير بن الأمير يوري، وقتلوا الناس من دون أن يرحموا أحداً وأسروا الكثيرين ولم يغادروا البلاد إلا محملين بالأسلاب والثروات المنهوبة».

(101) ريازان وموروم وبرونسك مدن في الكيان الفديرالي الروسي.

الحواشي

1. هيتوم، «زهرة تواريخ الشرق»، ترجمة: روبرت بدروزيان، مصادر التراث الأرمني، المتوافرة على الموقع الإلكتروني http:// rbedrosian.com/kg1.htm.
2. كولياتي أمير خوسرو.
3. س. ر. تيرنبول وأ. مكبرد، «المغول»، في «سلسلة الجنود» رقم 105. (أكسفورد، إنجلترا، السلاح الجوي، 2000)، ص. 13– 14.
4. جيوفاني ديلانو كاربيني، «قصة المغول الذين نسميهم التتار، تاريخ المغول»، ترجمة: إريك هلدينجر (بوسطن: براندن، 1996)، ص. 72.
5. المستوفي، «ظفرنامة ، اقتبسها أي. جي. براون (التاريخ الأدبي لبلاد فارس، المجلد الثالث)، الأدب الفارسي زمن الحكم التتاري 1265– 1502 (كمبريدج، منشورات جامعة كمبريدج، 1920)، ص. 97–98.
6. الجويني، ص. 29.
7. المصدر السابق، ص. 29.
8. «رحلات الراهب أودوريك»، في «هنري يول كاثاي والطريق إلى هناك»، المجلد الثاني (ميلوود، نيويورك، كراوس لإعادة الطباعة، 1967)، ص. 235.
9. إدوارد جيبون، «أفول الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» (لندن، مكتبة الجميع، 1910) المجلد 3. ص. 8–9.
10. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، انجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997)، ص. 27–28.
11. «رحلات الراهب أودوريك»، في «هنري يول كاثاي، الطريق إلى هناك» (ميلوود، نيويورك، كراوس لإعادة الطباعة، 1967)، ص. 234–40.
12. وليام الروبريكي. «بعثة وليام الروبريكي» ترجمة وتنقيح: بيتر جاكسون و ديفيد مورغان (لندن: مجتمع هاكلوت، 1990) ص. 85 سمح بإعادة اقتباس هذا المقطع بموافقة جمعية هاكلوت.

13. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994)، ص 672.
14. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997)، ص. 19 –21.
15. إدوارد. ج. براون، «التاريخ الأدبي لبلاد فارس» المجلد الثاني، من الفردوسي إلى السعدي (لندن، أن وين، 1915)، ص. 427–31.
16. المستوفي، «ظفر نامة»، ص. 140–41 نقلاً عن رشيد الدين من كتابه «جامع التواريخ»، ترجمة جورج لاين ، ص. 1038.
17. المستوفي، «ظفر نامة»، 179–80 نقلاً عن رشيد الدين من كتابه «جامع التواريخ»، ترجمة جورج لاين ، ص. 1043.
18. ماركو بولو، رحلات ماركو بولو (مطابع إيفري مان، 1983) ص. 212.
19. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان، (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997)، ص. 105.
20. ثمة ذكر في الكتاب المقدس لقوة معادية يقودها الشيطان، وتظهر مباشرة قبل نهاية العالم (سفر الرؤيا 20). وفي هذا النص كما في نصوص أخرى مسيحية ويهودية تصف القيامة فإن جيش يأجوج ينضم إليه مأجوج، وإن كان في مواضع أخرى (حزقيال 38، وسفر التكوين 10)، فإن مأجوج هو الموضع الذي يتحدر منه يأجوج.
21. ر. ميشيل ونفيل فوربز، «مدونة نوفغورود التاريخية» 1016–1471، كامدن، السلسلة الثالثة، المجلد 25 (لندن: مكاتب المجتمع، 1914)، ص. 64.
22. د. نيكول وشباكوفسكي، نهر الكلكا 1223 (أكسفورد، إنجلترا، مطابع أوسبري، 2001).
23. رشيد الدين، جامع التواريخ، ترجمة جورج لاين ، ص. 535– 531.
24. المستوفي، «ظفرنامة» ترجمة ل.ج. ورد، 499–500.

25. المصدر: الرحلة الطويلة الرائعة للراهب جون دي بلانو كاربيني» نقلت عن كتب «فينسينتوس بيلوسينسيس» الـ 32.

26. المصدر السابق.

27. بولونو سوبراني روسيسكيش لوبتايزي «المجموعة الكاملة لمدونة التاريخ الروسي» في قسم باسيل ديميترجين، روسيا القرون الوسطى: الكتاب المرجع 900–1700 (نيويورك: هولت، رينهارت، ووينستون، 1973)، ص. 108.

الفصل السادس

الصحة والدواء

من المدهش أن نعرف مقدار الاهتمام الذي أولاه المغول للصحة والدواء، إذا ما قارناه بطريقة حياتهم غير الصحية تماماً. ففي قمة ازدهارهم أواخر القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر الميلاديين، كانوا قد بدأوا يستفيدون من كل أساليب التداوي الشائعة: الصينية والكورية والتبتية والهندية والأيغورية (تركستان الشرقية) والإسلامية والمسيحية النسطورية. ولم يكن أمراؤهم يغادرون في رحلة أو يعودون منها إلا ومعهم فريق طبي يتم اختياره من بين أفضل الدارسين والملمين بعلوم الطب والتداوي. ومع هذا حافظوا على مكانة الشامان (الساحر أو الرجل المقدس) الذي كان بمثابة طبيب يعالج الأمراض أيضاً، ولكنهم فرقوا بينه (كطبيب) من مواطنيهم الأصليين، وبين المعالجين أو الأطباء الآخرين، الذين أطلقوا عليهم تسمية «أوتوشي Otochi» والتي تعني الطبيب الأجنبي. وعُرف عنهم استخدامهم للأعشاب والأدوية، في حين اعتمد الشامان المغولي على الرقى والتعاويذ والقوى الروحية والسحريّة الغامضة.

الأطباء الأوائل

قبل توسّع إمبراطورية المغول خارج حدود السهوب، جرى الاعتماد على الشامان كطبيب معالج للأمراض، وناصح حول طبيعتها، فهو (أو هي) من

يقرر إن كان المرض نتيجة لقوى طبيعية، أم أنه سحر مدبر للإيقاع بالمريض. وكان يشار إلى أولئك الأطباء في القرون الوسطى باسم طبيب[1] رغم أن مهمتهم الأساسية كانت التنبؤ. وقد كانت بعض ممارساتهم (الطبيّة) غريبة الأطوار، بل بمنتهى القسوة والهمجية. وفي ما يلي قصة رواها المؤرخ غريغور الآكانكي:

جاء الزعيم الذي يُطلق على نفسه اسم «أخ الرب» إلى وسط البلاد، ليسحق الأرض المسيحية البائسة، بقدميه اللتين لا تعرفان الرحمة، فأحرق جميع الصلبان الخشبية التي صادفها وجنوده في الطرقات وفي الجبال، ولكنّ أولئك المتوحشين لم يكتفوا بذلك، بل نهبوا كل شيء في طريقهم، وضربوا القساوسة وخنقوهم.

وذهب قائد من فرسان «زول Xul» إلى دير يدعى «جريتيه» ويترأسه رجل صالح تقي ذو شعر شائب يدعى ستيبانوس. وعندما رأى هذا الأخير زعيم التتار متجهاً نحو الدير، حمل جرة مليئة بالخمر وذهب إليهم، ثم أخذهم إلى داخل الدير، وأجلسهم مع مجموعة أخرى من الفرسان الذين كانوا يزورونه مع رئيسهم، فذبح خروفاً، وفتح جرة أخرى من الخمر، وجعلهم يأكلون ويشربون حتى صاروا بالكاد قادرين على الثبات فوق جيادهم حين غادروا ليلاً إلى مخيمهم القريب من الدير.

وحين أفاقوا صباحاً وجدوا زعيمهم مريضاً. ولما سألوه عن سبب مرضه قال لهم: إن الوحش (الأب ستيبانوس) أسكره وأمرضه. فذهبوا مباشرة إلى الدير وأحضروا الأب الرائع ستيبانوس الذي أخذ يرتجف رعباً أمامهم. وبعد الكثير من الأسئلة والتحقيقات لم يصدقوه. فنصبوا أربع عصي خشبية على الأرض وقيدوه إليها بقسوة، ثم أشعلوا ناراً تحته وشووه حياً. وحين فارقت روح الأب جثته، رأوا شعاعاً من الضوء يصعد نحو السماء.

والآن، بالإضافة إلى الألم المبرح الذي كان يمزق بدن الزعيم، كانت حبيبات صغيرة كالندى تتآكل جلده ولحمه كله، وقد توفي على إثرها، ثم تلاه بقية الفرسان الذين سقطوا مرضى بالأعراض ذاتها واحداً بعد الآخر، وماتوا من بعدها. ورغم كل ما حدث لم يتعظ المغول أو يخافوا الرب، بل تابعوا أعمالهم الوحشية إلى أن وقع صريع المرض زعيمهم الأكبر «زول» نفسه الذي ادعى أنه «أخ الرب»، فذهبوا وأحضروا لعلاجه طبيباً يهودياً لا يوثق به. فأشار عليهم بأن يجلبوا طفلاً ذا شعر أحمر، ويفتحوا معدته حياً، ويجعلوا زعيمهم

---

(1) Tabib طبيب: التسمية العربية نفسها.

يدوس فيها، فهرع المغول إلى قرى المسيحيين خاطفين كالذئاب كل من يقع بين أيديهم من الأولاد الذين لحق بهم أهاليهم يعولون ويستجدون الرحمة من الجنود لكن من دون جدوى، فعادوا خائبين مكسوري القلوب، ولو أصروا على اللحاق بأطفالهم لاصطادهم المغول بسهامهم. واستمر مرض زعيمهم «زول» حتى بعد أن فعل ما نصحه به الطبيب اليهودي وحين رأى كل ما اقترفه بحق الأطفال الأبرياء من دون أي فائدة تذكر، استشاط غضباً على الطبيب وأمر بإحضاره وفتح معدته حياً وأولج كلابه عليها. ومن بعدها مات «زول» نفسه، وخلفه ابنه في الزعامة»(1).

ويبدو تحامل غريغور على المغول واضحاً، لذا فقد أوصى بتناول كتابه «تاريخ رماة السهام» بمنتهى الحذر لتجرده من الموضوعية. وسواء أكانت تفاصيل الحادث حقيقية أم لا فإن ذكر الجسد والوصف المفصل للمرض وطريقة التعامل معه تبقى أمراً مؤكداً. فعلاج داء النقرس (وهو مرض كان شائعاً جداً بين المغول لكثرة التهامهم اللحوم) كان يستلزم فتح معدة كائن حيّ، ووضع قدم الشخص المصاب فيها، وهو تقليد من الجائز أنه مأخوذ عن أساليب العلاج التركو- مغولي، التي- وحسب زعم بعض المصادر- تلجأ إلى تمريغ أجزاء من جسد الشخص المريض في أعضاء حيوانات حية. وليست هناك مراجع أخرى تقرن استخدام هذا النوع من العلاج بطبيب يهوديّ أو بأهمية أن تكون المعدة المستخدمة عائدة لطفل ذي شعر أحمر، أو حتى أن تكون معدة بشرية أصلاً.

وقد ذُكر هذا النوع من العلاج (تمريغ العضو المصاب بأعضاء حيوانات حية) في بعض النصوص الصينية التي تصف كيف جرى وضع أحد المرضى كاملاً داخل معدة ثور، فشفي تماماً بعد تمرغه في الدم الحار. وهكذا فقصص كهذه رغم غرابتها لم تكن نادرة الحدوث بالكامل، مما يؤكد وجود مثل ذلك النوع من العلاج. وقد رويت القصة التالية في «اليان شيه Yuan Shih» (مدونة التاريخ الرسمي لأسرة اليان المغولية في الصين والتي كُتبت من قبل بعض مؤرخي أسرة مينج التي جاءت بعدهم):

«حدث في زمن قتال الجنرال «بوجير» ضد المسلمين (هوي هوي)[2] والروس والدول الأخرى، أن أصيب بعدة سهام قاتلة، وسال دمه غزيراً من كل مسام بدنه، فذهب جنكيز خان بنفسه لعيادته والإشراف على علاجه. فأمر شخصاً بسحب السهام من جسده حتى كاد يغمى عليه من شدة النزف، وأوشك أن يموت، فسارع جنكيز خان إلى طلب ثور وأمرهم بفتح معدته وإدخال بوجير فيها. وبعد مدة قصيرة من تمرغه بالدم الحار شفي تماماً»(2).

ويمكن إيجاد أمثلة أخرى في اليان شيه، وقد سجلت في أمكنة وأزمنة مختلفة. «اخترق سهم صدره وكان يحتضر. فأمر بايان ببقر بطن ثور مائي، ووضعه في داخله. وبعد مدة انتعش». «وضعوه في بطن ثور واستعاد الحياة». «أمر أوقطاي خان ضابطاً في الجيش بأن يخرج السهام، وجرى تقييد ثور لإخراج أمعائه، وجرى تجريد مو هوان من ملابسه ووضع في بطن الثور، وبعد مدة استعاد عافيته»(3).

وليس من الضروري دائماً، التمرغ كاملاً في أعضاء الحيوانات، فأحياناً كان يُكتفى بمسح جلد الحيوان الحي – بعد سلخه – على الجروح أو الأماكن المصابة. وفي الحقيقة ما زال هذا العلاج متبعاً حتى يومنا هذا في كازاخستان، حيث يمسحون الإصابات بجلد مهر صغير. لكن القاسم المشترك بين جميع تلك الطرق، والقصص هو استخدام المعدة، لأنهم كانوا يؤمنون بقدرتها على امتصاص الدم الفاسد للشخص المصاب.

وقد تناقص الاعتماد على الطب التقليدي، وتقلص دور «الشامان» مع انخراط المغول أكثر فأكثر في الحياة الحضرية.

الطب الصيني

تم الاعتماد بشكل أساسي على أساليب العلاج الصينية في الإمبراطورية المغولية

(2) Hui –hui هوي هوي: قومية هوي المسلمة التي تعيش في منطقة نينغشيا ذات الحكم الذاتي هي إحدى القوميات التي تتكون منها الصين ويبلغ تعدادهم زهاء تسعة ملايين نسمة و يرجع تاريخ قومية هوي في منطقة نينغشيا إلى أواخر عهد أسرة تانغ الملكية الصينية (من عام 618 م إلى 907 م). تقع منطقة نينغشيا على طريق الحرير المشهور تاريخياً، حيث ترك التجار العرب المسلمون لمساتهم وآثارهم في مدينة نينغشيا وبقي كثير منهم في الصين فنشروا الإسلام وتزاوجوا مع الصينيين ويمكن اعتبارهم الأجداد الأوائل لقومية هوي، وكانوا يسمون (هوي هوي كه) أي ضيوف (هوي هوي) أو (هوي هوي رن) أي أبناء (هوي هوي).

إلى جانب أساليب أخرى. وقد حملوا معهم تلك الأساليب ونشروها في المناطق التي اجتاحوها، من خلال اصطحابهم أطباء صينيين في حملاتهم. وتؤكد التقارير أن جميع القادة المغول الذين توجهوا نحو الغرب جلبوا معهم أطباء متمرسين في الطب الصيني. وتذكر بعض المصادر الفارسية التي ترجع إلى عهد الإلخانات المغول (1250–1335) التأثير الواضح للطب الصيني على غرب آسيا. فكبير وزراء غازان خان (توفي عام1304) ومحمد أولجايتو خان (توفي عام 1216)، والمؤرخ رشيد الدين اشتهر كسياسي وطبيب في الوقت نفسه، علماً أنهما وظيفتان مهمتان جداً في ذلك الزمن. وقد عمل رشيد الدين من خلال كتاباته على نشر الكثير من المعلومات عن الطب الصيني وتقديمه لمواطنيه من الفرس. وبناء على ممارسته الطب سمي بالطبيب رشيد الدين. وقد بنى «عيادة» في «تبريز» اختصت بعلاج المرضى.

وقد أخذ المغول عن الصينيين، الكثير من أساليب العلاج كالوخز بالإبر، والتدليك، والكي، والتداوي بمناقيع ومساحيق الأعشاب، أو بتسليط الحرارة على العضو المصاب بعد دهنه بمسحوق من أوراق الأشجار المجففة وهو ما يسمى بـِ «أرتميجيا موكسا».

الوخز بالإبر والكي

استخدم كل من الأسلوبين العلاجيين (الوخز بالإبر والكي) بكثرة، وبكثافة في عهد أسرة اليان الحاكمة في الصين. واتبع المغول آخر ما توصل إليه الطب الصيني حول هذين العلاجين. فالبنسبة للوخز بالإبر جرت معرفة النقاط المهمة والحساسة للوخز وما ينتج عن وخزها من تأثيرات علاجية. وقد تطورت عملية الوخز بالإبر بطرق مختلفة عبر القرون المتوالية. وهناك أربعة كتب أساسية تصف العلاج بالوخز والكي، وتسمى «جينجو سيشو Zhenjiu Sishu» وهي منشورة من قبل «دو جويفنج Dou Guifang» في عام 1331، ثم تتالت الكتب التي تبحث في هذا النوع من العلاج. فعلى سبيل المثال أطلقت على إحدى نقاط الوخز تسمية «جيو وي Jiuwei» وهي مذكورة في أحد الكتب الأربعة، وكان وخزها يستخدم كعلاج لتسارع دقات القلب والصرع وما زالت مستخدمة حتى يومنا هذا.

وقد ذاع صيت الطبيب «جو جينغ» الشهير بلقب «السيد دانخي» من إقليم بكين، بسبب أبحاثه، ونظرياته التي تطورت عبر الزمن، حول اختلاف الحرارة الداخلية للجسد، خلال التغيرات الفيزيولوجية والوظيفية التي تحدث له. وقد بسَطَ ذلك في عمله المعروف «بحث النظرية في العمق». وقد تركزت معظم النظريات الطبيّة الصينية على التوازن بين «الين واليانغ». فقوى اليانغ (أو وزير الطاقة) تلزم أعضاء الجسد كلها بالقيام بوظائفها بشكل صحيح، وهي تتركز بشكل أساسي في الكلية والكبد متعاونة مع طاقة القلب (الين) لتأمين الطاقة لجميع الأعضاء الأخرى. ويؤمن «جو جينغ» بأنه خلال فترات المرض يزداد نشاط «اليانغ» على حساب «الين» مما يرفع حرارة الجسد، كلما تدهورت حالة المريض الصحية. وتتلخص- حسب رأيه- طريقة العلاج في تغذية «الين» الذي اسُتهلك من قبل «اليانغ». فينصح بحمية صارمة، وانضباط في النشاط الجنسي (إذ اعتقد بأن ذلك يساعد على المحافظة على قوة الين في البدن). ومازالوا يعملون بهذه النظرية في الطب الصيني حتى يومنا هذا.

أما الكي والحجامة وفصد الدم، فقد كانت إضافات مغولية لأساليب العلاج الصينية. إذ اشتهروا بحرق الأعشاب فوق نقاط معينة من الجلد لشفاء بعض الأمراض[3]. ومن المرجح أن العلاج بالكي، قد دمج بنظام الطب التيبتي، وأصبح معروفاً باسم «هورغي ميتزاي Horgi Metzai (الذي يعني: الحرق بالنار المغولية). كما اشتهر المغول بتجبير العظام، والعمليات الجراحية، وتطوير الكثير من العقاقير والأدوية المتناولة عن طريق الفم، وهو حقل برعوا فيه بالفعل، نتيجة حياتهم الرعوية المليئة بالتنقل والاكتشاف والحافلة في آن معاً بالمعارك وما تسببه من جروح وإصابات وأمراض تجب معالجتها. ولهذه الأسباب ذاتها برع الصينيون أيضاً في الجراحة وعلم التشريح، وكذلك بسبب عادتهم المتبعة في تشريح أجساد المجرمين المحكومين بالإعدام بعد إعدامهم.

(3) جاء في كتاب «دليل الطب البديل» أن كلمة «الموكسا MOXA » مأخوذة من اسم عشبة صينية، وأوراق عشبة الموكسا مرة المذاق، ورائحتها طيبة عند الاحتراق وهي تنمو في مختلف أنحاء الصين، وقد استخدمها الصينيون في علاج الكثير من الأمراض، وأوراق الموكسا تنتج حرارة ملائمة قادرة على أن تسترد وتنقذ الحالة الخطرة لمسارات الطاقة وتقوم بمعادلة وتنظيم الهواء، وتطرد الهواء البارد والرطوبة وتبعث الدفء باستعمالها في الكي حيث إنها تحترق وتتخلل المسارات جميعها وتتيح الشفاء من أمراض كثيرة (نقلاً عن موقع الطب الشعبي).

تجبير العظام

قام شخص يدعى «برياتشي» بتجبير العظام، وإعادتها إلى موضعها الصحيح، بعد تعرضها لإصابات كالكسور أو الرضوض أو الانزلاق، من غير عمل جراحي أو معدات طبيّة. فكان يمسك بالعضو المصاب، ويديره بحرية بين يديه من دون أن يسبب ألماً ظاهراً لصاحبه. وتلك الملكة كانت موهبة فطرية يتمتع بها عادة أشخاص معينون، وغالباً ما يشفى الشخص المصاب، وكأن شيئاً لم يكن. ولم يعرف عن أولئك المعالجين تمتّعهم بأيّة خبرات طبيّة أو سحريّة، وإنما هي موهبة ولدت معهم يتوارثونها جيلاً بعد جيل. أطلقت المدونة الطبيّة الشهيرة «شيي ديخياوفان Shiyi Dexiaofang» (العلاج الفعّال للأطباء) شهرة الطبيب الصيني - المغولي (زمن حكم اليان في الصين) المعروف باسم «وي يلين Wei Yilin» والذي عاش ما بين عامي 1277م و1347م كطبيب (شعبي) يعالج بهذه الطريقة. فقد عالج الكثير من انزلاقات (خلع) عظام الأكتاف والركب والحوض. وقد مهّد الطريق لأسلوب في العلاج تبناه الغرب في ما بعد (عام 1927م) وهو من أوائل مستخدمي التخدير في العمليات الجراحية. وأما معاصره «قي ديجي Qi Dezhi» فقد وصفَ في كتابه «وايك تجنغي Waike Jingyi» (العناصر الأساسية للطب الخارجي منذ عام 1335م) أساليب مختلفة لعمليات بسيطة لتصحيح وضعية العظام في الجسم البشري، كما ضمّنه جداول بأسماء أدوية وعقاقير ومراهم تُستخدم لعلاج الأمراض الجلدية التي يعزو «قي ديجي» وجودها إلى عدم التوازن الحاصل في جسد المصاب بين الين واليانغ. وقد اعتمد بشكل أساسي على المعالجة بالأعشاب.

الحمية

اكتشف الطبيب المغولي «هوشي هوي Hu Sihui» العلاقة بين الحمية والصحة، وكتابه الذي ألفه عام 1330 والمسمى «ين شان تشن ياو Yinshan Zhengyao» (المبادئ الأساسية للطعام والشراب) أكد من خلاله أهمية التوازن الغذائي والاعتدال في الطعام والشراب. وضمّنه شرحاً وافياً عن 230 نوعاً من الحبوب المفيدة ولحوم الأسماك والحيوانات البحرية واللحوم الحمراء والفاكهة والخضار. وقد حذّر من تناول الكثير

من التفاح الذي يؤدي إلى حدوث نفخة الأمعاء. كما تحدّث عن اختلال وظائف الكبد، بسبب الإفراط في تناول البرتقال، وأوصى بتناول العنب للتقوية العامة للبدن، واكتساب النشاط، مدّعياً أن لحوم الكلاب، رغم ملوحتها فهي غير سامة، وتفيد في تسكين آلام الكبد والقلب والرئتين والكليتين.

وهناك طبيب مشهور آخر، عاصر حقبة حكم سلالة اليان المغولية في الصين وهو «جي كيجو Ge Keijiu» (1305–52م) الذي دونت اكتشافاته المفصلة حول مرض السّل في كتابه «شياو شينشو Shiyao Shenshu» وأيضاً الطبيب «زين شيرون Zeng Shirong» الذي اشتغل على دراسة واسعة حول طب الأطفال، بدأها في ظل حكم أسرة سونغ وأنهاها في عام 1294م.

قياس النبض

تأثرت شعوب غرب آسيا وخاصة إيران، بما توصل إليه الطب الصيني القديم من دراسات حول أهمية النبض. وقد تسرّب إليهم ذلك التأثير زمن الاحتلال المغولي، ثم تعداهم في ما بعد باتجاه الشعوب الإسلامية الواقعة غرب بلاد فارس.

فقد ترجم العديد من الكتب التي تتحدث عن تقنية قياس النبض واستخدامها في تشخيص الأمراض إلى اللغة المغولية، واعتبرت لديهم مرجعاً بغاية الأهمية. كما نُظر إلى كتاب «ماي تشنغ Mai–ching» كمقياس في هذا المجال. فأخذت سرعة دقات القلب وعددها، وسرعة تدفق الدم في الجسم كمعيارٍ أساسي لتحديد صحة البدن. والراهب وليام الروبريكي أكال المديح للأطباء والجرّاحين الصينيين حين زار عاصمة الإمبراطورية المغولية قره قورم (1253–55)، ولكنه انتقد إهمالهم لفحص البول، علماً أنهم لا يهملونه تماماً، ولكنهم يركزون على خواصه العلاجية أكثر من الاهتمام به كوسيلة لتشخيص الأمراض.

وصف الجنرال يان شيه عام 1241 كيف سقط الخان أوقطاي عليلاً بسبب اختلال في نبضه، مما جعله يصدر عفواً عاماً، إلا أنه بعد فترة قصيرة، أظهرت نتائج فحصه عودة النبض إلى طبيعته. وأياً تكن صحة هذه القصة، فإنها تُظهر مقدار إيمان المغول

بقوة العلاقة بين الصحة الجسدية والأوامر الأخلاقية.

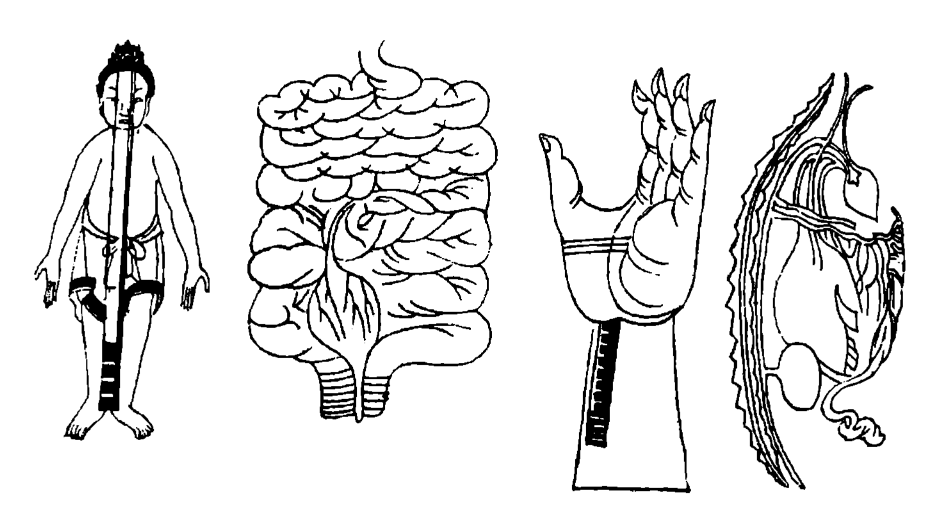
واعتبرت عقاقير معالجة النبض على رأس القائمة، حين كلّف قبلاي خان العالم والطبيب الإيغوري «آن تسو أونغ An–ts ung» بترجمة الكتاب الطبي الصيني الرائد في دراسة النبض «نان– تشنغ Nan–ching» إلى اللغة المغولية، ثم قام خليفته تيمور (عام 1305م) بجعل موضوع الفرق بين نبض الأطفال والكبار على رأس القائمة المتضمّنة لعشرة مواضيع عن النبض، يتوجب على الطلاب دراستها في أكاديمية الإمبراطورية الطبيّة. وقام الطبيب والسياسي رشيد الدين بترجمة هذه المواضيع مع مواضيع علمية أخرى، إلى الفارسية.

الطب الصيني في إمبراطورية الإلخانات

اصطحب هولاكو معه طبيباً صينياً عندما اتجه إلى الغرب، واستمر ذلك الطبيب في الاهتمام بصحته حتى وفاته (في عام 1265م).

وحفيده وخليفته أرغون، المترعرع في آسيا الغربية (إلخانات إيران)، بقي لا يثق إلا بطب آسيا الشرقية (الصين). وقد ساد اعتقاد بأن الأطباء الفعليين الذين كانوا يعالجونه (كانوا من الإيغور أو الهنود) أعطوه خلطات صينية تحوي كبريت الزئبق، المادة التي تعتبر إكسير الحياة، وهي رغم سمعتها السيئة والعدد الكبير من ضحاياها، بقيت مستخدمة من قبل الكثير من الكيميائيين والأطباء.

وأما غازان خان فتابع مسيرة أجداده في الاعتماد على فضائل الطب الصيني. وعندما عجز أحد الأطباء من مواطنيه المسلمين عن مداواة مرض في عينيه، لجأ إلى طبيب صيني كان يعرفه في «تبريز» حيث عالجه بالكي. ومن الجائز أن الفضل في انفتاح الفرس على إنجازات الصينيين الطبية يرجع إلى رشيد الدين الذي شجّع بشكل واضح على استخدام أساليب العلاج الصينية وضمّن كتبه الكثير من الشروحات عنها، حيث نجد العديد من أسرار الطب الصيني في كتابه الشهير «كنز الإلخانات»، الذي جرى فيه التركيز على مواضيع النبض (العشرة) كما سبق أن ذكرت.



من كتاب رشيد الدين تنكسوق نامه، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

الطب الغربي في الصين

رغم تأثير الطب الصيني الواسع في جميع مناطق الإمبراطورية المغولية، إلا أنه يتوجب عدم إنكار ما قدّمه الجانب الأوروبي الواقع تحت سيطرتها في هذا المجال. حتى إن بعض الأطباء الأوروبيين كانوا يخدمون في باليق خان (بكين). ويزعم الراهب جون مونتكورفينو «ظهور بعض الجرّاحين المتطفلين» في بلاط تيمور خان الياني عام 1303.

وقد كان للمسيحية النسطورية تأثير واسع بشكل عام على آسيا الشرقية، رافقه تأثير طبيّ وعلميّ كما يحدث عادة. كما اعتنقت بعض القبائل المغولية الأساسية النسطورية، مثل قبيلة الكرايت والنايمان والأونغوت. وحتى قبيلة التتار كانت خاضعة لتأثير المسيحية النسطورية. وفي الحقيقة إن زوجة هولاكو خان طقز خاتون (توفيت في 1265م) كانت تدين بالنسطورية. وقد ازدهر العديد من المجتمعات النسطورية في العديد من المناطق والأرياف الصينية على طول البلاد وعرضها كما في «أوربان» و«سميرتشي» و «تاريم باسين» و«أوغوريستان». ومثلما تأثرت المقاطعات الغربية من الإمبراطورية (بلاد فارس) بالطب الإسلامي، كذلك تأثرت المقاطعات الشرقية (الصين والمناطق الأخرى) بالأساليب الطبيّة المسيحية النسطورية. ويمكننا تفسير هذا

التأثير إذا علمنا أن الأوغور (وهم النسبة العظمى من إداريي المقاطعات الشرقية) كانوا يدينون بالنسطورية. وقد وصل بعضهم إلى مناصب راقية في بلاطات الخانات مثل «تشنقاي» المستشار الرئيسي لأوقطاي خان، ومستشار جويوك خان «قاداق» و مستشار مونكو خان «بولغاي».

والطبيب شمعون المسمّى من قبل الخان الأعظم أوقطاي بـِ «المعلم آتا»، استخدم معارفه ومهاراته الطبيّة ليحظى بمكانة سياسية رفيعة في البلاط المغولي. وقد استخدم تلك الحظوة للرفع من شأن المسيحيين، مقابل الحط من شأن المسلمين. وتمكّن في ما بعد من أن يصبح الطبيب الشخصي لهولاكو. ذكره ابن العبري العالم والفيلسوف السرياني، بالكثير من التمجيد بعد أن اكتشف في وقت مبكر فضائل التأثيرات المغولية على الطب بشكل عام فكتب يقول: «وفي تلك الأيام بدأ المعلم شمعون القادم من موطنه الأم «كالا روميتا» بالعمل عند ملك الملوك هولابو (هولاكو) وبدأ يزدهر ويتفتح بشكل رائع، وحظي بحب جميع أبناء الملك وزوجاته وإعجابهم. فأسكنوه قصراً بديعاً مثل قصورهم، تحيطه الحدائق الغناء من كل جانب. وكان راتبه السنوي 5,000 دينار يأخذها من بغداد وآشور وكابادوكيا (في تركيا) ومن مراغه. إنه ليشرفنا أن يكون هذا الطبيب من جماعتنا، وخاصة في هذه الأوقات الحرجة التي تحتاج فيها الكنيسة إلى الحماية في كل مكان وُجدت فيه»(4).

وقد أصبح تأثير المسيحية النسطورية جلياً، وتحديداً في زمن حكم أسرة اليان (1260–1370). وغالباً ما أطلقت داخل أنحاء الإمبراطورية تسمية مسلم (هوي هوي) على أطبائهم وعلمائهم وكذلك اكتشافاتهم الطبيّة. ومن المؤكد أنهم تبنوا أساليب ومبتكرات بعض علماء الشق الآخر من الإمبراطورية (بلاد فارس) كابن سينا العالم والطبيب المسلم (توفي عام 1037). وقد لاحظ بعض الرحالة ممن زاروا الإمبراطورية المغولية أن الكثير من الأساليب الطبيّة القادمة من تأثيرات إسلامية تم تقديمها إلى البلاد على يد مسيحيين نسطوريين. فأوديرك البردونيني ذكر أن فريق الـ 400 طبيب الذي كان يشرف على صحة الخان الأعظم تضمن طبيباً واحداً مسلماً وثمانية مسيحيين، في حين كان البقية من الوثنيين الذين افترض أنهم صينيون(5).

والمترجم عيسى كان طبيباً نسطورياً، ولطالما أُعجب قبلاي خان بمواهبه ومهاراته في فن الجدال والمعارف الطبيّة فاستقاها منه ووظّفها في زمنه بعد أن اعتلى عرش اليان عام 1263، وأسس لنشر تلك المعارف، مركزاً طبياً خاصاً في الصين الغربية جعل اسمه «الإدارة الطبية للعاصمة» والذي تحوّل اسمه عام 1273 إلى «المكتب الطبي الإسلامي». وعيسى هذا هو نفسه الذي تحدث عنه ابن العبري(6)، وهو نفسه من أشرف طبياً على بلاط ملك أرمينيا «هيتوم» الذي حكم ما بين (1226—69 م). وقد جرى الاعتقاد بأن عيسى سافر شرقاً مع أخ الملك هيتوم «سمات» إلى بلاط جويوك خان (حكم ما بين 1247—49 م) وأوكلت إليه مهمات طبيّة رسمية كان يقوم بها رئيس الأطباء المعلم شمعون الذي عاد إلى الغرب في ذلك الوقت تقريباً. وتقول المصادر الصينية التي تتحدث عن عيسى بأنه نال ثقة جويوك خان وإعجابه «بفضل إلمامه الواسع بعدة لغات غربية، وبعلمي الفلك والطب، حتى أنه لم يوجد علم لم يدرسه أو يمارسه»(7). وهكذا فمسيحيّ نسطوري يخدم البلاط المغولي لابد من أنه كان يتقن الآشورية والإغريقية والعربية والأرمنية والفارسية والمغولية والصينية. ومن المعروف أنه بقي رئيساً للمركز الطبي الإسلامي في البلاط حتى مغادرته له مع «بولاد» مبعوث قبلاي خان لإيران أواسط عام 1280م. «وكان من مهامه تحضير خلطات الأدوية والعقاقير الطبيّة، ومعالجة أفراد الأسرة الحاكمة والناس الفقراء والمساكين من سكان العاصمة في الوقت نفسه»(8). وخلف عيسى في تلك الوظيفة عام 1334م الطبيب «نيه شيراه» الذي وصف في بعض المصادر بالمسيحي، الشيء الذي يوحي باحتفاظ النسطورية بتأثيرها على الحياة الطبيّة المغولية في ذلك الزمن.

نقص الترجمات

من الشائع أنه لم تجرِ ترجمة النصوص الطبيّة الغرب آسيوية خلال فترة الحكم المغولي. ومع ذلك فلم ينقضِ عام 1273 إلا ووجد على الأقل مجلد واحد – مصنف في دائرة المعارف الطبيّة– و متوافر في المكتبة الإمبراطورية. ويعتقد أن ذلك المجلد الأول كان كتاب «القانون في الطب» لابن سينا الذي يُنظر إليه باعتزاز كجامع للتقاليد

الطبيّة الإغريقية والفارسية- العربية. وربما تعود ندرة الترجمات إلى واقع أن الأطباء كانوا يسافرون بصحبة كتبهم فلم تكن الترجمة حاجة ملحة بالنسبة إليهم. كما كانوا يأخذون معهم أثناء تنقلاتهم، عقاقيرهم، ومعداتهم الخاصة. وبسبب اهتمامهم الكبير بطب الأعشاب فقد بدأوا أولاً (زمن قبلاي خان) بترجمة عدد من النصوص التي تبحث في ذلك المجال.

تبادل الأدوية بين الشرق والغرب

نتجت عن اهتمام المغول الواسع بطب الأعشاب حركة تجارية نشطة لتبادل العقاقير والأعشاب الطبيّة بين الشرق والغرب، عبر إمبراطوريتهم مترامية الأطراف. فنبات «الراوند» كان يسافر من الصين نحو إيران ليصبح مكوناً أساسياً في خلطات أدويتهم هناك. ويبدو أن المغول اكتشفوه أثناء حملاتهم ضد قبائل «التانغوت» في غرب مملكة زيا. فبالإضافة إلى ما حملوه من هناك من ذهب ومنسوجات نادرة ومحظيات، «أخذوا بعض الكتب القليلة وجملين محملين بنبات الراوند»(9). وكذلك بعض أنواع البهارات - القادمة من الشرق- كالكبابة (نبات من الفصيلة الفليفليّة) والقرفة والفلفل الأبيض، والتي دمجها الإيرانيون مع أدويتهم وبهاراتهم.

وقد تحدث رشيد الدين باستفاضة عن إعجابه وتعلقه بالكثير من البهارات والأعشاب القادمة من الشرق والتي تعرّف عليها نتيجة علاقته الوطيدة بأطباء صينيين، وآخرين ممن رافقوا «بولاد» مبعوث قبلاي خان إلى إيران. وجاء في كتاب «اليان شي» أن مثل هذه التجارة والتأثيرات كانت متبادلة. ففي عام 1331، «أعلن أبو سعيد (مبعوث إلخان إيران في الصين) حين عودته إلى إيران أن بلاط اليان قد عوضهم بالقيمة نفسها عما بادلوه هناك من أحمال طبيّة (أدوية ومعدات وأعشاب.. الخ)»(10). ومن الواضح أن تلك التجارة كانت رائجة، ونشاطاً قديم العهد فقد ذكر المصدر السابق (كتاب اليان شي) أنه في عام 1273 م أرسل قبلاي خان حملاً مكوناً من 100,000 (أونصة) ذهبية لإلخان إيران أباقا ثمناً لأدوية اشتراها»(11).

وساد الاعتقاد بأن أطباء آسيا الغربية حملوا معهم أثناء إقاماتهم في قصور الشرق

الكثير من الأدوية لسكان تلك المناطق والعكس صحيح أيضاً. فرشيد الدين تحدّث عن نقل أطباء ومبعوثي آسيا الغربية للعصائر المثلجة، التي أصبحت بمثابة شراب منعش شاع استخدامه بكثرة في إيران. وقد ظهر بداية في الصين زمن أسرة اليان ثم أصبح شراب مبعوثي الإلخانات المفضل. ويعتقد أن النسطوريين هم أول من ابتكر خلطته في الصين، ثم جاء قبلاي خان ليؤسس مركزاً خاصاً لصناعة الشراب أو العصائر المثلجة وكلف شخصاً من النسطوريين بإدارته «مار سرجيس» (ذكره ماركو بولو في كتاب رحلاته). وأطلق على الشخص الذي يصنع تلك العصائر «شربتجي»، وعمت شهرة تلك العصائر أنحاء الإمبراطورية كلها، لمذاقاتها الفريدة، وطعومها المأخوذة من مناطق مختلفة والتي تكونت من بعض الأحماض وعصائر التوت البريّ والعسل والسّكر وماء الورد وحتى من نوع خاص من الليمون البغدادي.

كما شاع اهتمامهم – خاصة النبلاء – بما عُرف بالترياق (أو دواء كل علة بما فيها التسمم)، وتبادلوه شرقاً وغرباً، وانتشر تحديداً في الصين، لخوفهم الشديد من جرائم دس السم في طعامهم وشرابهم. وتؤكّد بعض المصادر على منح حكام المغول الكثير من الجوائز والعطايا لكل من يخترع ترياقاً فعالاً جديداً. والجدير بالذكر أن غازان خان أمر باختراع ترياق خاص به، وسماه باسمه «ترياقي غازاني».

وقد يكون أحد أسباب اهتمامهم بصناعة الترياق وترويجه عائداً إلى احتوائه على مادة الأفيون المخدرة.

الكتب الطبيّة

كان الصراع والشك، مستمرين على الدوام بين المصدرين الطبيين التقليديين «الجالينوسي» (نسبة إلى جالينوس) والصيني «الين واليانغ». ولكن من المؤكد أن المغول قد استفادوا من المصدرين معاً، الشيء الجلي في تركيب أدويتهم. وعملت شخصيات علمية وسياسية معينة كرشيد الدين وبولاد مبعوث قبلاي خان على تشجيع هذا التبادل والتعاون وترسيخه. لكن يرجع الفضل الأساسي في اندماج هذين المصدرين، وتأثر أحدهما بالآخر عبر التاريخ إلى تأسيس الإمبراطورية المغولية، وتجارتها النشطة على

جميع المستويات وخاصة الطبيّة والعلمية. فقد لاقت أكاديمياتهم الطبيّة إقبالاً واسعاً من قبل الدارسين الذين انخرط معظمهم في الفروع العلمية، وخاصة الطب. وقد انتعشت حركة الترجمة لكثير من المصادر الطبيّة التي نُقلت من الفارسية إلى المغولية أو الصينية وبالعكس زمن حكم أسرة «منغ Ming» (1368–1644م) التي تلت حكم اليان. فكتاب «الطب الإسلامي» صار جزءاً مهماً من موسوعة مكتبة إمبراطورية منغ. وجمع إلى جانب كتاب «يانغ لو تاشين» في كتاب من أربعة أجزاء اعتبر مرجعاً للطب والأدوية الفارسية.

الحواشي

1. غريغور الآكانسي، «تاريخ رماة السهام»، ترجمة ر. بليك، و ر. فراي. (كمبريدج: منشورات جامعة هارفرد، 1954) ص. 10.
2. «مذكرات بيان ابن بارين في اليان شيه (مدونة التاريخ الرسمي لأسرة اليان في الصين)، ترجمة: فرانسيس وودمان كليفز. «مجلة هارفرد للدراسات الآسيوية»، 19 (1956)، ص. 433.
3. «مذكرات بيان ابن بارين في اليان شيه (مدونة التاريخ الرسمي لأسرة اليان في الصين)، ترجمة: فرانسيس وودمان كليفز. «مجلة هارفرد للدراسات الآسيوية»، 17 (1954)، ص. 428 – 444.
4. ابن العبري «تاريخ غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري»، التاريخ السياسي للعالم، الجزء الأول ترجمة: إرنست أ. واليس بدج (بيسكاتاوي ن. جي. مطابع جورجيا، 2003)، ص. 437.
5. «رحلات الراهب أودوريك»، في «هنري يول وكاثاي والطريق إلى هناك» المجلد الثالث (ميلوود، نيويورك، كراوس لإعادة الطباعة، 1967)، ص. 226.
6. ابن العبري «تاريخ غريغوريوس أبو الفرج ابن العبري، ص. 409–10.
7. توماس ألسن «الثقافة والغزو في أوراسيا المغولية» (كمبريدج. منشورات جامعة كمبريدج، 2001)، ص. 150.

8. يان شي، مقتبس في ألسن، «الثقافة والغزو»، 221.

9. ألسن، ص. 152.

10. المصدر السابق، ص. 153–54.

11. المصدر السابق، ص. 154.

الفصل السابع

المغول والشراب

عُرف عن المغول انغماسهم الشديد بالشراب، فهو جزء مهم من حياتهم اليومية، وعادة توارثوها أباً عن جد، وورثوها لخلفهم. وهناك الكثير من قصص الإفراط في الشراب حتى الموت. فالكاتب والمؤرخ الأرميني كيراكوس الذي عايشهم عن قرب، لاحظ قائلاً: «إنهم يشربون ويأكلون كلما سنحت لهم الفرصة»(1).

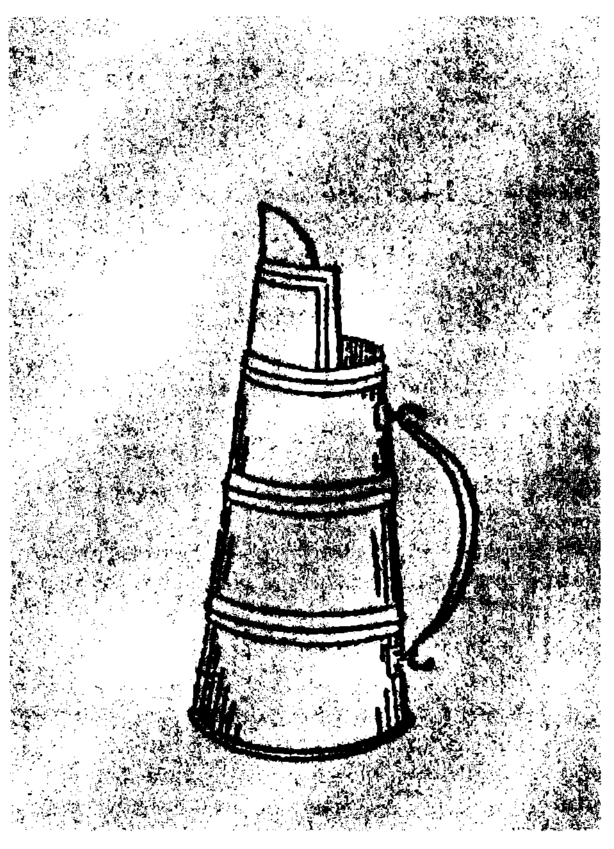
وأما الراهب جيوفاني ديبلانو فقد لاحظ بدوره قائلاً:

«وهم يفتخرون بقدرتهم على الشرب، وإذا أفرط أحدهم فيه ومرض، فلا يثنيه ذلك عن المتابعة»(2). وأضاف مرافق له بأن المغول مأخوذون بالشرب أكثر من أي شعب آخر على وجه الأرض. وهم لا يشربون في أوقات معينة خلال اليوم، بل في أي ساعة كانت. ولم يعرف عنهم انغماسهم في نوبات سكر أدت إلى العنف، لكن عُزي موت الكثير من قادتهم إلى إفراطهم في الشرب. ورغم أن جنكيز خان توفي وهو في ستيناته وقبلاي خان مات وهو في الثامنة والسبعين، إلا أن معظم حكامهم الآخرين ماتوا عن عمر مبكر، الشيء الذي يعود إلى مبالغتهم الشديدة في الشرب. والشرب هو من أكثر الأشياء التي تمسكوا بها بعد توسع إمبراطوريتهم وتحولهم لمجتمع متحضّر.

القمز (الإيراج)

رغم أن المغول يشربون الحليب بكثرة، إلا أن مشروبهم الأساسي هو خلطة من الحليب والكحول، (الحليب من الحيوانات التالية: الأبقار والنعاج والخيول والماعز والثيران التيبتية أو الياك)، يطلقون عليها اسم «قمز أو «إيراج Airag» (حسب تسميتها التركية). والراهب وليام الروبريكي الذي جرّب متعتها عن غير قصد «هزته وأخرجته عن صوابه» بمجرد جرعة واحدة منها، اعترف بأنها طيبة المذاق.

واعتُبر «القمز» سيد المشاريب المغولية، كما لاحظ كربيني قائلاً: «ليس لديهم خمر ولا مَزر (جعة الزنجبيل) ولا «مِيد» (شراب مخمر)، ولا يصنعونه. يتوافر لديهم فقط حين تهديهم إياه إحدى الأمم»(3).



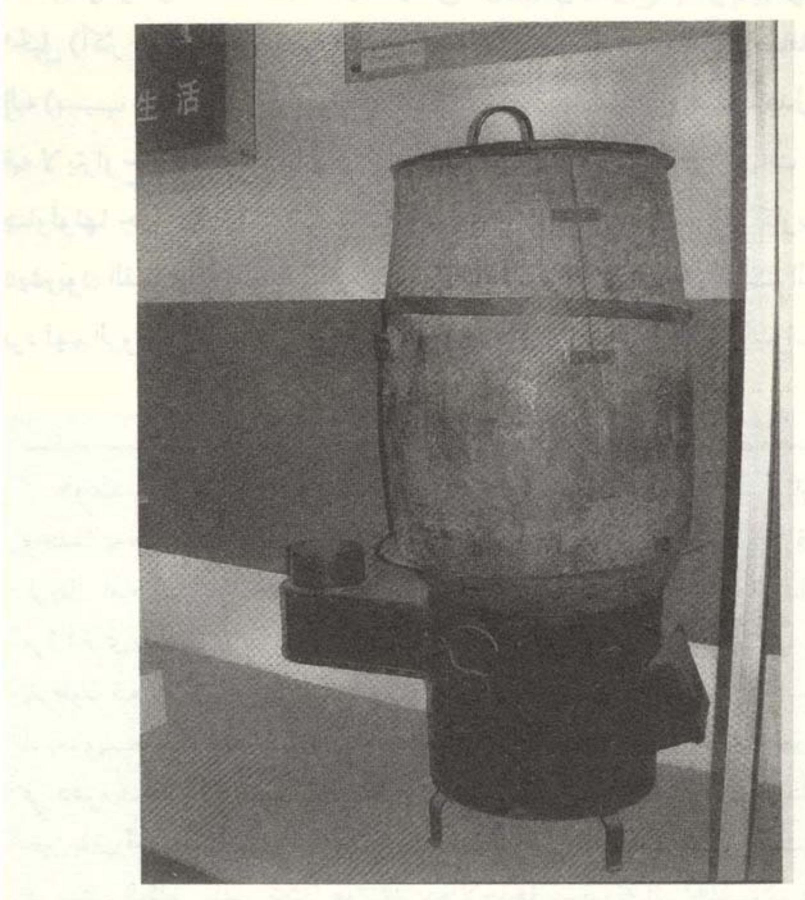
ماعون لصنع القمز، بموافقة لان تيان لانج للنشر

ويصف وليام الروبريكي كيف تربط الأمهار إلى المرعى، فتقترب منها أمهاتها وتقف بقربها بهدوء وسكينة فيغتنم المغول الفرصة ويحلبونها. وإن عارضت إحدى الإناث عملية الحلب، يسمح لمهرها بأن يشارك في الرضاعة حتى تهدأ. ويجمع الحليب (حلو المذاق كحليب الأبقار) في قِربة (كيس من جلد الحيوانات) ويمخض بواسطة ممخضة مصنوعة لهذا الغرض بالتحديد (وهي مثل هراوة بثخن رأس إنسان من الأسفل ومجوفة). يستمر مخضه بتحريكه حركة دائرية حتى تغطي وجهه رغوة من الفقاعات (مثل الخمر المصنوع حديثاً) وتتكاثف بالتدريج متحولة إلى زبدة حامضة. والحليب أو اللبن المتبقي يصبح حريف المذاق وذا لذعة خفيفة على اللسان (مثل الخمر) وهو الوقت المناسب لشربه. وعلى الرغم من ارتفاع نسبة السكر في حليب الخيل (أكثر من 6٪) فإن نسبة الكحول فيه تقل حين يصبح جاهزاً لإضافة الكحول إليه (بسبب مخضه حيث تخلصه الزبدة من الكحول والسكر) ويصبح معدل الكحول فيه لا يتراوح بين 1،65 ٪ و3،25٪، مما يدفع المغول إلى الافراط في كميات القمز التي يتناولونها حتى يحصلوا على النشوة المطلوبة من السُكر، كما أكد كاربيني قائلاً: «يشربون القمز بكثرة كلما توفر لهم»(4). أما روبرك فيقول: إن شربهم القمز صيفاً يرد لهم الروح، وفي ما يلي وصفه لعلاقتهم الحميمة بهذا النوع من الشراب:

«وعندما يبدأ السيد بالشرب، يصيح أحد الندل «ها» فيضرب العازف أوتار قيثارته. وعندما يحضر الطعام يصفقون بأيديهم جميعاً، ويرقصون على أنغام القيثارة. يتحرك الرجال أمام السيد والمحظيات أمام السيدات. وعندما يسكر السيد يصيح النادل «ها» مرة أخرى، ويتوقف عازف القيثارة عن العزف. فيبدأ الجميع بتناول الشراب، وأحياناً يفرطون فيه لدرجة مخجلة. وعندما يريدون تحدي شخص ما في الشرب، يمسكونه من أذنيه، ويسحبونه منهما حتى تتوسع حنجرته، ثم يصفقون ويرقصون أمامه. وحين يرغبون في دعوة شخص ما للمشاركة في احتفال الأكل والشرب، يمسك أحدهم كأساً مليئة في حين يقف أحدهم عن يساره وآخر عن يمينه ويتقدّمون باتجاهه وهم يغنون ويرقصون وعليه أن يستلم الكأس منهم، لكن حين يمد يده لأخذها يسحبونه إلى الخلف، ثم يتراجعون

ويعودون مرة أخرى مكررين ما فعلوه في السابق، ويتابعون القيام بهذا عدة مرات حتى تتضاعف حماسته وتزداد قابليته للطعام فيعطونه الكأس، وبينما يتناول هو الشراب، يغنون ويصفقون ويدبكون»(5).

وبالإضافة إلى القمز ذي اللون الأبيض الغائم (أو العَكِر) والطعم الحامض، يجري تخمير نوع آخر من حليب إناث الخيل ويسمى «قره قمز qara kumis»، أو القمز الأسود، وهو ذو بياض نقي وطعم حلو. ولأن حليب الخيل لا يتخثر، فإنه يمخض إلى أن تتسرب كل مكوناته الصلبة إلى الأسفل، والنتيجة سائل صاف يطفو على



خابية تستعمل لتخمير القمز، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

السطح. وتفصل البقايا العكرة، وتعطى للعبيد فيسكرون شرّ سكر (حسب أقوال وليام الروبريكي) وما تبقى من سائل صاف (القمز الأسود) يقدّم للخانات والسادة (وهذا المشروب حلو المذاق وشائع حتى اليوم في آسيا الوسطى ومنغوليا).

وقد اعتاد باتو خان (1255) زعيم القبيلة الذهبية لروسيا وأوكرانيا، الاحتفاظ بمخزون من «القمز الأسود» في محطة يشرف عليها 30 رجلاً، وتبعد مسافة يوم سفر بالخيل عن مخيمه. فكل رجل منهم عليه أن يحلب 100 فرس ويزوده بحليبها. مما يعادل 3,000 ناقة تزود الخان بالحليب كل يوم، علماً أن هذا العدد لا يشمل الأفراس التي تنتج حليب القمز العادي (الأبيض). ويزعم ماركو بولو أن قبلاي خان (توفي في 1294) كان يستهلك حليب ما يعادل 10,000 فرس يومياً لصناعة «القمز الأسود». ويعد استهلاك المغول للقمز قبل تأسيس الإمبرطورية وتوسعها معتدلاً نسبياً، ويقتصر على شهور الصيف الخمسة، عندما يكون بمقدور الأفراس إدرار الحليب. وحسب كلام روبرك فإن ولع المغول بالقمز يتعاظم في هذه الشهور الخمسة. فيحصل الشخص الواحد على ما يعادل 2,000 سعرة حرارية يومياً منه، وهذا يتطلب استهلاك حليب فرسين (مما يفوق استهلاك الأمهار نفسها). وتحتفظ العائلة العادية بفرسين حتى يتمكّن أفرادها من التزود بحاجتهم من القمز خلال تلك الأشهر الخمسة.

وقد لعب القمز دوراً مهماً في الاحتفالات الدينية والرسمية. فالرجال والنساء المتدينون يشرّفون حيواناتهم (آلهتهم على الأرض) بشرب القمز ورشه عليها. والوصف التالي لماركو بولو يؤكد ذلك:

«يقضي السيد وقته - تفادياً لفترة الصيف القائظ- في قصره الرخاميّ (وأحياناً من الخيزران) التابع لحديقته. فيبقى هناك ثلاثة أشهر هي: يونيو ويوليو وأغسطس، ويغادر عندما يهل قمر اليوم الثامن والعشرين من أغسطس. ويجب أن نعلم أن الخان الأعظم يحتفظ بعدد كبير من الجياد والأفراس (أكثر من 10,000) وكلها من ذوات اللون الأبيض الصافي. ويمنح امتياز شرب حليبها له ولعائلته فقط، وأفراد قبيلة هوريات. وهو امتياز خاص حصلوا عليه من جنكيز خان بعد مساعدتهم له على إحراز أحد الانتصارات زمن البدايات. ومن

المعروف للجميع أن لهذه الأفراس والجياد حق عبور الطرق، قبل أية خيول أخرى حتى وإن كان فارس تلك الخيول من أعظم السادة، فعليه إما أن يرجع أدراجه من حيث جاء، أو أن يسلك درباً آخر، حتى وإن كان أطول بكثير. وعندما يغادر الخان الأعظم قصره وحديقته في ليلة الثامن والعشرين من أغسطس يُؤخذ حليب الأفراس، ويراق على الأرض، وهو طقس مقدس يكرره رجل الدين في كل عام. حتى تنال الأرض والسماء والآلهة والأرواح التي تسكنهما حصة من ذلك الحليب. فيسبّح الناس وذريتهم بالحمد والشكر لجنكيز خان وسلالته وزوجاته وخيوله وأفراسه ومحاصيله ومراعيه وكل ما له»(6).

وهنا أيضاً وصف مشابه لوليام الروبريكي:

«في اليوم التاسع من مايو، يجمعون كل الأفراس البيض من قطعانهم، ويعزلونها في مكان خاص. وكذلك يجتمع الرهبان النساطرة مع مباخرهم فيرشون حليباً طازجاً على الأرض، ثم يولمون وليمة عامرة في ذلك اليوم، احتفالاً بمناسبة اليوم الأول لشرب القمز، تماماً مثلما نحتفل نحن بالخمر في عيد القديس برتلوموس (مرقس) الموافق في الرابع والعشرين من أغسطس، أو عيد القديس سيكستوس في السادس منه، أو كما نحتفل بالثمار في عيد القديس يعقوب أو القديس كريستوفر[4] في الخامس والعشرين من يوليو»(7).

والمعلم الصيني «تشانغ تي هوي Chang Te—hui» قدّم لنا الوصف التالي بعد تدريسه في بلاط قبلاي خان لمدة 12 سنة:

«في اليوم التاسع من أكتوبر، يستدعي الأمير أتباعه ليجتمعوا أمام خيمته، للاحتفال بالإدرار الأول لأفراسه البيض. وهو طقس ديني في ذلك الوقت. ويجب ألا تكون الأوعية المستخدمة لجمع الحليب مصنوعة من المعدن، بل من جذوع شجر

---

(4) Bartholomew القديس برتلوموس: هو واحد من رسل السيد المسيح الاثني عشر، واسمه برتلوموس هو اللفظ اليوناني لاسمه آرامي الأصل. Sixtus سيكستوس الرابع: ولد باسم فرانشيسكو ديلا روفيري، البابا الثاني عشر بعد المئتين للكنيسة الكاثوليكية منذ سنة 1471 حتى موته. St. James القديس يعقوب الكبير: هو ابن زبدي وسالومة وشقيق يوحنا وكان الشقيقان من تلاميذ السيد المسيح.
Christopher القديس كريستوفر: وهو قديس مبجل من قبل الروم الكاثوليك، وعرف كشهيد ديني قتل على يد إمبراطور الرومان ديسيوس في القرن الثالث.

البتولا، كدليل على احتفائهم بالبساطة. وفي آخر يوم من السنة ينقل المغول فجأة أرض مخيمهم إلى مكان آخر، احتفالاً بهلول أول قمر من العام الجديد، وتلي ذلك إقامة الولائم كل يوم أمام الخيام لاحتفال عامة الناس. ويرتدي الجميع، ابتداء بالأمير فرواً أبيض، وفي اليوم التاسع من القمر الرابع (شهر مايو) يجمع الأمير أوعية الحليب مرة أخرى أمام خيمة الزعيم[5] لتقديم التضحية بالحليب البكر، وهي تضحية تحدث مرتين في السنة».

عالمية الإمبراطورية

انعكس اتصال المغول غرباً بالصين والمراكز الحضارية الإسلامية تنوعاً على عاداتهم في تناول الخمور، لكنه لم يحد من إفراطهم في الشرب. فقد قُدّم حليب الأفراس لابن بطوطة في احتفال ديني في شهر رمضان المبارك، حين زار انحاء القبائل الذهبية في شمال الإمبراطورية، ثم أعقبوه بالـ «بوزة buza» (الذرة البيضاء المخمرة)، وانتهى الاحتفال بتلاوة آيات من القرآن الكريم بأصوات عذبة»(8).

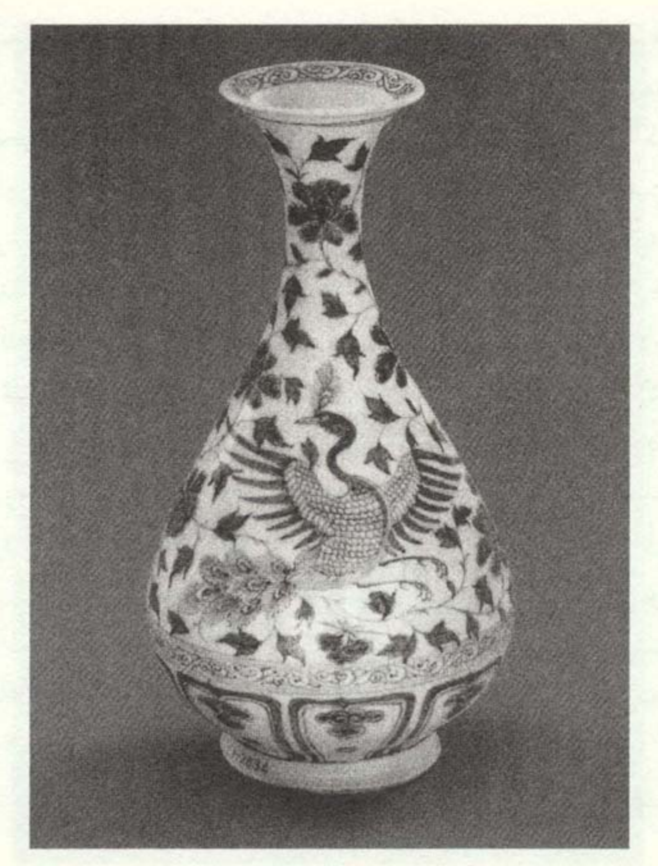
كما يتناول المغول شراب «الميد» المصنوع من الأرز المخمر، و شراب «الأيل» أو جعة الزنجبيل و«البال» وهو من تخمير العسل، و«البوزة»، بالإضافة إلى نبيذ العنب الأحمر الذي شبهه روبرك بالنبيذ الفرنسي «لا روشيل». وهم أول من نقل النبيذ الأحمر إلى الصين. فخلال القرن الثالث عشر استقرت جالية من الحرفيين المسلمين في شمال بكين، للتعهد بزراعة العنب، وتخميره لإيفاء حاجة البلاط الإمبراطوري من النبيذ. وأما الصينيون فقد نقلوا خمر الأرز «الساكي» إلى إيران، حيث سموّه هناك «تراسون»، وشربه المغول في البلدين. والراهب أوديرك البردونيني الذي سافر شرقاً ما بين عامي (1316و1330م) لاحظ حجم استهلاك نوع من الخمور يسمى «بيغني» في ولاية كينساي وقد قيل إنه يشبه النبيذ الألماني في لونه وطعمه وقوته، حين يعتّق لمدة سنة أو أكثر. وهذا النوع من خمر الأرز يصنع بطحن حبات الأرز وتحويلها بداية إلى «كعكة» ثم تؤخذ تلك الكعكة، وتفتت في وعاء يضاف إليه الماء الساخن، ويترك

(5) من المحتمل أن كلمة رئيس أو زعيم هنا تعني «الشامان» (رجل الدين أوالرجل المقدس).

هكذا حتى يتخمّر. ويمكن اختيار الطعم المرغوب فيه (حلواً أم حامضاً)، كما يُحدد اللون بناء على إضافة أنواع معينة من الأعشاب، خلال فترة التخمير. ومن المعروف أنه يشبه في طعمه مذاق النبيذ. والحقيقة أن كلمة «بيغني» المستخدمة من قبل أوديرك هي كلمة مأخوذة من كلمة «بيغيني bigini» الإيرانية والتي تعني شراباً مخمراً. واشتهرت منطقة كينساي بصناعة خمرة مستخرجة من التمور تدعى «بي – يم».

المشروب الإمبراطوري «هو شو هويس»

أُهدي الإمبراطور «طق تيمور Tuq Temur» عام (1330م) كتاباً رائعاً في فن الطهو بعنوان «ين شان تشن ياو Yin–shan cheng–yao». وقد قَدّم ذلك الكتاب مفهوماً غربياً (إيران) جديداً للشرق المغولي (الصين). وضمنه مؤلفه «هو شو هويس» الذي من المحتمل أن يكون إيغورياً، قائمة وصفات طعام من كل أنحاء الإمبراطورية المغولية. وكذلك وضع فيه فصلاً عن المشروبات الكحولية، وفوائدها الطبيّة والغذائية. فبالإضافة إلى النبيذ الشهير منذ زمن أسرة «تانغ» (618–907 م) ذكر العديد من عصائر الفاكهة الغربية، وبعض المشروبات الكحولية الصينية المصنعة من الحبوب. ووصف صناعة بعض المناقيع المفيدة صحياً، والتي تتم بنقع مكونات مختلفة في الكحول، ثم يضاف إليها مسحوق الحبوب، وتترك لتتخمر مثل خمرة «النعاج» (رغم أنها لا تحوي أي مكونات تمُت إلى النعاج بصلة) وخمرة «عظم الأسد» وهي عبارة عن نوع محليّ من أنواع «الفودكا» تضاف إليه بعض مساحيق العظام، وهي شراب لا يزال شائعاً في منغوليا حتى اليوم. وأشار الكتاب إلى هذه الأنواع باسم «تشن» وهي ترجمة محرّفة لكلمة نبيذ بالإنجليزية «wine»، فنسبة الكحول العالية فيه (أعلى من 55٪) تجعله يختلف عن النبيذ الذي لا تتعدى نسبة الكحَول فيه 12٪. ويتضمّن كتاب ين «شان تشين ياو» قائمة بأفخر الخمور المستخدمة في البلاط الإمبراطوري، والتي تقدّم على موائد الخانات، وخمور تحتوي على مكونات علاجيّة كخمرة عظم الأسد، وخمرة العنّاب الصينية، وخمرة الصنوبر، وخمرة الجذور الصينية، وخمرة النعاج، إلى جانب خمور من أعشاب طبيّة مختلفة. وكذلك حوت القائمة أنواعاً من النبيذ



إناء يعود إلى حقبة يوهوشون يوان، متحف زيان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

كنبيذ العنب الأحمر، والنبيذ التيبتي، والبراندي، والـ «أراجهي» (المعروف بطعمه الحلو الحريف) وخمرة الذرة البيضاء الـ «سورما» الشائعة باسم بوزة.

النافورة

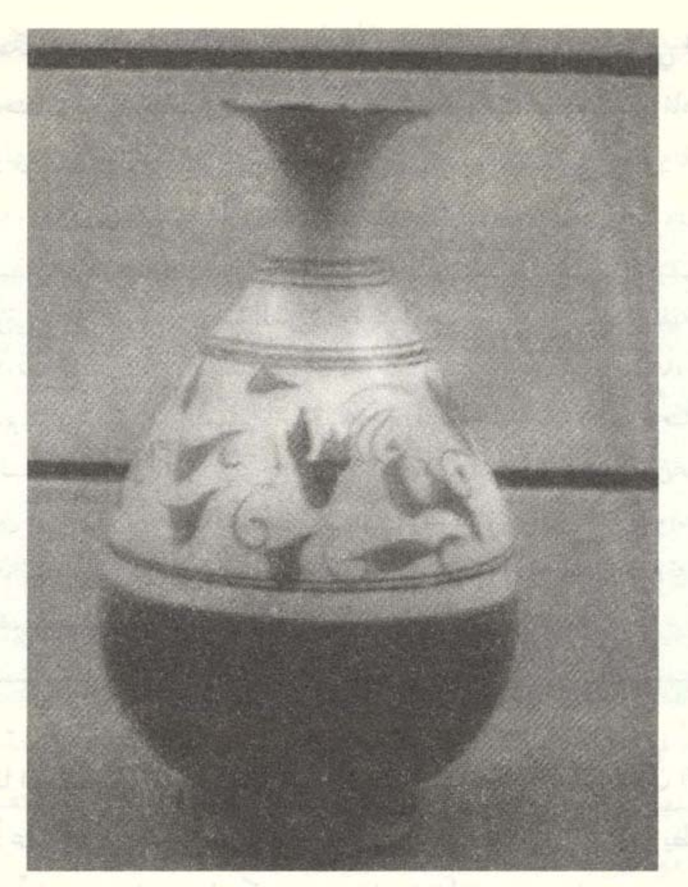
يذكر الراهب روبرك أنه رأى في مدينة قره قورم، زمن حكم مونكو خان (1251–58) نافورة لصب الشراب ويصف ما رآه كالتالي:

«لم يكن من المستحب جلب قِرب الخمر الفقيرة المصنوعة من جلود الحيوانات إلى قصر عظيم كقصر الخان الأعظم، فصنع له الحرفي الفارسيّ المعروف «وليام» شجرة رائعة من

الفضة، تجلس على جذورها أربعة أسود من الفضة أيضاً. يتصل كل منها بأنبوب ينسكب منه حليب الأفراس الأبيض. وهناك أربعة أنابيب تمتد داخل الأسود وتصعد إلى أعلى الشجرة المحنية للأسفل، وعلى هذه الأنابيب العلوية تلتف أربع أفاعٍ، وتمتد ذيولها حول الشجرة كلها. ومن أحد تلك الأنابيب يخرج النبيذ، ومن آخر يخرج القمز أو حليب الأفراس، ومن الثالث تنسكب خمرة «البال» المصنوعة من العسل، ومن الرابع ينسكب شراب «الميد» المصنوع من الأرز المخمر والذي يدعى «تيراسينا». ومن أجل كل نوع من الخمور هناك وعاء خاص لاستقباله عند جذع الشجرة. وبين هذه الأنابيب الأربعة العلوية صنع وليام تمثال ملاك ينفخ في بوق، وتحت الشجرة صنع قنطرة يمكن لرجل الاختباء فيها، ومنها تخرج أنابيب من قلب الشجرة إلى الملاك. وخارج القصر يوجد مخزن للاحتفاظ بالكحول. وهناك العديد من الخدم على أهبة الاستعداد دوماً لصب الخمرة، عندما يسمعون صوت البوق. وقد جعل للشجرة أغصاناً وأوراقاً وثماراً. وكلما أرادوا شراباً ينادي كبير السقاة على الرجل الجالس في القنطرة (تحت الشجرة) فيجعل الملاك ينفخ في بوقه، فيسمع السقاة في المخزن صوت البوق، فيسكبون الخمرة التي تذهب داخل الأنابيب الموصولة إلى قلب الملاك ومن ثم إلى الأفاعي ثم إلى الأسود والأوعية الموصولة إليها. فيصبه الساقي ليشرب منه السادة والسيدات»(9).

وقد لاحظ ماركو بولو الذي زار الإمبراطورية ما بين عامي 1271 و 1275م اهتمام المغول بالخمر وطرق سكبها، وذكر أن قبلاي خان قد حافظ على طقوس صب الخمرة وأنه كان يستضيف في قصره أحياناً ما يزيد على 40,000 ضيف، وقد ابتكر ما يلي لسقايتهم:

«صندوق مربع عظيم الحجم وجميل المظهر. كل جانب من جوانبه بطول 8 أقدام، مزخرف برسوم حيوانات مشغولة بالذهب. وهو مجوف من الداخل ويحوي وعاءً ذهبياً ضخماً على شكل إبريقين يتسع كل منهما لنحو 52 – 116 جالوناً تُملأ بالخمرة. وعند كل زاوية من الصندوق وعاء مشابه يملأ بحليب الأفراس، والثاني بحليب النوق وتملأ الزوايا المتبقية بمشروبات أخرى، ومنها جميعاً يتدفق الشراب نحو أجران تتسع لسد حاجة 8– 10 رجال. ويوضع جرن من تلك الأجران بين كل ضيفين (سواء أكانا



إناء يعود إلى حقبة يوان، بموافقة لان تيان لانج للنشر

رجلين أم امرأتين)، لكل منهما كوب خاص لغرف الشراب»(10).

ولاحظ ماركو بولو أن الخانات يولمون احتفالاً بأعياد ميلادهم، وميلاد أقاربهم ولائم لا أول لها ولا آخر، نظراً إلى عدد أقربائهم وأتباعهم الكبير. فقبلاي خان وحده كانت لديه أربع زوجات و22 ابناً وعدد غير محدد من البنات. وكذلك العديد من المحظيات اللواتي منحنه أكثر من 25 ابناً، بالإضافة إلى أقاربه قبل الزواج وقادته وعائلاتهم.

ابن بطوطة

أدهشت الأواني الذهبية والفضية التي جُلبت لسقاية ضيوف الزعيم الخان المسلم

أوزبك (حكم ما بين عامي 1331– 14م) ابن بطوطة. وكان قد رآها في قصره حين دعاه إلى احتفال أحياه بمناسبة شهر رمضان المبارك لرؤساء قواده الذين ناهز عددهم 187 ضيفاً. فوصف ذلك قائلاً:

«ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب، وأكثر شربهم نبيذ العسل. وهم حنفية المذهب، يحللون شرب النبيذ. فإذا أراد السلطان أن يشرب، أخذت ابنته القدح بيدها، وخدمت برجلها، ثم ناولته القدح فشرب، ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى، فتشرب منه، ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن، ثم ولي العهد القدح، ويخدم ويناوله إياه فيشرب، ثم الخواتين ثم أخته، ويخدم جميعهن، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الكبار، فيسقي كل واحد منهم ولي العهد ويخدم له، ثم يقوم أبناء الملوك، ويغنون أثناء ذلك بالموالية»(11).

ويخبرنا ابن بطوطة أنه في نهاية هذه الاحتفالات يتعتع السكر الخان الأعظم فلا يعود قادراً على أن يؤم الناس لصلاة الجمعة في الوقت المناسب، وحين يظهر بعد أن يصل متأخراً فإنه يتمايل من السكر، وبعد تلاوة الأذان يعود إلى خيمته مرة أخرى لمتابعة الشرب. كما يخبرنا بأنه رجل كريم سخي وأنه رأى بنفسه كيف تقف عربات كاملة محملة بقرب القمز لتوزع في ما بعد على ضيوفه، وكيف أن الواحدة منها تحمل ما يفوق الـ 131 جالوناً من القمز. وكيف أنه أهدى مرة إحدى تلك العربات المحملة بالقمز لجيرانه الأتراك بعد أن حصل عليها بدوره كهدية(6).

ويذكر الجويني أن مونوكو خان احتاج إلى ما يقارب 2,000 عربة محملة بالقمز

(6) نص ابن بطوطة هو كالآتي: «ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال عربات عليها روايا القمز، فأمر السلطان بتفريقها على الناس، فأتوا إلي بعربة منها، فأعطيتها لجيراني من الأتراك، ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة، فأبطأ السلطان، فسمعت أحدهم يقول: إنه لن يأتي، لأن السكر قد غلب عليه، وهناك من قال: إنه لا يترك الجمعة. وبعد أن تمكن الوقت أتى وهو يتمايل، فسلم على السيد الشريف، وتبسم له، وكان يخاطبه بآطا، وهو الأب بلسان التركية، ثم صلينا الجمعة، وانصرف الناس إلى منازلهم، وانصرف السلطان إلى الباركة، فبقي على حاله إلى صلاة العصر، ثم انصرف الناس جميعاً وبقيت مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته».

لاحتفالات اجتماع «القوريلتاي» الأعظم (عام 1251م) والتي استمرت اسبوعاً كاملاً.

وقد قام المؤرّخ الأمريكي جون ميسن سميث، اعتماداً على ما جاء ذكره على لسان وليام الروبريكي، ببعض الإحصائيات المثيرة للدهشة حول ولع المغول بالشرب والأكل واكتشف أنهم في الرابع والعشرين من شهر يونيو (عام 1254م) وأثناء ذلك الاحتفال الذي نظمّه مونكو خان لإسعاد ضيوفه السبعة آلاف، حصل كل ضيف منهم على ما يقارب الجالونين من القمز.

نساء المغول والشراب

لم تكن النساء أقل ولعاً من الرجال بالخمرة، كما لم يكُنَّ أقل قدرة منهم في فن القتال. ويزعم وليام الروبريكي أن نساء المغول ينغمسن في الشرب بكثرة مثل الرجال تماماً و«هنّ يغنين ويتصايحن مثلهم وقت الشرب والاحتفالات، فالسكر لم يكن يعتبر أمراً معيباً في نظرهن» وقد أدهشه أنه مهما سكرت النساء فلم يكنَّ يفقدن السيطرة على أنفسهن أو يأتين بأي عمل عنيف أو شائن. ويصف هنا كيف احتفت به إحدى زوجات مونكو خان:

«جلبت لضيافتنا أحد مشاريب الإيل (من الزنجبيل والأرز) ونبيذاً أحمر وقمزاً. ووقفت تحمل آنية مليئة بالشراب، ثم تجرّعت الشراب كلّه. وكان علينا (أنا ورفاقي) القيام بالمثل، فغنينا حين أرادت أن تشرب ثانية. وعندما سكروا جميعاً، جلب الطعام (لحم خروف وسمك شبوط) وهذا ما أكلت القليل منه. وبتلك الطريقة مضى الوقت حتى جاء المساء، فصعدت السيدة إلى عربة، وغادرت بينما ظل الرهبان يغنون وينشدون»(12).

وقد حاول الحاكم المغولي المسلم في إيران غازان خان (حكم بين عامي 1295و 1394م) وضع قيود على شرب المرأة الخمرة في بلاطه. ومن بين تلك القيود حدد ميزانية الإنفاق على ملابس الأميرات ومؤنهن بما فيها مقدار الاستهلاك من مخزن الخمرة وخاصة استهلاك شراب يدعى «خاني» (أو شراب الخانات) الذي فرض عليه

معاملة خاصة حتى تتم السيطرة عليه أكثر فأكثر، لأنه شراب مهم وخطير ويجب إبعاد النساء عنه قدر المستطاع. وذكر رشيد الدين عدداً من المشروبات الكحولية التي قلل غازان خان أسعارها، مقابل الرفع من مستوى جودتها. وفرض القوانين التي تنص على معاقبة السكر في الأماكن العامة في جميع أنحاء الإمبراطورية، الأمر الذي لم ينل إعجاب رشيد الدين.

أباطرة سيئو السمعة

أوقطاي خان

تحولّت قصص الإفراط في شرب الخمر إلى أساطير. فأوقطاي خان (1241م) خليفة أبيه جنكيز خان، مات بسبب إفراطه في الشرب، الذي حاول أخوه «جغتاي» (مات عام 1242م) إبعاده عنه من دون أي جدوى. قال رشيد الدين: «كان أوقطاي خان مولعاً بالشراب أشدّ الولع. فقد تناوله بشكل مستمر وبمبالغة عظيمة، فبدأ يهزل ويتلاشى يوماً بعد الآخر، رغم أن معارفه ومحبيه حاولوا نصحه وإبعاده عن الشرب، ولكن ذلك كان مستحيلاً، بل أخذ يشرب أكثر فأكثر نكاية بهم، فعين «جغتاي» أميراً لمراقبته والعمل على التقليل من عدد الأكواب التي يتناولها كل يوم، وبما أن أوقطاي لم يرغب بمخالفة إرادة أخيه فقد أخذ يشرب العدد المقرر له من الكؤوس، لكنه صار يختارها أكبر حجماً»(13).

وحدث أن توفي أوقطاي بعد ليلة كاملة قضاها في الشرب. وفي الصباح وجدوه ميتاً في سريره. وبعد ذلك الموت المفاجئ لقائد عظيم مثله بدأت الشكوك تحوم والدسائس تُحاك. وأخيراً، وُجهت أصابع الاتهام إلى طباخه «باورشي» وأمه «باكا بكي» التي كانت زوجة سابقة لأوقطاي خان، كما اتهم ساقيه ومضيفه في تلك الليلة. ولكن الحقيقة ظهرت، واكتشف أقرباؤه أنه مات متسمماً بالكحول، فأبطلت جميع تلك الاتهامات. يخبرنا رشيد الدين عن تلك الفترة قائلاً:

«أية اتهامات باطلة هذه! فالخان كان مدمناً والجميع يعرف ذلك. لِمَ نسيء إلى سمعة

خاننا باتهام الآخرين باغتياله. لقد جاء أجله ببساطة، ولا يجب أن يتقول أحد بمثل تلك الحكايات مرة أخرى». وبما أن الجنرال - الذي قرر طبيعة موته - رجل ذكي، فقد اكتشف أن موته حدث نتيجة عدم اعتداله في الشرب، وهو العارف بخطورة الإكثار من الكحول»(14).

جويوك خان

حافظ جويوك خان، خليفة أوقطاي خان، على تقاليد العائلة وسار على نهج آبائه. يذكر الراهب كاربيني انغماسه اللامعقول في الشرب. وخلال وليمة تنصيبه على العرش، اجتمع الزعماء في خيمة كبيرة، واستمروا في التشاور حتى الظهيرة ثم بدأوا بشرب حليب الأفراس إلى أن حل العصر، مما أدهش كاربيني كثيراً. ويقول إنه دعي مع رفاقه إلى الداخل، وقدّم لهم شراب «الايل» لكونهم لم يستسيغوا القمز قط، ولتشريفهم أيضاً، «وشجّعونا على الإفراط في شربه لدرجة أننا تهالكنا قبل موعد العشاء فلم نستطع حضوره، واحتججنا، لكنهم لم يصغوا إلينا»(15).

ويصف رشيد الدين جويوك خان قائلاً: «إنه يقضي يومه منذ الصباح وحتى المساء في معاقرة الخمرة والتمتع بالمحظيات الحسان»(16).

مونكو خان

اعتاد مونكو خان، الشرب في جميع الأوقات: خلال تناول الطعام، والاحتفالات، وحتى خلال تأديته شؤون الحكم. وزعم الراهب وليام الروبريكي بأنه غالباً ما قابله وهو في حالة سكر كامل، وأنه بقي يواصل الشرب خلال اللقاء أيضاً، وقد شرب أربع مرات خلال آخر لقاء جمع بينهما.

أباقا خان وآخرون

توفي أباقا خان محموماً، يهذي نتيجة تسممه بالكحول، كما ذكر رشيد الدين: «وصل إلى همدان يوم الأربعاء في الثامن عشر من شهر مارس واستقر في قصر «مالك

فكر الدين منوجهر» حيث انغمس بشكل مستمر في الاحتفالات، وممارسة مختلف أنواع المتع. ومساء يوم الأربعاء في الأول من أبريل (عام 1282م)، وبعد منتصف ليلة قضاها في الإكثار من الشرب قضى نحبه. وجاءه الموت على شكل طائر أسود حطّ على أغصان شجرة كان بقربها، فصاح أباقا: «ما هذا الطائر الأسود؟»، ثم أمر حامل سهامه بأن يضربه بسهم ويقتله، لكن الرجل حين بحث عن الطائر لم يجد له أثراً. وفجأة أغمض أباقا خان عينيه، وغادرت روحه الغالية عرشه الذهبي»(17).

ورغم ذلك فقد اشتهر أباقا خان بكرمه وحكمته وعدالته، أكثر من شهرته مدمن خمرة. على عكس «جيخاتو خان» (حكم ما بين 1291–95م) الذي عرف بالسكر والفسق. فيقول عنه المستوفي في كتابه «ظفرنامة»: «لم ينقطع عن ملاحقة متعه وملذاته نهاراً أو ليلاً. ولم يردعه أي خوف عن التعلق بالخمرة. وكان جسوراً لا يخشى الصعاب، ولا فرق عنده بين صعود جبل أو المشي في سهل منبسط، كما لم يكن يخاف مقابلة الأغراب، بل كان يقربهم إليه على الفور كأعز الأصدقاء»(18).

كما عرف جيخاتو بتحرره وكرمه، مع أن هناك من يعزو ذلك الكرم والتحرر إلى إدمانه على الشراب، لكن بغض النظر عن ذلك فقد ساقته تلك الطباع إلى حتفه. ففي أحد المساءات، وبينما كان مع ابن عمه «بايدو» يشربان بحرية «جعلت رأسيهما يفوران برغوة الخمرة»(19)، حدث أن سبَّ «بايدو» والد جيخاتو، أباقا خان، فأمر جيخاتو بضربه ضرباً مبرحاً، والإلقاء به خارج القصر. ورغم أنه عاد صباحاً واعتذر وطلب المغفرة من جيخاتو إلا أن قلبه كان مفعماً بالحقد والرغبة في الثأر الذي أقسم عليه. وبعد ذلك بمدة وحين كان بايدو حاكماً على بغداد، ذهب إليه وفد لإقناعه بالمطالبة بالعرش، لأن جيخاتو على وشك أن يفقد عقله من كثرة معاقرة الخمرة، وقد قادته طباعه الفاسقة إلى إغواء ابن بايدو نفسه، فالتقيا بمعركة في الجبال نجمت عنها نهاية جيخاتو بعد لجوئه إلى إحدى المناطق الجبلية.

الإدمان

دفع المغول ثمن إفراطهم في الشراب غالياً. فبالإضافة إلى موتهم المبكر أصيبوا

بكثير من الأمراض التي كان الإدمان من مسبباتها الأساسية. فالنقرس (أو داء المفاصل) والبدانة كانا من نتائج الإفراط في الأكل والشرب، وأصابا الكثير من الرجال والنساء على حد سواء. وقد لاحظ ذلك كل من وليام الروبريكي وابن بطوطة الذي وصف ذلك قائلاً: «وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك (...) وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس، فلا يستطيع التصرف على قدميه، ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً، وعلى هذه الصورة رأيت أيضاً الأمير نغطي، وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك»(20).

وجنكيز خان نفسه كان يشرب الخمرة، لكنه لم يكن يكثر منها وكان واعياً لمخاطر الإدمان. وقد سمح لنفسه بالشرب ثلاث مرات كل شهر على الأكثر، لكي يحافظ على اتزانه وتركيزه اللذين يحتاج إليهما حكماً. لكن معظم الخانات الآخرين ظلوا يعتبرون تناول الخمرة وحتى الإفراط فيها، ممارسة يعتزون بها. وقد تسبب انتشار الأنواع الجديدة من الكحول (غير القمز التقليدي) بنسب كحولها المرتفعة، وازدياد فترات الشرب، والانخراط فيه خلال جميع الأوقات، في الإدمان الذي قاد إلى الموت المبكر، ففي إيران لم يعش هولاكو خان وابنه أباقا أكثر من 48 سنة. وهذا حدث في الصين بالنسبة لقبلاي خان وتيمور الذي عاش حتى عمر 42 سنة، و«قايشان» الذي مات في الحادية والثلاثين من عمره، و«أيورباروادا بايانتو» و«يستن تيمور» اللذين لم يعيشا أكثر من 35 سنة، و«طق تيمور» الذي مات في الـ 28، و«إيرنجيبالا» الذي عاش 7 سنوات فقط[7]، و«توغن تيمور» الذي مات في الـ 50 من عمره.

وقد أساء الإدمان الكحولي إلى قدرة نساء ورجال المغول على الإنجاب أيضاً. ولو لاحظنا كيف يتناقص عدد أولاد الخانات، رغم ارتفاع عدد الزوجات والمحظيات لتأكدنا من هذه الحقيقة. فقد عرف عن قبلاي خان إنجابه 48 صبياً وربما العدد نفسه من البنات، وكانت له أربع زوجات وعدد غير معلوم من المحظيات. وكان لهولاكو

(7) هكذا في الأصل، وإن كان ذلك مستغرباً، إلا إن كان القصد أن الطفل ولد عليلاً بسبب شرب والديه للخمر فتوفي مبكراً.

خان 21 طفلاً من الجنسين من زوجاته الخمس ومحظياته العديدات. وكانت لآباقا خان 15 امرأة و9 أولاد، ولآرغون 9 زوجات أعطينه 7 أولاد، ولغازان خان 7 زوجات منحنه ولدين فقط: مات أحدهما وهو جنين، وعاش من أبناء الخان أولجايتو 3 أولاد فقط من زوجاته الـ 12. وتعتبر فترة حكم أبي سعيد قمة ما وصل إليه المغول في الإدمان على الشراب في إيران. وهكذا نرى أن أسلوب حياتهم غير الصحي قاد تدريجياً إلى فناء سلالة جنكيز خان.

حكمة

يعرض المؤرخ رشيد الدين، رأي جنكيز خان على شكل حكمة ضد الإفراط في شرب الخمرة أو الادمان عليها، والتي تعكس كم كان ولع شعبه بالخمرة كبيراً، وامتعاضه منها أكبر. يقول جنكيز خان على لسان رشيد الدين: «عندما يسكر الإنسان فإنه يصبح كالأعمى الذي لا يبصر طريقه، والأصم الذي لا يسمع مهما نُودي عليه، والأخرس الذي لا يجيب حين يكلمه الآخرون. إنه مثل الميت: لا يمكنه الجلوس حتى وإن بذل جهداً ليجلس.. يغدو مخموراً متبلد الإحساس كمن ضُرب على رأسه»(21).

كيف يشرب المغول اليوم(22)

لا يزال المغول يشربون القمز حتى يومنا هذا. وإعلانهم المحلي يظهر شهرة هذا المشروب في ثقافتهم وكأنه مشروب «الكوكا كولا» في ثقافة الولايات المتحدة. والمعروف عنه أنه يساعد على هضم طعامهم الغني بالدهون، خلال أشهر الشتاء الطويلة وقارسة البرد. وهو يستخدم بشكل واسع لعلاج العديد من العلل والأمراض. ولا تقوم بصناعته منزلياً جميع العائلات، لأنه يستهلك الكثير من الجهد والوقت فالأفراس يجب أن تحلب كل ساعتين خلال أشهر الصيف القائظة، وكل ثلاث ساعات خلال أشهر الخريف. وكل فرس تنتج نحو ليتر ونصف اللتر من الحليب إذا حلبت ست مرات في اليوم. والحليب المتبقي يُترك لرضاعة الأمهار. وهكذا فهم

يحتاجون إلى حلب 12 فرساً على الأقل لصناعة ما يكفي من القمز، لاستهلاك العائلة والضيوف. وبالإضافة إلى هذا فمن الضروري تحريك الحليب ما لا يقل عن 1000 مرة في اليوم، للحصول على نوعية جيدة من القمز الذي يستلزم أيضاً رعي الأفراس في مكان ظليل ومعشب ورطب، بالقرب من ضفاف الأنهار والبحيرات. ويقال: إن أفضل أنواعه ينتج في إقليم «جوبي Gobi» الذي يدعى أيضاً «أرض الإيراج» وكذلك يطلق عليه اسم «الأغنيات الطويلة» ومن المحتمل أن عشب تلك المناطق الصحراوية هو السر في منح القمز أو الإيراج طعماً مميزاً.

ويرى بعض الباحثين أن أدمان العديد من الشعوب الروسية على الكحول عائد إلى أصولهم المغولية. فيعتقد أن زهاء 50٪ من سكان موسكو يمتلكون الجينات المغولية. ويزعم الدكتور فلاديمير نوزني أنهم يتصرفون الآن حيال السكر بشكل مختلف عن أجدادهم القدّماء. فغالباً ما يسكرون بسرعة وتأخذ أفعالهم منحىً عنيفاً. كما أن من المعروف علمياً اليوم أن الشعوب المتصلة وراثيا بالمغول كالصينيين والكوريين واليابانيين لديها أنزيمات أقل احتمالاً للكحول عن بقية الشعوب وخاصة الأوروبية مثلاً ويرجعون ذلك إلى تاريخ تعاطي المغول الكحول إذ إن نسبته في مشروبهم الأصلي قليلة جداً، فلم يطوروا جينياً أي مقدرة على احتماله، مثلما حدث مع الغربيين. وعلى سبيل المثال لو أخذنا جين الـِADH2–2 الشائع جداً في آسيا والمفقود تماماً في أناس أوروبا لوجدناه بنسبة 41٪ عند سكان موسكو. وحتى الآن ليس من المعلوم تماماً كيف يتصرف هذا الجين حيال امتصاص الكحول، لكن البحوث أثبتت أن حامليه هم الأكثر عرضة للإدمان على الكحول.

الحواشي.

1. «كيراكوس غانجاكسي، تاريخ الأرمن» كيراكوس غانجاكسي، ترجمة: روبرت بدروجيان، مصادر التراث الأرمني، متوفرة على الموقع htt//www.rbedrosian.com/kg1.htm، 234.
2. جيوفاني ديبلانو كاربيني، «قصة المغول الذين نسميهم التتار» في «تاريخ المغول»،

ترجمة: إريك هلدينجر (بوسطن: براندن، 1996) ص. 51.

3. المصدر السابق، ص. 17.

4. جيوفاني ديبلانو كاربيني، «قصة المغول الذين نسميهم التتار»، ص. 17.

5. وليام وودفيل روكهل، «رحلة وليام الروبريكي إلى الجزء الشرقي من العالم» 1253–55 ، كما رواها هو نفسه، مع وصف رحلتين سابقتين عليها لجان دي كاربيني»، ترجمها عن اللاتينية وحررها وقدم لها وليام وودفيل روكهل (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900).

6. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال و كورديل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» متوفر على الموقع: http// www.gutenberg.net.

7. وليام الروبريكي. «بعثة وليام الروبريكي » ترجمة وتنقيح: بيتر جاكسون وديفيد مورغان (لندن: مجتمع هاكلوت، 1990) ص. 35، المقطع الرابع. سمح بإعادة اقتباس هذا المقطع بموافقة جمعية هاكلوت.

8. هـ.أ.ر. جيب، جي. هـ. كارمر، جي. سكاتشت، الطبعة المنقحة من «الموسوعة الإسلامية».، تحرير: ف. ليفي – بروفانكل. (ليدن، هولندا: لوزاك وبريل، 1960) ص. 477.

9. وليام الروبريكي. «بعثة وليام الروبريكي»، ص. 210.

10. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال و كورديل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزء الثاني. متوفر على الموقع: http// www.gutenberg.net.

11. هـ.أ.ر. جيب، جي. هـ. كارمر، جي. سكاتشت. الطبعة المنقحة من «الموسوعة الإسلامية».، تحرير: ف. ليفي بروفانكل (ليدن، هولندا: لوزاك وبريل، 1960) ص. 495–96.

12. وليام الروبريكي، «بعثة وليام الروبريكي»، ص. 191.

13. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان»، ترجمة: جون آندرو بويل (نيويورك:

منشورات جامعة كولومبيا، 1971) ص. 65. أخذ الاقتباس بموافقة منشورات جامعة كولومبيا.

14. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 673–74.

15. جيوفاني ديبلانو كاربيني، «قصة المغول الذين نسميهم التتار»، في «تاريخ المغول»، ترجمة: إريك هلدينجر (بوسطن: براندن، 1996) ص. 108.

16. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان»، ترجمة: جون آندرو بويل (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 1971) ص. 188.

17. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 1118.

18. المستوفي، «ظفرنامة»، ترجمة ل.ج. ورد، ص. 348.

19. المصدر السابق، ص. 351–52.

20. هـ.أ.ر. جيب، جي. هـ. كارمر، جي. سكاتشت. الطبعة المنقحة من «الموسوعة الإسلامية»، تحرير: ف. ليفي – بروفانكل (ليدن، هولندا: لوزاك وبريل، 1960) ص. 489.

21. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 297.

22. صحيفة «ذي تايم» (إنجلترا) عدد 19 يناير، 2004.

الفصل الثامن

الطعام

يشكّل الطعام عند المغول، ركناً مهماً من حياتهم اليومية، إلا أنه لم تحط به الهالة نفسها من الأساطير والحكايات التي حيكت حول الشراب. وقد ميّز المغول - كما فعلوا بالنسبة للشراب - بين أطعمتهم البسيطة التقليدية، وتلك الأصناف من المأكولات الغريبة والبديعة، والتي بدأت تظهر تدريجياً على مائدة الخانات العظام بعد أن أخذت الإمبراطورية بالتوسع.

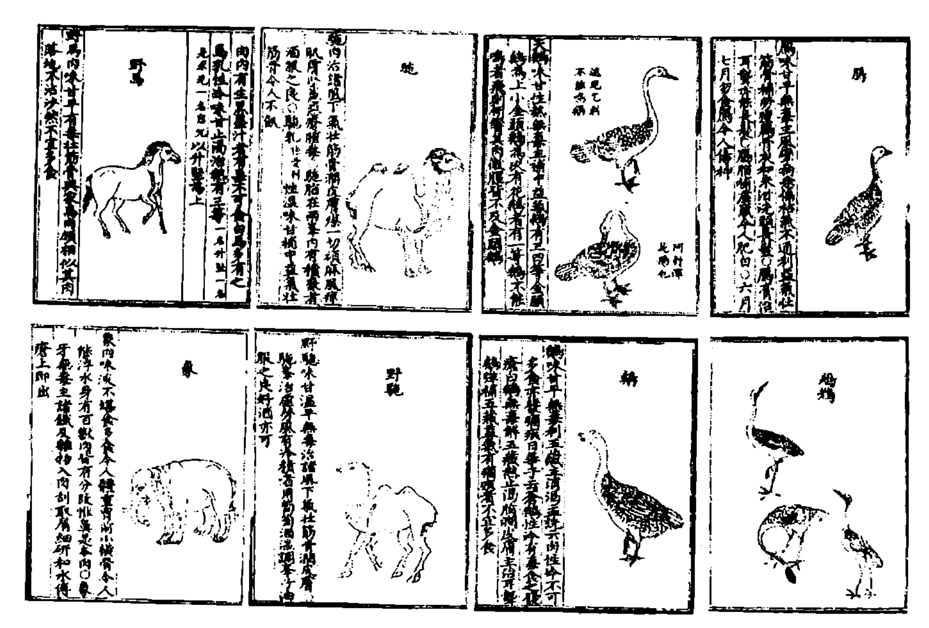
وتُظهر الدراسات القروسطية أن المطبخ المغولي، والأطعمة المستهلكة ضمّن حدود الإمبراطورية كانا من التنوع والغنى إلى درجة أنهما يحتاجان إلى تأليف كتاب كامل للإحاطة بهما جميعاً، ولذلك نكتفي هنا بإلقاء بعض الأضواء على زوايا ذلك المطبخ الفاخر والمتنوع، وتلك الأطعمة الباذخة التي ازدانت بها موائد الخانات.

عُرف عن أحفاد جنكيز خان، وخاصة التولوديين انفتاحهم على العديد من الثقافات الأخرى. وكحكام لنصف العالم ظلت ثقافتهم التقليدية، الغنية بالمثل، مصدر اعتزاز وفخر لهم، ومكّنتهم من الاستمتاع بأفضل ما جادت به تلك الثقافات. وبهذه النفس الواثقة والمنفتحة على التذوق والاستمتاع بما يقدّمه الآخر، نظروا إلى أنواع الأطعمة الجديدة غير متخلّين عن أطعمتهم الأصلية.

كتاب «هوشو هوي» في فن الطبخ

أهدى «هوشو هوي» عام (1330م) إمبراطور أسرة اليان المغولية في الصين «طق تيمور» (حكم ما بين 1328–32م)، كتاباً رائعاً، وغنياً بالعديد من المواضيع في فن الطبخ. والمدهش أنه مازال كتاباً حياً يُقرأ إلى يومنا هذا. وبالإضافة إلى احتواء ذلك الكتاب على صفات جديدة، ومميزة لمطبخ البلاط المغولي الصيني آنذاك، فإنه قدّم للمغول عادات غذائية وصحية لم يسبق لهم الاطلاع عليها من قبل. وكان الكتاب بعنوان «ين شان تشن ياو» والتي تعني (المبادئ الأساسية للطعام والشراب). وكان كاتبه «هوشو هوي» كبير أطباء بلاط قبلاي خان، وقد أفاد بكتابه من جاء بعده من الأطباء وطبقوا مبادئه في كثير من الأوقات وعلى كثير من الحالات. ويعتقد أن هوشو هوي (رغم اسمه الصيني) ينحدر من سلالة الأوغور الأتراك (من بلاد زي زيا سابقاً)، لكنه اضطلع بالطب الصيني وكتب كتابه هذا بلغة صينية عالية المستوى، مما يدل على ثقافته الرفيعة.

لم تكن نسبة الصينيين في شمال الصين تتعدى 80٪ في القرن الرابع عشر. وبقي المغول في السلطة زمناً طويلاً هناك، نتيجة ما وطدوه من علاقات طيبة مع طبقة



من هوشو هوي، يان شان تشين ياو (كتاب الطبخ المغولي)، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

الأعيان لديهم. ويعتقد أن صينيي الشمال ينحدرون من أصول عرقية هجينة، أكثر من صينيي الجنوب (إمبراطورية سونغ). واسم «هوشو هوي» الصيني ربما يشير إلى رغبته في التقرب من الأصل الصيني، لكونه ينحدر من تلك المناطق الشمالية بأصولها العرقية غير (النقية). وكتابه «ين شان تشن ياو» المكتوب على شكل مذكرات صينية طبيّة يعكس أساليب مختلفة في فن الطهو، مستمدة من الصينيين والمغول والفرس والأتراك المسلمين وغير المسلمين، وقد اجتمعت كلها لتشكل تركيبة الذوق المغولي، مما أهله لأن يكون كتاباً مغولياً بجدارة. كتبه «هوشو هوي» لأسياده المغول وليس الصينيين، وهو يعكس أذواق أولئك الحكام المغول، أكثر مما يعكس أذواق أتباعهم من الصينيين. ومع ذلك فعلينا دائماً أن نضع نصب أعيننا التغييرات التي طرأت على مغول أسرة اليان بعد خروجهم من السهوب باتجاه الصين، قبل قرن من الزمن، فمغول قصور اليان ليسوا تماماً مثلما كانوا عليه زمن الخيام، وبهذا يعتبر كتاب «هوشو هوي» دليلاً واضحاً على عملية التحول والتكامل الثقافي عبر الزمن.

والحلم المغولي في احتلال العالم، والذي أخفق بسبب التناحر بين قبائلهم الذهبية المختلفة، تحقق على موائدهم التي ازدانت بمختلف صنوف الأطعمة من كل مكان في العالم.

وامتد ولع قبلاي خان بالاهتمام بكل ما يدور في فلك الطعام والشراب إلى خارج حدود بلاطه، ليشمل الناس العاديين أيضاً، وفي كل أنحاء الإمبراطورية المغولية. وقد وصلت أخبار تخمته إلى بريطانيا التي صارت تهمس قائلة: «اخفض بصرك وجلاً من رعبه المقدس (المقصود قبلاي خان أو الهجوم المغولي)، هو الذي أكل المنّ[8] وشرب حليب الجنة»(1). والحقيقة أن المغول كانوا مثل الصينيين مأخوذين بالأهمية الغذائية والعلاجية للأطعمة، وانعكس هذا الاهتمام المبالغ فيه في نوعية أطعمتهم وطريقة تحضيرها. ويبحث الجزء الأكبر من كتاب «هوشو هوي» في هذا المجال تحديداً. وتغلب عليه سمتان أساسيتان: أولهما تركيزه على فوائد وطرق طهو لحم الخروف، وثانيهما تجاهله لحم الخنزير الذي يفضّله الصينيون على عكس المغول.

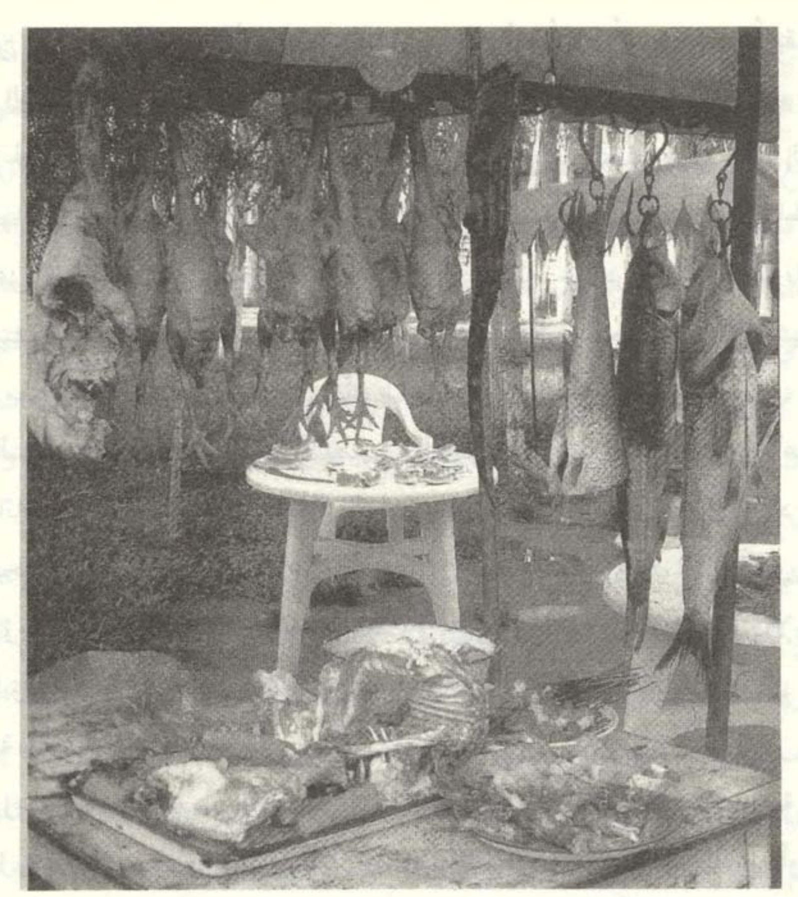
(8) Honeydew المنّ: نوع من البطيخ قشره أخضر وداخله أخضر مصفر وطعمه بحلاوة العسل.

كما جرى ذكر بعض اللحوم الغريبة، وأنواع لحوم بعض الحيوانات البريّة التي اختفى اهتمام المغول بها بعد استقرارهم، علماً أنهم اتجهوا لاختيارات حديثة أكثر، قادمة من مناطق أخرى في العالم، حرصوا على أن يضمّنوا أصنافها لمطبخهم الذي عكس بتنوعه وغناه روحهم المنفتحة على الثقافات كلها، وصار مرآتهم التي يظهرون فيها ترحيبهم بالضيف الغريب، حين يتناول على موائدهم طعاماً يتناوله في بلده نفسه.

المطبخ المغولي التقليدي

تغيرت طبيعة المطبخ المغولي، وعادات أكل المغول بشكل ملفت للنظر مع بدايات تشكل الإمبراطورية أي بعد عام (1240م) كما جاء في كتاب «تاريخ التتار» لسيمون دي سينت كوينتن الذي جاء فيه:

«.. وعلاوة على ذلك فهم أكثر الناس قذارة ولامبالاة بالنظافة في عاداتهم الغذائية. فهم لا يستخدمون الفرش لطاولاتهم، ولا المناديل للطعام، ولا خبز لديهم (لاستخدامه كطبق يضعون الطعام فيه)، ولا يكترثون لذلك الأمر، بل يزدرونه أيضاً. وليس لديهم ما يأكلونه سوى اللحم، فهم لا يتناولون الخضار أو البقول قط، بل يأكلون القليل من اللحم فقط لإبقائهم على قيد الحياة. يأكلون جميع أنواع اللحم، باستثناء لحوم الخيل التي تعتبر نادرة وثمينة. يمصون أصابعهم المغمسة بالدهن ويجففونها بمسحها على نعالهم. أما علية القوم فيميلون إلى مسحها بمنديل خاص يحملونه معهم دائماً. وهم لا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام، ولا يشطفون أطباقهم أو قدورهم أو عدد طعامهم بعده، وإن حدث وغسلوها في مرق اللحم فإنهم يقومون بتخزينها بعد ذلك مع بقية اللحم غير المطبوخ. لا يتورعون عن أكل الفئران والكلاب ويلتهمون لحم القطط بمتعة عظيمة. كما يسكرون كل يوم على حليب الأفراس الذي يسمى القمز، ويسكر الآخرون على النبيذ المعتق. وعندما يحتفلون بأعياد الميلاد يقضون جلّ وقتهم في الغناء أو الصراخ وتبادل الأنخاب. وطوال فترة الشرب والصخب يهملون أشغالهم تماماً، ويرفضون مقابلة السفراء. وهذا ما جربه راهب مبعوث من قبل البابا وهو الذي زارهم وعاش في خيامهم ستة أيام. ويأكلون لحم الإنسان كالأسود مشوياً على النار ومغمساً بالدهن. وكلّما اعتقلوا أحداً أو أسروه، يجتمعون في مكان واحد ليشربوا من دمه مثل مصاصي الدماء»(2).



كشك لبيع اللحوم الطازجة: لحوم المواشي والطيور والأسماك، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

ويعد مأكل المغول، ومشربهم قبل فترة تشكيل الإمبراطورية، بسيطين وفقيرين، من الناحية الغذائية. تمتلك العائلة العادية قطيعاً واحداً من الخراف والماعز وبعض الحيوانات الأخرى والجمال. ويُحتفظ بالخيول للواجبات العسكرية والنيرج ولإنتاج القمز. وحسب ما جاء على لسان جون ميسن سميث فالعائلة تحتاج إلى ما لا يقل عن 100 حيوان لتغطية حاجتها الغذائية، وما لا يقل عن ثمانية جياد، خمسة منها للواجبات العسكرية، وثلاثة للتنقل، وبعض الثيران والجمال وفرس أو اثنتين لأجل الحليب. وهذه الحيوانات أساسية ويكاد الاعتماد يقوم عليها فقط، إذ يندر وجود الخضار أو البقول أو أية موارد غذائية أخرى بسبب ابتعاد تلك العوائل الرعوية عن

أماكن استقرار الحضر. ولأن الطعام المستورد كان أيضاً نادراً ويعتبر رفاهاً مقصوراً على الأغنياء وحدهم.

ولحوم الخيل مفضلة عندهم، لكنها تكلف غالياً، وليس بمقدور الشخص العادي تناولها والتضحية بما لديه منها لأجل لحمها فقط، فيلجأون بكثرة إلى لحوم الخراف والماعز. وبالإضافة إلى اللحوم يعتبر الحليب ومشتقاته، مصدراً غذائياً مهماً بالنسبة لغالبيتهم. ومن المدهش أن يتمتع فقراؤهم بنظام غذائي صحي أكثر من أغنيائهم. فبعد مقتل والد تيموجين (جنكيز خان سابقاً) وسرقة ممتلكاته وجميع قطعانه، لم يعد من السهل عليهم تأمين اللحم كمصدر لطعامهم، فأرغموا على التهام الأعشاب والنباتات البرية لسد رمقهم. ويذكر كتاب «تاريخ المغول السريّ» أن الأولاد كبروا ليصبحوا شباناً رائعين أقوياء، على الرغم من الطعام الفقير والمتواضع الذي تربوا عليه زمن الشدة. فالأم «هاوإيلون» سعت في البراري تلتقط الثمار البرية كالإجاص والعليق والجذور بمختلف أنواعها والبصل والثوم لتحولها جميعاً إلى أطباق لذيذة مغذية للصغار الأيتام.

ورسم الراهب كاربيني، صورة مقززة فاقت كل وصف للقذارة والنجاسة والتي كانوا يحضرون بها طعامهم، وذلك كان الانطباع نفسه الذي تركته تقارير أوروبية معاصرة أخرى وهو للأسف الشديد غير عادل أو صحيح تماماً. فكما بالغ الكثيرون حول عنف المغول، ووحشيتهم في الحروب، كذلك فعلوا بالنسبة لمطبخهم وأساليب حياتهم اليومية الأخرى. فيصف كاربيني كيف شاهدهم يكتشفون جيفة حيوان ميت فيقول: «وجدوا أحشاء حيوان ميت، فأخذوها وطبخوها ولم يتركوا منها إلا الروث»(3). وزعم كاربيني أيضاً أنهم يأكلون جثث الإنسان والذئاب والكلاب والثعالب والفئران وحتى الصئبان (قمل الرأس). والمؤرخ الأرمني «كيراكوس» الذي تواصل مع المغول لعدة سنوات، وشاهد كيف تحولت عاداتهم وتغيرت طقوسهم عبر القرون، أوضح في انطباعه الأول عنهم أنهم برابرة قادمون من السهوب، ولكن موقفه منهم لان، وأخذت كلماته منحى أقل حدة في نهاية مدونته التاريخية التي جاء فيها:

«كلّما سنحت لهم الفرصة أكلوا وشربوا، وإذا لم تسنح اكتفوا، وصبروا على

الجوع. يأكلون جميع أنواع الحيوانات سواء أكانت نظيفة أم قذرة، وخاصة لحم الخيل الثمين الذي يقطعونه إلى قطع ثم يطهونها أو يشوونها من دون ملح، ثم يقطعونها إلى قطع أصغر، ويمرغونها بالملح والماء ويأكلونها بتلك الطريقة. بعضهم يأكل راكعاً على ركبتيه مثل الجمال، وبعضهم الآخر يأكل جلوساً مثل الناس جميعاً. وعند الأكل يتساوى الجميع فلا فرق بين سيد وخادم. ولشرب القمز أو الخمر يمسك أحدهم الإناء في يده، ويغرف منه بكوب صغير، ويرشه في الهواء (باتجاه السماء) ثم إلى الشرق ومن بعدها إلى الغرب والشمال والجنوب وحين ينتهي يشرب بعضاً منه ثم يعطيه للشخص النبيل بجانبه. وإذا قدم لهم أحد طعاماً، دفعوه إلى الأكل منه أولاً، ثم يأكلون هم، خوفاً من خديعة السم»(4).

ولغنى أراضي السهوب بالمراعي والماء، كان من السهل تربية الماشية ورعايتها لتصبح المصدر الأول لغذاء المغول. فصارت الأفراس منتجة «القمز» مشروبهم الذي كان يريحهم جسداً وروحاً، ويخفف عنهم وطأة تناولهم اللحم غذاء وحيداً. لكن أنظارهم اتجهت نحو الأرز والقمح فصاروا يسلبونهما في غاراتهم حين رأوا إقبال الأسرى الصينيين عليهما بشراهة كلّما سنحت لهم الفرصة، بعد أن ملوا غذاء المغول اللاحم فقط. وهنا ملاحظات صينية مسجلة عام (1230م) تؤكد على ذلك: «طعامهم من اللحم وليس من الحبوب. يصطادون الأرانب والغزلان والخنازير البرّية والمرموط (حيوان من القوارض)، والوعل البري والثور الوحشي والخيول والأسماك من الأنهار والينابيع. ويربون الخراف والثيران لأجل لحومها. ولا يذبحون الجياد إلا في المناسبات المهمة، أو الاجتماعات العامة. وغالباً ما يتناولون اللحوم مشوية، ونادراً ما يطبخونها في قدور. وواحدهم يقطع من اللحم ويأكل مباشرة ثم يعطي المتبقي للآخرين ليأكلوا. وخلال الشهر الذي قضيته أنا المدعو «تين» في تلك السهوب لم أرهم يذبحون ثوراً واحداً ليأكلوه»(5).

وأما كاربيني فقد لاحظ أنهم يتناولون عدداً من الأكواب من مرق مصنوع من الذرة البيضاء في الصباح تكفيهم حتى حلول موعد العشاء مساءً، عندما يتناولون اللحم مع مرقه، وهذا يعتبر غذاء يومهم كاملاً. ومع الزمن صاروا يطبخون حساء الذرة هذا أكثر

سماكة حتى تحول بالتدريج إلى خبز، وكانت تلك ثورة في المطبخ المغولي التقليدي. وكما تطور طعامهم، تطور شرابهم أيضاً، وخاصة في الفترة المرافقة لحكم أوقطاي خان الذي قدّم لرعيته المشروبات الكحولية كالجعة والنبيذ والخمور الأخرى.

التطور في المأكل

تطور طعام المغول، تدريجياً عبر الزمن. فمن حساء الذرة البيضاء لاكتشاف الخبز واستهلاكه وصولاً إلى سرطان البحر المحشو بعد نقعه بالعسل، الوصفة التي قدّمها «ني تسان» مؤلف كتاب الطهو الثاني للملوك. فكانوا يطهون السرطان بالماء المملح حتى يتحول لونه إلى الأحمر، فيخرج من الماء، ويقشّر، ويؤخذ لحمه ويقطع ثم يحشى ثانية في قشرته. تمزج بعدها بيضة بقليل من العسل، ثم يضاف المزيج إلى لحم السرطان المقطع داخل القشرة، ويوضع القليل من الدهن على المزيج، ويبخر على نار هادئة وبمجرد أن تبدأ البيضة بالتجمد قليلاً يرفع عن النار، وينصح «ني تسان» بغمس المزيج بصلصة قشور البرتقال المفرومة والممزوجة بالخل. وتنصح وصفة أخرى بتقطيع لحم السرطان إلى مكعبات كبيرة نوعاً ما، قبل طهوه في مزيج من الماء والنبيذ، في حين يقشر الزنجبيل الطازج ويفرم ثم يمزج مع مسحوق الفلفل، قبل أن يفرم مرة أخرى لقطع أنعم، ثم يحرك بهدوء مع النبيذ حتى يتحول إلى حساء متماسك. يسكب بعض صلصة الصويا في وعاء قبل وضع لحم السرطان ثم يغلى على النار لفترة لا بأس بها، ثم يضاف مزيج الزنجبيل والفلفل، وتغلى للمرة الأخيرة كلها معاً ومن ثم تقدّم.

وشارك ماركو بولو (في آواخر القرن الثالث عشر) سادة المغول في تمتعهم بتلك الولائم العامرة بأصناف غريبة وفاخرة من المأكولات الحديثة. وكتب عن ذلك، مما أدهش كاربيني بعد عدة قرون تلت، وهو الذي زار أقاليم الشمال التي لم تكن قد شهدت بعد، التطور الذي شهدته أقاليم الجنوب التي زارها ماركو بولو وتحدث عنها. وحتى يومنا هذا لا تزال مدينة هانغزو (العاصمة السياسية والاقتصادية لمقاطعة جيجيانغ، ومن المدن السياحية الصينية) تشتهر بشواطئها المزدانة بكل أنواع المطاعم التي توافرت في قوارب عائمة في مياه نهر «تشيانتانغ» نظراً لكثرتها.

تأثيرات جنوب آسيا

عُثر في أحد كتب الطهو العربية التي انتشرت في القرون الوسطى على وصفة سميت بـ «سفر جالية» وهي تشبه بعض وصفات كتاب «هوشو هوي». تقول الوصفة: يقطع ذيل الخروف ويحمص بهدوء في شحمه (لية الخروف)، ثم يضاف إليه مقدار ضئيل من الملح، وضعفه من الكزبرة المفرومة، وأعواد القرفة المطحونة، ومقدار رشة صغيرة من المستكة، لإضفاء طعم مميز على الخلطة، ثم يضاف القليل من الماء ويُطهى. بينما تقشر سفرجلة ناضجة، وتزال منها نواتها ثم تقطع وتوضع فوق اللحم المطبوخ. وتعصر سفرجلة أخرى ويضاف عصيرها بعد تصفيته إلى اللحم، ويُغلى بعد مزجه بمقدار خمسة دراهم من خل العنب، وعشرة دراهم من اللوز الحلو المقشر، والمنقوع بالماء. بعد الانتهاء من إضافة كل ذلك توضع القدر على نار هادئة.

لم تكن كتب الطهو بالشيء الجديد على العالم الإسلامي، بل كانت معروفة منذ عدة قرون خلت، قبل أن يظهر كتابا «هوشو هوي» و«ني سان» في الصين المغولية آنذاك. ورغم كونهما كتابين يركزان على العلاج، والفوائد الغذائية للأطعمة، إلا أنهما حويا الكثير من وصفات الطهو العملية والجديدة التي ازداد طلب ملوك المغول عليها، مما شجّعهما على الاهتمام بها وتضمينها في كتابيهما.

خصص كتاب «هوشو هوي» فصلا كاملاً للوصفات الجديدة. وأظهر هذا الفصل بشكل خاص تأثير العالم الإسلامي على فن الطهو المغولي. بدأ الفصل بوصفة لحساء أو (شوربة) المستكة التي كانت تمثل بعض الإضافات أو تحديثاً لطبق مغولي أساسي في الأصل هو «شوربة لحم الماعز». ومثل هذه التحديثات (أي إضافة التوابل والأعشاب) كانت السمة الواضحة لما أضافه المسلمون على المأكولات التقليدية الشرقية. فاستخدام نبات الحلبة(6) في المطبخ المغولي، جاء نتيجة تأثره بمطبخ منطقة بحر المتوسط (المطبخ الفلسطيني والأناضولي) حيث شاع استخدامه منذ أزمان بعيدة، وكذلك تأثره بالتوابل والأعشاب الإيرانية. فوجود هذه المكونات بكثرة في أنواع المأكولات المغولية حالياً، يعود إلى ذلك الزمن من تأثيرات المطبخ الغربي على فن الطهو المغولي.

الأطباق والمكونات المتنوعة

تقصّد المغول تقديم أطباق متنوعة، ومتعددة المشارب على موائد خاناتهم، وأصروا على الظهور بشكل لائق ومتجدد أمام الآخرين. وكان التعامل مع فن الطبخ جزءاً من هذا التقليد. فأضافوا لحم السلاحف إلى طبق لحم الماعز الذي يحضّر بالطريقة التالية: يقطع لحم الماعز مع عظمه، ويغلى مع خمس حبات من الهيل، ثم تطهى خمس أو ست سلاحف ثم تقشر، وتسحب عظامها وتقطع، وتضاف إلى حساء لحم الماعز ثم يحمس القليل من الشعيرية (معكرونة رفيعة) ويضاف إلى المزيج مع الزنجبيل والفلفل الأسود، ثم يضاف البصل والملح والخل لإضفاء الطعم المطلوب.

العديد من أنواع الحلويات والمعجنات التي ذكرها «هوشو هوي» في كتابه يباع اليوم في محلات أوروبا الشرقية. فمعجنات «هوشو هوي» المضافة إليها بذور نبات الخشخاش، لا يمكن تفريقها عن المعجنات المخلوطة بهذه البذور والتي تباع مضافاً إليها الحليب في كل من إيران وتركيا ودول حوض المتوسط.

ورغم التحديث، ظلت الأطباق التقليدية متوفرة. فطبق حساء الذئب ظل يقدّم على موائد الخانات (مع قليل من الإضافات كالزعفران الإيراني والكركم). كما ظل يقدّم رأس الخروف مع صلصة الورد. وحافظت لحوم الحيوانات البرية على مكانتها المفضلة لديهم. فهم لا يأنفون من تناول أي نوع من أنواعها وأي جزء منها سواء من الخارج أو الداخل. لكنهم لم يستحسنوا أكل لحم الفيل واعتبروه عسيراً على الهضم، كذلك فضلوا لحم الجمال البرية على تلك التي يربونها في قطعانهم من أجل حليبها، واستخدموا لحم كف الدببة كعلاج للغازات المعوية والزكام، كما نصحوا بأكل لحم الحمير لعلاج الهستيريا والاكتئاب، ولحم القرود للسيطرة على الدوخة والغازات المعوية. أما لحم الغزال فكان مفضلاً لديهم واستخدموه لعلاج العديد من الأمراض والعلل. وكانوا يستفيدون من كل أجزائه في مطبخهم (دماغه ورأسه وحوافره وقرونه ودهنه ولحمه وفروه). والغزال يشكل عنصراً مهماً في المطبخ الصيني الحديث أيضاً، ويجري التركيز عند طهيه على خواصه العلاجية، معتبرين أن تناول أعضائه الداخلية يساعد على تقوية النشاط الجنسي عند الإنسان. كذلك اهتموا بفوائد لحم الوعل

البري الذي شاع في السهوب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وكانوا يطهون لحمه ورأسه وقلبه وكبده وعظامه ودماغه وحليبه وحتى دمه.

وقد وقعت في قبضة طهاتهم حيوانات مثل القرود، وابن عرس، والغرير (حيوان قصير القوائم يحفر مسكنه في الأرض) والقط البري، والنمور، والفهود، وثعالب الماء، والكلاب، والدببة، والخنازير البرية، والثعالب وحتى فرس النهر. فضمّنوها لبعض الأطباق العادية أو الخاصة من تلك التي أضافوا إليها الكحول والبلسم (شجر عطري). كما استُخدمت بعض أجزائها علاجاً لبعض الأمراض مثل وضع قطعة من الجلد (الممتد تحديداً فوق حنجرة الذئب) على جبين مصاب بالصداع. وإذا حُمل سن الذئب في عِقد حول رقبة الإنسان أو خصر الفرس فإنه يحمي من الشرور والخوف.

كما شكّلت الطيور بمختلف أنواعها مصدراً غذائيّاً مهماً لهم. فكانوا يأكلون الإوز والبط والدجاج والديوك البرية والكركي (طائر كبير بقوائم طويلة ورأس أحمر جميل، من فصيلة اللقلق)، والحمام والحجل والعصافير، حتى إنهم نصحوا بلحم الغراب، لعلاج السعال والحُمى.

وإلى جانب الحيوانات البرية والطيور، كانوا يتناولون لحوم الأسماك، والحيوانات التي يصطادونها من مياه البحيرات العذبة في أعالي الجبال. فسرطان البحر كان ولا يزال الطعام البحري المفضّل لدى الصينيين ثم أخذه المغول عنهم، وغربوه جاعلين منه طبقاً أساسياً على موائدهم في ما بعد (ثم انتشر في العالم كله نتيجة احتكاك الشعوب الأخرى بالصينيين). وقد حفلت موائد أسرة اليان بأنواع الحيوانات البحرية المختلفة ابتداء بالأسماك بمختلف أنواعها كالأبراميس وثعبان الماء أو الإنكليس وسمك أبو منشار والقرموط والحفش.. الخ، ثم سرطانات البحر والقريدس، وانتهاء بالسلاحف وبلح البحر (أو الحيوان الصغير الذي يعيش في المحارة). وأذكر هنا بلاط أسرة اليان خاصة، لأن قبلاي خان وخلفاءه شكّلوا نموذجاً ذاع صيته عالمياً في الترف والتلذذ بالمأكولات والمشروبات إلى أقصى حد. ورغم أن سجل خانات المغول حافل بالموائد العامرة في أماكن أخرى إلا أن خانات الصين سجّلوا أرقاماً قياسية في الاهتمام بالمطبخ وفن الطهو. فلم تعد فخذ خروف مسلوقة بحليب القمز بالطعام الكافي الذي يقدم

على موائد الخانات في السهوب المغولية الشمالية. فالوجبة الواحدة يجب أن تحوي عدة أصناف، تأتي على مراحل متتابعة(7)، ابتداء بالمقبلات التي قد تكون عبارة عن «مومو شابال» مغمسة بصلصة «ساين ماردور» وهو عبارة عن طبق تقليدي من لحم الثور التيبتي الضخم، ومعكرونة الفطر المغمسة باللبن الممزوج بالتوابل الحارة، أو سلطة فلفل الهيمالايا يتبعها الجبن. ومن الممكن أن يكون الطبق الأساسي، كرات من اللحم التيبتي المغمّس بصلصة الكاري مع أرز متبّل بالمكسرات والزعفران والعسل والزبيب. يُقدّم مع خبز هيمالايا المتبّل بالكركم وجعة الشعير مع العسل. وكحلوى تقدّم الكستناء المحلاة والمزيّنة بالكريما والفواكه المجفّفة. أما في البلاط الإلخاني (بلاد فارس) فمن الممكن أن يقدّم الحمص كمقبلات للطعام (ووصفته هي نفسها وصفة الحمص في لبنان وسوريا إلى يومنا هذا) والتي تتلّخص بالحمص مضافاً إليه عصير الحامض والطحينة وزيت الزيتون وبعض التوابل والملح. وأما الكوريون فلديهم اليوم مقبلات حارة أكثر كـ «البولجوجي bulgogi» التقليدي (لحوم متبلة ومشوية مع شرائح البصل في قدر دائرية خاصة مع الخضار على نار هادئة).

وقد ألهمت سمعة سلالة جنكيز خان في فن الطهو والاهتمام بالمأكل والمشرب، الشاعر الإنجليزي صموئيل باتلر فتغنى بتأثيراتهم على القارة الأوروبية والتي أدهشته معرفتها، من خلال ما جاء على لسان ماركو بولو في وصفه المفصل لحياتهم اليومية، كما سنرى في المقطع التالي:

طراز مائدة الخان الأعظم زمن الاحتفالات

«وعلى هذا الطراز، يجلس الخان إلى مائدته في الاحتفالات المهمة: تتكون مائدته من أصناف تفوق في تنوعها وذوقها جميع الموائد المحيطة به. فيجلس على رأس المائدة من جهة الشمال في مواجهة الجنوب، وزوجته الأساسية عن يساره وعن يمينه أولاده وأولاد عمومته وبقية أبناء السلالة الحاكمة، لكنهم يجلسون على مستوى أقل ارتفاعاً منه، بحيث تكون رؤوسهم على مستوى قدميه. وكذلك الحال بالنسبة للنساء وأولادهن، كما يسري الأمر نفسه على النبلاء والفرسان وزوجاتهم وأبنائهم. والمائدة ضخمة، وممتدة لدرجة أنه

لا يمكن للخان الأعظم أو الإمبراطور رؤية آخر شخص يجلس في الجهة المقابلة له منها (والبقية تجلس على السجاد حين يكون العدد ضخماً جداً) وخارج القاعة يتواجد ما يقارب 40,000 مدعو، إذ يحتشد الجميع لتقديم الهدايا للخان الأعظم أو لسؤاله طلباً ما. وفي جزء معين من القاعة حيثما استقرت مائدة الخان الأعظم، تمتد أيضاً سجادة مطرزة بالحيوانات والنباتات البديعة، مشغولة بالذهب والفضة بمساحة تبلغ ثلاث «بيسات» (ما يعادل تسعة أمتار) في كل اتجاه، وهناك آنية ضخمة من الذهب لسكب الخمرة، تستقر بجانب الخان، وتجاورها خزانة لأدوات الشراب من الكؤوس وما شابه ذلك، وهي من الكبر لدرجة احتوائها كؤوساً تكفي لثمانية أو عشرة أشخاص. وبين كل مدعو وآخر توجد آنية مشابهة مع خزانة أدواتها، وهذا يشمل النساء أيضاً. وجميع الأطباق وأدوات الشراب، مصنوعة من الذهب والفضة ولم ترَ عين أروع منها.

وهناك مجموعة من السادة تم تعيينهم خصيصاً للسهر على راحة الأجانب غير المعتادين على طقوس البلاط والذين يجلسون إلى طاولة خاصة حسب رتبهم. وهم يتحركون ذهاباً وإياباً في القاعة، لتلبية طلبات الضيوف، حيث يأمرون الخدم بسكب الخمور والحليب وتقديم اللحم وكل ما يحتاجون إليه. وعند كل باب (وفي الحقيقة في أي مكان يكون فيه الخان الأعظم) يقف عدة رجال ضخام كالعمالقة مسلحين بهراوات لحماية عتبة المدخل من المتطفلين والمشاغبين، الشيء الذي إن حدث يعالجونه بتعرية المتطفل أو المشاغب ومصادرة ملابسه ثم يتوجب عليه دفع غرامة لاستعادتها أو يضرب عدة ضربات ويصرف. وإن حدث وكان ذلك المشاغب أجنبياً يشرح له ما عليه فعله، فهم يؤمنون بأن التعدي على تلك العتبة، علامة شؤم وسوء طالع. وعلينا أن نعلم أن المختصين بخدمة الخان الأعظم، يتوسمون أعلى الرتب والمنازل، ويغطون أنوفهم وأفواههم بأقمشة شفافة رقيقة من نسيج الذهب والحرير توخياً للنظافة. وعندما يرغب الخان بالشرب تبدأ الموسيقى بالعزف وعندما يضع الكأس على شفتيه ينحني جميع الأعيان والأمراء على ركبهم أمامه حتى ينتهي منه. ويتكرر هذا الطقس في كل مرة يقدم فيها على الشرب.

وأما أصناف الطعام فتكاد لا تُعد ولا تحصى. وعلينا أن نعلم أن السيدات والزوجات يرافقن الأمراء، والنبلاء لهذه الاحتفالات. وبعد أن ينتهي الجميع من عشائهم ويتم تنظيف الموائد وإزالتها من القاعة يأتي دور الألعاب والرقص. فتحتشد جماعة من اللاعبين والراقصين، ليتباروا في إدهاش الخان، وإمتاعه بكل ما لديهم من مهارات وفنون، فيلهو الجميع ويعم المرح والصخب والضحك وتمتلئ قلوب الجميع بالمسرات والمتع. وعندما ينتهي الحفل يغادر كلّ إلى حجرته»(8).

الحواشي

1. صموئيل تايلر كولريدج، «قبلاي خان».
2. سيمون دي سينت كوينتون، «تاريخ التتار»، تحرير: جين ريتشارد (باريس، الاستشراق الحر، 1965)، ص. 40–41: هوشو هوي، يان شان تشين ياو (المبادئ الأساسية للطعام والشراب)، ترجمة: بويل، وبول. دي، وإيجين. أن. أندرسون، 2000، ص. 46–47.
3. هوشو هوي، يان شان تشين ياو، ص. 44.
4. «كيراكوس غانجاكسي، تاريخ الأرمن» كيراكوس غانجاكسي، ترجمة: روبرت بدروجيان، مصادر التراث الإرمني، متوفرة على الموقع htt//www.rbedrosian.com/kg1.htm، 234.
5. بن تايا، هي– تا شي – لوتش، وانغ، 1962، ص. 475–76، وردت في كتاب «ين– شان تشين – ياو» للمؤلف: هوشو هوي، ص. 45–46.
6. تستخدم نبتة الحلبة كطعام وتابل ودواء. ونكهة بذورها قوية، وحلوة، ومرة بعض الشيء.. تشبه السكر المحروق. وهي ذات بنية نشوية ويمكن خلطها بالطحين لصنع الخبز أو أن تؤكل نيئة.
7. من كتاب مارك كريمر، «فن الطهي زمن الإمبراطورية المغولية: وصفات من مملكة جنكيز خان» (نيويورك، كتب هيبوكرين، 2003).
8. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال و كورديل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني متوافران على الموقع: http// www.gutenberg.net.

الفصل التاسع

المغول والدين

التسامح الديني

ازدهرت العقائد الدينية في الإمبراطورية المغولية بشكل عام. وعرف عن المغول تسامحهم في ما يتعلق بمعتقدات أولئك الخاضعين لحكمهم، فاتسمت معاملتهم لرجال الدين والقساوسة الذين خدموا تحت أيديهم بالاحترام. وعبر السنوات المتعاقبة على الإمبراطورية ورغم ظهور ديانات ومعتقدات مختلفة، أعلن عنها رسمياً في أنحاء المقاطعات المغولية الرئيسية، إلا أن المغول لم يعتنقوا ديناً واحداً بعينه. ولم يكن الدين محرّضاً على أعمالهم العدائية حتى وإن استخدم أحياناً كذريعة لتلك الأعمال. فقد اتبع حكامهم سلوكاً معتدلاً ومتسامحاً تجاه معتقدات الناس، سواء أكان داخل الإمبراطورية أم خارجها، ولم يكن ذلك السلوك نابعاً كلية من الأثرة، ولكنهم على الأرجح استغلوا اللعب على وتر الروحانيات فراهنوا على جميع الجياد ليضمنوا عدم الخسارة. ومما عزز هذا السلوك، رغبة الخان في أن ينال دعاء جميع رعاياه من أجل دوام عافيته وبقائه (حتى وإن اختلفت أديانهم ومعتقداتهم) وتحقيقاً لهذه الغايةساير الحكام مراكز الوعظ الديني، وأصروا على إبداء حسن النوايا تجاه جميع الأديان. ونتيجة لهذه السياسة فقد أعفي القضاة ورجال الدين المسلمون والمؤسسات الإسلامية، وكذلك الرهبان والقساوسة المسيحيون، واللامات والرهبان البوذيون، من الضرائب وأعمال السخرة. والدليل على رفعهم الدين إلى مكانة مرموقة، كان واضحاً منذ السنوات الأولى للغزو. فأثناء اكتساح جنكيز خان المدمر للأراضي

الإسلامية في آسيا الوسطى (1218–22) وقف على أبواب خوارزم الخارجية ليس فقط لإعطاء الإنذار المغولي التقليدي – الذي تقشعر له الأبدان – لسكان المدينة المحاصرة، إنما أيضاً لتوفير ممر آمن للزعيم الصوفي نجم الدين كبرى (1145–1221) الذي تجاوزت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى مسامع الخان الأعظم وكان على دراية تامة بمكانته. لكن نجم الدين رفض عرض الخان الأعظم وقبل بخروج 70 من أتباعه تحت حماية الخان، بعد أن قال كلمته الشهيرة: «لقد عشتُ سبعين عاماً في خوارزم وشاركتُ أهلها السراء والضراء، والآن، وقد حاق بنا البلاء فإذا ما آثرت الفرار فإن تصرفي سيكون أبعد ما يكون عن روح الرجولة وشرفها». ولم يكد يمضي الكثير من الوقت حتى وُجدت جثته بين أشلاء القتلى(1). لكن تصرف الخان لم يكن استثنائياً في تلك الحالة فقط، وإنما كانت تلك هي القاعدة المتبعة دائماً، فبعد ثلاثين عاماً وقف حفيده «هولاكو» على أبواب بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية حينها وهو يفكر ملياً وبقلق واضح بالعواقب المترتبة على غزوه المدينة، وفي النهاية حزم أمره على العمل بنصيحة مستشاره الطوسي (1201–1274) وبدأ بإطلاق سهامه نحو المدينة المحاصرة، مع توفير ممرات آمنة للعديد من الجماعات على أن يتقدّمهم رجال دينهم للخروج من المدينة من دون أذى وعلى رأسهم طبقة الأشراف (السادة) الذين يرجع نسبهم إلى بيت النبوة (آل البيت) وهو لقب أطلقه المغول على رجال الدين المسلمين، وكذلك الرهبان أو القساوسة بالنسبة للمسيحيين و«كل من جنح للسلم»(2).

الشامانية

اعتبرت «الشامانية»، الدين التقليدي للمغول. وتؤمن «الشامانية» بوجود أرواح متعددة تتفاعل مع الوجود الزمني للمخلوقات، ويمكن التواصل معها، والتأثير عليها من قبل رجال الدين أو الشامانات (جمع شامان)، ورغم ذلك فالشامانية بمعنى ما، هي دين عملي يعالج الاحتياجات المادية للمؤمنين بها. فالشامان هو الروح الناصحة والمرشدة للقبيلة وأفرادها، مما مكّنه من الارتقاء إلى مكانة رفيعة في المجتمع المغولي، وجعله محط خشية واحترام في الوقت نفسه، قد يصلان أحياناً إلى درجة تفوق خشيتهم

واحترامهم للخان أو الرئيس بالذات. وقد تتعارض أحياناً سلطات الخان مع سلطات الشامان والاستقلالية الكبيرة التي يتمتع بها، فينشأ ما يشبه التنافس بينهما، وهو الشيء الذي حدث مرة مع جنكيز خان والشامان «كوكوتشو Kokochu» أو «تيب - تينغري Teb–tengri» (والتي تعني سيد المقدسين) ابن «مونغلك Monglik» الذي تحدى سلطته الجديدة. فقد انتبه جنكيز خان لما له من قوة وتأثير على قومه، وكيف أنه يقف له بالمرصاد، متحدياً إرادته ورغبته في إحداث التغييرات، وعرف أنه لكي يمسك البلاد بيد من حديد، ويستأثر بالسلطة، يتوجب عليه أن يحد من سطوة ذلك الشامان. وكان جنكيز خان مديناً بحياته لوالد تيب–تينغري «مونغلك»، عندما حماه مرة، وأدخله خيمته هرباً من قبضة قاتلي أبيه. ومرة عندما كشف مؤامرة، حيكت ضده من عدوه «سينغوم Senggum». وتمتع «مونغلك» بمكانة مرموقة لأنه زوجه بأم تيموجين، «هولون» بعد وفاة زوجها والد تيموجين (جنكيز خان صغيراً). وهكذا فقد دعم «مونغلك» تيموجين في طفولته، مما منحه احترام وتقدير القبيلة في ما بعد حين شب تيموجين وأصبح زعيماً. وبسبب شعبيته الواسعة تلك، صارت لتصديقه على حكم جنكيز أهمية أكبر. وحدث أنه تجول مرة عارياً في السهوب والجبال شتاءً، ثم عاد لقومه قائلاً: «لقد كلّمني الرب، وقال لي: إني أمنح وجه الأرض كله لتيموجين وسلالته وأسميه جنكيز خان، وعليه أن يحكم بالعدل هكذا وهكذا...»(3).

وشيئاً فشيئاً بدأ ابنه «تيب– تنغري» يشعر بتفوقه وعظمته، بعد كل هذه الفضائل التي صنعها هو وأبوه لسلالة جنكيز خان. وكانت سطوته وتأثيره واضحين بشكل خاص على تيموجين نفسه، الذي واصل استشارته في أصغر الأمور وأكبرها، مما لفت انتباه بقية الناس إليه. وبدأ «تيب– تنغري» يستغل سلطته تلك وينثر التفرقة والخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة، وخاصة بين تيموجين وأخيه قاسار إذ حاك مؤامرة كانت على وشك أن تنجح لولا اكتشاف جنكيز خان دوره المحرض فيها. وحدث بعدها أن تعارك أحد إخوة جنكيز خان واسمه «تيموج - أوتشجن Temuge– Otchigin» مع تيب – تنغري أمام حشد من الضيوف، فأمرهما جنكيز بمغادرة الخيمة والتعارك في الخارج بعيداً عن ضيوفه. وحين عاد بعدها أخ جنكيز ليعلن بأنه كسر ظهر «تيب

- تنغري» أثناء القتال مما أدى إلى موته، كثيرون كانوا على ثقة بأن ذلك الموت كان مدبراً من جنكيز خان وأخيه، وليس موتاً عادياً نتيجة العراك. انصرف الأب «منغولك» بعدها منكسراً، بعد أن حُذّر من الأخذ بالثأر، في حين ظهر جنكيز خان بمظهر المنتصر الجبار، ثم قام بتعيين شامان جديد من قبيلة «بارين» اسمه «أسون» الذي أظهر الكثير من الإخلاص له، وعمل على تحقيق أهدافه ونشر سيطرته الإمبراطورية على القساوسة ورجال الدين الآخرين.

وقد وصف وليام الروبريكي الذي لديه اهتمام خاص بالدين، بالتفصيل مكانة الدين في بلاط مونكو خان، والدور المهم والمميز الذي يلعبه الشامان في ذلك البلاط:

«اعترف لي مونكو خان بأن عرافيهم هم رجال دينهم. تُحمل أقوالهم على محمل الجد، وتُنفّذ بالحرف. وهم كُثر ولهم زعيم مثل «البابا» (أو الأسقف) يعيش دائماً بالقرب من مسكن مونكو خان (على بعد رمية حجر منه). وتحت تصرفه عدة عربات تحمل عليها التماثيل (الأوثان) المقدسة. ويستقر الشامانات الأقل مكانة منه خلف مخيمه. ويأتي المؤمنون بقدرات ذلك الشامان الزعيم لزيارته من مختلف أنحاء العالم. بعض أولئك الشامانات هم من الملمين بعلوم الفلك فيشيرون إلى أوقات كسوف الشمس، وخسوف القمر عندما يتوجب على الناس التزام مساكنهم وعدم الخروج في غضون ذلك. وإن حدث كسوف تُقرع الطبول ومختلف الآلات الموسيقية الأخرى، مصدرة أعلى ما يمكنها من صخب وضجيج. ويحتفلون بانتهاء الكسوف، فيأكلون ويشربون ويرقصون. ويقرأ العرافون الطالع ويتنبأون بالمستقبل، فيشيرون مثلاً على الخان بأفضل الأوقات لبدء غزو ما. كما أشاروا بتأجيل غزو هنغاريا إلى أن يحين الوقت المناسب. ويطالعون أمام نار خاصة يشعلونها، جميع المسائل والقضايا قبل أن تُعرض أمام المحكمة لتقرير مصيرها، ويعقمون أطقم أسرة ومقتنيات الناس الميتين بتمريرها بين نارين مشتعلتين، قبل أن يُسمح للبقية من أقربائهم الأحياء باستخدامها مرة أخرى. فقد رأيت بنفسي ما حدث لمقتنيات إحدى السيدات التي ماتت ونحن هناك. وبناء على هذا الطقس نفسه توجب على الراهب «آندرو» ومرافقه المرور بين نارين، فقد جاءا يحملان الهدايا، وكانا بالقرب من جويوك خان حين وفاته (عام 1248)، لكنهم لم يطلبوا مني قط القيام بذلك لأنني جئت خالي الوفاض. وإن حدث وسقط أي شيء أو حيوان على الأرض أثناء مروره بين ناري (التعقيم) يصادره الشامان ويصبح مُلكاً له»(4).

آمن المغول بوجود إله سماوي، أطلقوا عليه اسم «تنغري» وهو إله يتربع على عرش السماء. كما آمنوا بوجود عدد من الآلهة الأرضية كـ «إتوجين» الذي يمثّل الخصب. ولكن معظم معتقداتهم الدينية تقوم على تقديس أرواح أجدادهم، وتمثّل أفعالهم الطيبة أثناء حياتهم. فلدى كل عائلة وثن أو تمثال، يمثّل أرواح أجدادهم، مزين بالملبوسات والزخارف الفخمة، ومثبت في زاوية مرئية من الباحة، أمام خيمة تلك العائلة. تقدّم له القرابين والهدايا بعد أن يركع الجميع سجوداً له بين وقت وآخر. كما أنهم ينقلون تلك الأوثان معهم حين يسافرون على عربات خاصة يسمونها «أونغوت» وتكون تحت إشراف الشامان ومراقبته، فلا أحد سواه يمكنه الوصول إليها أو لمسها. وتُصنع تلك الأوثان من اللباد، وتُعلّق تلك التماثيل عادة في البيوت (الخيام) فوق موضع جلوس سيد البيت وسيدته، وتُوزع تماثيل أصغر في أماكن مختلفة من زوايا المكان، فيوضع واحد بجانب مدخل الاصطبل، حيث توجد الأبقار والخيول للإشارة إلى قدسية حليبها وأهميته في حياتهم اليومية، وكلما همّوا بالشرب أمامها رشوها بالسائل الذي بيدهم قبل بدئهم بالشرب.

طقوس الجنازة

رغم ما لعبته الطقوس، والمحرمات الدينية من دور كبير في حياة المغول، إلا أنها لم تكن تُمارس في العلن، مما أسس للرأي القائل: إنهم لا يدينون بدين معين، وليست هناك آلهة لهم. ولكن طقوس الجنائز، خرقت تلك القاعدة، نظراً للكم الهائل من الأساطير التي أحاطت بها، وخاصة حين يتعلق الأمر بمأتم زعمائهم وخاناتهم. فيقول المؤرخ الأرمني كيراكوس:

«حين يموت أحدهم أو يُقتل يقومون بالتالي: يبقون بعض الجثث معهم لعدة أيام، إيماناً منهم بأن روح الشيطان قد تلبستها ودخلتها لتوسوس لها ببعض الأفكار. في حين يحرقون بعض الجثث الأخرى في الحال، وبعضها الآخر يقومون بدفنه في حفر عميقة في الأرض، واضعين أسلحة المتوفى وكذلك مقتنياته الشخصية الثمينة معه، وإذا كان الميت شخصاً رفيع المقام، دفنوا معه بعضاً من خدمه ومحظياته حتى يعملوا

على خدمته في عالم ما بعد الموت. كما كانوا يدفنون معه حصانه، إيماناً منهم بأن عالم الموت مليء بالمعارك والحروب. وكانوا إذا ما أرادوا استحضار روح أحد من الأموات، جاءوا بجثة ذلك الحصان وأخرجوا أمعاءه بخشبة يجلخون رأسها حتى يصبح مدبباً ثم يغرسونها في فمه لسحب أمعائه التي يحرقونها مع لحمه فقط، ثم يقطبّون جلد الحصان على عظامه كأن شيئاً لم يكن وبعدها يعلقونه على شجرة أو في أي مكان مرتفع آخر»(5).

وقد بقيت جنازة جنكيز خان سراً إلى يومنا هذا، فكتاب «التاريخ السري للمغول» لا يذكر شيئاً عن تلك الجنازة. ويخبرنا رشيد الدين أن تلك كانت وصية جنكيز خان نفسه، الذي أمر بعدم إقامة إية مراسم حداد أو تأبين ما لم يتم الكشف عن أعدائه المتمردين من «التنغوت» وقتلهم. فلم يكن يرغب في إشاعة خبر موته قبل إلقاء القبض عليهم، ومعاقبتهم حتى لا يقف خبر موته عائقاً في وجه تحقيق ذلك. شهد ذلك ماركو بولو ويخبرنا عنه هنا بالتفصيل:

«يحمل فرسان المغول جميع خاقاناتهم وخاناتهم الميتين إلى قمة جبل يدعى «آلتاي» ليدفنوا هناك. ومهما ابتعد مكان الميت (من الشخصيات المهمة) عن ذلك الجبل (حتى وإن كان مسافة 100 يوم من المشي) فلابد من أن يدفن فيه. وهم يذبحون في طريقهم كل إنسان يصادفهم مرددين «اذهب واخدم سيدك في العالم الآخر» فهم يؤمنون بأن كل من يذبح بتلك الطريقة، سيكون مستعداً لخدمة السيد المتوفى في العالم الآخر. كما يفعلون بالمثل لجياد السيد المتوفى، فربما يحتاج إليها في عالمه الجديد. وكونوا على ثقة بأن ما سأخبركم به حول موت مونكو خان لا لبس فيه، فقد ذبح أكثر من 20,000 شخص كانوا مصادفة يمرون في طريق جنازته»(6).

وما زال مدفن هولاكو خان الذي توفي عام 1265 في جزيرة «كابودي» ببحيرة أورميا في إيران، محفوظاً ومصاناً، ولم تنبش كنوزه بعد. يقول المستوفي عن ذلك:

«احتشد الناس زرافات، حداداً على موت القائد البطل. تنافس الجميع بشعورهم المنفوشة على الاقتراب من جثمانه. فطقسهم يقضي بنكش شعورهم حزناً وحداداً. وبعد التهيئة للدفن، اختير عدد من الأميرات لحمل جثمانه إلى البحر المالح، وهناك

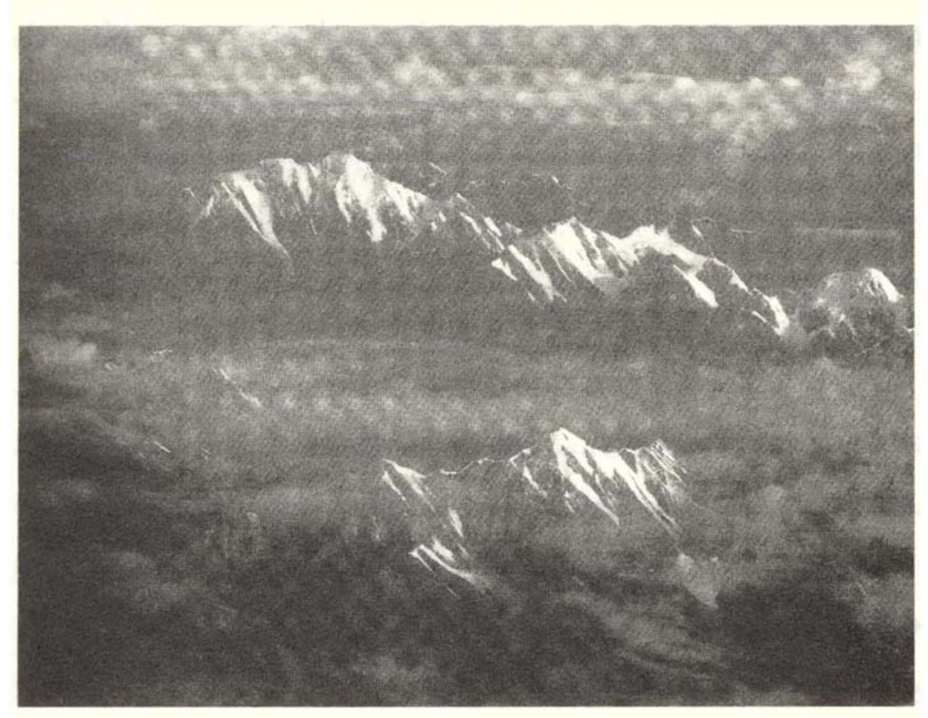
وضعنه بكل سرية في مثواه الأخير. إلا أنه في بحر سلماز لن يجد ذلك الشاه (الإلخان) عرشاً ملكياً يعزّه كما في حياته»(7).

والمؤرخ أمير خوند كتب في القرن السادس عشر مدعياً أن وزراء هولاكو «حفروا حفرة كبيرة في قمة جبل وأرسلوا مجموعة من الصبايا الحسان بصحبته ليخدمنه وكي لا يبقى وحيداً»(8).

وكانت العبادة تمارس في الهواء الطلق، ولم تكن هناك معابد خاصة لممارسة طقوسهم، وإنما كانوا يلتمسون عون الآلهة بالركوع في مكان خالٍ، بعد فك أحزمتهم والبدء بالتضرع والصلاة (علماً أن طقز خاتون زوجة تولوي خان وزوجة ابنه هولاكو في ما بعد بنت لنفسها كنيسة بأجراس للتعبد فيها). وهنا وصف رشيد الدين لجنكيز خان حين تضرع لربه طالباً المساعدة:

«عندما انطلق جنكيز خان إلى «كاثاي» لمحاربة «ألتان خان» ذهب وحيداً كعادته إلى قمة جبل، وفك حزامه، وألقى به حول عنقه، وفتح عرى قميصه، وركع على ركبتيه، وصلى قائلاً: «آه يا ربي العظيم القديم، يا عالم الغيب وكل الأشياء منذ عهود وعهود. وحدك من يعلم أن ألتاي خان يكنّ العداء لي وينوي قتالي. وقد خطف التتار جديّ الخاقانين أوكن بارقاق، وهامبقاي وأرسلوهما إليه فقتلهما، وهما البريئان من كل ذنب. إن كنت تؤيدني، وتعرف أنني على حق فإنني أسألك أن تسمح لي بالانتقام لروحيهما.. أسألك أن تساعدني وتسخّر جميع مخلوقاتك من إنس وجن لمساعدتي أيضاً». لقد صلى بكل خشوع وتواضع ثم نهض وغادر. وهكذا تحقق مطلبه، وحقق نصره على «ألتان خان» الذي عرف بقوته وجبروته وعزوته الكبيرة من الرجال والقطعان والأراضي والتي صارت كلها تحت سطوة جنكيز خان وأبنائه من بعده»(9).

وكانت لأماكن مثل قمم الجبال، وضفاف الينابيع، والأنهار مكانة خاصة لديهم ولجأوا إليها لتعبدهم وصلاتهم. واعتبرت المياه الجارية مقدسة، وقد يعاقب بالموت كل من يلوثها، فلم يكن الاستحمام أو غسل الملابس والأدوات مسموحاً فيها. ورغم تشددهم فقد عرف عن أوقطاي خان تسامحه مع أخطاء كهذه، فيذكر عنه المؤرخ



جبال «تيان شان»، جبال الفردوس التي تفصل زينغ يانغ عن آسيا الوسطى، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

الفارسي الجويني أنه وجد مرة مسلماً يغسل نفسه في ماء جارٍ فأصر أخوه «تشاجيتاي» على معاقبته، ولكن أوقطاي رمى بعدة قطع ذهبية في الماء، وأشار إلى الرجل بأن يدّعي جمعها من الماء حتى يعفو عنه، وفعلاً نجا الرجل بحياته بتلك الطريقة.

العِرافة

احتلت العرافة حيزاً كبيراً في حياة المغول اليومية، وشكلت جزءاً مهماً من مهام «الشامان». فكان «الشامان» مثل وسيط بين الناس وعالمهم الروحي، إذ بإمكانه التواصل والتخطيط مع الأرواح لقراءة طالع القبيلة، وتحديد مستقبلها. اعتاد الشامان ارتداء ثوب أبيض طويل وامتطاء حصان أبيض كذلك، تحيطه مجموعة من أتباعه وخدمه وأدواته الخاصة. وكانت من مهامه العرافة والمباركة وصناعة التعاويذ. وهو وحده من يقوم بحرق أضلاع خروف، وقراءة الطالع بواسطتها من خلال تفسير الأشكال

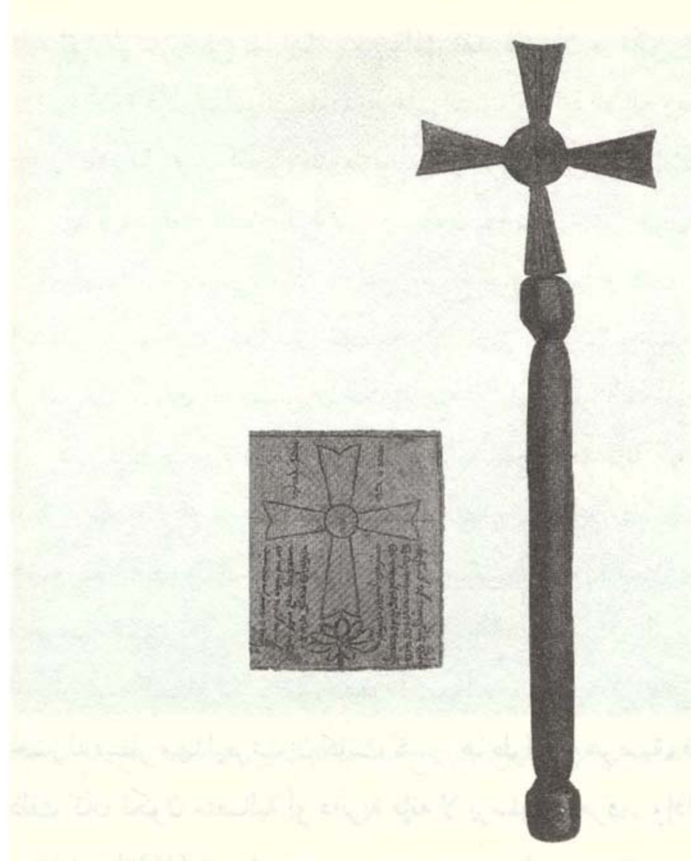
المختلفة المرتسمة في بقاياها. ومع ذلك فقد ذكر أن مونكو خان (حكم بين عامي 1251 و59م) كان يمتلك تلك المقدرة على التنبؤ، وقراءة الطالع وتفسيره من خلال قراءة بقايا عظام الخروف المحروقة. ويتحدث وليام الروبريكي واصفاً كيف رأى مجموعة من الخدم يحملون عظام خروف ويسيرون بها بكل حذر حول القصر:

«وبينما كنا ندخل، وإذا بخادم يخرج حاملاً عظام كتف خروف محروقة حتى التفحم، وتساءلت: ما الذي سيصنعه بها بحق السماء؟ وعندما استفسرت عن ذلك في ما بعد علمت أنه (يبدو أن الكلام هنا عن الخان أو الشامان) لا يأتي بأي فعل ما لم يستشر تلك العظام المحروقة. بل إنه لا يسمح لأحد بالدخول عليه ما لم يستشرها أولاً. وهذا النوع من العرافة يتم دائماً كلما رغب فيه. فقد حمل إليه الخادم ثلاث عظام، تفحصها وكأنه يفكر بأي واحدة سيقرأ الطالع ثم اختار واحدة، أخذها الخادم ليحرقها له. وبجانب مسكنه يوجد بناءان خاصان بحرق العظام لغاية التنجيم. ويتم اختيار هذه العظام عادة بعناية فائقة، بعد البحث عنها في طول المخيم وعرضه، ثم تحضر له لينظر فيها ليعرف إن كانت كسورها طولية أم عرضية، فإذا وجدها مختلفة عن ذلك كأن تكون متصالبة أو دائرية فإنه لا يرسلها للحرق. وإذا وجد واحدة مناسبة يستخدمها»(10).

ولم تكن العظام الوسيلة الوحيدة للعرافة، فنساؤهم أيضاً مشهورات بقراءة الطالع. يقول المؤرخ الأرمني كيراكوس: «جميع نسائهم ساحرات، ويقرأن الطالع في كل شيء، لذا كانوا لا يقومون برحلة من دون استشارتهن وأخذ إذنهن»(11).

المسيحية

مع ازدياد تواصل المغول مع شعوب مناطق جديدة، بدأت بعض القبائل المغولية باعتناق أديان تلك الشعوب كالبوذية التي أخذ تأثيرها يظهر بعد توسع المغول جنوباً باتجاه الصين، والمسيحية التي بدأت القبائل التركو- مغولية باعتناقها منذ بدايات القرن الحادي عشر على الأقل. فبعض القبائل ذائعة الصيت والجاه، مثل قبيلة «النايمان» و«الكرايت» تحولت رسمياً وكلياً إلى الديانة المسيحية النسطورية. واعتنق المسيحية



آثار مسيحية من سلالة يوان، صرح جنكيز خان في
دينغ شينغ، بموافقة لان تيان لانغ للنشر

العديد من أفراد بعض القبائل الأخرى أيضاً مثل قبيلتي «الأنغوت» و«المركيت» كـ«سورغاغتاني بكي»، زوجة ابن جنكيز خان، ووالدة الخاقانات الكبار، مونكو، قبلاي، هولاكو، ودوكوز خاتون، والدة أباقا خان وكتبغا خان، قائد القوات المغولية في بلاد الشام، والذي تحالف مع الصليبيين لمحاربة العرب المسلمين. كما كان هناك عدد من المصاهرات مع حكام غربيين، مثل زواج أباقا بماريا باليولوجس، ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوجس، وكذلك زواج غيره من الخانات بنساء غربيات.

لم يكن الراهب وليام الروبريكي راضياً كل الرضا عن علاقة البلاط المغولي بالمسيحية، واحتكار ذلك البلاط من قبل النسطوريين فقد كتب يقول:

«عرض الخان كتبنا عليه.. الكتاب المقدّس وكتاب الصلوات، وسأل عن معنى الصور بالتحديد. فأجابه النسطوريون حسب قناعتهم، لأن مفسرينا لم يأتوا معنا. وقد كنت أحمل معي الكتاب المقدس في أول لقاء لنا أيضاً، فطلبه مني وتصفحه بتمعن، ثم غادر، لكن السيدة (ربما المقصود زوجته) بقيت معنا ووزعت علينا منسوجات نادرة الجمال، لكنني لم أقبلها فأرسلتها إلى المفسر الذي قبل أخذها وحملها معه إلى قبرص، حيث باعها هناك – رغم ما حلّ بها من تلف في الطريق – بثمانين «بيزة» قبرصية (اسم العملة الذهبية في القرون الوسطى). ثم جلب لنا شراب الأرز المخمر (الميد) الذي يشبه النبيذ الأحمر أو نبيذ «روشيل» والقمز. ثم ركعت السيدة وهي تحمل كوباً مليئاً بالشراب في يدها، وطلبت بركتنا، فرتّل الرهبان جميعاً بصوت عالٍ، ثم تجرعت كأسها كاملة. وتوجب علينا أنا ورفاقي أن ننشد أيضاً حين أرادت معاودة الشرب. وعندما نال الشراب منهم جميعاً، وثملوا قدّم الطعام وكان فيه الكثير من لحم الماعز الذي التهم سريعاً. ثم أحضرت سمكة شبوط كبيرة لكن من دون خبز أو ملح ومنها أكلتُ. وهكذا انقضى يومنا حتى المساء. وعندما اكتفت السيدة ركبت عربتها وغادرت، في حين واصل الرهبان الغناء والصخب. وفي الأحد التالي وبعد أن رتلنا «كان هناك زواج في قانا» جاءت ابنة مونكو خان التي كانت أمها مسيحية، وفعلت مثلنا لكنها لم تتقن اللحن مثلنا، ولم تقدّم هدايا لأحد، بل سقت الرهبان شراباً حتى سكروا، وأطعمتهم حساء الذرة المدخنة»(12).

المغول والأرمن

يُعتبر كلٌ من وليام الروبريكي، وهتوم ملك الأرمن، من أكثر الأشخاص معرفة بالعلاقة القائمة بين المغول ورجال الدين الأرمن. فرجال الدين في «قلقيا»[9](التي يحكمها الملك هيتوم) تحالفوا مع المغول في حربهم ضد مماليك مصر، وكانت لهم أحياناً علاقات وطيدة مع أفراد البلاط المغولي. فقد صادفهم وليام الروبريكي عند كل محطة توقف فيها أثناء زيارته للبلاطات المغولية ما بين عامي (1253و55م) وفي القسطنطينية (إسطنبول حالياً) – قبل انطلاقه لبلاد المغول، تحدث لتجار ورجال دين

(9) Cilicia: قِلِيقِيَا أو كليكيا منطقة من الأناضول على السواحل الجنوبية من تركيا.

من الأرمن المقيمين في المدينة. وحين نزل ضيفاً على «سارتاق خان» ابن باتو خان في مدينة «ساراي» على ضفاف نهر «الفولغا»، قابل بعض رهبانهم من الذين يعرفون التركية والعربية، وكانوا يعملون مترجمين في البلاط المغولي هناك، وفي العاصمة قره قورم تحديداً. وذكر وليام الروبريكي بشكل خاص رجل الدين الأرمني ذاك «داكن البشرة الهزيل» الذي كان يشرف على كنيسة صغيرة في العاصمة، ووصفه بالكاذب والمنتحل للصفة الدينية وهو الجاهل بأصول الدين والأميّ تماماً، والذي كان يعمل نسّاجاً في بلده، كما اكتشف وليام الروبريكي في ما بعد في طريق عودته إلى بلاده. وقد قال يشرح ذلك:

«كان ناسكاً في بلده القدس[10]، وقد ظهر له الرب ثلاث مرات، داعياً إياه لزيارة أمير التتار. وعندما تقاعس عن ذلك أوقعه الرب أرضاً، وهدده بالموت إذا لم يذهب لمونكو خان، ويقنعه باعتناق المسيحية، وأنه إذا فعل ذلك فسيصبح العالم كله تحت إمرته، وحتى البابا الأعظم سيكون مطيعاً له»(13).

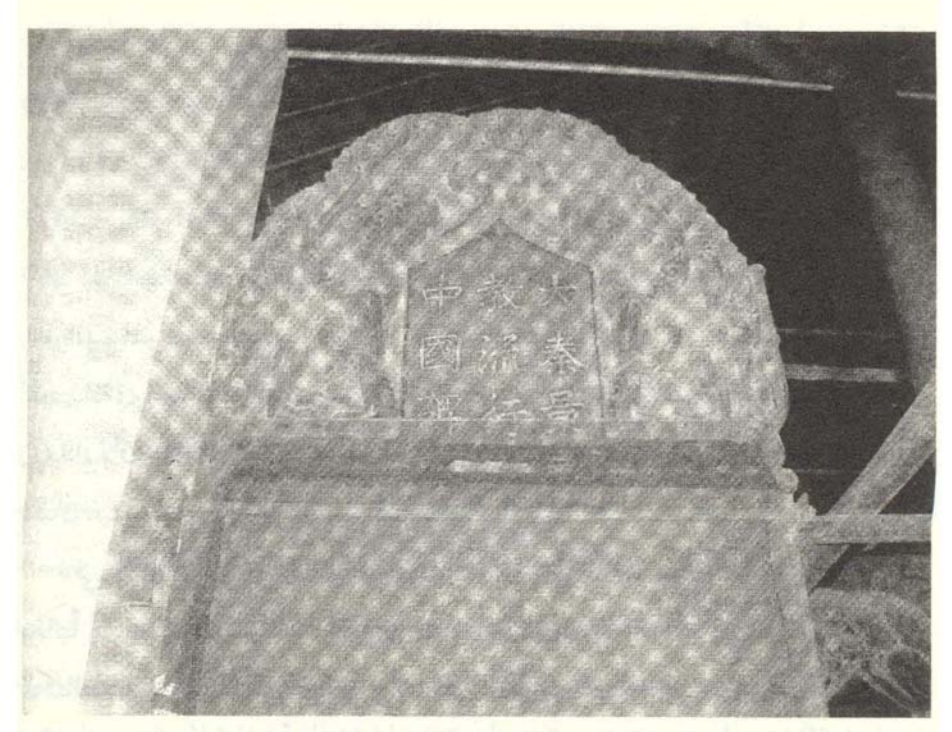
وبشكل عام كان وليام الروبريكي دائم الاحتراز والشك برجال الدين الأرمن، فهو لم يكن راضياً عن مهامهم في بلاطات المغول. ومما أثار ريبته أكثر هو رؤيته لهم بتلك الكثرة في البلاطات، مما يعني أنهم باتوا يشكلون طائفة أو مجتمعاً كبيراً في المدينة. وقد عبّر للبابا عن مخاوفه (وخاصة في ما يتعلق بقيام أولئك الأرمن بترجمة رسائله ومحادثاته مع المغول فكتب يقول له:

«أخشى أن يكون أولئك الذين ترجموا رسائلك من الأرمن القادمين من أرمينيا العظمى، وهم من أكثر الناس كرهاً للشرقيين[11]، فقد يتلاعبون في الترجمة بما يناسب مصالحهم بناء على حقدهم القديم»(14).

استُقبل التلامذة الأرمن بالترحيب في بلاط الخان الأعظم، وحرص على إرضائهم

(10) من الواضح أن وليام الروبريكي يسخر هنا، مقتبساً كلام ذلك الراهب أو النساج المنتحل صفة القس والذي يتحدث هنا عن نفسه.

(11) Saracen ساراسين بالانجليزية: وهي مصطلح استخدمه الأوروبيون للدلالة على العرب في العصور الوسطى وللدلالة على الفاطميين ، ثم على كل الذين أعلنوا الإسلام كدين لهم في الشرق الأوسط بصفة عامة. وهو اسم مشتق من اليونانية، ثم انتقل إلى اللاتينية، ومنها إلى الإنجليزية واشتقت في الأصل من الكلمة العربية «شرقيين».



صرح نسطوري منقوش، متحف زيان للصروح، بموافقة لان تيان لانج للنشر

والسهر على راحتهم. وقد قابل وليام في قرة قورم، أحد أولئك التلاميذ في بلاط مونكو خان، وكان يدعى النبيل «سمبات أوربيليان» ويقول متحدثاً عن ذلك: «أحد الأرمن من الذين جاؤوا مع الراهب جلب معه من القدس، شيئاً أشبه بالصليب، حسب زعمه، وكان من الفضة، ويساوي وزناً أربعة «ماركات» (عملة ألمانية) وعليه أربعة ملائكة، رصع كل منها بحجر كريم، وواحد في الوسط، ولم يكن يحمل صورة المخلّص (السيد المسيح)، لأن النسطوريين من الأرمن، يخجلون من وضع صورته على صلبانهم. قدّمه لمونكو خان الذي سأله عما يطلبه في المقابل، فأخبره أنه ابن أحد الرهبان الأرمن من الذين دمر الشرقيون كنائسهم، وطلب مساعدته لإعادة بناء تلك الكنيسة. فسأله مونكو خان: كم يكلفك ذلك؟ فأجاب 200 «إياسكوت iascot» أي ما يعادل 2,000 مارك. فطلب إرسال رسالة إلى بلاد فارس وأرمينيا العظمى حتى يدفع له ذلك المبلغ من الفضة»(15).

ويؤكّد المؤرخ «هيتوم».. مؤلف كتاب «زهرة تواريخ الشرق»، مخاوف وليام الروبريكي، زاعماً أنه بالفعل توطدت العلاقات بين مونكو خان والأرمن من «قيلقيا». ورغم أن كثيراً من آرائه محض تخيلات وتصورات شخصية، فإنه لا يمكننا إنكار التأثير الواضح للأرمن على بلاطات الخانات المختلفة. فقد شكّلوا حليفاً للمغول، يقف في خط المواجهة ضد أعدائهم مماليك مصر. وشكل المغول حبل النجاة لهم من براثن جيرانهم المتربصين بهم من جميع الجهات. فلكي يستمروا كان عليهم اللعب بأوراق الصداقة، والعلاقات الدبلوماسية التي يستخدمونها وسيلة دفاعية، وكانوا راضين، بل سعداء لأن علاقاتهم مع المغول كانت متينة وصلدة لا تهزها الريح، حسبما جاء على لسان هيتوم عام 1250م إذ كتب يقول:

«في البداية شجّع الخان على اعتناق المسيحية، والسماح بتعميد أبناء قومه، وثانياً أن تنعقد أواصر الصداقة بين التتار والمسيحيين، وثالثاً، أن يشجّع المغول بناء الكنائس على امتداد أراضيهم، وأن يعفى الأرمن من الضرائب ومختلف الالتزامات الأخرى، ورابعاً، أن تخلّص الأرض المقدسة والقبور المقدسة من أيدي الأتراك وتمنح للمسيحيين. وخامساً وأخيراً، أن يخلّصهم من الخليفة المسلم في بغداد... وعندما استشار خان التتار، أمراءه كان جوابه لملك أرمينيا كالتالي: «قبلت طلبك.. سأعمّد شعبي واعتنق الديانة المسيحية وسأعمل على أن يحذو حذوي كل أبناء قومي»(16).

كتب هيتوم كتابه «زهرة تواريخ الشرق» ليشجّع أبناء قومه من أرمن «قيلقيا» على تشكيل تحالف مع المغول ضد مماليك مصر. ولأجل تلك الغاية أكد على تعاطف المسيحيين مع الخان المغولي، إذ ليس من دليل واضح على اعتناق مونكو خان أو أي خان آخر للمسيحية وقبوله بالتعميد. ولكن هذا لا ينفي أن هيتوم (عاش بين عامي 1245و1315م)، الرجل النبيل ذا المنصب الرفيع، حاول جاهداً إقناع شعبه بحسن نية المغول تجاه المسيحية. فقد قال متابعاً في كتابه:

«وبعد أن قبل مونكو خان طلب الملك الأرمني، تعمّد على يديه (حيث كان أسقفاً أيضاً)، ومعه عمد كل من في بيته من رجال ونساء»(17).

وإذا تمسكنا بحرفية كلمات هيتوم فسوف نجد أن خانات المغول مؤمنون مسيحيون

صالحون، وأن الأرمن مدافعون مخلصون عن ذلك الإيمان.

وهو يصف الملك ليون الثالث (ابن الملك هيتوم الأول الذي حكم بين عامي 1269و89م) مُظهراً إياه كمدافع عن المسيحية، أثناء زيارته لبلاط أباقا خان: «التمس مساعدته لتحرير الأراضي المقدسة من أيدي الكفّار، ووعده خيراً. وفي الوقت نفسه نصحه بإرسال مبعوثين للبابا ولجميع الملوك الأرثوذوكس بخصوص هذه القضية»(18).

وقد تطرّقت دراسة حديثة للبروفيسور بيتر جاكسون، بعنوان «المغول والغرب ما بين عامي 1221و1410م» لمسألة استخدام الدين المسيحي، رابطة بين المغول وأوروبا من قبل، وبحث صاحبها فيها بالتفصيل، إمكانية التحالف بين الجانبين.. ذلك التحالف الذي شكل رغبة آسرة لدى الطرفين، وبقي مثل حلم يتأرجح في مخيلة كل منهما. فالمغول بداية من عام (1242م) معززين بإيمانهم بالتنغريتية، وإرادتهم الصلبة، تمكّنوا من غزو قلب أوروبا، ولكنهم بعد معركة «عين جالوت» عام 1261م وفشلهم المتعاقب في غزو اليابان في عام 1274م و1281م أدركوا الحاجة الملحة إلى التحالف والتعاون مع جهات أخرى. ولكن لجوءهم غير الجاد إلى المسيحية في محاولة لحماية أنفسهم، أثار شكوك البلاط البابوي. وقد كان إيمانهم بالتنغريتية مرناً وقوياً في الوقت عينه، مما سمح لهم بمغازلة أديان أخرى. فغازان خان أعلن إسلام مملكته، ولكنه لم يتنازل عن قوانين البلاد التقليدية (الياسا yasa). كذلك زين التوافق الدبلوماسي للإلخانات والنبلاء الآخرين نفسه بغطاء الطيبة المسيحية، ولكن ما إن تنزع ذلك الغطاء حتى ترى إيمانهم بالتنغريتية واضحاً لا لبس فيه.

الإسلام

غدا الإسلام واقعاً ملموساً في حياة المغول اليومية، كلّما اتجهوا بتوسعهم غرباً. ورغم أن أتراك آسيا الوسطى تواصلوا منذ القديم مع العالم الإسلامي إلا أن احتلال بلاد فارس، وازدياد حاجة الإمبراطورية إلى الجند والأتباع هناك جذّرا تأثير الإسلام في المجتمع المغولي أكثر فأكثر.



مسجد «طائر الفينيق» (يعود إلى القرن الثالث عشر). بموافقة لان تيان لانج للنشر

فـ «بركة خان» زعيم القبيلة الذهبية الذي حكم بين عامي (1257و 67م) في روسيا والسهوب الغربية كان مسلماً. كما أن أعداداً كبيرة من المغول في بلاد فارس اعتنقت الإسلام قبل إعلانه كدين رسمي في دولة الإلخانات عام 1295. وفي ما بعد رسخّت العلاقات الوطيدة سياسياً وتجارياً وثقافياً بين إيران والصين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أقدام الإسلام في كل أنحاء الإمبراطورية المغولية.

أول من اعتنق الإسلام من الإلخانات كان أحمد تكودار (1282–84م) الذي عُتّم عليه في التاريخ، بعد أن اعتنق ابن أخيه غازان خان الإسلام (1295–1304م) وربما كان لممارسته بعض الطقوس الصوفية، وتأثره بالمسيحية أيضاً دور في ذلك التعتيم المتقصد. فقد أحاط نفسه بمجموعة من الصوفيين المتجولين، الذين اطلق عليهم اسم «القلندريين» ممن طافوا زمن القرون الوسطى في كل من بلاد فارس، وآسيا الوسطى، والسهوب الأوراسية.

أحد أولئك الصوفيين كان حسن منغولي، الذي كان منغمساً في تعاطي الحشيش، وجر السلطان المغولي معه. وقد اتُهما بالتجديف والفساد ومصاحبة رفاق السوء. وقد عمل منغولي ما في وسعه لتأليب الخان على الشيخين الصوفيين الصالحين زاهد الجيلاني، وابنه جمال الدين علي وإبعادهما قدر استطاعته عن بلاط الخان غيرة منهما، ورغبة في الاستئثار بمكانتهما لنفسه، ولكن الرياح لم تجرِ كما تشتهي السفن،



مسجد «طائر الفينيق» (يعود إلى القرن الثالث عشر).. بموافقة لان تيان لانج للنشر

فقد تم خلع السلطان أحمد من قبل ابن أخيه أرغون خان، الذي حكم بين عامي (1284و91م) وتخلّص من عمه بالطريقة المغولية التقليدية، حيث لفه باللباد، وتركه ليموت ببطء (اللباد لمنع تسرب الدماء إلى الأرض وهي علامة شؤم كما يؤمن المغول). ولوحق حسن منغولي أيضاً وأحرق حياً.

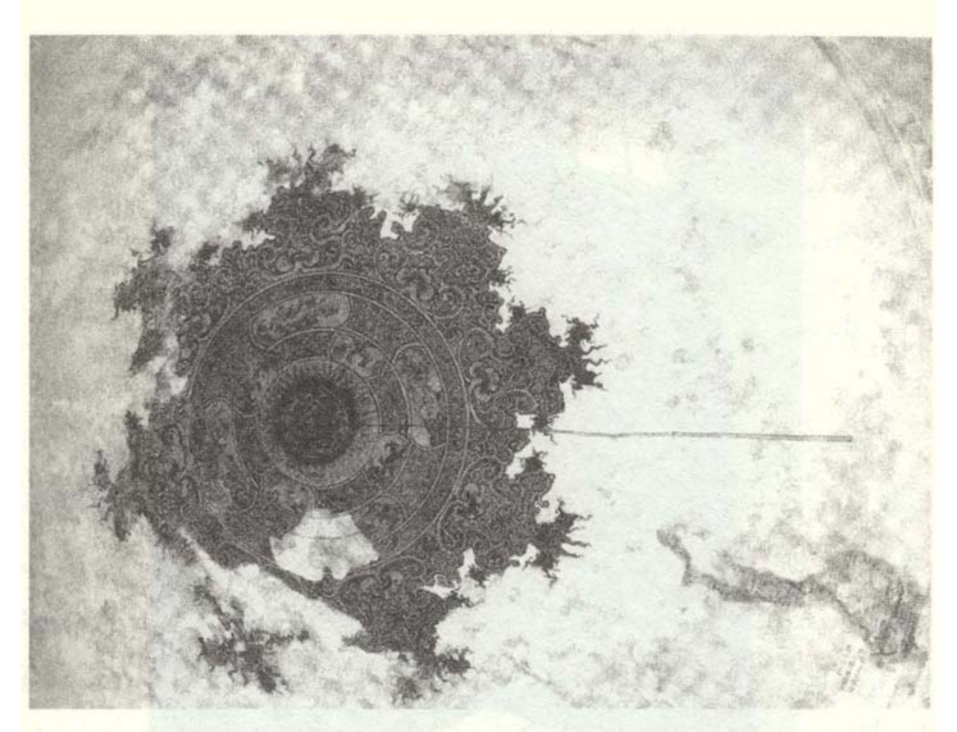
القلندرية

القلندرية.. مجموعة مميزة من الصوفيين المتجولين، طافت أنحاء الإمبراطورية في القرون الوسطى، وبرز وجودهم بشكل خاص في آواخر القرن الثالث عشر في دولة الإلخانات في بلاد فارس. كانوا يظهرون على طراز «شاهر ضرب» التي تعني حلق شعور رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم، مع أن هناك فرقة منهم تسمى «الحيدرية» أطالت شعر الشارب بشكل مبالغ فيه. أما ملابسهم فتكاد تكون معدومة أو أنها خرق بسيطة، وغالباً ما يرتدون ثوباً فقيراً من الصوف أو اللباد، بلونه الأسود أو الأبيض على عكس ثوب الصوف التقليدي أزرق اللون.

وقد اكتفى بعضهم بارتداء سترة قصيرة فضفاضة من دون تفصيلة معينة كأن لابسها

يلف نفسه بكيس. ويبدو مظهرهم أكثر تميزاً عندما يضعون قبعات تلك الأثواب على رؤوسهم. ومن المتعارف عليه أنهم يمشون حفاة، ويمكن تمييزهم من خلال مقتنياتهم التي يحملونها معهم أينما حلوا، وهي تتضمّن: طاسة تسولهم التقليدية، وعصاتهم الخشبية، وحليهم المعدنية كالخواتم والأساور والعقود والأحزمة والخلاخيل والسلاسل والفؤوس ودروع الركب، بالإضافة إلى أكياسهم الجلدية، وملعقتهم الخشبية الطويلة. وكانت الخواتم أكثر ما يلفت الانتباه من بين كل تلك الأشياء، حيث كان أحدهم يحشر عضوه الذكري فيها لجعله يضمر، مما يؤكد تقشفهم حسب قناعتهم، وهذا الإجراء الغريب ترافق مع مبالغاتهم الأخرى في المظهر، وجاء نتيجة تعاطيهم الحشيش وعقاقير الهلوسة الأخرى(19) التي كانوا يدعمون بها مواقفهم المتشددة وغربية الأطوار. وكان الخوض في مواضيع الايمان بالله والتنور، شغلهم الشاغل مما جعلهم منغلقين على أنفسهم. وهناك من يعتقد أن مبالغتهم في إهمال الذات، وكبتها ليست إلا حباً مبالغاً فيه لتلك الذات، ورغبة في توكيدها وتفخيمها. ولم يكن الحصول على تأييد المجتمع من مؤسسات أو أفراد غاية يسعون إليها، بل على العكس وكأنما كانوا يستمتعون باستهانة المجتمع بهم، واحتقاره لهم، معتبرين أن مثل هذا الإهمال يمهّد لهم طريق الخلاص الروحي، وينجيهم من قبضة الالتزامات المادية. وسعياً وراء هذا الهدف أهملوا مظهرهم كما تقدّم، وارتدوا ثوبهم الصوفي والكثير من التقشف والقبح، كما كان ولعهم بالحشيش جزءاً من هذا التمرد وتلك القناعة، معتبرين أن التأنق والاعتدال خطيئة يجب الابتعاد عنها قدر المستطاع.

هذا وارتبط ثوبهم والكثير من تصرفاتهم، وخاصة تعاطي الحشيش، في أذهان العرب والمسلمين، بالغزاة، وحمّلوا مسؤولية ظهور طائفة القلندرية وانتشارها للفرس والمغول بشكل خاص. وابن تيمية (توفي في 1328م) يصرّ في إلقاء اللوم على المغول لإدخالهم شر الحشيش للعالم الإسلامي فيقول: «وإنما ظهر في الناس أكلها قريباً من نحو ظهور التتار، فإنها خرجت وخرج معها سيف التتار(20). وكان رأيه يقوم على إساءة الظن المطلق بالمغول فهم لم يكونوا سبباً في انتشار الحشيشة في دولة الإسلام فحسب، وإنما كانت نيتهم استخدامها لإضعاف تلك الدولة التي تُشكل



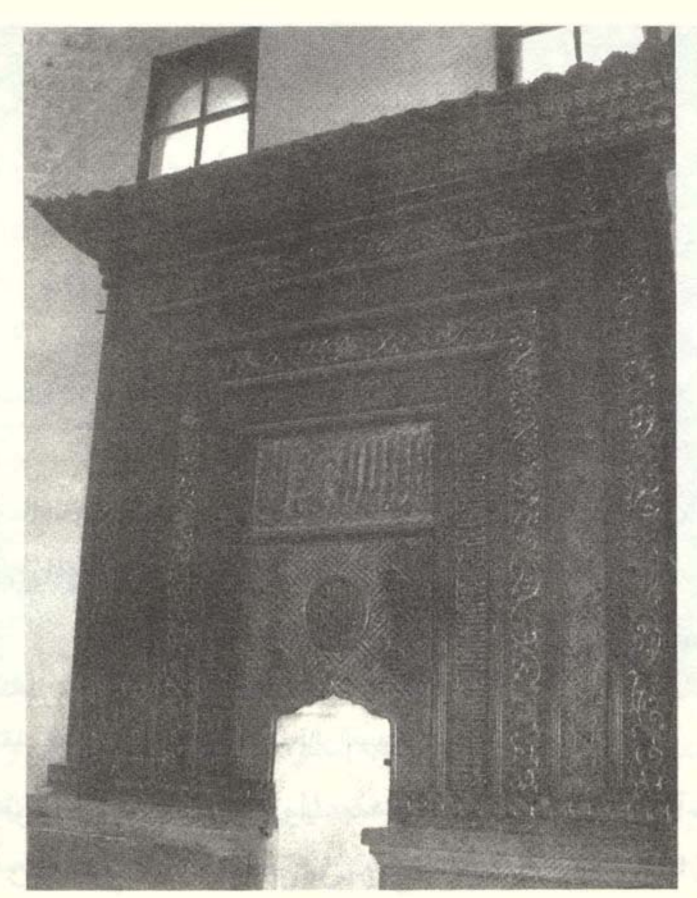
نقش على سقف في إحدى قاعات مسجد «طائر الفينيق». بموافقة لان تيان لانج للنشر

وحدتها وقوتها تهديداً لسيطرتهم. وأيد هذا الرأي في ما بعد مؤرخون آخرون مثل الذهبي[12] والزركشي[13] الذي اقتبس من مرجع مغفل الذكر قائلاً: «إنها كانت شراً داخلاً على بلاد العجم حين استولى على من فيها التتار ثم انتقلت إلى بغداد». وقد أكد المؤرخ الغرناطي ابن سعيد[14] من القرن الثالث عشر، أثناء إقامته في مصر، شر الحشيش وانتشاره الغريب مع أنه لم يكن معروفاً في الأندلس من قبل.

(12) الذهبي: هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله تركماني الأصل ثم الدمشقي شمس الدين الذهبي، مؤرخ وحافظ أحاديث ومترجم إسلامي له العديد من المؤلفات منها: «سير أعلام النبلاء» و«تذكرة الحفاظ» و«العبر» و«دول الإسلام» الخ. ولد عام (673هـ) وتوفي عام (748هـ) تأثر بابن تيمية وكان من أصحاب المذهب الشافعي.

(13) الزركشي: هو أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي المصري. فقيه ومحدث وعالم ولد في القاهرة (745هـ –794هـ). أهم مؤلفاته: «البحر المحيط»، «سلاسل الذهب»، «البرهان في علوم القرآن»، «إعلام الساجد بأحكام المساجد» الخ.

(14) ابن سعيد :هو بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد الأندلسي العماري الغرناطي نور الدين أبو الحسن المؤرخ المالكي 1213 – 1274م (610 – 685 هـ) ولد سنة 610 هـ، وهاجر إلى مصر وبلاد الشام والبصرة ثم الحرمين ورجع إلى تونس وتوفي فيها سنة 685هـ..



داخل قاعة الصلاة في مسجد «طائر الفينيق». بموافقة لان تيان لانج للنشر

وهذه الملاحظة تزداد أهمية إذا وضعناها بالمقارنة مع قصيدة لسان الدين بن الخطيب[15] المكتوبة عام(1360م) والتي تصف تعلق العامة والحكام على حد سواء بذلك الداء في غرناطة، خلال القرن الرابع عشر(21). وباستثناء السلطان أحمد فإنه لم يُسجّل استعمال الحشيش بين المغول. فقد كانوا يكثرون من شرب الخمرة في المقام الأول وكما يقول شعراؤهم في تلك الحقبة فإن الخمرة والحشيش لا يلتقيان:

(15) لسان الدين بن الخطيب: هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب. ولد في لوشة عام 1313م وتوفي في فاس عام 1374م. درس الأدب والطب والفلسفة في جامعة القرويين بفاس.

حشيشهم يلبس الجليل ثوب مهانة
حتى إذا رأيته فكأنه يزمع القتلا
بوجه صبغته الحشيشة بخضرتها...
أما نبيذنا فيكسو الوضيع ثوب جلالة وعزّة
حتى كأن أشرف الناس تحته...
وحين يفضح النبيذ مكنون بهجته
فإنه يضرّج وجنتيه بوروده(22).

ومع توسع الإمبراطورية غرباً وازدياد كثافة سكانها من المغول والأتراك، بدأت تتدفق موجات أخرى من الدراويش الذين امتزجوا بشكل عشوائي بالطائفة القلندرية مثل الحيدرية(23)، ولم يكن أفراد هذه المجموعات ليشبهوا الشامانات في شيء، وإن أي تشابه في المظهر بين الشامانات وبينهم هو تشابه سطحي محض. فطقوس الشامانية طقوس عملية (أرضية) لا علاقة لها بطقوس «الفناء» (الفناء بالله أو التماهي مع الله) التي أكدت على ممارستها القلندرية(24). وحاول المغول التنصل من مسؤولية انتشار الدراويش، والطائفة القلندرية تحديداً مثلما فعل هولاكو خان الذي نفى أن تكون للمغول أية علاقة بتلك الطائفة، وألصق التهمة بالفرس، مدعياً أنهم مخترعوها. وحين صادف مجموعة منهم في سهول همدان، استفسر حول أمرهم من الطوسي الذي أجابه بالقول: «هؤلاء عالة على العالم»، فأمر هولاكو بإعدامهم. وبعدها شرح الطوسي موقفه لسيده قائلاً: «إما أن يكون الناس حكاماً أو تجاراً أو حرفيين أو مزارعين، أما أولئك الذين لا تنطبق عليهم مهنة من هذه المهن، فهم عالة على العالم ويجدر التخلص منهم»(25).

ومع أن تفاصيل هذه القصة قد تكون ملفقة، إلا أنها تشير إلى أن هولاكو ربما لم يلتق قبلاً بمجموعات من قبيل القلندريين.

آراء ماركو بولو حول المغول والدين

اقترن اسم المغول بالبدع الإسلامية في الغرب، لكنهم تمكّنوا من ترسيخ تقاليد دينية عريقة أكثر في الشرق. وماركو بولو الذي خدم في بلاط «اليان» لأكثر من ثلاثة

قرون زودنا بملاحظات عدة سريعة بما يخص حياتهم الروحية، وفي هذا الاقتباس يلّخص لنا معتقداتهم في نهاية القرن الثالث عشر:

حول دين الكاثائيين ومعتقداتهم الروحية وطقوس عبادتهم(26)

«كما أسلفت القول إن هؤلاء الناس من الوثنيين، ولكل منهم إلهه الأعظم، الذي يثبت له لوحة على أعلى حائط حجرته، ويتعبد له يومياً، مع حرق البخور ورفع اليدين إلى الأعلى والصر على الأسنان ثلاث مرات. ولا يطلبون منه في دعائهم سوى أن يحفظ لهم سلامتهم العقلية والجسدية. وعلى الأرض أسفله يضعون تمثالاً آخر يطلقون عليه اسم «ناتيجاي Natigai» وهو إله الشؤون الأرضية أو الحياة اليومية، ويجعلون له زوجة وأولاداً ويعبدونه بالطريقة عينها التي يعبدون بها الإله الأعظم المنتصبة لوحته على الجدار. ومنه يطلبون مواسم خصبة وأن يرزقهم بالبنين وما شابه.

ورأيهم في خلود الروح، لا يختلف عن طريقتهم تلك في العبادة، فهم يؤمنون بالتقمص وأنه ما إن يموت الإنسان حتى تفارق روحه بدنه لتحلّ في جسد شخص آخر، وهي تنتقل من الشخص الجيد إلى الأجود أو من السيئ إلى الأسوأ حسب وضع ذلك الميت أثناء حياته. فمثلاً لو كان الإنسان فقيراً، لكنه عاش حياة خيرة صالحة فيمكن لروحه أن تولد بعد موته من رحم سيدة ثرية فيغدو نبيلاً، وهكذا حتى يتحد في النهاية مع الإله. لكن لو أنه عاش حياة فاسدة مليئة بالمعاصي والذنوب، فإن مرتبته ستراجع، فحتى لو كان ابن أمير فستحلّ روحه في جسد إنسان فقير، ومنه تنتقل في الحياة الأخرى إلى جسد كلب وتظل تتدنى بالتدريج نحو الأسفل.

والأسلوب الذي يتحدثون به مهذب ودمث، فهم يحيون بعضهم بأدب مبتسمين، ويتصرفون باحترام، ويأكلون بتأنق وأدب. يظهرون الكثير من الاحترام والتبجيل لذويهم ،وهناك محكمة مهمتها تلقي الشكاوى الصادرة حول عقوق الأبناء ومعاقبتهم بعد ثبوت التهم عليهم... وللخان الأعظم وحده حق إطلاق سراح السجناء، بعد انتهاء مدد محكومياتهم أو إصدار عفو عام كل ثلاث سنوات، إلا أنه قبل إطلاق سراح المحكوم، يجري وسم أحد خديه بوشم خاص حتى يعرفه جميع الناس.

وهناك تشدد في بلادهم أكثر من أي بقعة أخرى في العالم حول الميسر، فهو محظور تماماً، بأمر من الخان الأعظم وهو يقول في ذلك «لقد أخضعتكم بحدّ سيفي، فأنتم وما تملكون

ملكي، فإن لعبتم الميسر، فإنما تفرطون بممتلكاتي نفسها». هذا مع أنه في حقيقة الأمر لا يأخذ منهم شيئاً غصباً.

وكم يصعب عليّ وصف مدى الانضباط الذي يكون عليه الخانات والنبلاء وكل من هو تحت إمرة الخان الأعظم، أثناء المثول أمامه. دعوني أخبركم بداية بأنهم احتراماً له يقفون بخشوع وصمت، حيث لا تُسمع نأمة لهم على بعد نصف الميل تقريباً من مكان وقوفه. ويحمل كل واحد منهم آنية أنيقة ليبصق فيها عند الحاجة كي لا يضطر إلى مغادرة القاعة، ولا يجرؤ أحد أن يبصق على الأرض في حضرته، وبعد أن يفعل يغطي الآنية ويضعها جانباً بهدوء. كما يحمل كل منهم حذاء أبيض أنيقاً من الجلد ينتعله حين يهم بدخول القاعة كي لا يوسّخ السجاد النفيس بحذائه الذي يخلعه ويسلمه للخدم».

التطور الديني والتنغريتية

سمحت «الشامانية» للمغول بالانفتاح على عقائد دينية أكثر تطوراً بعد تواصلهم معها في المناطق التي وقعت تحت سيطرتهم. فكانوا يتكيفون مع المعتقدات الجديدة التي تصادفهم في البلاد التي يغزونها لكن من دون أن يتبنوها تماماً، ومع ازدياد عدد أفراد الإمبراطورية، وابتعادهم تدريجياً عن أصولهم الرعوية، وحياة السهوب التقليدية البسيطة برزت حاجتهم إلى دين آخر (إلى جانب الشامانية) يتميز بقدرته على الربط والتأليف بين أكبر عدد ممكن من الشعوب. كان لابد لهم من دين يساهم في تعزيز دورهم العالمي تجارياً وثقافياً.. دين بإمكانه التوفيق بين العقائد المختلفة لرعيتهم في طول الإمبراطورية وعرضها. فالباحث «شاجدارين بيرا» يربط انطلاق التنغريتية بزمن صعود نجم المغول كأباطرة للعالم. و«الشامانية» تصور إله السماء تنغري باعتباره ذكراً فائق القوة وذا سيطرة مطلقة على جميع الظواهر الاجتماعية والطبيعية فوق الأرض، والتي هي نفسها الآلهة الأنثى «إيتوجين». ويُطلق على الإله تنغري اسم «إستيج تنغري» والتي تعني «الأب تنغري أو أب السماء»، كما يُطلق على الإلهة «إيتوجين» اسم «أيكي غاجار» والتي تعني «الأم الأرض». ومن القواعد الجوهرية في عقيدتهم تأليه الخان، فكتاب «التاريخ السري للمغول» ينظر إلى جنكيز خان على

أنه جزء لا يتجزأ من روح الذئب الأزرق الإلهي، وينظر بالمثل إلى جدته «آلان قاو» التي يؤمن المغول بأنها حبلت من روح إلهية لتلد في ما بعد، ثلاثة أبناء كان جنكيز خان ابن أصغرهم، وزعيم العشيرة الذهبية «ألتان أروج»:

«كل مساء، يتسلل من فتحة المدخنة، ومن ذلك الشق الرفيع من الضوء الخارج من فتحة الباب، رجل أصفر متألق. يداعب بطني ويسري ضووه في داخلي.. أولادي هم أبناء السماء، ولدوا ليسودوا الأرض»(27).

وقد روى القصة نفسها «كيراكوس» الأرمني بعد أن سمعها من أحد النبلاء:

«يزعمون أن ملكهم قريب الإله. فقد أخذ الإله السماء، وأعطى الأرض للخان. فجنكيز خان والد الخان الحالي لم يولد من صلب إنسان، بل إن ضوءاً تسرب من السماء إلى بطن أمه قائلاً لها: «احملي مني لتلدي ابناً يحكم العالم». وهكذا جاء جنكيز خان»(28).

ومع توسع الإمبراطورية وامتداد ظلالها على ثقافات أخرى كالصينية والفارسية والأرمنية والتركية والعربية، جرى تفسير معتقدات التنغريتية بطرق وأساليب مختلفة، وذلك حسب الثقافة التي انبثقت عنها تلك التفسيرات، كما جرى تحويرها وترويضها لتناسب تلك العوالم الجديدة. وحاول المغول بنفس الوقت تأكيد صورتهم في العالم بناء على إيمانهم بأن إلههم تنغري كلّي القدرة، فمع أن بعض الخانات اعتنق أدياناً أخرى كغازان خان الذي اعتنق الإسلام وجعله الدين الرسمي للبلاد، لكنه ظل يخضع رعيته للقانون المغولي (الياسا) وظل يعلن أنه وجميع سلالته هم خلفاء الله على الأرض، حيث كتب للبابا «بونيفيس الثامن» عام (1302م) يشجّعه على الصلاة للإله «تنغري» قائلاً: «إننا نقوم في هذه اللحظة بما يتوجب علينا القيام به. فعليك الإسراع بحشد جيوشك وإرسالهم لنجدة السلطان الأعظم، وإياك والتأخر عن الإيفاء بالوعد. صلّ لتنغري وافهم بالضبط معنى الفعل الجليل (المُقدِم عليه) ودعنا نكمل مهمتنا معاً. وها نحن نرسل لك مبعوثينا سيدادم، وساناناادم وسامسادين.. صلّ لتنغري وجهّز جيوشك!»(29).

ويمكننا تتبع تصور المغول عن أنفسهم، من خلال وثائقهم الرسمية المتبادلة بينهم

وبين حكام الدول الأجنبية التي خضعت لهم أو دانت لهم بالولاء. واللقب الذي منحوه لأنفسهم كسادة للعالم يعكس واقعاً كان قائماً حقاً. فإحدى الصيغ المعتمدة لاستهلال رسائلهم ووثائقهم الرسمية كانت: «باسم قوة السماء، الأبدية، وباسم عظمة الخان..»، مما يعكس العلاقة التي أنشأوها بين الله في السماء والخان على الأرض. فيقول «جويوك خان» في رسالة وجّهها إلى البابا إنوسنت الرابع في نوفمبر 1264م «الرب الأبدي ذبح أهل هذه البلاد، وأفناهم لأنهم أبوا الخضوع لجنكيز خان أو لسلطة الخاقان مع أن كلاً منهما هو مبعوث الله إلى الأرض، وهكذا وحسب إرادة الله فإن كل هذه الأرض لي، ومن يقدر منكم أن يعترض على إرادة الله؟ فإن عصيتم الله ولم تتبعوا أوامري كسبتم عدائي، ووحده الله يعلم ما سيحل بكم وقتها»(30).

ويتردد صدى كلمات «جويوك خان» في عبارات «مونكو خان» لاحقاً، حين بعث بإنذار إلى ملك فرنسا لويس الخامس، محاولاً إظهار طقوس التنغريتية باعتبارها طقوساً تعادل تعاليم الكنيسة المسيحية التي تؤكّد السلطة السياسية لأصحابها، من خلال سلطتهم الدينية وكان نجاح المغول إثباتاً لتلك المقولة.

فكتب قائلاً: «إن طلبنا إليكَ ما هو إلا قضاء إلهي. إن سمعتَه وآمنتَ به وأردتَ طاعتنا، فأرسل برسلك إلينا لنعلم إن كنتَ تبغي صداقتنا أم عداوتنا. فحين يصبح العالم بإرادة الرب الأبدي من مشرق الشمس إلى مطلعها وحدة موحدة من السعادة والسلام سنعرف ما علينا فعله بالضبط. فإن سمعتَ قضاء الرب هذا وفهمته وبقيت مع ذلك مُعرضاً عن تصديقه والعمل بمقتضاه قائلاً لنفسك: «إن بلادنا بعيدة، وجبالنا عتيدة، وبحرنا شاسع» فبمثل هذا التجبر والتفاخر يكون عداؤك لنا، ونحن أخبر بمواجهة ذلك العداء، ووحده الذي بيده أن يجعل من الصعب سهلاً، ومن البعيد قريباً، الإله الأبدي، سيعلم ما سيحل بك»(31).

وهكذا فقد اعتبر المغول أنفسهم شعب الله المختار، وجنكيز رسوله على الأرض، وأنهم ناشرون تعاليم «الياسا» العظيمة (القانون المغولي) وأن احتلالهم للأرض، وغزواتهم مثل الجهاد أو الحملات الصليبية المدعومة من إرادة تنغري الإلهية. فكل من يعارضهم لا يعارض جيوشهم الجرارة فحسب، وإنما يعارض إرادة الله وخليفته

على الأرض جنكيز خان. وقد نجحوا في نشر تلك الصورة عنهم نظرياً أكثر مما نجحوا واقعياً، فلأجيال عدة تلت، ظلت الأسر الحاكمة المنحدرة من سلالة العشيرة الذهبية تحكم باسم الإرادة الإلهية في كل من إيران والهند.

ولم ينظر المغول إلى أنفسهم على أنهم أمة تنافس سائر الأمم، بل كإمبراطورية شاملة تروض كل من يعلن تمرده عليها من الأمم التابعة لها، والداخلة في صلبها أصلاً. وكان تقبل الأمم والشعوب المختلفة لهذا المنهج في التفكير مختلفاً بحسب اختلاف جذورها الثقافية والدينية، فتقبل رأي كهذا شكّل للمسيحية والإسلام مشكلة جذرية كبرى، على نقيض بعض الأمم الأخرى كجورجيا التي خضعت لهم بسهولة ومن دون حاجة إلى سفك الدماء، حتى إن عملتهم المصكوكة عام1252م ليست إلا إثباتاً على ذلك. وكما جاء أيضاً في نقش إيراني «باسم الإرادة السماوية، باسم الحظ السعيد لإمبراطور العالم مونكو خان».

حين خرج جنكيز خان من السهوب في عام 1206م إمبراطوراً رعوياً كان هدفه الغزو والسيطرة لغنم الثروات والإمساك بزمام السلطة، وعندما عصف بالغرب ملاحقاً خصمه الضعيف خوارزم شاه، فعل ذلك انتقاماً ورغبة في التدمير، إلا أنه مع مرور الوقت وحين صار أحفاده يساومون ويعقدون التحالفات والمعاهدات ويتلقون الأتاوات بعد غض الطرف عن الأعداء، تغيرت فلسفة المغول تجاه الغزو، وهو ما لقي الترحيب والقبول من الأطراف المقابلة. وكأن رسالة المغول تحولت لتصبح رسالة تبشيرية ذات ملامح روحية وتجارية وثقافية واقتصادية، عالمية.

الحواشي

1. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 516.
2. جي. أيه. بويل. «إمبراطورية العالم المغولي، 1206–1370» (ألدرشات، إنجلترا، فاريورم، إعادة الطباعة، 1977) ص. 158.
3. علاء الدين عطا مالك الجويني، «تاريخ غازي العالم»، ترجمة جان آندرو بول،

مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 39.

4. وليام وودفيل روكهل، «رحلة وليام الروبريكي للجزء الشرقي من العالم، 1253–55 ، كما رواها هو نفسه، مع وصف رحلتين سابقتين عليها لجان دي كاربيني»، ترجمها عن اللاتينية وحررها وقدم لها وليام وودفيل روكهل (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900).

5. «كيراكوس غانجاكسي، تاريخ الأرمن» كيراكوس غانجاكسي، ترجمة: روبرت بدروجيان، مصادر التراث الأرمني، 1986 متوفرة على الموقع htt//www. rbedrosian.com/kg1.htm.

6. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال وكورديل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني متوافران على الموقع: http// www.gutenberg.net.

7. حامد الله المستوفي، «نزهة القلوب» ترجمة: جي. لي سترينج (ليدن، هولندا، بريل و لوزاك، 1919) ص. 211.

8. «خواندامير» «حكم المغول جنكيز خان، الأمير التيموري» ترجمة: وليام ثاكستون، المجلد الثالث (كمبريدج، قسم الدراسات للغات وحضارات الشرق الأدنى، جامعة هارفرد، 1994) ص. 58.

9. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994) ص. 587.

10. وليام وودفيل روكهل، «رحلة وليام الروبريكي للجزء الشرقي من العالم، كما رواها هو نفسه، مع وصف رحلتين سابقتين عليها لجان دي كاربيني»، ترجمها عن اللاتينية وحررها وقدم لها وليام وودفيل روكهل (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900).

11. «كيراكوس غانجاكسي، تاريخ الأرمن» كيراكوس غانجاكسي، ترجمة: روبرت بدروجيان، مصادر التراث الأرمني، متوفر على الموقع htt//www.rbedrosian.

.234 ،com/kg1.htm

12. وليام وودفيل روكهل، «رحلة وليام الروبريكي للجزء الشرقي من العالم، كما رواها هو نفسه، مع وصف رحلتين سابقتين عليها لجان دي كاربيني»، ترجمها عن اللاتينية وحررها وقدم لها وليام وودفيل روكهل (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900).
13. المصدر السابق.
14. المصدر السابق.
15. المصدر السابق.
16. هيتوم، «زهرة تواريخ الشرق».
17. المصدر السابق.
18. المصدر السابق.
19. أحمد كرامصطفى، «أصدقاء الرب الجامحين» (مدينة البحيرة المالحة، مطبوعات جامعة أوتا، 1994) 21.
20. فرانز روزنتال، «مجتمع القرون الوسطى الإسلامي في مواجهة الحشيش»، (ليدن، أي، جي، بريل 1971)، 48–51.
21. محمد العبادي، (تحرير)، «نفاد الجراب» لسان الدين بن الخطيب (القاهرة، 1968) 20، 183، روزنتال «مجتمع القرون الوسطى في مواجهة الحشيش»، 55.
22. فرانز روزنتال، «مجتمع القرون الوسطى الإسلامي في مواجهة الحشيش»، (ليدن، أي، جي، بريل 1971) ص 165.
23. للمزيد حول الحيدرية انظر مرجع بوري باها «أوقاف الكارناما»، ص. 11–13، 17، وكذلك أحمد كرامصطفى «أصدقاء الله الجامحين»، (مدينة البحيرة المالحة، مطبوعات جامعة أوتا، 1994) ص. 52–53، 57–58، 67–70.
24. روفن آمتاي بريس،جيشو، «الصوفية والشامانية» (1999) ص. 38–39.
25. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في ذكر المائة السابعة» (بغداد، 1932) ص. 343.

26. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليال و كورديل لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» وروستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني متوافران على الموقع: http// www.gutenberg.net.

27. «تاريخ المغول السري»، تاريخ وحياة جنكيز خان، ترجمة: أرغونج أنون (ليدن، هولندا، برل، 1990) ص. 3

28. «كيراكوس غانجاكسي، تاريخ الأرمن» كيراكوس غانجاكسي، ترجمة: روبرت بدروجيان، مصادر التراث الأرمني، متوفرة على الموقع htt//www.rbedrosian.com/kg1.htm، 234.

29. أ. موستورت و ف. وليام كليفز، «ثلاث وثائق مغولية من الأرشيف السري للفاتيكان» صحيفة هارفرد للدراسات الآسيوية 52 (1952).

30. كريستوفر داوسون، (تحرير)، «بعثة المغول» ترجمة راهبة من كنيسة ستانبروك، (لندن، شيد وورد، 1955) ص. 85–86.

31. المصدر السابق، ص. 203–4.

الفصل العاشر

المغول والقانون

الياسا

«الياسا» مصطلح مغولي، يعني القانون أو النظام أو الدستور أو الحكم. وكان يعني كفعل: الحكم بالإعدام على مقترفي الجرائم فيقال: «حكم عليه بالياسا». وهو قانون أصدره جنكيز خان عام 1206م، خلال اجتماع القوريلتاي الأعظم، ليشمل جانباً كبيراً من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب للمحافظة على الأمن في أنحاء الإمبراطورية. ويسري تطبيق أحكام «الياسا» على جميع الأراضي الواقعة تحت حكم المغول. هذا وثمة اعتقاد بأن جميع الأمراء والخانات كانوا يحتفظون بنسخ منه في خزائنهم للرجوع إليه كلما دعت الحاجة إلى ذلك، مع وجوب بقاء النص الأصلي سرياً محرّماً على العامة، مثلما كان الاطلاع على «التاريخ الرسمي للمغول» والذي يدعى بلغتهم «آلتان ديبتر Altan Debter» حكراً على فئة النبلاء، وهذا ربما يفسر عدم وجود نسخة مكتوبة حتى يومنا هذا، وأن القول بنسخ «الياسا» كان زعماً محضاً، وفي الحقيقة فقد تم تناقل أحكامه شفاهياً بين الأمراء والحكام. والياسا أساساً مبني على القوانين التقليدية المغولية، لكنه يتميّز بالمرونة، والانفتاح، والقدرة على التكيف، وتشريع قوانين وأحكام جديدة كلما لزم الأمر. وبهذه المناسبة فإن الجويني، المؤرخ المسلم وحاكم بغداد زمن الإلخانات، أعلن قائلاً: «إن العديد من هذه القوانين المحلية

يتماشى مع أحكام الشريعة الإسلامية»(1). وبناء عليه فإن «الياسا» اعتبرت مجموعة من الطقوس والقوانين السائدة قبل زمن اجتماع القوريلتاي الأعظم عام (1206م) واقتصر دور جنكيز خان على جمعها.

عُرف عن ابن جنكيز خان «شقطاي» تمسكه الصارم بنصوص الياسا (الشفهية) واتباع تعاليمها حرفياً لدرجة تحول كل ما كان يأمر به إلى قوانين تدخل في صلبها. والعديد من أحكام «الياسا» كان عبارة عن تعاليم وأقوال مأثورة عن جنكيز خان، وكذلك مجموعة تعاليم وأقوال أخيه بالتبني «شيجي - قوتوقو Shigi–Qutuqu» الذي مُنح ثقة جعلته يحظى بشرف الحكم في اجتماع «القوريلتاي» الأعظم عام 1206م وتم الإجماع على تسجيل أحكامه على أنها جزء من «الياسا» يجب العمل بها كأي قانون من قوانينها الأخرى. وقد سجلت أحكامه باللغة الأوغرية في «الكتاب الأزرق» أو حسب تلك اللغة «كوكو ديبتر Koko debter» واعتبرت أحكاماً مُلزِمة يجري القياس عليها.

وما زال الجدل قائماً إلى يومنا هذا حول وجود أو عدم وجود نسخة أصلية لـ«الياسا» مخطوطة بيد جنكيز خان نفسه.

تطبيق القانون

وسواء أكانت تلك النسخة المكتوبة موجودة أم لا فإن المغول - تحت حكم جنكيز خان - تقيدوا بمجموعة من القوانين والأحكام الملزمة، وكان التزامهم بها مُلفتاً، ومحط دهشة المبعوثين الأجانب. علّق على ذلك الراهب جيوفاني ديبلانو كاربيني قائلاً: «كانوا مسالمين في ما بينهم، فأشياء كالزنا والدعارة كانت نادرة الحدوث، وتفوقت نساؤهم على نساء الأمم الأخرى في العفة، ولم يعبهن إلا استخدامهن ألفاظاً نابية في الحديث أحياناً. وكانت اللصوصية نادرة الحدوث أيضاً، مما جعلهم لا يأبهون لإقفال دورهم. وإن عثر على مقتنيات سائبة كالجياد أو الثيران أو أية حيوانات أخرى فإما أن يُطلق سراحها لترعى حرة أو تُعاد إلى أصحابها... ومن النادر حدوث التمرد بينهم. وبناء على كل ما سبق وذكرت، فليس من الغريب أن تعاقب التجاوزات - إن حدثت - بقسوة»(2).

وحتى المؤرخ الجوزجاني (توفي عام 1260م) لم يتوانَ عن مدح انضباطهم، فكتب يقول في كتابه الشهير «طبقات ناصري»:

«فرض جنكيز خان قانونه العادل على كل أطراف مخيمه، فكان من المستحيل على أي كان أن يلتقط ولو حزاماً مرمياً على الأرض إذا لم يكن هو صاحبه أصلاً، ولهذا لم تشهد صفوف جيشه سرقة أو خداعاً»(3).

كما لم يتورّع الجوزجاني عن معاملة ابن جنكيز خان وخليفته «أوقطاي خان» بذات اللين والعطف اللذين لاقاهما على يديه وهو ما عُرف عنه (أي أوقطاي خان) بشكل عام تجاه رعيته من المسلمين. وبشكل عام كان التسامح الديني أحد تعاليم الياسا الأساسية، رغم الآراء المناقضة لهذا القول والتي تزعم أن المغول أرادوا اللعب على حبال جميع الأديان في الوقت نفسه، تحقيقاً لمصالحهم التوسعية. وبغض النظر فقد أعفت قوانين «الياسا» الرهبان وأماكن العبادة من الضرائب.

عومل الماء باحترام، وكان يعاقب كل من يلوثه بالتبول أو غسل الملابس. وقد اعتبرت المياه الجارية ومياه الينابيع كائنات حية مبجلة.

وطبّقت عقوبة الإعدام على بعض الجرائم كالتجسس وخيانة الوطن والارتداد عن الدين أو العقيدة والسرقة والدعارة وادعاء الإفلاس (في حالة التجار). وطُبق الإعدام بطرق مختلفة وإحدى أكثر الطرق عنفاً شهدها المؤرخ رشيد الدين ضد أحد الأكراد ممن أساؤوا لهولاكو خان، فكتب رشيد الدين يقول:

«أمر «هولاكو خان» بدهن جلد مالك صالح (الكردي المسيء) بشحم خروف، ولفه باللباد والحبال، ورميه تحت شمس الصيف الحارقة. وبعد أسبوع تعفّن الدهن، وبدأت تخرج منه ديدان نهشت لحم الرجل المسكين وبعد شهر كامل من العذاب مات. وأمر بإرسال طفله ذي الثلاث سنوات إلى الموصل، حيث قطع إلى قسمين، علق كل قسم على ضفة من ضفاف دجلة، وتُرك هناك ليتعفن ويكون عبرة لمن يعتبر»(4).

وكمثال على تبجيلهم طبقة النبلاء وتطيرهم، أنهم كانوا يتجنبون قدر المستطاع إهراق دم النبلاء على الأرض، فيعدمون الملوك والحكام وطبقة النبلاء بطريقة خاصة تتلخص بلفهم باللباد كي يمتص دمهم قبل أن يسيل أرضاً.

وكان يجري تطبيق القانون على الجميع من دون استثناء. كتب وليام الروبريكي يقول حول ذلك:

«وإذا أردنا التحدث عن عدالتهم فلهم فيها باع طويل. فحين يتقاتل رجلان لا يجرؤ أحد على التدخل بينهما، أو لصالح واحد منهما ضد الآخر. ومن يخسر يمكنه اللجوء إلى قضاء البلاط ليحكم له بالحق. وإن مسّه أحدهم بسوء بعد الدعوة يكون جزاؤه الموت. وتُتخذ الإجراءات المناسبة من دون أي تأجيل أو إبطاء، وعلى المصاب منهما أن يصحب خصمه إلى المحكمة بنفسه. ولا تُقبل شكوى أي إنسان ولا يُعاقب متهم إلا بعد ثبوت التهمة بالأدلة الدامغة أو بالاعتراف. وعندما يُتهم أحدهم من قبل عدة أشخاص، يعذبونه حتى يعترف، ويعاقبون القاتل بالإعدام، وكذلك الزاني مع زوجات الغير ونسائهم ولا ينطبق القانون على الجواري، إذ يمكن للشخص أن يفعل ما يريد بممتلكاته. كذلك تعاقب اللصوصية بالإعدام. أما إذا كانت السرقة تافهة كسرقة خروف مثلاً فيضرب السارق بقسوة ثم يُصرف على ألاّ يعاود ذلك الفعل ثانية. واذا حُكم عليه بمئة ضربة فيجب استخدام مئة عصا مختلفة (وهذا ينطبق فقط على المضروبين نتيجة حكم محكمة أو سلطة معينة). ويُعاقب انتحال شخصية المبعوث أو الدبلوماسي بالموت أيضاً، وكذلك انتحال شخصية العرافين وسأخبركم بالتفصيل أكثر عنهم في ما بعد.

عندما يموت أي شخص، ينوح عليه (أولئك السحرة أو العرافون) بصوت عالٍ ثم ينصرفون من دون تقاضي أجر على ذلك، فهم غير ملزمين بدفع الضرائب السنوية أيضاً. وإذا صادف وجود أي إنسان بالغ بالقرب من الشخص المحتضر لحظة موته، فلا يستطيع دخول المنازل الأخرى لمدة سنة وليس ثمة استثناء لذلك حتى وإن كان ذلك الشخص «مونكو خان» بذاته. أما إذا كان المتوفى طفلاً فيمنع من شاهد موته من دخول منازل الآخرين لمدة شهر فحسب. وإذا كان المتوفى أحد النبلاء فينصبون بجانب ضريحه خيمة، كي يستريح أهله فيها حين زيارة الضريح. وغالباً ما ينصبون مخيماً كاملاً بجانب المقابر لمراقبتها، وما لم أفهمه هو دفنهم الكنوز مع أمواتهم. وهم يقيمون تمثالاً للشخص الميت فوق القبر، جاعلين وجهه نحو الشرق، ويحمل كأساً في يده رافعاً إياها باتجاه الأفق. وأما الأغنياء فقد كانوا يصنعون لهم أهراماً، بعضها على شكل أبراج مكسوة بالقرميد، وبعضها مثل بيوت حجرية، رغم عدم توافر الحجارة هناك. وقد رأيت منذ وقت قريب جثة رجل توفي

حديثاً فعلقوا على سارية جلود 16 حصاناً.. كل أربعة منها تواجه جهة من جهات العالم.. واضعين للميت شراباً ليشرب، ولحماً ليأكل، وزاعمين بأنهم يعمّدونه بتلك الطريقة. وبعيداً أكثر باتجاه الشرق، رأيت قبوراً على شكل شرفات واسعة، مغطاة بحجارة مسطحة كبيرة، بعضها دائري، وبعضها مربع الشكل عند كل زاوية منها وضعوا حجراً مستطيلاً ليواجه زوايا العالم الأربع. وعندما يمرض أحدهم يتوجب عليه الاستلقاء في فراشه مع وضع علامة على مسكنه من الخارج لتخبر عن مرضه حتى لا يدخل عليه أحد. وهكذا فالشخص المريض لا يُزار إلا من قبل خدمه فقط. وإذا مرض الخان أو النبيل قامت مجموعة من الجنود بحراسة مخيمه، مانعين أي شخص من الدخول، لأنهم يؤمنون بأن أرواحاً شريرة ستخرج من أولئك الذين فعلوا، لكنهم كانوا يسمحون لعرافيهم بالدخول»(5).

القانون المغولي في الصين

نشأ في كل من الصين وفارس، قانون مركب هو مزيج من قوانين البلاد الأصلية والقوانين المغولية التي تداخلت معها، وخاصة في الصين التي كان لها باع طويل منذ قرون في تشريع القوانين، وصياغة الدساتير. كتب «هينج- تشاو تشن» متحدثاً بالتفصيل عن هذا الموضوع في كتابه «تقاليد الصين القانونية في ظل الحكم المغولي: كيف أعيد صوغ دستور عام 1291م» وشارحاً كيف تم تبني تلك القوانين والدساتير الصينية التقليدية من قبل التشريع المغولي. ويضمّن «هينج - تشاو تشن» كتابه الصغير هذا إعادة صياغة لأحد أهم القوانين، ويترجمه إلى الإنجليزية والذي يدعى «تشيه - يان سن - هو Chih–Yuan hsin–ho».

بعد سنوات طويلة من الحرب بين كل من أسر «لياو Liao» و«تشن Chin» و«سونغ Song» توحدت تلك الأسر تحت لواء إمبراطورية «اليان» المغولية، وكان على المؤسسة القانونية الصينية أن تتكيف مع هذا الواقع الجديد، وتنخرط في صلب المؤسسة المغولية الجديدة التي حكمها خانات قادمون من السهوب الرعوية. وعادة ما يتجاهل المؤرخون التقليديون تلك الفترة كأنهم يغيبونها في الثقب الأسود، فينتقلون مباشرة من عهد أسرة «سونغ» إلى «منغ» من دون أن يتطرقوا إليها. لكن ليس ثمة ما

يبرر ذلك التجاهل المجحف بحق المغول الذين تبنوا العديد من بنود التشريع الصيني ومزجوه بقوانينهم التي جلبوها معهم من السهوب مع المحافظة على أسسه الأصلية. وقد اعتُمد دستور عام 1291 المُحَدّث كأساس لدستور إمبراطورية «اليان» أطلق عليه اسم «تايوان توانج – تشن Ta Yuan t unt–chin» والذي يعني (القانون الشامل لإمبراطورية اليان العظمى). فبعد أن أخفق قانون «الياسا» التقليدي في الصمود في وجه المتغيرات الاجتماعية بعد توسع الإمبراطورية وخاصة في الصين، كان لابد من اللجوء إلى قانون أشمل وأكثر مرونة لتطعيمه بها. وكان دستور أسرة «تانغ Tang» هو القانون الساري في الصين منذ سنوات حكم تلك الأسرة في عام 635م، وقد وزّعت بنود ذلك الدستور على 12 جزءاً، مغطية معظم الحالات القانونية. ويعد دستور أسرة «تشن» نسخة عنه، وظل معمولاً به إلى ما قبل الإعلان الرسمي لقبلاي خان عن تشكيل إمبراطورية اليان في عام 1271م. وقد اشتق اسم «اليان» من كتاب صيني مقدّس قديم، هو كتاب «التغيرات» (الذي سبق ذكره في الفصول السابقة) وهو يعني (أصل الكون) مما يشير إلى ملمح مهم من تكيف المغول مع الحضارة الجديدة.

دستور اليان

لم يأبه إداريو إمبراطورية «اليان» بحرفية دستور «تانغ» الساري في الصين حينذاك، واختاروا التحايل عليه بقوانين أكثر مرونة وسلاسة، مفضلين القياس على وقائع وحوادث قانونية سابقة، جرى جمعها، والتوليف بينها لتأسيس قانون «اليان» الجديد. وكانت النتيجة التضحية ببعض القوانين الصينية التقليدية لصالح قوانين جديدة أقل حدة، تبنتها السلطة التشريعية الجديدة. ورغم بطلان «الياسا» الواضح، فقد دخل الكثير من قوانينها، وطقوسها، وممارساتها ضمن نطاق النظام التشريعي الجديد من خلال تبنيها كما هي، أو من خلال القياس عليها في ما يتعلق بأحداث أو وقائع حديثة. وبهذه الطريقة تمكّن قبلاي خان، وخلفه من التوليف بين التشريع الصيني التقليدي وقانون المغول التقليدي (الياسا) وكذلك بين أحداث الواقع السياسية والاجتماعية المستجدة في ظل حكم أسرة «اليان». فمنذ عام 1271م وحتى عام 1320م

بدأت التغيرات في النظام القانوني تأخذ مجراها، إما باتجاه المحافظة على القوانين القديمة، أو بابتكار مؤسسات صينية قانونية جديدة لتساير الوضع الراهن وترضي متطلباته. ومنذ عام 1320م إلى نهاية حكم أسرة «اليان»، أخذت تلك المؤسسات توحد وتدمج القوانين المغولية في صلبها، وهي العملية التي نتج منها الدستور الجديد، وهو ما لم يكن ليرضي جميع الأطراف بالطبع. وقد انتقد أحد المؤرخين اللغة التي ترجم بها المغول الدستور الصيني، وتدخّل الإداريين المغول وتحويرهم لبنوده فكتب يقول: «لقد مزجوا في وثائق (اليان تين تشانغ) الراقية، ثماني إلى تسع بل عشر وثائق، كُتبت بلغة عامية فجة وركيكة، بسطتها وخرّبت جوهرها، وجعلوها مفككة من غير أي ترابط بين بنودها»(6).

وقد شاركه الانتقاد باحث بارز آخر هو «ياو ناي Yao Nai» (1731–1815م) الذي جاء انتقاده أكثر مباشرة وتعصباً، متهماً دستور «اليان» باستخدام مصطلحات مربكة ووضيعة وساذجة. إلا أنه رغم هذه العيوب فقد تابع إداريو اليان تشريعهم. وفي(1324م وُزعت نسخ من التشريع الجديد على جميع المؤسسات ليسري العمل به. وفي 1328م أمر الخاقان «طق تيمور»، الذي حكم بين عامي (1328و32م)، ويعتبر نفسه رجلاً محباً للأدب والفن بشكل عام، والصينيين بشكل خاص، وهو الذي أسس في 1329م أكاديمية علمية وفنية.. بجمع وثائق ذلك التشريع وتصنيفها. واكتمل مشروع التصنيف ذاك في 1331م بعد أن تطلب العمل فيه تواصلاً حثيثاً بين الجانبين المغولي والصيني. وقد أظهر مقدار احترام المغول لمناهج الصينيين المستقاة من زمن الأسرتين العريقتين: سونغ وتنغ.

ويتضمن الجزء المختص بالأحكام القضائية «هسين تين Hsien–tien» 22 فصلاً عن جميع القوانين المعاصرة، ومسرد بجميع القوانين التي أُبطل العمل بها. ومن ضمن عناوين النصوص كانت عناوين مثل: «القوانين الإدارية» و«الممنوعات والحرس الإمبراطوري» و«المبادئ والمصطلحات العامة» و«قوانين التضحيات» و«تنظيم التعليم» و«العائلة والزواج» و«اللصوصية والعنف» و«الطعام والمقتنيات» و«الشكاوى والدعاوى القضائية» و«القتل والاعتداءات» و«مراسيم العفو العامة»

و«أسوأ المنكرات» و«الاختصام والاعتداء» و«السجون الفارغة» و«الشر والأفعال السيئة» و«لين العقوبات».. الخ.

وتقدم الكثيرون من إداريي الصين بطلبات إلى الخاقان للعمل على تعديل مواد الدستور، محتجين بأن الحاجة إلى التغيير غدت ضرورة اجتماعية ملحّة. إلا أنه اتضح أن للبيروقراطية الصينية الصارمة مآرب خفية لإبطاء العمل أو إفشاله دفعة واحدة، رغم تشجيع الخاقان «طق تيمور» للمنحى الحداثي الذي تبناه الجانب الآخر، وذلك من خلال توسيع أنشطة أكاديميته. فأصدر في 1334م مرسوماً يقضي على رعيته من المغول وجميع أبناء آسيا الوسطى المقيمين في الصين بإقامة مراسم الحداد لذويهم. وفي 1343م أمر بإكمال «التواريخ الثلاثة» وهو ما تمّ في 1345م والذي اقتفى آثار الأسر الثلاث الشهيرة: لياو، وتشن، وسونغ، وصولاً إلى زمن حكم أسرة «اليان». فجرى التأكيد على ضرورة دراسة هذه الحقب الثلاث من قبل الطلبة والإداريين في الوقت ذاته، وذلك للتمكن من فهم الحاضر والتمرس في إدارته بحكمة ودراية. وقد صدرت النسخة الرسمية الأخيرة من دستور «اليان» في 1346م، وهي التي دُعيت بـ «تشه- تشنج تياو- كو Chih-cheng t'iao-ko» وتضمنت 150 قانوناً، و1،700 مادة، و1,050 سابقة. لكن تحدي ذلك الدستور ظل مستمراً، ومع هذا فهناك أدلة على استمرار وجوده والعمل به رغم كل شيء.

وقد أظهر حكام المغول احتراماً للقوانين الصينية التقليدية، باعتباره وسيلة لإظهار احترامهم لرعاياهم من الصينيين. ومع اتساع معارفهم بتلك القوانين والثقافة الصينية بشكل خاص استطاعوا تبني ما ناسبهم منها، ودمجه في صلب دستورهم الجديد، الذي حكموا به إمبراطورية «اليان». وهم كلما تعمّقوا أكثر في فهم المنطق الصيني في الحكم والعيش بشكل عام، قل سوء التفاهم وانعدام الثقة، وساد التسامح واللين. فبعد 1320م غدا جلياً أن عادات المغول وطقوسهم، تكيّفت مع المؤسسات الصينية التي كانت سيطرتها تزداد أكثر فأكثر، واندمجت فيها.

القانون الجزائي

خضع القانون الجزائي أيضاً لتعديلات وإصلاحات، تحت حكم أسرة «اليان» المغولية. وقد ترسخ بعض تلك التعديلات في ظل حكم الأسر الصينية اللاحقة. وبالنسبة إلى قوم ارتبطت صورتهم بالوحشية وهرق الدماء، من المفاجئ حقاً فحص سجلهم في مجال تطبيق عقوبة الإعدام في ظل حكومة «اليان». فعدد الجرائم التي تستحق عقوبة الإعدام، وبلغ 135، مثلما أدرجت في القانون الجزائي «يان شي» كان أقل من رقمي 293 و963 و1397 في ظل حكم «التانغ» (618 – 907) و«السونغ» (960– 1260) و«المينغ» (1368 – 1644). ووصل عدد الإعدامات ما بين عامي1260م و1307م إلى 2743 إعداماً، وهو ما لا يُعتبر عدداً كبيراً قياساً بتعداد السكان الضخم في الصين آنذاك. والحقيقة أن العقوبة في العديد من تلك الحالات، خفّفت إلى السجن المؤبد في آخر لحظة، مع بقائها مدونة باعتبارها عقوبة إعدام في سجلهم القضائي. وقد عُرف عن حكام المغول تسامحهم ولينهم في ما يخص العقوبات، وهي الحقيقة التي تجاهلها الصينيون والمؤرخون الأجانب من غير الراغبين في التخلي عن أسطورة المغول كمصاصي دماء حكموا الصين بالإرهاب وبيد من حديد.

وقد شهدت سنوات حكم «اليان» توسعاً ملحوظاً للمجتمع الصيني الحضري، مصحوباً بانفتاح تجاري كبير. وفي ظل هذا الواقع الجديد سادت التعديلات القانونية سالفة الذكر. وللتوفيق بين هذه القوانين، والمؤسسات الجديدة، والتغيرات الاجتماعية جرت مراجعة القانون الجزائي وتكييفه. كما ظلت الركائز التي ينطلق منها ذلك القانون وهي الانتقام والترويع والحظر وإعادة التأهيل، قائمة من دون تغيير، وبقيت العقوبات التقليدية الخمس «وو– سنج Wu–hsing» على حالها، ولكن تغييرات جذرية قد طاولت شكل ذلك القانون ومضمونه. وقد انقرض الكثير من تلك التغيرات بانقراض عهد أسرة «اليان»، ولكن بعضها الآخر عايش الفترات اللاحقة، وصولاً إلى فترة حكم أسرة «مينغ» وحتى «تشنغ». كما أضيفت بعض العقوبات الجسدية والمادية إلى العقوبات الخمس سابقة الذكر، وجاءت تلك الإضافات كانعكاس لتأثير «الياسا» الذي كان ما يزال قائماً في ذهنية حكام المغول، وتم العمل بها طوال فترة

حكم «اليان» واستمرت تلك العقوبات الجديدة أيضاً لتعاصر حكم أسرتي «مينغ» و«تشنغ».

العقوبات

تتدرّج العقوبات التقليدية الخمس (وو- سنج) والتي ترجع في جذورها إلى دستور أسرة «سو Sui» (589-618 ق.م) الذي جرى سنّه بين عامي 581و83 ق.م، كالتالي: عقوبة الإعدام، النفي إلى مسافة ثلاثة آلاف لي (الـ لي، وحدة قياس تساوي كل واحدة منها ثلاثة أجزاء من الميل) أو مسافة 2500 لي أو ألفي لي، السجن لخمس مدد تتراوح بين السنة والثلاث سنوات، الضرب بعصا ثخينة ما بين 60 إلى 100 ضربة؛ الضرب بعصا رفيعة ما بين 10 إلى 50 ضربة.

وقد أدخلت الهيئة التشريعية لحكومة «اليان»، تعديلات فريدة على عقوبة الإعدام. فاستبدل الشنق بما يسمى بـ «لينج - تشن» أو التقطيع البطيء الذي ترجع أصوله إلى حكومتي «مينغ» و«تشنغ». واعتبرت هذه العقوبة من أقصى العقوبات التي يمكن إنزالها بالمحكومين بتهمة الخيانة العظمى. إذ يجري التقطيع على التوالي للوجه واليدين والقدمين والصدر والمعدة وأخيراً الرأس. مع احتمال زيادة هذه التقطيعات الثمانية إلى 24 أو 36 أو حتى 120. والهدف هو إطالة العذاب إلى أبعد مدى ممكن. وبالمقارنة مع هذه العقوبة فُضل الشنق، حيث لا يتم فصل الرأس عن الجسد، وهكذا يمكن العبور إلى العالم الآخر بسهولة (حسب معتقدات الصينيين). ولكن المغول الذين لا يؤمنون بهذا المعتقد، ألغوا عقوبة الشنق التي لم تكن تمثل بالنسبة إليهم طريقة ناجعة للإعدام.

وقد برزت المرونة في تطبيق قوانين الإعدام بعدما أصدر «قبلاي خان» المرسوم الذي قضى بمراجعة جميع التهم المحكومة بالإعدام، مراجعة دقيقة قبل التنفيذ. ومن المعروف أنه في 1260م تولى بنفسه مراجعة ملفات المحكومين بالإعدام، وقد أصدر الكثير من الأحكام المخففة والإعفاءات. وسجل تاريخ قانون «اليان» أنه في 1287م جرى تخفيف عقوبة الإعدام في اللحظة الأخيرة إلى السجن مدى الحياة لمئة وتسعين

شخصاً بعد أن صرح «قبلاي خان» قائلاً: «إن المساجين ليسوا قطيعاً من الخراف، فكيف يمكن ذبحهم بسهولة كما تذبح الشياه! الأفضل أن نسجنهم ونسخّرهم للعمل في غربلة الذهب». ورغم أنه ليس من المعروف عن المغول إصدارهم قوانين العفو العام، إلا أن مثل تلك القوانين صدرت أثناء حكم أسرة «اليان» المغولية في الصين، وطاولت بصورة خاصة البوذيين ولاماتهم (رجال الدين البوذيين). وقد أثارت كثرة عدد مراسيم العفو العام سخط الإداريين الصينيين وخاصة «تشانج يانج–هاو» الذي أكد على ضرورة التشدد أكثر في العقوبات، والتقليل من مراسيم العفو العام(7).

وبما أن المغول أناس رعويون فإنهم لم ينظروا بعين الرضا إلى بعض العقوبات كالنفي مثلاً، فأضافوا لتلك العقوبة، تحديد المسافة التي على المحكوم أن يُنفى إليها بعيداً عن وطنه الأصلي، فكانوا يرسلون أبناء الشمال إلى الجنوب وبالعكس. وهناك في المنفى سخّر المساجين للعمل في الحقول أو كسعاة بريد. فالنفي في حد ذاته لم يعتبر عقوبة كافية، وكان من الضروري بالنسبة إليهم أن يضيفوا الأعمال الشاقة لزيادة معاناة المحكومين وألمهم. وقد بنت حكومة «اليان» مراكز خاصة لإقامة المنفيين، مزودة بالحراسة العسكرية، وكذلك بمحكمة لمعاقبة أي تمرد أو جريمة تُرتكب داخل تلك المراكز، والعمل على إصدار عقوبات نفي إلى أماكن نائية، خارج حدود الإمبراطورية.

وكذلك اعتبرت عقوبة السجن غير كافية، ما لم ترافقها عقوبات جسدية. فعقوبة السجن لعام واحد رافقتها 67 ضربة مبرحة بعصا ثخينة، والسجن لمدة عام ونصف العام رافقتها 77 ضربة، ولمدة سنتين 87 ضربة، وهكذا وصولاً إلى عقوبة السجن لمدة ثلاث سنوات والتي رافقتها 107 ضربات بتلك العصا نفسها. وبالإضافة إلى الضرب يسخّر المساجين للقيام بأعمال شاقة.

وأما العقوبة الأخيرة من العقوبات الخمس التقليدية فكانت الضرب بعصا ثخينة أو رفيعة، حيث كانوا يضربون بالعصا الرفيعة من 7 إلى 57 ضربة، وبالثخينة من 67 إلى 107 ويتبع اطراد عدد الضربات النظام المغولي التقليدي في العد حسب وحدات من سبعة أرقام (مثلاً 7 ثم 17 ثم 27 الخ..) مثلما لاحظ المؤرخ الفارسي واصف الشيرازي

(توفي في 1328م). وقد تحدّث ماركو بولو عن شدة تلك الضربات التي قد تؤدي إلى الموت أحياناً(8). وكان استخدام تلك الطريقة في العدّ سائداً منذ عام 1260م، وكان قد طبق للمرة الأولى كعقوبة على التجول ليلاً خلال فترات منع التجول، وقد تعرض مرتكبه لـ 27 ضربة من عصا رفيعة. وفي حقيقة الأمر قضى قانون أيضاً بأن يكون قطر أحد طرفي العصا الخفيفة 0،27 إنش صيني في حين يكون قطر الطرف الآخر 0،17 إنش.

ملاحق قانون (وو- سينج) أو العقوبات الخمس

جرى النظر إلى العقوبات الجسدية والمالية التي أضيفت إلى قانون الوو- سينج كشكل من أشكال التعويض، فالمحكومون من الذين لم يكملوا خمسة عشر عاماً، أو الطاعنين في السن (أكثر من 70 عاماً) أو المرضى أو العاجزين يمكنهم تعويض ضحيتهم مالياً. وقد جرى التعارف في ظل «اليان» على شكلين رسميين من التعويض وهما: «شاو- ماي- ين Shao—mai—yin» وهو يعني (التعويض عن طريق دفع أجور المآتم) والتعويض عن نفقات العلاج. هما إجراءان مشتقان أساساً من قوانين المغول (الياسا)، وكانا يهدفان إلى تحقيق العدالة ومنع أسباب الانتقام. وقد ركّزت «الياسا» عليهما تفادياً لعقوبات صارمة مثل الإعدام، كعقوبة على القتل. فالجاني يدفع 40 قطعة ذهبية إذا كان الضحية من المسلمين، أما إذا كان من الصينيين فيقدم حماراً واحداً. وقد احتلّت عقوبة «دفع أجور المآتم» أهمية خاصة في القانون الصيني، بعد أن تم تناسي أن أصولها ترجع إلى (الياسا). وقد بسّط قانون «اليان» ذلك التعويض على الشكل التالي: «عقوبة القاتل هي الإعدام. وعلى الحكومة اقتطاع مبلغ 50 أونصة من الفضة تدفع لذوي الضحية لأجل أجور المأتم وإذا لم تتوافر الفضة تدفع قيمتها بالعملة الورقية. وإذا شمل الجاني عفو عام يضاعف ذلك المبلغ»(9).

ومن المتعارف عليه أنه إذا عجزت عائلة الجاني عن الدفع، يطلب من أحد أفرادها العمل في السخرة لتسديد أجور مأتم الضحية.

كما شرح قانون اليان تعويض أجور العلاج: «أي إنسان يجرح أو يؤذي شخصاً آخر مسبباً له إعاقة أو إصابة خطيرة يضرب بعصا غليظة 77 ضربة. كما تغرّمه الحكومة

نفقات العلاج، والتي تبلغ عشر قطع نقود ورقية»(10).

وقد فضّل قانون «اليان» استخدام هاتين العقوبتين على الحبس لثلاث سنوات، وهي العقوبة المفروضة زمن دستور أسرة «تنغ» ودستور أسرة «منغ»، الذي كان يطالب بمئة ضربة بعصا ثخينة، بالإضافة إلى تلك السنوات الثلاث التي على المحكوم قضاؤها في السجن. وهناك العديد من الأمثلة على لين النظام في ظل أسرة «اليان» وتساهله. فعقوبة ضرب أخت الزوجة أو الزوج حتى الموت، هي دفع أجور المأتم بالإضافة إلى 107 ضربات بالعصا الثخينة. وفي المقابل كان قانون أسر التنغ والمينغ والتشنغ، يفرض عقوبة الشنق. مما يدل على أن نظام أسرة «اليان» أوجد نوعاً من التوازن بين قانون العقوبات الصيني التقليدي وقوانين المغول الأكثر تساهلاً، والقابلة بمبدأ التعويض.

وقد تطرق قانون «اليان» إلى العقوبات التي من المتوقع فرضها على العبيد والخدم في حال اقترافهم الجرائم المختلفة فجاء فيه: «إن سرق أحد العبيد من الجنسين ثور شخص آخر، أو حصان ذلك الشخص يسلم إلى صاحب الثور أو الحصان المسروق حتى يحصل بنفسه على التعويض الذي يلائمه وذلك بعد أن يعاقب من الحكومة».

وإن حدث وقتلت الأمة زوجة زوجها الأخرى فإن زوجها يدفع الثمن أو يقوم بقطع أذنيها وتزويجها لأحد أفراد عائلة الضحية(11).

واعتبر العبيد جزءاً من العائلة التي يخدمونها، مما خفّف عنهم العقوبات قليلاً. فمن وجهة النظر الصينية لا تستحق السرقة من الأقرباء العقوبة نفسها، التي تستحقها السرقة من الغرباء، لأن مساعدة كل فرد للآخر، وإعالته هما مسؤولية أخلاقية وتقعان على عاتق الجميع في العائلة الواحدة حتى تستمر وحدة العائلة ويحافظ على استقرارها.

أما بالنسبة للموظفين الإداريين فكانوا يمنحون حق التعويض إذا كانت جرائمهم خفيفة. فإما باقتطاع جزء من رواتبهم، أوبتخفيض رتبهم، أو بالصرف من الخدمة العامة. وإحدى الإضافات على هذه العقوبات هي عقوبة الغرامة المضاعفة تسع مرات، وهي تطبّق في حالة السرقة فيترتب على السارق التعويض بتسعة أضعاف قيمة

الغرض المسروق، وهي إضافة تبناها القانون الصيني من «الياسا»، فجاء في قانون «اليان»: «أي شخص يسرق جملاً أو جواداً أو ثوراً أو حماراً أو بغلاً يجب أن يعوض عن كل حيوان مسروق بتسعة مثله»، مما يشبه إلى حد بعيد ما جاء في «الياسا»: «من يسرق حصاناً يعده إلى صاحبه مع تسعة جياد أخرى». وإذا كان السارق لا يملك العدد الكافي من الجياد مثلاً فعليه التعويض بأولاده «وإذا لم تكن لديه ذرية، يذبح نفسه كشاة»(12). وقد ذكر ذلك أيضاً ماركو بولو في رحلاته، مضيفاً أنه كان يجري التساهل أحياناً والاكتفاء بمضاعفة الغرض المسروق.

وبالإضافة إلى هذه الغرامات المادية المضافة على قانون العقوبات الخمس، هناك العقوبات الجسدية. وتلك تعود إلى قانون حمورابي القديم (العين بالعين والسن بالسن)، وهو قانون ساد منذ عهد أسرة «تنغ» ويشمل عقوبة الاتهام الكاذب، حيث يقول القانون في ذلك: «كل من يتهم شخصاً آخر، زوراً وبهتاناً، يُعاقب كأنه هو الذي ارتكب الجريمة»(13). وقد سُنّ بند خاص لقصاص كل من يعتدي على رجال الدين: «كل من يعتدي بالضرب على «اللاما» تقطع يداه، ومن يعتدي عليهم بالسباب والشتائم يقطع لسانه»(14). وعلّق ماركو بولو على هذا القانون قائلاً: «إذا ضرب شخص «اللاما» بسيف أو أداة حادة فإن عقوبته تكون بقطع يده سواء أصابه أم لم يصبه، فالمعتدي يجب أن يلقى مصير المعتدى عليه»(15).

وإحدى العقوبات الملحقة بقانون العقوبات الخمس، أو التي حلّت مكانها هي عقوبة الـ «تزو– تزو tzu–tzu» التي تتضمن الوشم بالمرقم (وهو أداة للكتابة على ألواح الشمع) وشرّعها مشرعو «اليان». ويجري الوشم على ذراع الجاني أو عنقه، بدلاً من جبينه، كما كان متبعاً خلال حكم أسرة «سونغ». وبعد ذلك يتوقع من الشخص الموشوم أن ينضم إلى جماعة تعمل كعيون لصالح رجال الشرطة، تحت اسم «تشنج– تشي – تجن Ching–chi–jen» بهدف إبلاغ الشرطة عن أمثاله من المسيئين. حتى عقوبة الإعدام فإن من الممكن تخفيفها إذا عمل الجاني تحت إمرة «التشنج – تشي – تجن» وتعاون تعاوناً حقيقياً مع رجال الشرطة، ولكن الجاني إذا كرر اقتراف الجرم فعليه العمل مخبراً لبقية حياته. وجرى الاعتماد على ثلاثة مقاييس

للتأكد من عمل أولئك المخبرين بالطريقة المطلوبة: أولاً: بعد انقضاء مدة المحكومية أو العقوبة يرسل الجاني إلى موطنه ليعمل في سلك الـ «تشنج - تشي - تجن» للإخبار عن الجرائم المحلية هناك، وثانياً: يُكتب اسم المخبر بحبر أحمر على جدار مسكنه من الخارج لتمييزه وحمايته من الاعتداءات المحتملة، وثالثاً: على المخبر العامل في ذلك السلك، التقدم بشكل منتظم (مرتين شهرياً) بتقرير عن نشاطاته للسلطات المختصة، وعليه دعم تقريره بشهادة من جيرانه أو رئيس بلدته (المختار مثلاً) للتأكيد على حسن سلوكه. وفي حالة إخلاله بأي تصرف أو ارتكابه أي خطأ يعاقب هو وذلك الشخص الذي شهد لصالحه.

صدر مرسوم رسمي لشرح عملية الوشم عام 1302م للمتهمين باللصوصية، جاء فيه: «يجب وشم جميع اللصوص على أذرعهم اليسرى عند ارتكابهم الجرم للمرة الأولى (وهذا يشير فقط إلى الأشخاص الذين سرقوا أغراضاً ثم أرجعوها)، وإذا كرر الجاني الجرم مرة ثانية فإنه يوشم على ذراعه اليمنى. وأما في الثالثة فيوشم على عنقه. وفي جميع الحالات يجب عليه بعد عملية الوشم أن يخدم في سلك الـ «تشنج - تشي - تجن» وعلى السلطات المختصة مراقبته حسب التقاليد المتعارف عليها، ولا يسري هذا القانون على مرتكبي السرقة من رجال المغول ونسوتهم»(16).

تطبيق القوانين

أكبر تحدٍ واجهه المغول، بعد وضع قوانينهم هو كيفية تنفيذها، خاصة بعد توسع الإمبراطورية، وتعدد انتماءات أفرادها العرقية والدينية والقومية، ونظراً إلى ما أفرزته تلك الاختلافات من طقوس وتقاليد اجتماعية واقتصادية. وكان النجاح في تطبيق تلك القوانين، إغناء لكبرياء «اليان» نفسها وهيبتها. وشُرّع باب الوظائف القضائية على مصراعيه لكل من كان بإمكانه القراءة والكتابة ولكل مهتم بالعمل في هذا المجال.

وكان «مجلس أمانة السرّ» يحتل أعلى التسلسل الوظيفي القضائي، أو الـ «تشنغ- شو - شنغ chung–shu–sheng» التابع للحكومة المركزية، وتحت إمرته عشرة مجالس

مماثلة أو «سنغ – شنغ Hsing—sheng» والتي كانت بمثابة حكومات إقليمية. وكان المجلس يقسم لأربع دوائر هي: «لو lu» و«فو fu» و«تشاو chou» و«سين hsien» إضافة إلى الجيش ودائرة الأمن التابعين لسلطته. وقد اعتمدت دائرة «سين» مركزاً أساسياً لتقديم القضايا، وتوزيعها على بقية الدوائر، وبناء على ذلك احتلت مكانة أعلى من الدوائر الثلاث المحلية الباقية، التي أخذت مكاناً وسطاً أو أدنى. وفيها جرى تقسيم المناصب على الشكل التالي: القاضي (سين – ين)، ومساعد القاضي (سين – تشنغ)، وصاحب الديوان (تشو– بو)، ومفوض الحكومة أو الحاكم (سن – وي) ومفوض المنطقة أوحاكم المنطقة (داروتشي). ومن مهام الحاكم السيطرة على الأمن، وتنفيذ القانون، وإلقاء القبض على المتهمين. وكان يساعده فريق الشرطة في تأدية واجباته والذي كان عبارة عن فريق من رماة السهام (كنغ – شاو). مهمة هؤلاء أيضاً حفظ الأمن، وإلقاء القبض على اللصوص، وكان إخفاقهم في تأدية ذلك، يعرضهم للمساءلة. فعقوبة الإخفاق في إلقاء القبض على لص لمدة شهر كامل تتراوح بين 7 و17 ضربة بعصا رفيعة، وعقوبة الإخفاق لمدة شهرين بين 17 و27 ضربة، ولثلاثة أشهر بين 27 و37 وهكذا. وإن تمكن رجل الشرطة من إلقاء القبض على المجرم قبل المدة المحددة ينال مكافآة. وغالباً ما يلجأ رجال الشرطة إلى مساعدة المخبرين من فرقة الـ «تشنغ – تشي – تجن»، ويسلم المجرم بعد إلقاء القبض عليه لدائرة الـ «سين ين» حيث تجري محاكمته من قبل القاضي والحكم عليه.

وبمجرد إلقاء القبض على متهم ما، يصبح عرضة للمساءلة أمام نظام قضائي معقد وغاية في التنظيم. وبناء عليه يخضع المجرم لدخول العديد من السجون بتسلسل معين يسمى «مفوضية السجون» أو «صو – يو ssu—yu». وقد اختلف نظام السجون في ظل حكم أسرة «اليان» عنه في ظل حكم الأسر الأخرى. فلم يقتصر على مفهوم الاحتجاز فقط، وإنما شمل الأعمال الشاقة. ولا يُحتجز السجناء في تلك السجون إلا أثناء جلسات المحكمة وقبل النطق بالحكم.

ومن مهام مفوضية السجون، التأكد من نظافة السجون، وتوفير الخدمات اللازمة لذلك، وتأمين المأكل والملبس للسجناء، والمحافظة على صحة السجناء بإجراء فحص

دوري لهم، وتقديم تقارير حول أي مخالفات أو شكاوى أو مشكلات في ما يخص السجناء.

وكانوا يمنعون السجناء من الهرب بتقييدهم. وأما المخالفات الأسوأ فعقوبتها وضع نير خشبي حول العنق، دُعي بالـ «كانغو»، وكان وزن النير يختلف باختلاف الجرم المرتكب. أما القَتَلَة فيقيدون بأغلال خشبية، وكذلك بسلاسل من مختلف الأوزان والأطوال. وكان الضرب مباحاً، بشرط ثبوت التهمة أو ارتكاب المزيد من المشاغبات داخل السجن. ويجب أن يكون التعذيب بأمر رسمي، وهو مشترط بالضرب فقط. ومع ذلك مورس العديد من أساليب التعذيب الوحشية المختلفة، والتي لا يسمح بها إلا في حالة ثبوت التهمة ثبوتاً قاطعاً.

وبشكل عام، تمت مراقبة المخالفات والتعديات في النظام القضائي بشكل صارم ومنظم. وكان على المتهم أن يخضع لمجموعة من الفحوصات والاختبارات، تتضمن أخذ البصمات والتواقيع، حيث يغمسون إبهام وسبابة ووسطى المتهم بالحبر، ويطلب منه البصم بها تحت اسمه، وكان هذا الإجراء ضرورياً وإلا توجب على المحكمة مراجعة القضية بالكامل.

وحتى بدايات عام 1271م بقي النظام القضائي مقسماً ثلاثة أقسام هي: «دائرة القضاء» أو «فا– صو fa–ssu» و«هيئة العقوبات» أو «سنغ– بو hsint–pu» و«الهيئة التشريعية للعاصمة» أو«تو– شنغ tu–sheng» إلا أنه في 1271م جرى إلغاء «دائرة القضاء» واستمر القسمان الآخران بالعمل طوال فترة حكم أسرة «اليان» في الصين، وقد تعاظمت سلطة «هيئة العقوبات» بشكل واضح، وبقيت أحكامها غير قابلة للنقاش، رغم التعديلات التي شملت القانون.

وتميز النظام القضائي في عهد أسرة «اليان»، بنية ووظيفة، بالنظام، والمتابعة الدورية، فلم يكن أحد يتجرأ على اتهام القائمين عليه بالإهمال أو التسيب. وإذا ما حدث خطأ ما، جرى تعويض صاحبه بالمال. وغالباً ما قُبلت طلبات الاسترحام، وأُخذت بجدية وجرت إعادة الحكم فيها بعد إعادة النظر في القضية، وبعض القضايا الشائكة أو المشكوك فيها كانت ترفع للإمبراطور نفسه، حيث يُنصب له مكان خارج

القصر، وتُقرع الطبول، ويُنادى على القضايا المعلقة بالدور.

وهكذا فقد فاقت فترة حكم «اليان» بعدلها واهتمامها بعدم ارتكاب الهفوات والأخطاء القضائية، فترات أخرى سالفة أو لاحقة.

الفروق العرقية والقانون

أفرز امتداد إمبراطورية «اليان» واسعة الأرجاء، تعدداً هائلاً في الأعراق، وكانت عملية فرض قانون واحد على فئات عرقية متعددة، مسألة شائكة تطلبت حلولاً عاجلة. فالصينيون نظروا دوماً لأنفسهم على أنهم قادة المنطقة، وأن مثلهم الكونفوشية المتعلقة بالثقافة والأخلاق هي الرائدة وهي الأنسب للجميع. لكن تلك النظرة لم تصمد طويلاً في ظل المتغيرات الجديدة، ونظام الحكم المغولي، الذي فرض تكيفاً معه واندماجاً فيه. فعلى الرغم من بروز أربعة أعراق أساسية في ذلك الوقت هي: المغول، وآسيويو آسيا الوسطى، والصينيون الشماليون، والصينيون الجنوبيون، إلا أنه كان متوجباً على الجميع الخضوع لمحكمة واحدة للبت في قضاياهم المختلفة. وقد طورت أسرة «اليان» نظاماً قضائياً مرناً يسمح لجميع الأقليات العرقية بالمساهمة فيه بشكل متساوٍ وفعال. وظهرت محاكم للبت في قضايا الصراعات العرقية، ومحاكم خاصة للبت في شؤون بعض المتهمين ممن يتمتعون بامتيازات ومناصب خاصة كالجيش وأفراد بعض المؤسسات أو المهن الخاصة.

القانون المغولي في إيران

انشغل الحكم المغولي في إيران، كما في الصين بتنظيم القوانين وإحلالها. لكن إيران مثلها مثل بقية الدول المسلمة كانت خاضعة للتشريع الإسلامي الذي حاول القانون المغولي التعايش معه بسلام. فزعم الجويني، المؤرخ وحاكم بغداد في ظلّ هولاكو، أن التشريع الإسلامي و«الياسا» كانا منسجمين تماماً، ويكمل واحدهما الآخر(17).

لكن ربما جاء قول الجويني هذا كمحاولة يائسة لإيهام النفس أكثر مما هو حقيقة ملموسة تعبّر عن تقييم معمق للنظامين القضائيين معاً. ومع ذلك فهو قول يعكس

رغبته في تعايش وتصالح التشريع الإسلامي مع قانون المغول السائد. فبعد سقوط بغداد عام 1258م أمر هولاكو علماء بغداد بإصدار فتوى تشرّع حكمه، وتجيب عن السؤال: «من الأحق في الحكم، ولمن الأفضلية فيه.. حاكم كافر عادل، أم حاكم مسلم ظالم؟».. ويجيب العلامة الشيعي النجفي ابن الطاووس في صالحه، مفضلاً الحاكم الكافر العادل، على الحاكم المسلم الظالم(18).

فقبل وصول هولاكو أي تقريباً عام 1255م ترسخت معالم الحكومة العسكرية المغولية، وانفصلت عن عامة الشعب، وأصبح الفرق بين النظام العرفي والشريعة الإسلامية واضحاً، على عكس ما كانت عليه الحال من قبل، أي منذ تأسيس نظام الإلخانات المغولي في إيران.

لكن لم يكن النظام القضائي في إيران معقداً ومتطوراً ومهتماً بالتدوين والتوثيق مثلما كانت عليه الحال في الصين.

اليارغو Yarghu:

انتشرت دوائر المباحث أو التحقيقات التي سميت بـ «اليارغو» في المدن الكبرى، إلا أنها كانت هيئة متنقلة أيضاً، وسمي الأفراد العاملون فيها بال «يارغوتشي yarghuchi» وكانوا يتنقلون في أرجاء الإمبراطورية للتحقيق في القضايا المستحقة. يرأس الدائرة أمير يدعى «أمير يارغو amir yarghu» ويساعده «أمراء يي يارغو umara-yi uarghu» وتتلوهم جماعة اليارغوتشي في المنصب والمهام. وقد تأسست هذه الدائرة منذ بدايات الوجود المغولي في إيران. ومع ذلك تنعدم المصادر التي تشرح بالتفصيل مهام هذه الهيئة وأعمالها. وقد اعتمدت هذه الهيئة في البدايات على قوانين «الياسا» أما في ما بعد فقد عملت القوانين المحلية جنباً إلى جنب مع الشريعة للوصول إلى الأحكام القضائية النهائية.

في السنوات التي سبقت تأسيس دولة الإلخانات في إيران عام 1258م كانت معظم القضايا التي تطرح أمام محاكم «اليارغو» تتعلق بشؤون حكومية، أو قضايا مغولية رسمية، أو خلافات بين المغول، وكان التعذيب والضرب الوسيلتين الوحيدتين للحصول على الاعترافات المهمة، وكان آرغون آغا واحداً ممن شهدوا تلك الحقبة، وشهدوا

الكثير من جلسات اليارغو، وتوفي بصورة طبيعية في 1273م، أما الحاكم «كورجوس Korguz» الذي شهد بدوره العديد من جلسات اليارغو، فلم يكن محظوظاً كأرغون آغا، حيث قضى قتلاً على يد رجل أهانه. ويحدد الجويني الذي عاصر تلك الفترة الممتدة إلى ما قبل هولاكو، والذي كان شاهداً على قصة كورجوس، أربعة عناصر لاحظها بالنسبة لليارغو، أولاً إجراءات اليارغو لم تسجل أو توثق ولم تكن مختصة بإطلاق الأحكام فقط، وإنما بعمليات المصالحة والتعويض، ثانياً مبادئ المغول المختلفة الأساسية لها درجة معينة من السلطة والاستقلالية في ما يتعلق بالإدارات القضائية، وثالثاً تُسلِم سلطة اليارغو، كل من تجده مذنباً لسلطة تنفيذ العقوبات، وأخيراً لاحظ أن سلطة اليارغو واسعة الصلاحيات، وتستطيع تغطية أرجاء الإمبراطورية كلها، كما لاحظ ذلك آرغون آغا بنفسه عندما أُرسل في العديد من المهمات لصالح اليارغو حتى إنه وصل إلى قره قورم، ومناطق أبعد في الإقليم الايراني الغربي.

وتعتبر قضية المسؤول الحكومي الكردي تاج الدين الأربيلي من أولى القضايا التي حققت فيها دائرة اليارغو، إذ أخفق في إخضاع قلعة أربيل في شمال العراق لسلطة هولاكو، وقد وجدته المحكمة مذنباً لكن مصيره لم يحدد في ذلك الوقت. وفي فترة حكم غازان خان، ورغم أن الحكومة الرسمية كانت مسلمة، مما يعني خضوعها للشريعة الإسلامية، فإن عمل اليارغو لم يتوقف، بل عاشت طبقة رؤسائها في نعيم. وكانت إحدى أهم جلساتها تلك التي ترأسها «غازان خان» بنفسه، والتي قامت بناء على دعوة بين خصمين هما وزير المالية المستوفي، والتاجر ورجل الأعمال «الطيبي» المتهم بالاختلاس. وقد التأمت المحكمة في الثامن من نوفمبر 1296م للنطق بالحكم الذي قضى بإعدام الطيبي في اليوم التالي(19).

وبشكل عام فإن إجراءات اليارغو كانت معقدة ومطولة ولكن القضايا التي تخص الجهات العليا تم حسمها بشكل أسرع. ويذكر المستوفي، قصة أخرى حدثت زمن «الخان إلجايتو» (الذي حكم بين عامي 1304و16م)، حيث اتهم طلال الدين جور سورخي رئيس الوزراء رشيد الدين بالاختلاس، لكن الحكم كان لصالح رشيد الدين الذي برئت ساحته، وأعدم طلال الدين بالمقابل وجلد جميع المُدعين الآخرين. والمهم

في هذه القصة هو إيمان أحدهم بالنظام القضائي السائد لدرجة تعريض حياته للخطر واتهام أحد أهم الرجالات في ذلك الوقت. ومن المهم أيضاً معرفة أن الخصمين كانا فارسيين وليسا مغوليين مع أن المؤرخ واصف الذي ذكر الحادثة يشكك في إسلام طلال الدين رغم أن اسمه يشير إلى ذلك.

وأما المؤرخ والكاتب محمد بن هندوشاه النخشباني Mohammad ibn Hidushah Nakhchivani» فيلقي الضوء في كتابه «دستور الكاتب» الذي أكمله في عام 1366م على العديد من نشاطات محاكم اليارغو في أواخر عهد أسر الإلخانات في إيران، ذاكراً أن المغول سعوا جاهدين إلى إحقاق العدل والإنصاف، وتقصي الحقيقة، أثناء تطبيق قوانينهم، عبر استخدام نظام اليارغو(20). وحسب رأيه فإنهم قد ابتكروا شريعة جديدة، تقوم على المزج بين قوانين الياسا واليارغو، ويذكر إجراء التعويض أو المصالحة كمثال على ذلك المزج.

القضاة

لم تكن هناك نية لإزالة المحاكم الشرعية، رغم تجميد صلاحياتها. فقد ظل رجال الدين يتمتعون بامتياز إعفائهم من الضرائب، وتمت الاستعانة بهم في سد النقص في طاقم الإداريين، فاستمر تعيين القضاة (من المحاكم الشرعية الإسلامية) من قبل الحكومة المركزية فكانت كل محكمة يترأسها قاض يعود في مرجعيته إلى قاضي القضاة. وأحياناً كان يتم الدمج في ذلك المنصب بين رجلين يشتركان في المهام والواجبات. وقد زعم رشيد الدين أن منصب قاضي القضاة منح مرة لمن لا يستحقه كنتيجة للتدليس والرشوة (الأمر الذي لم يكن بغريب على تلك الحقبة: نهايات الدولة الإلخانية في إيران) حيث منح صدر الدين الخالدي منصب قاضي القضاة بتلك الطريقة (حسب زعم رشيد الدين) وكان ذلك زمن حكم «جيخاتو خان Geikhatu». فصدر الدين الخالدي لم يكن يتمتع بالمؤهلات المناسبة حسب رأي الكثير من معاصريه.

ومع اعتناق غازان خان الإسلام في عام 1295م تراوح الوضع القضائي بين الصرامة واللين. فقد كانت معظم التغييرات شكلية وغير جديدة بالذكر. ورغم منحه الكثير من الامتيازات لمنصب القاضي إلا أن الياسا ظلت القانون الذي لا يعلى عليه.

وانحصرت المهام المنوطة بالقاضي في منع الفساد وخاصة الفساد الاقتصادي. فرشيد الدين رسم صورة غير سارة لتصرفات القضاة، قبل قيام غازان خان بوضع بعض تلك الإصلاحات التي منعتهم من تقاضي الرشوة، وحددت أجر الكتاب بالعدل، وأكدت من خلال مرسوم وضعه كان يسمى بـ «يارليغ yarligh» على أن جميع الحكام والمسؤولين الرسميين عليهم إرجاع كل القضايا المتعلقة بشؤون الشريعة إلى القضاة المحليين، وتحصيل وثيقة خطية منهم تؤكد على مدى انسجام أحكامهم مع بنود ذلك المرسوم.

الحاجة إلى صكوك الملكية

أقرّ دستور الـ «يارليغ» الذي أصدره «غازان خان» بإشراف رئيس وزرائه رشيد الدين بأن جميع الأراضي التي تحتاج إلى صكوك ملكية والتي لم تحسم المحكمة أمرها لمدة تجاوزت 30 عاماً تعتبر ملكيتها لاغية ويتم التعامل معها على أنها شاغرة. ولتجنب العقود الكاذبة والتلاعب، يتوجب على جميع المحاكم الشرعية أن تحوي «طاسة عدالة»، وهي عبارة عن إناء يملأ بالماء، وتغرق فيه المستندات، حيث إن تلك التي ينحل حبرها بسرعة في الماء تعتبر حديثة، وبالتالي مزيفة. وإذا وجدت الصكوك فعلى جميع المحاكم أن تحوي ملفات رسمية بها، وعلى المحاكم المحلية أن تعمل جنباً إلى جنب مع محاكم المدن الكبرى أو المركزية والتي تحوي بدورها الملفات الأساسية بما يخص هذا الشأن. وقد كتب رشيد الدين بالتفصيل حول هذه الإصلاحات، ومشكلات تنفيذها، متندراً حول حجم تلك الملفات. وقد لاحظ أنه كان يمنع على القضاة بدء الجلسة في حضور جهات الادعاء، وأحياناً كانت عقوبات المخالفات غريبة الأطوار، كأن تحلق ذقن المدعي المشاغب، ويحمل على حمار يدور به في أنحاء البلدة.

وتأسس في ذلك الوقت «ديوان المظالم» الذي كان من مهامه الادعاء ضد الحكومة. وقد اعتاد فتح أبوابه أمام المتظلمين يومين في الشهر أيام الجمعة، وكانت جلساته تدار في الجوامع، وكان يشرف عليه الأمير أو الملك أو الحاكم أو القاضي أو العلامة أو رجل الدين، حسب المكان الذي تنعقد الجلسات فيه. وأما القضايا المتعلقة بخصومة

بين المغول والمسلمين أو مع الحكومة فكان من الصعب حلها إلا في محاكم المظالم التي كان يرأسها حسب أقوال النخشباني في كتابه «دستور الكاتب» الأمير أو الحاكم العسكري للإقليم.

ومن أهم القضايا التي استشهد فيها بقوانين الياسا تلك القضية بين الأمير المغولي «تشوبان» و«ناز خاتون» وقد حدثت خلال حكم أولجايتو (1304–16م) فقد ادعى «تشوبان» أن كل الأراضي التي ورثتها الخاتون عن أبيها، أسير الحرب (أسر خلال حصار بغداد)، تعود ملكيتها إليه حسب القانون الذي يقر بأن الأسير وكل ما يملك ملك للجانب الذي أسره، وعليه فإن جميع صكوك الأراضي التي تقع في حوزة الخاتون هي ملك له، وهو ما لا تقرّه الشريعة. فقام وزير أولجايتو بتعويض «تشوبان» بأراضٍ في أحد الأقاليم في الأناضول كي يتنازل عن ادعائه في حق تملك أراضي الخاتون.

وقد أشار كتاب «دستور الكاتب» إلى وثيقة تم التوقيع عليها لحل النزاعات التي تنشب بين المحاكم الشرعية ومحاكم اليارغو. وقد اقترحت الوثيقة تأسيس مؤسسة للإشراف على القضايا المتعلقة بهذا الخصوص إلا أنه لا توجد أي مصادر تؤكد قيام تلك المؤسسة فعلياً على أرض الواقع.

تمتع قضاة الأرياف بسلطات محدودة كانت تقتصر على قضايا الزواج والميراث والانضباط في أداء خطبة يوم الجمعة في الجوامع. ولم يكن من صلاحياتهم إصدار صكوك تملّك من دون إذن من سلطات أعلى. وإن حدث ووقعوا أية وثائق في ما يتعلق بالملكيات، فعلى السلطات الأعلى مراجعتها وختمها، وعُززت المراقبة الدورية لمحاكم الأرياف وما ينتج عنها من وثائق ومستندات.

أصدر غازان خان نسخاً من الوثائق المحفوظة في خزائن رشيد الدين بغية تأسيس نظام قانوني موحد في كل أنحاء بلاده. بعضها ما زال قائماً إلى الآن ورغم ندرتها فإنها تؤكد أن الكثير من الفتاوى والإصلاحات التي أحدثها بقيت نظرية ولم تطبّق على أرض الواقع.

لم تستطع المؤسسات القانونية في إيران تحت حكم الإلخانات أن تصل إلى مستوى

تطور وتعقيد مثيلتها في الصين زمن حكم أسر «اليان»، ربما نتيجة اتكاء القانون على أحكام الشريعة الجاهزة مسبقاً والتي بقيت دون أن تتطور، مع أن قانون اليارغو الذي عمل جنباً إلى جنب معها تطور وتغير بمرور الزمن.

الحواشي

1. علاء الدين عطا ملك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 25.
2. ر. أ. سكيلتن، تي. ي. مارسن وجورج. د. بينتر، «خريطة فنلندا وعلاقتها بالتتار» (نيو هيفن، كون، مطبوعات جامعة ييل، 1995) ص 97—98.
3. مولانا الجوزجاني، منهاج الدين أبو عمر عثمان، «طبقات ناصري»، ترجمة: هـ. ج. رافرتي (أعيدت طباعته في كلكتا، المجتمع الآسيوي، 1995) ص. 1078—79.
4. رشيد الدين، «جامع التواريخ»، ترجمة: وليام. م. ثاكستون، (كمبريدج، جامعة هارفرد قسم دراسات لغات وحضارات آسيا الصغرى، 1998) ص. 510—11.
5. وليام وودفيل روكهل «رحلة وليام الروبريكي للجزء الشرقي من العالم، 1253—55 ، كما رواها بنفسه، مع وصف رحلتين سابقتين عليها لجان دي كاربيني»، ترجمها عن اللاتينية وحررها وقدم لها وليام وودفيل روكهل (لندن، مجتمع الهاكلوت، 1900).
6. سو— كو شوان— شو سونغ— موتي ياو 83: الكتاب 2 وردت في قسم: باول هينج تشاو تشن التشريع الصيني التقليدي تحت حكم المغول: دستور عام 1291 بعد إعادة صياغته، (برينستون، ن.ج. مطابع جامعة برينستون، 1979) ص. 32. جرى الاقتباس بموافقة مطابع جامعة برينستون.
7. تشن، التشريع الصيني التقليدي تحت حكم المغول، ص. 46.
8. ماركو بولو «رحلات ماركو بولو» ترجمة: تريسا واف (لندن: سيدويك وجاكسون، 1994) ص. 131.
9. تشن، «التشريع الصيني التقليدي تحت حكم المغول» ص. 53.

10. تشن، «التشريع الصيني التقليدي تحت حكم المغول» ص. 54.
11. المصدر السابق، ص. 55.
12. المصدر السابق نفسه، ص. 56.
13. المصدر السابق، ص. 58.
14. المصدر السابق.
15. ماركو بولو، الطبعة الكاملة ليول و وكورديير لكتاب «رحلات ماركو بولو» لمؤلفه «ماركو بولو» و«روستيشيلو ابن بيسا، مشروع جوتنبيرغ، كتاب «رحلات ماركو بولو» الجزءان الأول والثاني متوافران على الموقع الإلكتروني: http// www. gutenberg.net.
16. تشن، «التشريع الصيني التقليدي تحت حكم المغول» ص. 67.
17. علاء الدين عطا ملك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 25.
18. ابن طقطاقة، اقتبسه إيتان كوهلبرج في(موظف مسلم زمن العصور الوسطى) «ابن طاووس ومكتبته» (ليدن، بريل، 1992)، 10، أ، ك. س. لامبتون، الاستمرارية والتغير في فارس القرون الوسطى (لندن، تاورس، 1988) ص. 249، 119.
19. لامبتون، الاستمرارية والتغير في إيران القرون الوسطى (لندن، تاورس، 1988)،335، واصف، ص. 268.
20. النخشباني، دستور الكاتب، ص. 30.

الفصل الحادي عشر

نساء المغول

الوظائف التقليدية

كان دور النساء في المجتمع التركي - المغولي غامضاً. فمن ناحية كن يشكلن قوة مهمة ومؤثرة داخل العائلة والمجتمع. ومن ناحية أخرى كن يعاملن كأغراض تجري مقايضتها. فالرجال كانوا يكسبون الزوجات مثلما يكسبون الخيول، والممتلكات الأخرى. وكلّما ازداد غنى الرجل كثر عدد زوجاته، وأما الرجل العادي فكان يكتفي بزوجة واحدة، بسبب محدودية إمكاناته المادية، وكانت تلك هي الأسرة الأكثر شيوعاً.

وضمن العائلة ذات الزوجات المتعددات، كانت هناك واحدة فقط وهي الزوجة الرئيسة المسؤولة بالفعل عن استمرار نسل العائلة من خلال ما تمنحه للرجل من أبناء، ولذلك تمتّعت بمكانة خاصة تفوق الأخريات. وأما الزوجات الأخريات فهن تابعات لها. وعادة تعيش الزوجات في دار واحدة، باستثناء عوائل الأغنياء والخانات، حيث تتمتع جميع الزوجات بامتياز أن يقمن في دور منفصلة خاصة بهن. ولا يحق سوى لأبناء الزوجة الرئيسة للخان، خلافته في الحكم.

وعندما يموت الزوج، يرث أبناؤه عنه زوجاته الثانويات، ويجري البحث عن زوج للزوجة الرئيسة. فهولاكو خان ورث «الخاتون دوكوز» زوجة أبيه «تولوي

خان» أصغر أبناء جنكيز خان. وليس من المستغرب أن تبقى الزوجة بلا زواج بعد وفاة زوجها كالعديد من نساء المغول القويات.

والحقيقة أن النساء والرجال كانوا يتقاسمون أحياناً سوء المصير، فيعاملون كقطيع من الماشية ولم تكن قسوة الحياة لترحم أحداً.

بنية العائلة

تتألف العائلة بشكل عام من جيلين من الكبار، والعائلة العادية تتألف من الأب والأم وأولادهما غير المتزوجين. وعادة يظلّ أصغر الأبناء مقيماً مع عائلته حتى بعد أن يتزوج، لأنه هو من سيرث ممتلكات العائلة حسب عاداتهم.

لم تكن الحياة سهلة قط على نساء المغول، وخاصة في زمن العيش في السهوب. كان لهن الحق في التملك، وطلب الطلاق ومع ذلك لم يتمتعن بمساواة كاملة مع الرجال. وبعض النساء كن يتمتعن بحقوق أكثر من النساء الأخريات، كما لاحظ ذلك أحد الرهبان الذين زاروا الإمبراطورية ما بين عامي (1245و47 م) فقد كتب يقول: «يتزوج الرجل المغولي امرأة جديدة كلما قدر على ذلك، وغالباً يشتريها، وهكذا فهن بالنسبة لهم – باستثناء النساء ذوات الأصل العريق– مجرد قطيع من الماشية. يتزوجون ممن يرغبون فيهن باستثناء أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم من الأم نفسها. وعندما يموت الأب يتزوج الابن زوجة ابيه، والأخ الأصغر يتزوج أرملة أخيه بعد موته. تنجز النساء جميع الأعمال، بما في ذلك صناعة الأحذية والملابس الجلدية وما شابه، في حين لا يفعل الرجال شيئاً إلا صناعة السهام والرماح والتمرن على استخدامها. ولا ينجو من تلك المهمة الأطفال البالغون من العمر ثلاث أو أربع سنوات بل إنهم يدفعون ببعض النسوة للقيام بذلك وخاصة من الشابات اللواتي يسمح لهن بالتمرن على الرماية وركوب الخيل كالرجال. وإذا قبض على رجل وامرأة متلبسين بتهمة الزنا يذبحان معاً»(1).

إلا أن تقارير أخرى تزعم معاملة أفضل للنساء داخل القبيلة. فبعد أن اختطفت زوجة جنكيز خان الأولى «بورتيه»، ورغم أنه لم يقم بأي جهد لاسترجاعها، فحين

عادت لمخيمه عوملت بكل تكريم واحترام وحظي ابنها «تجوتشي» بمنزلة ولقب الابن الأول للخان بعد التغاضي تماماً عن لبس أصله.

عمل النساء

ساهمت النساء في جميع الأعمال اليومية، ولكن بعض المهام اقتصر القيام بها عليهن. فكانت من مهامهن قيادة العربات الضخمة، التي تحمل العوائل عليها أمتعتها وخيامها. ويزعم وليام الروبريكي أن امرأة واحدة كان بمقدورها قيادة 30 عربة متصلة ببعضها بعضاً. ويتطلب نقل بيت نبيل نحو 200 عربة تقوم زوجاته المتعددات بقيادتها. تركب المرأة التي تقود العربة على ظهر الثور أو الجمل الأمامي والبقية يتبعنها. واذا كانت الطريق وعرة فمن الضروري فصل الحيوانات التي تقود العربات لتقاد كل عربة على حدة. وتقوم النساء بتحميل العربات وتفريغها بأنفسهن. وإذا علقت الأحمال في مكان ضيق فإن من مهام النساء فكّها وإعادة تركيبها بعد توزيعها بالتساوي على الحيوانات التي تجرها. وعندما يقرر مكان التخييم، تقوم النساء بفك الأحمال، ونصب الخيام والمساكن. توجّه أبواب الخيام نحو الجنوب، ويوضع فراش سيد البيت في أقصى شمال الخيمة أو المسكن، وفراش الزوجات عن جانبه الأيسر. تضع الزوجة تمثالها المصنوع من اللباد على الحائط فوق رأسها. وبجانب المدخل من جهة النساء تضع تمثالاً آخر. يرش هذا التمثال بحليب الأبقار، ويعتبر بمثابة تعويذة لحماية المرأة التي عليها أن تحلب الأبقار. وأما عن جانب الرجل فيوضع تمثال يرش بحليب الخيل، مما يمثل مهمة الرجل في صناعة القمز. وكل زوجة لها مسكنها الخاص الذي يدعى «كيوريا curia» والذي يمكن أن يتبعه مسكن صغير من الخلف لخدمها. وتنصب الزوجة الرئيسة مسكنها في أقصى الغرب، والزوجات الأخريات يضعن مساكنهن بعدها بالتتالي، حيث تتباعد المساكن مسافة رمية حجر(2)، حتى تنصب آخر زوجة مسكنها في أقصى الطرف الشرقي للمخيم. ولم يكن وليام الروبريكي وحده من وصف تلك المخيمات بمدن صغيرة ينقصها وجود الرجال عادة:

«وهكذا فإن من واجب النساء تحميل العربات وقيادتها، ثم تنزيل الأحمال عنها، ونصب الخيام، وحلب الأبقار، وصناعة الزبدة، كما أنهن يصنعن اللباد بأنفسهن ويغطين به الخيام. ورغم إصرار الكثير من المصادر على اقتصار مهمة حلب الأفراس وصناعة القمز على الرجل فحسب إلا أن بعضها يذكر أن النساء أيضاً كن يساهمن في هذه المهمة. وتخيط المرأة الجلود والجوارب والملابس بوتر من صوف الحيوانات تقوم بجدله. وهن لا يغسلن أطباقهن وأوانيهن، وإنما يشطفنها بمرق اللحم المسلوق بعد استخدامها أو قبله، كما أنهن لا يغسلن الملابس قط، لأنهن يعتقدن أن غسلها نذير شؤم، وهو فعل يغضب الرب، ويجلب الرعد خاصة حين تعلق نحو الأسفل لتجف. ليس هذا فحسب بل يضربن كل من يراهن يغسلن الملابس أو يعلقنها لتجف. وخوف المغول من الرعد لا مثيل له. فعندما ترعد يطردون أي غريب من منازلهم، ويلفون أنفسهم باللباد الأسود، ويبقون مختبئين حتى يتوقف الرعد. وإذا أراد المغول غسل رؤوسهم أو وجوههم يملأون أفواههم بالماء، ثم يتركونه ينساب على أيديهم ومن ثم يمسحون به وجوههم ورؤوسهم.

وأما الرجال فيصنعون الرماح والسهام ولجائم الخيل والأسرجة، ويقومون بقص الأخشاب لدعائم خيامهم والعربات، ويعتنون بالخيول ويحلبون الأفراس، ويصنعون القمز والجلد الذي يمخضونه فيه، كما يرعون الجمال ويقودونها. ومن مهام الجنسين معاً العناية بقطعان الخراف والماشية الأخرى وحلبها.

وهم يشترون زوجاتهم شراء، مما يجعل الكثير من النساء يجتزن عمر الزواج قبل أن يقدم أحد الرجال على شرائهن. ولا يحل لهم الزواج من قريباتهم بالدم من الدرجة الأولى أو الثانية، ويمكن للرجل أن يتزوج الأختين في وقتين مختلفين أو في الوقت عينه، ولا تتزوج الأرامل للأسباب التالية: فموت الرجل يعتبر انتقالاً لعالم آخر سيحتاج فيه إلى كل ما كان لديه في عالم الحياة وبما أن النساء تعتبر من ممتلكات الرجل فعلى الزوجة، إما أن تدفن مع زوجها أو يرثها ابنه الأصغر حتى تبقى في ملاك العائلة، وهكذا يرث الابن الأصغر زوجات أبيه (باستثناء أمه).

وعند إتمام عقد الزواج، يتولى الأب مهمة المساومة، بينما تتوارى الفتاة عن عينيّ زوج المستقبل عند بعض الأقرباء. وبعد التوصل إلى اتفاق يعلن الأب خبر اختفاء

ابنته، طالباً من الخطيب البحث عنها قائلاً: «ابنتي لك خذها إن عثرت عليها». فيمتطي الخطيب جواده، وينطلق بصحبة أصدقائه للبحث عن خطيبته. وحين يعثر عليها يتظاهر بالعنف، ويجبرها على الركوب معه.

منزلة النساء

تمتعت النساء بشكل عام بمنزلة لائقة في المجتمع المغولي، إذشاركن بكل نواحي الحياة بما فيها القتال إلى جانب الرجال. وإن نظرة سريعة لتاريخ المغول وعدد النساء اللواتي حكمن منذ جنكيز خان تثبت مكانة النساء في ذلك المجتمع وأهميتهن. فبين عامي (1241–1246م) حكمت أرملة أوقطاي خان «تورجينه Toregene» كوصية على العرش، وبين عامي (1248–1251م) حكمت أرملة جويوك خان «أوغول غايمش Oghul Ghaymish» كوصية على العرش حتى تسلم مونكو خان العرش، وبعد وفاة أصغر أبناء جنكيز خان «تولوي» عام (1231–1232م) رفضت زوجته المرعبة «سورغاغاتاني بيكه Sorghaghtani Beki» الزواج من ابن أوقطاي خان جويوك، وأدارت ممتلكات زوجها بنفسها. وأخيراً.. استطاعت إيصال أبنائها إلى سدة الحكم. وفي آسيا الوسطى كانت الأراضي التابعة للابن الثاني لجنكيز خان «شقطاي» كلها مدارة ومحكومة من قبل أرملته.

وفي إيران شهد كل من إقليمي شيراز وكيرمان، فترات طويلة من حكم النساء المغوليات. فالخاتون «قوتلوغ تيركان» التي حكمت إقليم كيرمان بين عامي (1257–85م) حافظت على علاقات طيبة على جميع الصعد الشخصية والثقافية والسياسية مع قادتها من المغول في عاصمة الحكومة الإيرانية، واعتبرت فترة حكمها فترة ذهبية في تاريخ إقليم كيرمان. ولم تكن سميتها التي حكمت إقليم شيراز بأقل أهمية وشهرة منها في ذلك الوقت.

وسنلاحظ أن جميع النساء اللواتي ذكرن في هذا الفصل لم يكن متميزات بالطريقة نفسها، ولكن أسماءهن وتفاصيل حياتهن اليومية وإنجازاتهن تجعلهن جديرات بالذكر. وأولئك النسوة كن بمثابة مثال أو حلم للاقتداء به من قبل نساء أخريات عاديات.



ثياب تقليدية نسائية مونغولية، متحف هوهوت، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

وقد عانت النساء في كل من إيران والصين من قيود وضغوط تتجاوز ما عانته نسوة السهوب. فرغم شظف العيش وقسوته في السهوب إلا أن مشاركة الرجال لهن في العناء، خففت من وطأة الأعباء عليهن، الأمر الذي اختلف تماماً في المدن ووصل إلى ذروته بعد اتساع أركان الإمبراطورية شرقاً وغرباً. ورغم ذلك لم تكن صدمة نساء السهوب الحضارية (بعد انتقالهن إلى عوالم المدينة) بالمقدار الكبير الذي قد نتخيله. فقبل وصول المغول إلى تلك المناطق، كان التواصل والتكامل الثقافيان قائمين بين الطرفين. فالعائلة المغولية التقليدية في إقليم حضري كإقليم كيرمان، كانت تمثل الجيل الأول من هجرة المغول إلى إيران، ولم يكد يمضي جيلان على ذلك حتى استبدلت

نسوتهن السرج بالعرش.

والنساء اللواتي سيعرضن هنا هن نساء مغوليات وتركو - مغوليات من اللواتي حققن الكثير، ومنحن الأمل، والكبرياء، والشجاعة لنساء المخيمات اللواتي مضى بهن العمر وهن رهينات الأعمال اليومية الروتينية كتغيير الأقمطة ورعي الماشية. وقد جرى في خضم التسجيل الذكوري للتاريخ، إغفال أسمائهن وتهميش مكانتهن.

«هاوإيلون Ho'elun»

دخلت «هاوإيلون» عشيرة الـ «بورجيجن Borjigin» وأصبحت زوجة «ياسوجي»، حسب الطريقة المغولية التقليدية. فخلال رحلة صيد بالصقور مع أخويها عاد «ياسوجي» محملاً بغنيمة مختلفة عن غنائم الآخرين. كانت تلك هي «هاوإيلون» من عشيرة «أونغيرات» التي هي جزء من قبيلة المركيت العريقة. واتخذها ياسوجي زوجة ولدت له أربعة أولاد، رغم أنها كانت متزوجة سابقاً من أحد رجال قبيلة المركيت والذي كانت تحبه. وكان اختياراً موفقاً من قبل ياسوجي فبعد موته مسموماً من قبل أعدائه، وتيتم تيموجين(جنكيز خان) أخذت على عاتقها رعاية العائلة المؤلفة من خمسة أطفال، وأنجزت مهمتها تلك على خير وجه. وكان تيموجين لا يزال أصغر من أن يقدّم أي عون لأمه بعد أن طردته قبيلته مع أمه وإخوته وسلبت أملاكهم وشردتهم في البراري، حيث استقر بهم المطاف أخيراً في مخيم قرب نهر «أونون». وقد سرقت لهم تسعة خيول وهم في الطريق إلى ذلك المنفى.

دفعت الفاقة الأولاد إلى أن يبرعوا في فن الصيد وكانت أولى مكافآت تيموجين حصوله على حصان اصطاده مع صديق طفولته «بوجورتجو». إلا أن عناد «هاوإيلون» وتماسكها وحسن إدارتها هي ما شد أواصر العائلة، ومنحها القدرة على الاستمرار والبقاء. وكان لتأثيرها دور كبير في نشأة تيموجين وما صار عليه في ما بعد حين شب وقوي عوده. ويذكر كتاب «التاريخ السري للمغول» كيف أنها تحملت شظف العيش وأمضت نهاراتها تقطف الثمار البرية لتطبخها عشاء للصغار الذين شبوا ليحكموا العالم:



خاتون مونغولية على ضفاف بحيرة سايرام، شمال ينغين في جبال الفردوس، تيان شان، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

«تغذى أولاد المرأة النبيلة على البصل والثوم البري إلى أن أصبحوا حكاماً. أولاد المرأة النبيلة الصابرة المكافحة تربوا على ورق الدردار، ليغدوا رجالاً حكماء، بيدهم سن القوانين».

(من التاريخ السري للمغول، ترجمة أرجونج أنون).

«بورتيه فيوجن Borte fujin»:

ليس ثمة دليل على وجود قصة حب بين جنكيز خان وزوجته الأولى «بورتيه»، ورغم ذلك كان يدين لها بالاحترام والتقدير وظل يصغي لنصائحها طوال حياتهما معاً. وقد جرى الاعتقاد بأن لديها قدرات خاصة في فن السحر الذي يؤمن المغول بأنه يولد مع النساء بشكل عام. وكان وجهها النضر وعيناها البراقتان أول ما لفت نظر والد «تيموجين» إليها فقرر أنها ستكون زوجة مناسبة لابنه رغم أنها تكبره بعام. وكانت بورتيه من عشيرة الـ «بسكور Boskur» التي تنحدر من قبيلة «أونغرات» العريقة والتي تستقر مضاربها شرقاً عند بحيرة «بوير Buir». وكان على تيموجين ذي الثماني سنوات أن يعيش في مضاربها فترة من الزمن قبل أن يتزوجا وكان ذلك هو التقليد المتبع من قبل جميع المغول. ولأنه كان لا يزال في الثامنة من عمره فقد أُجّل بقاؤه هناك وكان عليه العودة مع أبيه بعد إتمام الاتفاق على تفاصيل الزواج وفي طريق عودتهما تعرض لهما جماعة من التتار وقاموا بإعطاء الأب شراباً مسموماً فمات. ولم يتم الزواج إلا بعد سبع سنوات، حين بلغ «تيموجين» الخامسة عشرة من عمره. وجلبت «بورتيه» معها هدية زفافها لأم تيموجين «هاوإيلون» وكانت عبارة عن معطف فرو أسود طويل وفاخر، وحين ذاع الخبر في السهوب ارتأى رجال قبيلة «المركيت» بأن لحظة أخذهم بالثأر من أبيه الذي خطف عروسهم «هاوإيلون» قد حانت. وعندما هاجمهم 300 فارس من المركيت تدبر تيموجين أمر فرار عائلته، ولنقص الجياد ترك زوجته مختبئة تحت عربة، وحتى الآن لم يتم إعطاء تصرف تيموجين ذاك أي تبرير مقنع، فنظر إليه على أنه تصرف أناني اقترفه قلب بارد. وربما تعزى مبررات تيموجين إلى بعد بصيرته فلو أنه ضحى بنفسه وخاض حرباً غير متكافئة لخسر الإمبراطورية في ما بعد. ولو أن بورتيه ركبت خلف أحدهم لكان من السهل جداً الإيقاع بهما معاً، لذلك ارتأى تيموجين التضحية بها، خاصة وأنه يعلم أن المركيت لن يقتلوها في ما لو وقعت في قبضتهم على عكس ما قد يفعلونه مع الآخرين، وبالتالي سيكون بإمكانه تحريرها في ما بعد.

وتركت تلك القصة صدى تردد رجعه خلال التاريخ المغولي بأسره.

وأخيراً.. استرجعت بورتيه، وعادت لتكون زوجة تيموجين الرئيسة. ولكن لم يمضِ وقت طويل منذ استرجاعها (نحو عام 1184م) حتى أنجبت طفل تيموجين الأول «جوتشي Jochi» ولم تتوقف التساؤلات حول صحة نسبه منذ ذلك الوقت. ورشيد الدين مؤرخ البيت التولوي والمدافع المخلص عن بيت «جوتشي» ابتكر قصة غير قابلة للتصديق لحماية سمعة جوتشي وأمه. لكن كتاب «التاريخ السري للمغول» يذكر أن بورتيه قد زوجت في قبيلة المركيت لرجل يدعى «تشيلجر بوكو Chilger–boko» وهو الأخ الأصغر لزعيم العشيرة التي خطفت منها أم تيموجين «هاوإيلون» سابقاً، مما يعني أن أبوة «تيموجين» مشكوك فيها، ولكن تلك المسألة ظلت سرية وغير معلنة، وبسبب ذلك فإن سلالة «جوتشي» لم تصل قط إلى سدة الحكم. وجنكيز خان لم يصغِ إلى تلك الشكوك وعامل «جوتشي» بالمقدار نفسه من الاحترام الذي يعامل به الابن الأول حسب الطقوس المغولية. لكن بعضهم يشير ساخراً إلى معنى اسم «جوتشي» باللغة المغولية والذي يعني «الضيف أو الزائر»، لكن بعضهم الآخر يعزو ذلك لكون العائلة كلها كانت زائرة أو حلّت ضيفة على مخيم «تجاموكا Jamuka» أخ تيموجين بالدم.

وقد ظل جنكيز خان يدافع عن شرف وسمعة زوجته حتى النهاية، وقد وقف إلى جانب «جوتشي» في صراعه على السلطة مع أخيه «شقطاي» حين صرخ أحد أولاده «كيف يمكننا أن نُحكَم من قبل لقيط ماركيتي» (إشارة إلى نسب جوتشي غير النقي)، فحاول جنكيز خان تذكيرهم بمصير أمهم، وكيف خطفت وعاشت هناك مرغمة وحذرهم من أنهم سوف «يكسرون قلبها الطيب» بكلامهم هذا. ولامهم ونصحهم وذكرهم بأنهم ولدوا من «الرحم الدافئ» عينه، وأن «حنان أمهم وعطفها عليهم جميعاً سيتلاشيان لو أنهم طعنوا بشرفها، وأهانوا كبرياءها، ولن ينفع بعدها الندم»(3).

توفيت بورتيه ما بين عامي (1219–1224م) فوق سهب جميل يمتد على ضفاف نهر «خيرلين Kherlen».

«توركينه خاتون Toregene Khatun»:

لم تكن «توركينه» أرملة «أوقطاي خان» – حسب زعم رشيد الدين – شديدة الجمال ولكنها كانت على جانب عظيم من قوة الشخصية. بينما يصفها الجويني الذي لم يكن من معجبيها بأنها امرأة داهية، استخدمت خبثها، وحنكتها للوصول إلى السلطة. ويبدو أن كلاً من الرجلين الإيرانيين المسلمين اعترف بقوتها على مضض. ويصفها ابن العبري بأنها «شديدة الحكمة والحذر».

وقد برزت قوتها كسيدة عظيمة (أو «يكي خاتون Yeke Khatun»حسب اللغة المغولية) منذ بدايات عام 1240م، أي مع عهد ظهور أوقطاي خان، إذ أصدرت معه، مرسوماً ينص على الاهتمام بتدريس تعاليم الطاوية (ثاني أهم فلسفة بعد الكونفوشية في الصين) مما يعكس اهتمامها بالدين والثقافة إلى جانب اهتمامها بالسلطة. وقد سعت بكل طاقاتها من خلال تسخير كل قوتها، ومعارفها لتنصيب ابنها (المتغطرس) جويوك خاناً، ولم تكن تلك رغبة زوجها المتوفى ومعه كثيرون ممن يكرهون «جويوك». وقد سجل رشيد الدين المقطع التالي مباشرة بعد وفاة «أوقطاي خان»: «لقد استخدمت كل الحيل الدبلوماسية، وسيطرت على المملكة من دون استشارة الآغا والعائلة وأتخمت الأمراء والنبلاء بكل أنواع الهدايا حتى خضعوا جميعاً لها وصاروا تحت سيطرتها(4).

وكان هدفها الأساسي، وضع ابنها جويوك بدلاً من الشخص الذي اختاره زوجها، وهو حفيده «شايرمون Shiremun». وقد أخفق اجتماع «القوريلتاي» الذي تزعمته «توركينه» في ذلك الوقت بعد أن ساد الإجماع على أن «شايرمون» ما زال صغيراً لتولي العرش. وأما جويوك فهو غير محبوب ولم يكن هناك من هو مؤهل لذاك المنصب من نبلاء القبيلة الذهبية. لكنها لم تستسلم، وبدأت تعمل على اكتساب المزيد من الصلاحيات والقوة. ورغم أنها لم تكن الزوجة الرئيسة لأوقطاي إلا أن أحداً لم يعترض على سلطتها لكونها والدة ابنه الأول. ومنذ تلك اللحظة أخذت تعين أتباعاً ووزراء مخلصين لها، يمكنها الاعتماد عليهم، وبدأت بمعاقبة كل من ازدراها أو أساء إليها أثناء حكم زوجها. ويزعم رشيد الدين بأنها الآن وبعد أن أصبحت ولية للعرش،

أقسمت على الثأر من كل من وقف في طريقها سابقاً.

ولمساعدتها على تحقيق غاياتها، عينت «تورجينه» الخاتون فاطمة التي كانت نهايتها بشعة كبشاعة سمعتها، إذ اشتهرت كقوادة ماكرة، ودليلة نفسها تكاد تكون تلميذتها في فن الدهاء والمكر(5) وكانت فاطمة تلك تزود النبلاء والأغنياء بالمحظيات والغلمان وأثارت كثيراً من الفضائح والنميمة حول شخصيتها وسلوكياتها، مما جعلها تدريجياً الشخص المناسب لخدمة امرأة تريد الوصول إلى السلطة بأي ثمن كتورجينه خاتون التي ضمتها إلى مخيمها وجعلتها شريكتها في تنفيذ خططها وكاتمة أسرارها. وشيئاً فشيئاً صارت فاطمة تأمر وتنهى وتشارك في اتخاذ القرارات السياسية جنباً إلى جنب «تورجينه خاتون»، مما ألّب الناس والنبلاء أكثر فأكثر ضدهما.

أول ضحايا فاطمة كان «محمود يالاباش» صاحب ديوان «أوقطاي خان» (الوزير الأول) وذو النفوذ والسطوة الرهيبة، والذي استبدلته تورجينه برجل مثير للشكوك وضعيف القدرات والسمعة وهو عبد الرحمن بعد أن أمرت باعتقال محمود يالاباش الذي لم يكن يقلّ عنها مكراً، فعامل حرسها المرسلين لاعتقاله بكل لطف ودهاء ودعاهم إلى كثير من الشراب والطعام حتى أسكرهم، وانسل هارباً إلى بلاط أحد أبناء تورجينه وهو «كوتين Koten» حيث طلب الحماية هناك، ووجد شخصاً آخر يطلب الحماية وكان «شنقاي» رئيس وزراء «أوقطاي خان» الذي كان مغضوباً عليه من قبل تورجينه وفاطمة خاتون. فقام كوتين بحمايتهما ورفض تسليمهما، قائلاً لأمه:

«لتأمن الحدأة غضب الصقر، عليها أن تخبئ نفسها في الأيكة بعيداً عن مخالبه. هذان الشخصان التمسا حمايتي وهما من رعيتنا سابقاً وإن سلمتهما سأخالف بذلك أعرافنا وعاداتنا، وسأكون أبعد ما أكون عن كرم الأخلاق والقيم الإنسانية»(6).

وبعد انتشار خبر تلك القصة، فر الكثيرون بأرواحهم كالأمير مسعود بيج، ابن محمود يالاباش، وحاكم تركستان و«ترنسوخيانا Transoxiana» الذي لجأ إلى بلاط «باتو خان» زعيم القبيلة الذهبية، لكن آخرين كانوا أقل حظاً مثل حاكم خراسان المعين من قبل «أوقطاي خان» قبل موته والذي ألقي القبض عليه، وأعدم بإحدى الطرق المغولية التقليدية، حيث حشي فمه بالحصى وترك ليختنق ببطء وألم.

وبعد الكثير من التزلف والمداهنة وحياكة المؤامرات، استطاعت أن تحصل على موافقة «القوريلتاي» لتعيين ابنها جويوك خلفاً لأبيه «أوقطاي خان». وبالطبع كانت هي من يحكم فعلياً، وكانت سلطة جويوك شكلية محضة. واستمرت في الحكم حتى وفاتها. ويشير الجوزجاني إلى قصتها بشيء من التهكم (حيث كان في بلاد السند بعيداً عن بلاط المغول) قائلاً: «لقد أرسلوها بعد موت أوقطاي لترفع ابنه ليعتلي العرش»، وقد كان الجوزجاني أكثر مباشرة من كل من الجويني، ورشيد الدين في وصف تلك المرأة التي «حكمت بطرق الغواية والخداع – اللذين اشتهرت بهما النساء– تلك الطرق البعيدة عن الذكاء الحقيقي والمقدرة الحقة»(7).

بعد وفاة «تورجينه خاتون» أدرك ابنها خطأه، وقرر معاقبة فاطمة خاتون على كل أفعالها الشنيعة، بما فيها اتهامها بتدبير سحر أودى بحياة أخيه «كوتين» الذي نقمت عليه لحمايته الكثير من أعدائها سابقاً. نصب جويوك لها محكمة علنية، وأمر بتعريتها وجلدها إلى أن اعترفت بذنبها(8) وكانت نهايتها بشعة مثلما وصفها «بار هيبروس» قائلاً: «لقد قطبوا جميع الفتحات في جسدها، من الأعلى ومن الأسفل، ووضعوها على قطعة قماش، وأغرقوها في الماء، ثم قتلوا جميع أتباعها وحاشيتها»(9).

«الخاتون أوغول غايمش Oghul Ghaymish Khatun»

بقيت أرملة «جويوك خان» الخاتون أوغول غايمش –بمباركة باتو خان، والعديد من الأمراء والنبلاء المغول في كل أنحاء الإمبراطورية – وصية على العرش، لمدة ثلاث سنوات حتى اجتماع «القوريلتاي» الذي سيصادق على اختيار الخان الأعظم. فحكمت ما بين (1248–51م) بمساعدة أولادها الذين يصفهم الجويني المتحيّز للبيت التولوي، والكاره للنساء المتغطرسات، بأنهم كانوا ثلة من الدهاة الذين استغلوا الحكم، وتغاضوا عن كثير من الجرائم التي اقترفت في القصر. وقد اقتبس قولاً لشاعر من القرن العاشر:

«شيئان لا فائدة منهما

مشورة النساء، وحكم الشباب
فالنساء يملن إلى العاطفة،
والشباب يحكمون بقبضة رخوة»(10).

وكان قد تقرر سراً، قبل اجتماع «القوريلتاي» بأن يكون الحكم من بعد جويوك لمونكو خان من البيت التولوي، بدلاً من ابن جويوك، فأرسلت سورغاغاتاني بيكه أرملة «تولوي خان» مع «باتو خان» رسالة يدعوان فيها أوغول غايمش لحضور القوريلتاي والخضوع لمقرراته، وكان متوقعاً أنها لن تفعل فبدأت تلتصق بها التصنيفات المعتادة، فقد ذكر وليام الروبريكي أن «مونكو خان» أخبره بنفسه أن «أوغول غايمش» أسوأ الساحرات، وأنها «بشعوذتها دمرت عائلتها كلها» وهي الاتهامات نفسها التي وجهت إليها في كتاب «مدونة التاريخ الصيني» الـ «يان شيه Yuan Shih» الذي يذكر أنها «قضت جل وقتها مختلية بشامانها، يعدان معاً التعاويذ، ويتشاوران حول الخزعبلات»(11).

رفضت أوغول غايمش، الاعتراف بسلطة «مونكو خان» (الذي حكم بين عامي 1251و59م) فنصبت لها محكمة علنية، وجلدت عارية وأعدمت – لإصرارها على حق بيت أوقطاي خان بالحكم– بإلقائها في النهر بعد أن لفت باللباد.

«سورغاغاتاني بيكه Sorghaghtani Beki»:

سورغاغاتاني بيكه (توفيت في 1252م) هي أرملة تولوي وأم مونكو، وقبلاي، وهولاكو، وأريق بوقا.. لم تكن على القدر نفسه من الأهمية، مقارنة بأغول غايمش. وقد أرادت لأولادها تسلم زمام الحكم، وحققت حلمها بإصرارها.

ولدت في قبيلة الكرايت، وكانت الابنة الصغرى لـ «تجا– جامبو Ja–Gambu» الذي كان أخاً لزعيم قبيلة الكرايت «طغرل أونغ خان Toghril Ong–Khan» الذي كان دعمه لجنكيز خان أساسياً في بداياته كزعيم. وبعد انتصار جنكيز خان على قبيلته قام بتزويج أخيه الأصغر «تولوي» من سورغاغاتاني، حيث بدأت مرحلة جديدة من

سيرتها التي اشتهرت عالمياً. وصفها أحد الشعراء المعاصرين قائلاً: «لو كانت كل النساء مثلها لتفوقن على الرجال»(12)

وعرف عنها التزامها بتربية أبنائها، وتنشئتهم تنشئة صالحة، إذ غرست فيهم حب التعلم والقيم الحميدة. كتب رشيد الدين عنها قائلاً: «في الوقت الذي تغيّب فيه الأب عن أبنائه الصغار، رعتهم هي، متحملة الصعاب بغية تدريبهم وتعليمهم وتربيتهم تربية صالحة، فلم تسمح لهم بالشذوذ عن الصراط المستقيم، أو بارتكاب أقل الهفوات والأخطاء. ودفعت زوجاتهم إلى حب واحترام بعضهن بعضاً. وبمحبتها ورعايتها حمت أولادها وأحفادها وأولادهم بل وسلالة جنكيز خان كلها. فلم ينحرفوا قيد أنملة عن نصائحها لكونهم يقدرون مشورتها ويجلون مكانتها»(13).

صور رشيد الدين زوجها «تولوي خان» محارباً قديراً، لم يبزه رجل مغولي في القتال والمعارك، ولكنه كأب وكزوج كان شبه غائب، وكان على زوجته سورغاغاتاني بيكه أن تحل مكانه في تربية الأولاد، وكان لها التأثير الأعظم عليهم وخاصة بعد وفاته عن عمر مبكر في 1231م.

بعد وفاة تولوي المفاجئة حاول الخاقان «أوقطاي خان» أخ تولوي تدبير زواج سورغاغاتاني بيكه من ابنه جويوك لتوحيد البيتين الملكيين ودرء أي صراع محتمل بينهما بعد وفاته. ولكن سورغاغاتاني تنصلت من العرض بحنكة ودبلوماسية، قائلة: إن واجبها كأم لأربعة أطفال يفرض عليها عدم قبول عرض سخي كهذا. وقد شجعت أبناءها على التعامل بطريقتها الدبلوماسية الحكيمة تلك.

ورغم أنها كانت تدين بالمسيحية النسطورية، إلا أنها رعت الديانتين البوذية والطاوية لاحتضان رعاياها من الصينيين، ووزعت الصدقات على فقراء المسلمين، ودعمت زعماءهم المحليين وتبرعت للجوامع والمدارس الدينية. ففي بخارى تبرعت بألف قطعة ذهبية لبناء مسجد فوق قبر الشيخ الصوفي سيف الدين بخارزي. وجمعت ما بين عامي (1250–51م) جزية القرى المستسلمة لها، وقدمتها لمال الوقف الإسلامي هناك.

شهد لها ابن العبري بالكرم والتسامح الديني قائلاً: «كانت مسيحية مخلصة

وفاضلة كالملكة[16] هيلانة»(14).

وقد اكتسبت سورغاغاتاني بيكه، صيتها المشرف في التاريخ بسبب الدور الذي لعبته في وصول أبنائها إلى السلطة، وضمان أن تكون هذه السلطة في عائلة «تولوي». وقد لعبت دوراً أساسياً في «انقلاب» عام 1251 الذي جعل ابنها مونكو يتربع على العرش، وذلك بعد كسبها جويوك خان إلى جانبها بذكائها وتأييد باتو خان لها.فقد كان جويوك معجباً بها إلى حد أنه ائتمنها على توزيع العطايا باسمه، وهي وعملاؤها لم يواجهوا مشكلة في جمع المعلومات المخابراتية من مخيم أوقطاي. إضافة إلى ذلك، وبالدعم المعطى لها من الخان، و«برعايتها وإشرافها على أولادها، وبإدارتها لشؤونهم وشؤون الجيش والأمة، فإنها أرست أساس سيطرتها كما لم يستطع رجل أن يفعل»(15). ورغم اعتمادنا في ما يخص المعلومات عن تلك المرحلة على مصادر مؤيدة للتولويين، فإنه لا يرقى سوى القليل من الشك إلى أن الإعجاب والتقدير والثقة التي تمتعت بها سورغاغاتاني بيكه، هي التي أمدت دعمها لمونكو خلال الصراع الدموي على السلطة بعد وفاة جويوك. فقد دعا باتو في 1250م جميع الأطراف لاجتماع القوريلتاي بالقرب من بحيرة «تيان شاه» (الجبال السماوية) حيث عين مونكو خاقاناً، لكن فرحة البيت التولوي لم تكتمل إذ وقف لهم الأوقطاويون بالمرصاد مدعين عدم شرعية ذلك الاجتماع لكونه حدث خارج العاصمة قره قورم بل وخارج الممتلكات المغولية كلها. وهنا خرجت سورغاغاتاني بيكه بالحل، فقد اقترحت إعادة الاجتماع في المنطقة التي تسيطر عليها وهي قلب الإمبراطورية المغولية، حيث ولد وترعرع مؤسس الإمبراطورية جنكيز خان نفسه وكانت متأكدة من أن أحداً لن يجرؤ على معارضة اقتراحها وفعلاً أعيد اجتماع القوريلتاي في الأول من يوليو 1251م وأصبح ابنها مونكو ذو الثلاثة وأربعين عاماً خاقاناً، وكان ذلك يوماً مصيرياً في مسيرة حياة سورغاغاتاني بيكه التي جعلت من أبنائها وسلالتهم أباطرة(16).

وفي الصين كان تأثيرها الكبير جلياً من خلال مسيرة ابنها الآخر قبلاي. ولد قبلاي في 23 سبتمبر 1215م وكانت تلك السنة التي اعتبرت فيها بكين عاصمة لإمبراطورية

(16) Helena الإمبراطورة أو القديسة هيلانة (250–327م): هي أم الإمبراطور قسطنطين الكبير.

«اليان» المغولية في الصين. وقد عنيت سورغاغاتاني بتعليم قبلاي وتثقيفه إلى جانب تعليمه فنون الصيد والرماية وركوب الخيل، ولإنجاز غايتها تلك عينت معلماً أوغورياً يدعى «تولوتشو Tolochu». ومن المثير للدهشة أنه برع في تكلم اللغة الصينية، ولكنه لم يتقنها كتابة.

وبعد وفاة زوجها تولوي طلبت سورغاغاتاني بيكه من الخاقان أوقطاي منحها ملكية أرض «تشن-تينج» (جزء من شمال الصين حالياً) وحصل قبلاي على أرض «سنغ- تشو» في العام نفسه. وكانت أرضه مجاورة لأرض أمه. لم يشرف قبلاي خان بنفسه على ممتلكاته فقد تركها بين أيدي موظفيه الذين استغلوا غيابه فأرهقوا الفلاحين بالأعمال الشاقة والضرائب الباهظة مما أدى لهجرة الفلاحين إلى قراهم وبوار الأرض.

أدركت سورغاغاتاني حجم المشكلة فشجعت ابنها قبلاي على تغيير طاقم المسؤولين الحكوميين من جباة الضرائب واستبدالهم بطاقم من الصينيين من سكان تلك المناطق مما شجع الفلاحين على العودة لأراضيهم لمتابعة العمل فيها، وبدأت نتائج السياسة الجديدة بالظهور مع بدايات عام 1240م.

وقد شمل تأثير سورغاغاتاني الأسطوري أحد الحرفيين الفرنسيين «جوليم باوتشر Guillame Boucher» الذي اكتشفه أخ ابنها الأمير «بوتشيك Bochek» في أحد رحلاته إلى أوروبا والذي صنع لقصر ابنها «أريق بوقا Arigh Boqa» نافورة الخمر الشهيرة التي أدهشت المبعوثين الأجانب وخاصة وليام الروبريكي(17). وفي ذلك الوقت كانت سورغاغاتاني تقيم في قصر ابنها أريق بوقا في إيران وبعد أن اكتشفت مهارة جوليم شملته برعايتها، وظلّ يعمل في بلاط أريق بوقا حتى بعد وفاتها.

يستقر قبر سورغاغاتاني في مدينة مراغة (في إيران) التي كانت في يوم من الأيام عاصمة الإمبراطورية المغولية، ملتصقاً ببرج دائري يعود تاريخ بنائه إلى عام 1186ق.م ومزخرف بنقوش سلجوقية، إلى جانب مدرسة صغيرة للبنات.

«الخاتون دوقوز Doquz Khatun»

كانت الخاتون دوقوز التي توفيت في يونيو 1265م الزوجة الأخيرة لتولوي خان. وقد ورثها عنه بعد وفاته ابنه هولاكو حسب تقاليد المغول، وجعل منها زوجته الرئيسة وعاملها باحترام وتقدير رغم أنها لم تكن والدة وريث عرشه. اكتسبت سيرتها أهمية خاصة لمساعدتها هولاكو على تأسيس عرش الإلخانات في إيران.

كانت دوقوز حفيدة «أونغ خان» زعيم قبيلة الكرايت المسيحية النسطورية. فبعد هزيمة القبيلة على يد تيموجين في 1203م حظي بها تولوي ابنه الأصغر زوجة له رغم أنه لم يتزوجها فعلياً، وبعد وفاته في 1233م ورثها ابنه هولاكو وتزوج بها في إحدى حملاته على إيران ما بين عامي (1256و58م).

تمتعت دوقوز بمكانة مرموقة في بلاط هولاكو وذلك لذكائها وحكمتها وقد أوصى مونكو خان أخاه هولاكو بالإصغاء لمشورتها ونصائحها في إحدى رسائله الوداعية لأخيه حين كان متجهاً إلى سوريا. وقد تشفعت دوقوز خاتون للمسيحيين في بغداد بعد احتلالها عام 1265م، وفي شرق تركيا عثر على جدارية اعتقد قديماً أنها كانت تمثل صورة القديسة هيلانة والقديس قسطنطين ومن حولهما هالة القداسة(18). لكنه يُعتقد حالياً أنها جدارية تمثل هولاكو ودوقوز خاتون المسيحية الفاضلة. ويذكر المؤرخون أنها بنت كنيسة «بناقوس» في مخيمها، مما شجع على انتشار الكنائس في تلك المناطق في ما بعد. ويزعم المؤرخ الأرمني ستيفانو أوربيليان أنها ماتت مسمومة على يد صاحب ديوان هولاكو الجويني(19).

وعلى الرغم من أنها لم تنجب لهولاكو أولاداً إلا أنها كانت ترعى الكثير من ذريته التي أنجبها من جواري بطانتها. وقد ساهمت في إيصال ابنه أباقا للعرش (حكم بين عامي 1265و82م).

ومما يشير إلى أهميتها والدور الأساسي الذي لعبته في ذلك الوقت هو كثرة ذكر المصادر والمراجع التاريخية لها. فابن العبري يعتبرها «حاملة عرش المسيحية في العالم»(20)، ويذكر اثنان من المؤرخين المماليك القصة عينها عن ولعها مرة بتبني أمير في الثامنة من عمره، أُرسل لتقديم جزية لهولاكو، عوضاً عن والده الملك الذي خشي

من مقابلة هولاكو. فأعجبت دوقوز بذكائه وإجادته لفن الحديث وطلبت من هولاكو تبنيه قائلة: «ليس لدي طفل، وهذا الملك رجل، وسينجب ذرية من الرجال». لكن الأمير الطفل رفض وقال إنه يريد البقاء مع والديه.

ويذكر الراهب الأرمني غريغور الأكانكي (كتب تاريخه ما بين 1260و70 نقلاً عن ألسنة الناس) أن قلوب المسيحيين انفطرت لوفاة الخاتون دوقوز. وشاركه الرأي المؤرخ الأرمني هيتوم، ولكنهما معاً زعما مزاعم لا أساس لها من أنها لم تعامل رعاياها المسلمين بالقدر عينه من العدالة والمساواة، بل إنها أساءت إليهم. وذكر غريغور قصة عن فرضها على العرب المسلمين تربية 2,000 خنزير وتقديم العلف لها كل صباح، واللوز والتمر مساءً، وتحميمها كل سبت، وتجهيزها للذبح، ومن ثم فرض أكل لحمها على كل رجل مسلم، ومن يرفض يعاقب بقطع رأسه. وقد ذكر أنها أمرت بإعادة تشييد الكنائس والمعابد التي دُمرت على يد المسلمين. وزعم بأن خوف المسلمين منها وصل إلى حد أنهم اعتزلوا العالم الخارجي، وظلوا حبيسي البيوت. ولا يبدو أن هناك أي دليل على صحة تلك المزاعم، بل على العكس من المعروف أن المسلمين نعموا بالمساواة والأمن في بدايات دولة الإلخانات. واستخدمت تلك الدعاية ضد دوقوز من قبل بعض المسيحيين والمسلمين على حد سواء، في القرون اللاحقة، لتبرير دعاياتهم وسياساتهم المعاصرة. وباستثناء ذلك ليس من إشارة إلى تعسف الخاتون دوقوز أو اضطهادها للأديان الأخرى.

«كالاميش أقا Kalmish Aqa»

هي حفيدة «تولوي» من ابنه الثالث «قوتوقتو Qutuqtu» ولدت له من زوجته الخاتون «لينقوم Linqum». تزوجت عمراً طويلاً من «سالجي يوداي جوراجان Salji udai Guragan» الذي توفي في 1301م بعد أن خدم طويلاً في صفوف القبائل الذهبية وهكذا كان دور «كالاميش» كجسر بين الزمرتين المتحاربتين من القبيلة الذهبية.

شرفها النبيل «توقتا» حاكم القبائل الذهبية بين عامي 1291و1312م بمنصب مرموق، وكانت تكن معزة واحتراماً خاصين لغازان خان (حكم في إيران ما بين

1295–1305م) حيث بقيت على اتصال معه ناقلة له أخبار جارته الصين. وشكّلت ذكرى زوجها العطرة رصيداً لها يحميها ويعزز مكانتها في بلاط القبائل الذهبية، وكذلك فعل دمها التولودي بالنسبة لبلاط الإلخانات. وقد لعبت دورها كصلة وصل بين البلاطين أو البيتين بجدارة وامتياز. فعندما لوحق ابن قبلاي خان «نوموغان» من قبل أولاد عمومته وسلم كسجين لحاكم القبائل الذهبية مونكو تيمور (حكم ما بين عامي 1267و80م) قامت كالاميش بتخليصه وإعادته سالماً إلى أبيه في الصين. ورغم صغر حجمها والقليل الذي ذكر عنها في المراجع التاريخية إلا أن ما لعبته من أدوار وما أدته من مهام يعكس أهمية دور النساء، وما لهن من تأثير على الأحداث حتى وإن كان من خلف الكواليس.

«الخاتون كيرمان قوتلوغ تيركان Qutlugh Terkan Khatun of Kirman»

لعبت الخاتون «قوتلوغ» دوراً مهماً ومؤثراً، رغم إغفاله تاريخياً، في إعطاء صورة واضحة حول علاقة المغول برعيتهم، وما كانت عليه حال النساء في ظل حكمهم، وما لعبنه من دور قيادي في المجتمع المغولي. وقد تمتعت نسوة السهوب بمكانة أفضل من جاراتهن في القرى والسهول الممتدة جنوباً.

حكمت الخاتون «تيركان» إقليم «كيرمان» في جنوب إيران 26 سنة، أي منذ عام 1257م حتى عام 1283م. واعتبرت فترة حكمها فترة ذهبية بالمقارنة مع سلالة إلخانات «قوتلوغ» الذين حكموا ذلك الإقليم مدة 85 سنة.. أي منذ 1222م حتى 1307م.

وتعتبر قصة شهرتها، أسطورة في حد ذاتها. فهي تنحدر من سلالة نبيلة من القبائل التركو– مغولية في وسط آسيا. وقد قدمت عائلتها من منطقة «ترانسوخيانا» (أوزبكستان وتركستان حالياً) ولكنها خلال الثوران العنيف لبدايات القرن الثالث عشر اختطفت وبيعت كأمة. وتوالى على ملكيتها العديد من الأسياد الأغنياء الذين وقعوا جميعاً في غرامها، بسبب جمالها وذكائها حتى انتهت أخيراً زوجة لـ«قوتلوغ خان» (توفي عام 1235م)، قائد كيرمان القوي. وبعد وفاته ورثها ابنه قطب الدين حسب التقاليد المغولية، وكان واضحاً منذ البداية تأثيرها القوي عليه، وعندما نصّب

على عرش «كيرمان» في 1251م اعتبرت هي التي ستحكم. وبعد وفاته عام 1257م استأثرت رسمياً بالسلطة ونعمت بلقب قوتلوغ (أي صاحب الحظ الطيب) بعد أن أصبحت وصية على عرش ابنها الصغير «هاجاج سلطان Hajjaj Sultan»، ولتدعيم موقفها ونشر تأثيرها سعت إلى تزويج ابنها وابنتها «الخاتون بادشا» زواجاً يعود على الأسرة بالمصلحة، فزوجته من ابنة حاكم خوراسان آرغون آقا، وزوجت بادشا للرجل الذي سيرث العرش في المستقبل «أباقا خان» ابن هولاكو خان، بعد أن تغاضت تيركان خاتون عن حقيقة أن ابنتها مسلمة، ولا يحق لها حسب الشريعة الإسلامية الزواج من غير مسلم. وبذلك حافظت على علاقات طيبة مع الإلخانات في أذربيجان ونعمت بدعم البلاط المغولي هناك.

اشتهرت الخاتون «تيركان» بالعدل ونشرت الأمان والاستقرار وأعمال الخير في المنطقة التي حكمتها. وهناك العديد من الأمثلة على حسن حكمها في نزاعات رعاياها. فعندما جاءها شيخ مدعياً أن أمواله ومجوهراته قد سرقت من بيته، وبعد أن علمت أن زوجته صغيرة السن، أمرت بإرسال بعض عطرها الخاص والمميز هدية لتلك الزوجة، ثم أمرت حراسها بالتجول في المدينة واعتقال كل من تفوح منه رائحة ذلك العطر، فعُثر على أحد الشبان والذي اعترف بأنه على صلة بالزوجة الشابة وهو من سرق بيت زوجها وبعد أن هُدد بالعقاب أعاد المسروقات وطُلقت الزوجة ونفيت إلى الخارج مع حبيبها، وشاعت قصة الملكة وحكمتها وذكاؤها في كل مكان. مُدحت الخاتون «تيركان» من قبل العديد من رعاياها وهنا يؤكد المؤرخ «مونشي Munshi» على طيبتها وروعة شخصيتها:

«إنها ملكة صالحة، نقية الطوية، ومتواضعة المظهر.. هي رمز الطهارة وحسن الحكم وإتخاذ القرارات. إنها الجوهرة التي آلفت بين ملوك قارة خيتاي في إقليم كيرمان ووثقت صلاتهم»(21).

«الخاتون بادشا Padeshah Khatun»

كانت بادشا ابنة الملكة «قوتلوغ تيركان» المفضلة. اشتهرت بذكائها ومواهبها

الأدبية فكانت شاعرة مميزة.. حياتها في بلاط كيرمان كانت منعمة ولا تشبه في شيء حياة قريناتها في السهوب، ولكنها ظلت تحن إلى تلك الحياة وتشتهيها، فكتبت تقول عن نفسها:

«مع أنني ابنة سلطان قوي البأس،
وثمرة حديقة الأتراك،
سعيدة بقدري ورفاهي
لكن هذا المنفى اللانهائي يبكيني»(22).

جرى الوعد بتزويجها للإلخان أباقا (حكم بين عامي 1265و82م) ولكن قلب أمها لم يطاوعها على التخلي عن ابنتها لتصبح زوجة ثانوية في حريم الإلخان حتى عام (1271–72م) حين اكتمل الزواج فعلاً. وكان ذلك هو السبب الحقيقي وراء تأخير الزواج فليس ثمة صحة للزعم القائل: إنها أخرّت زواج ابنتها المسلمة، لأن زوج المستقبل غير مسلم. ويُعتقد بأن أمر الزواج حُسم بشكل نهائي بعد وصول أحد الأمراء المهمين كمبعوث من مخيم أباقا، وكان اسمه «قارغاي إلتشي Qarghai Ilchi»(23). وكانت مخاوف الأم عظيمة حول قدرة ابنتها المدللة والمحبوبة وذات الكبرياء والأنفة على التأقلم مع حياة الحريم، والاعتياد على طقوس المغول وعاداتهم(24). فقد كان من المؤكد أن عليها الاذعان لبطانة كبيرة من الزوجات والقريبات الأخريات. وسيكون من إحدى مهامها تقديم الشراب لهن وملء كؤوسهن كلما فرغت. خشيت أمها أن تحول كبرياء فتاتها، وحدة طبعها دون القيام بذلك، بالإضافة إلى ضعف بنيتها التي لن تساعدها على حمل قرب الخمر الضخمة. لم تسترح الأم وتخف مخاوفها إلا حين تذكرت ماضيها، وكيف استطاعت بالصبر والحنكة أن تتأقلم وتعيش برغد وسعادة، فنقلت مشاعرها وأفكارها لابنتها وطمأنتها ثم سارت الأمور أخيراً لصالح الأم وابنتها(25) حين تزامن وصول الابنة إلى قصر الإلخان أباقا مع وفاة والدته «الخاتون ياسونجين»(26). فبعد وفاة تلك السيدة الموقرة برزت الحاجة إلى من يدير مخيمها، ويأخذ مكانها في كل شيء وكانت بادشا هي تلك المرأة. فمنذ لحظة لقائهما الأول،

اكتشف أباقا مقدار ذكائها وحكمتها ولباقتها وقدرتها على القيادة والإدارة فأصدر ختماً باسمها، واستلمت عرش أمه المتوفاة. ويوماً بعد يوم اكتسبت عاطفة الزوجات الأخريات وجميع الأميرات والأمراء ومحبتهم، ويعتقد المؤرخ وصّاف بأن حب «أباقا خان» لها هو السبب في منحها كل تلك الامتيازات التي فاقت كل ما أعطاه لجميع نسائه من قبل.

تركت بادشا بعد وفاتها قصيدة هنا بعض منها:

تسربت لروحي رائحة الخلود
من تفاحة أعطيتني إياها في السر
وابتسم قلبي كرمانة من الفرح
حين لمستني يدك وأنت تناولني الكأس(27)

في يوم من ماضٍ لا ينسى
خلقوا تلك الكأس لتريح قلب الحبيب المتعب.
الكأس التي تطالب الحلوى بسكر حوافها،
سقوه منها ثلاث مرات في مصر(28)

من رأى كتابة المسك على الياقوت؟
ومتى كان العطر ليظلم النبيذ؟
آه يا روحي
أثر الخال الأسود على فمك
أهي العتمة ممزوجة بماء الحياة؟(29)

اليوم إلى أن يتكئ رأسي على كتفك،
كم من الحزن عليه أن ينطلق من نافورة المتعة!
حبات اللؤلؤ التي أراها على أذنيك
سأسقيها بدموعي(30)

«الخاتون قوتلون Qutulun Khatun»

قوتلون، هي ابنة المتمرد الأوقطاوي قايدو خان (1236–1303م)، ابن عم قبلاي خان، الذي دافع عن القيم المغولية التقليدية ضد التغيرات التي أصابتها عبر فترات الاستقرار في المناطق الحضرية. وثار ضد فساد أبناء عمومته في إيران والصين. مثلت ابنته «قوتلون» رمز المرأة التركو– مغولية بتمسكها بالقيم والمبادئ التي دافع أبوها عنها.

كان والدها شديد الحب لها، وقد رافقته في رحلاته ومعاركه، محققة صيتاً كبيراً كمحاربة من الدرجة الأولى. ورغم المبالغات الكثيرة التي حيكت حولها، لكنها تبقى قصصاً تعزز مكانتها كرمز ومثال للمرأة التركو– مغولية.

وقد قيل: إنها رفضت الاقتران بأي رجل لا يتمكن من مصارعتها وهزمها. وقال عنها ماركو بولو: إنها «امرأة غاية في الجمال والحسن، وكذلك القوة والمهارة في القتال، فقد بزت حتى الرجال في قوتها الجسدية». وقيل إنها فرضت على كل من يخسر في منازلتها إعطاءها 100 حصان حتى صار في اصطبلها 10,000 حصان. وقيل إنها برعت في ركوب الخيل، وفن القتال وفضلت زوجاً بارعاً فيهما مثلها على زوج يكون عالماً مفوهاً في البلاط. وبهذا كانت تمثل قيم المغول الأولى التي تكبر في المرء إتقان فنون الفروسية والرماية على أي مهارة أخرى.

يزعم رشيد الدين بأن والدها قايدو أجبرها على الزواج، بعد أن قالت له مرة: «لن أتزوج غيرك». وحسب قصة رشيد الدين فقد زوجها لرجل من عشيرة «قورولاس Qorolas» واسمه كان «آبتاقول Abtaqul» وكان شخصاً اختارته بنفسها بعد أن أجبرت على ذلك. ورزقت منه طفلين بعد وفاة والدها. وعاشت العائلة في منطقة هادئة بين الأنهار في ما يسمى اليوم بكزخستان.

عن ابنة قايدو خان وكم كانت قوية وشجاعة(31)

«علينا أن نعلم أن قايدو خان كانت له ابنة اسمها في اللغة المغولية «آيجيرام» والذي

يعني القمر المشع. وكانت تلك الفتاة قوية لدرجة أنها بزت بقوتها وشجاعتها، جميع الشبان في المملكة.

رغب الأب في تزويجها ولكنها رفضت قائلة إنها لن تقبل بأي زوج ما لم يهزمها ويرغمها على الزواج منه فانصاع والدها لرغبتها، وأعلن في كل أرجاء المملكة عن استعداد ابنته لمنازلة كل من يرغب في الاقتران بها. وبانتشار الخبر قدم الكثيرون لتجريب حظهم معها. كانت المنازلات تتم بكل وقار وجدية، فيأخذ الملك مكانه في القاعة الرئيسة في القصر بصحبة عدد كبير من الرجال والنساء ثم تأتي ابنته لتقف في وسط القاعة مرتدية ثوباً من الجلد كثير التطريز والزخارف، ثم يأتي الشاب الذي سينازلها كذلك بثوب من الجلد. وإن تمكن الشاب من مصارعتها وهزمها برميها على الأرض يمكنه الحصول عليها كزوجة له، وإن خسر فعليه أن يدفع لها 100 حصان قبل أن يغادر، وبتلك الطريقة ربحت الفتاة اكثر من 10,000 حصان، وليس هذا بغريب بالنظر إلى قوة بنيتها ومتانة عضلاتها وطولها الفارع حتى لتكاد تشبه العملاق. وحدث أن جاء في عام 1280م ابن ملك غني، وكان شاباً شديد الوسامة، حضر برفقة حاشية رائعة، جالباً معه 1000 حصان. استقبله الملك قايدو بكل ترحاب خاصة وأنه أعلن فور وصوله عن نيته في منازلة الفتاة الباسلة، وقد فرح بفتوته وبكونه أميراً وابن الملك «بامار» وحاول إقناع ابنته بأن تتساهل معه أثناء النزال، لكنها رفضت، وهكذا اجتمع الحشد كالعادة في القاعة وبدأ النزال بينهما وقد تمنى كل من كان في تلك القاعة خسارة الأميرة وفوز الأمير، لكن حدث العكس، وانتاب الجميع الحزن العميق لخسارة الأمير. بعد ذلك اصطحب الملك ابنته معه في معارك عدة حيث تفوقت على أبسل الفرسان بشجاعتها وقوتها ومرة اندفعت الفتاة إلى قلب المعركة، واختطفت رجلاً جلبته معها كزوج لها».

«الخاتون بغداد Baghdad Khatun»

بغداد هي ابنة الأمير المشهور بأسه «تشوبان سولدوس Chopan Suldus» الذي كان يعمل كأمير للأمراء عند «غازان خان» الذي حكم المناطق الشمالية الغربية للإمبراطورية المغولية واستلم الحكم من أبوسعيد البالغ من العمر أحد عشر عاماً، والذي كان تشوبان متزوجاً من أخته «ساتي بيج». فنعم أبناؤهما بالعيش في بلاط الملوك مما أثر على طبيعة الخاتون بغداد، وخلق منها شخصية مناقضة لقوتلون ابنة

السهوب الشرسة. فالخاتون بغداد فاقت النساء بمهارتها في فن الغزل والاستحواذ على قلوب الرجال. ويقال: إن غيرتها دفعتها مرة إلى تسميم آخر أزواجها وآخر الإلخانات (الإلخان أبو سعيد الذي توفي في 1335). ويقال إن الشاب الذي كان في عشريناته وقع في حبها «حتى إنه لم يكن يفكر بسواها حين يختلي بنفسه في زوايا قصره»(32) لكنها كانت للأسف متزوجة في ذلك الحين من الشيخ حسن الكبير الرجل ذي المكانة البارزة في قبيلته الـ «جالايرد» واستغل الشاب أبو سعيد قانون الياسا الذي يسمح للحكام بامتلاك نساء الغير إذا رغبوا في ذلك سواء أكن متزوجات أم لا، فأعلن رغبته تلك لأبيها الذي قابلها بالغضب، أما زوجها فكان موقفه سلبياً واكتفى بالصمت(33).

ويقال: إن الخاتون بغداد «استحوذت تماماً على قلب أبوسعيد فلم يعد يغمض له جفن»(34)، «واجتاحه الحزن والهم وهزم قلبه في معركة الحب»(35)، «وبسبب نظراتها الساحرة غرق قلبه في الألم، تلك النظرات التي ينهار أمامها الملك والمتسول على حد سواء»(36). ورغم سماعه بمؤامرة دبرها أبوها وشقيقاها ورغم إعدامه لهم، فقد ظل مصراً على المطالبة بطلاقها من زوجها كي يتزوجها. ولسعادة الشابين فقد تم الزواج فعلاً، واستمر بيت تشابان بخدمة بلاط أبوسعيد ولكن على مضض(37). لكن العشق لم يستمر لفترة طويلة بينهما فقد تزوج أبوسعيد من ابنة عمها «الخاتون دلشاد»، وأما هي فدفعتها الغيرة من المرأة الشابة والرغبة في الانتقام لأبيها وأخويها إلى التآمر مع سلطان القبائل الذهبية «أوزبك Ozbek» لتسميم زوجها. بعد وفاة آخر الإلخانات أبو سعيد لم تعمر الخاتون بغداد طويلاً فقد قتلت عام (1336م) في حمامها بأمر من المغولي الطامع بالعرش الإيراني «آربا خان».

مغنيات الـ «تساتشو Tsa Chu»(38)

بدأ تقليد غناء التساتشو في زمن «قبلاي خان». وقد انخرطت فيه فتيات من أصول متواضعة ليصبحن في ما بعد مشهورات وثريات، أو على الأقل ليهربن من مصير النساء التعس الذي خيم على الكثيرات منهن زمن حكم «اليان» في الصين.

وقد دعي هذا النوع من الأوبرا بالدراما أو المسرح منذ بدأ العرض يتضمن مقاطع محكية، بالإضافة إلى دور المغنية أو المغني الأساسي. اشتهر هذا النوع من العروض بداية في «بيش باليق» منذ عام 1260 وكان العرض مقسماً إلى أربعة فصول مع لازمة واحدة تستخدم لجميع الفصول، مع مقدمة كانت تدعى «الإسفين أو الوتد» والتي تتألف من أغنية أو أغنيتين قصيرتين تؤديان في بداية العرض.

عوملت الممثلات، والمغنيات في تلك العروض بكل تكريم، وكأنهن نجمات مشهورات، وغالباً ما كان هناك جمهور محدد يأتي لمشاهدة مغنية بعينها. وعلى نجمة أوبرا التساتشو تأدية ما لا يقل عن أربعين أو خمسين أغنية بلا توقف تقريباً (حيث إن الغناء لا ينقطع إلا بتدخلات الكورس الذي يروي المقاطع النثرية)، الأمر الذي يبعث حقاً على الإعجاب والدهشة.

يعزى دور المغني الأساسي للرجال أحياناً، ولكنه دور نسائي على الأغلب.

وخلال عهد «اليان» كانت فرق الأوبرا هذه تتشكل من أفراد العائلة فلا يخالطهم من الخارج سوى أفراد من أسر الزوجات أو الأزواج، وإذا أسند الدور الرئيسي للنساء، فإن الرجال يلعبون أدواراً ثانوية ساخرة على الأغلب، كدور «القوادة العجوز» الذي يتكرر في معظم العروض تقريباً. وكان هناك قانون يمنع زواج الممثلات من خارج مجتمع الممثلين أو خارج نطاق فرق تلك الأوبرا. وطُبّق هذا القانون في عام (1278م) حصراً على ممثلات الأكاديمية الإمبراطورية للموسيقى، وكان يهدف إلى منعهن من هجر المدينة بالزواج إلى خارجها، والعيش مع أزواجهن في الأقاليم مثلاً. وفي 1311م فرض قانون أكثر صرامة من قبل الخان نفسه ينص على «زواج الممثلات يجب أن يتم من الممثلين فقط، وتعتبر مخالفة ذلك جريمة يعاقب عليها مقترفها»(39) وقد أعدم أحد الموظفين لارتكابه تلك المخالفة.

ويُعتبر نص «مجموعة البستان الأخضر» مرجعاً حول هذا النوع من العروض، والذي يتضمن معلومات تفصيلية عن مهنة 100 مغنية من اللواتي شاركن في مثل تلك العروض ما بين عامي 1270م و1374م، وبعض أولئك المغنيات ممن تزوجن بغير أقرانهن من الممثلين، أصبحن محظيات وصرن ملكاً للمسرح، ومع أنهن أصبحن محظيات،

لا زوجات رسميات، فقد تمتعن بمنزلة الزوجات، وكن يتسابقن للحصول على تلك المنزلة بسبب أصولهن الريفية أوالفقيرة. وقد شكلن بالغناء والرقص والتمثيل حلقة وصل بين ثقافة طبقات المجتمع الراقية والثقافة السائدة، وتلك كانت مهمة المحظيات دائماً عبر التاريخ. ويبدو أن سبب اعتبارهن من قبل كاتب «مجموعة البستان الأخضر» غير جديرات بالذكر يعود إلى أنهن كن أميّات على الأغلب، ولم يكن جميعاً جميلات، بل كانت بينهن بعض المعاقات أو المشوهات. والشيء الذي كان يميزهن عن سواهن هو جمال صوتهن الفريد. وبدأت قائمة زبائنهن ومعجبيهن بأشخاص تبوأوا أعلى المناصب الوظيفية المحلية لتنتهي بالجنرالات المغول، ورؤساء الوزراء الذين كان معظمهم من المغول أو الأوغور الأتراك، مع وجود عدد من المعجبين القادمين من عامة الشعب. وبعد 1313م حلت مكان الثقافة القديمة المتحفظة والقائمة على التمييز، ثقافة جديدة أكثر انفتاحاً مما ساهم في تدعيم مكانة مغنيات أوبرا التساتشو أكثر فأكثر.

قام «سيا بوهو Hsia Po–ho» بجمع مواد كتاب «مجموعة البستان الأخضر» عام 1364م. وسيا بوهو من أسرة عريقة تسمى بالسينجكيانك وكان قد ورث ثروة كبيرة عنها، تنبأ له أحد المنجمين بخسارتها في إحدى الكوارث التي ستحيق به. وبناء عليه أخذ سيا بوهو يُفرط في البذخ والتبذير على مختلف المتع والتسالي رغبة منه في الاستمتاع بتلك الثروة قبل ضياعها، فأغدق الكثير من السخاء على مغنيات التساتشو. وأخيراً، حدثت الكارثة المنتظرة وأرغم على مغادرة بلدته، لا يملك سوى كتبه وحينها بدأ يسجل ذكرياته وملاحظاته التفصيلية عن تلك العوالم التي خبرها عن قرب في ما مضى من أيامه.

«تشانغ» أو «الغيمة المتناغمة» هي إحدى أولئك المغنيات اللواتي ذكرهن كتاب «مجموعة البستان الأخضر».. كانت تجيد إلقاء كل من نوعي شعر «تشيه» و«تزو»[17] وكانت متحدثة بارعة وفطنة، وأفضل مغنية في زمنها، وقد ذاع صيتها في بكين وما

(17) Shih and tz'u الشيه، وتزو: نوعان من الشعر الصيني. ساد نوع الشيه في عهد أسرة «تانغ T'ang»، وأما تزو فقد ساد في عهد أسرة «سونغ sung» وهي أشعار تتألف عادة من أكثر من سطر (تصل حتى ثمانية) بينما القصيدة التقليدية كانت تتألف من أربعة فقط.

زالت صورها ترسم من قبل أفضل الرسامين، ويتردد اسمها في قصائد أهم الشعراء حتى يومنا هذا. وهناك قصة عن رئيس وزراء ذهب بصحبة مرافقيه لزيارتها ودفعه إعجابه بها إلى بذل الكثير من الذهب والفضة أمامها، وعرفاناً بالجميل غنت له مطولاً، وحين انتهت همّ المرافقون بجمع الذهب والفضة، إيذاناً بانصراف سيدهم لكنه طلب منهم تركها في بيت «الغيمة المتناغمة» تحسباً لعودته مرة أخرى.

المغنية الأخرى التي ذكرها الكتاب هي «ساوي- سيو Ts'ao E—hsiu» التي كانت أيضاً ذات شهرة كبيرة في العاصمة. تمتعت ساوي- سيو بذكاء حاد وصوت وجمال آخاذين، مما جعلها محط أنظار علية القوم، إذ كان وجودها في احتفالاتهم مصدر فخر لهم.

وأما «كاو Kao» أو «الرونق الأصيل» فقد فاقت الجميع جمالاً وسحراً طبيعياً وتميزت بأداء الأدوار الحزينة (بودور – ريباينبج boudoir—repinig) التي ترثي فيها النساء الثريات غياب رجالهن، ولعبت أدوار الفتاة اللعوب، وأدوار المغازلة. تزوجت من ممثل مشهور وبعد وفاته تزوجت الموظف «تشياو تايسو» ثم عادت إلى التمثيل بعد وفاته، كما يذكر مؤلف «مجموعة البستان الأخضر» قائلاً: «وكانت خسارة المسرح كبيرة لها بعد زواجها من موظف مرموق الرتبة، ولكنها عادت وسخرت نفسها كلية له من جديد»(40).

وأما «وانج Wang» أو «الحزام الذهبي» فقد ملأت شهرة جمالها وروعة غنائها العالم كله.. اتخذها أحد الموظفين الكبار خليلة له، وأنجبت طفلاً منه. وحظيت باهتمام أعظم قادة قبلاي خان الجنرال «بيان» ورغب بتسجيلها في الأكاديمية الإمبراطورية للموسيقى، واضطر حبيبها إلى أن يتوسل لزوجة «بيان» علّه يغيّر رأيه ويبقي له حبيبته وبالفعل نجح في مسعاه وبقيت «الحزام الذهبي» بقربه.

«وي تاو تاو Wei Tao –tao» اشتهرت باتقانها رقصة «الباتريدج Partridge» التي كانت تؤديها كممثلة منفردة بإتقان منقطع النظير، وهي رقصة تارية الأصل تؤدى برفقة آلة المزمار والطبلة.

و«مليحة» كانت فتاة مسلمة لعبت أدواراً أساسية ومهمة في المسرحيات التي

قدمت في زمنها. كانت تتميز بصوت نقي واضح وجميل واشتهرت بتمثيل أدوار الفتاة العاشقة الجميلة وكانت مثل تلك الأدوار تستلزم الكثير من التبرج.

استطاع آرثر ويلي من خلال ترجمته كتاب «مجموعة البستان الأخضر» أن ينقلنا إلى عوالم المئات من المغنيات الشهيرات وكذلك العازفين الشهيرين في زمن حكم أسرة اليان المغولية في الصين، وما زال هذا الكتاب إلى اليوم مرجعاً مهماً عن تلك الحقبة.

الحواشي

1. ر. أ. سكيلتون، تي. ي. مارستون، وجورج د. بينتر، «خريطة السهل وعلاقتها بالتتار» (نيوهيفن، ولاية كونيكتيكت، منشورات جامعة ييل، 1995)، 94، مقطع:49. أعيد نشر هذا الاقتباس بموافقة القسم الخاص بمنشورات جامعة ييل).
2. وليام الروبريكي، «بعثة وليام الروبريكي» ترجمة وتنقيح: بيتر جاكسون وديفيد مورغان (لندن: مجتمع هاكلوت، 1990) ص. 74، سمح بإعادة اقتباس هذا المقطع بموافقة جمعية هاكلوت.
3. أورجونج أنون، ترجمة: تاريخ جنكيز خان وحياته (التاريخ السري للمغول) (ليدن، هولندا، بريل، 1990) ص. 141—42.
4. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان، ترجمة: جون آندرو بويل (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 1971) ص. 176. أخذ الاقتباس بموافقة منشورات جامعة كولومبيا.
5. علاء الدين عطا ملك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 245.
6. المصدر السابق، 242.
7. مولانا الجوزجاني، منهاج الدين أبو عمر عثمان، «طبقات الناصري»، ترجمة: هـ. ج. رافرتي (أعيدت طباعته في كلكتا، المجتمع الآسيوي، 1995) ص. 1144.
8. علاء الدين عطا ملك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 246.
9. ابن العبري، تاريخ جريجوري أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم الجزء

الأول، ترجمة إيرنست أيه. وواليس بدج (لندن، 1932) ص. 412.

10. مولانا الجوزجاني، منهاج الدين أبو عمر عثمان، «طبقات الناصري»، ترجمة: هـ. ج. رافرتي (أعيدت طباعته في كلكتا، المجتمع الآسيوي، 1995) ص. 265.

11. علاء الدين عطا ملك الجويني، «تاريخ فاتح العالم»، ترجمة جان آندرو بول، مقدمة ديفيد مورغان (مانشستر، إنجلترا، مطبوعات جامعة مانشستر، 1997) ص. 265.

12. المصدر السابق، ص. 552.

13. رشيد الدين، «خلفاء جنكيز خان، ترجمة: جون آندرو بويل (نيويورك: منشورات جامعة كولومبيا، 1971) ص. 168. أخذ الاقتباس بموافقة منشورات جامعة كولومبيا.

14. ابن العبري، تاريخ جريجوري أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم الجزء الأول، ترجمة إيرنست أيه. وواليس بدج (لندن، 1932) ص. 398.

15. رشيد الدين، خلفاء جنكيز خان، ص. 199.

16. المصدر السابق، ص. 200.

17. وليام الروبريكي، «بعثة وليام الروبريكي» ترجمة وتنقيح: بيتر جاكسون وديفيد مورغان (لندن: جمعية هاكلوت، 1990) ص. 224.

18. ج. إم فاي، الأيقونات السورية في زمن هولاكو، دوكوز خاتون (1975) ص 59-64.

19. ستيفانوس أوربليان، تاريخ سيونيك، ترجمة إم بروسيت (سانت بطرسبورغ، روسيا: الأكاديمية الإمبراطورية للعلوم، 1864) ص. 234-35.

20. ابن العبري، تاريخ جريجوري أبو الفرج ابن العبري، التاريخ السياسي للعالم الجزء الأول، ترجمة إيرنست أيه. وواليس بدج (لندن، 1932) ص. 419.

21. نصير الدين مونشي، سمت العلا (طهران، منشورات أساطير 1966-1983م) ص 37.

22. نصير الدين مونشي، سمت العلا (طهران، منشورات أساطير 1966-1983م) ص. 70.

23. المصدر السابق.

24. آنون، ترخي شاهي، ص. 140.

25. المصدر السابق.
26. المصدر السابق نفسه، ص. 140، و رشيد الدين، «جامع التواريخ»، تنقيح محمد راوشان ومصطفى موسوي. ترجمة جورج لاين (طهران: مطابع البراز، 1994).
27. نصير الدين مونشي، سمت العلا، (طهران، منشورات أساطير 1966–1983م) ص. 70.
28. نصير الدين مونشي، سمت العلا (طهران، منشورات أساطير 1966–1983م) ص. 70.
آنون، ترخي شاهي، ص. 60.
29. خواندامير، حبيب سيار، ص. 271، ومونشي ص. 156
30. آنون، ترخي شاهي، ص. 61.
31. ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمة: تريسا واف (لندن: سيدج ويك وجاكسون، 1994)، الفصل 49، ص. 417–19.
32. خواندامير، حبيب سيار، ص. 119.
33. المستوفي، «ظفرنامة، 1463. ترجمة: وورد، ص. 469.
34. الرزاق سمرقندي، ص. 92.
35. المستوفي، «ظفرنامة، 1463. ترجمة: وورد، ص. 469.
36. الرزاق سمرقندي، ص. 92.
37. المستوفي، «ظفرنامة، 1463. ترجمة: وورد، ص. 469.
38. لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع راجع آرثر ويلي «مجموعة البستان الأخضر»، في كتاب «تاريخ المغول السري» وأماكن أخرى. (ثيرسك، يورك شاير، بيت ستراتوس، 2002) ص. 67–106.
39. آرثر ويلي، ص. 90.
40. آرثر ويلي، «مجموعة البستان الأخضر»، في كتاب «تاريخ المغول السري» وأماكن أخرى. (ثيرسك، يورك شاير، بيت ستراتوس، 2002) ص.90.

الفصل الثاني عشر

حكايات شعبية مغولية

تخبر الحكايات الشعبية، الكثير عن الناس وتاريخهم. فقد احتلت الحكايات الشعبية المحكية في المجتمع المغولي، مكانة أكثر قوة وأهمية من الأدب التقليدي الرسمي. وقد احتوى المجتمع المغولي على الكثير من الحكايات الشعبية التقليدية القوية التي هدفت إلى التسلية والوعظ، وعملت على حفظ التاريخ ونقل الأعراف والتقاليد.

الكلب الجشع

عاش في قديم الزمان في جبال ألطاي كلب طماع، وفي أحد الأيام بينما كان يمشي طويلاً وجد عظمة جميلة على الأرض بجانب الجسر، فتوقف وحمل العظمة ناظراً الى الضفة الأخرى من النهر.

فكّر أن من الأفضل الذهاب إلى هناك، فقرر عبور الجسر، و بينما هو يفعل ذلك والعظمة في فمه، نظر الى الماء تحته فرأى خياله، وظنه كلباً آخر يحمل عظمة أخرى، فقال لنفسه: «سأذهب وأخطف تلك العظمة من فم ذاك الكلب، لأنها أكبر من عظمتي»، فقفز في الماء، لكنه لم يجد أي كلب، و لا أية عظمة، بل على العكس أضاع عظمته وابتلّ بالماء.

الفرس والمهر

يُحكى أنه كانت هناك فرس مرقطة من منطقة «كوهت»، وكان لها مهر يدعى «نجم الصباح»، وذات يوم ذهبا معاً طلباً للماء والكلأ فأمضيا ثلاث ليال، وفي طريقهما صادفا بيوض أوزة.

خافت الأوزة حين رأتهما وقالت: «لا تدوسا على البيوض، وإلا كسرتماها كلها».

فأجابت الفرس: «لا تتحدثي معي عن بيوضك. ألا ترين حالتي؟ حنجرتي قد جفت من العطش، وبالكاد أستطيع المشي». ثم تقدّمت وداست عمداً على البيض، فكسرت جميع البيوض، وبعدها تابعت طريقها باتجاه الماء.

استشاطت الأوزة غضباقائلة: «عندما ترجعين ثانية من هنا سوف أقتل مهرك هذا الذي تسمينه نجم الصباح».

وحين عادا ومرا بالقرب من الإوزة طارت فوق رأس المهر، وبدأت بنقره، فما كان من الفرس إلا أن بدأت بالدفاع عن مهرها الصغير وإبعاده من جهة إلى أخرى، فكلما أتت الإوزة من الشمال، أبعدت الفرس مهرها الصغير إلى الجنوب، وكلما أتت الإوزة من الشرق أبعدت الفرس مهرها الصغير إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق، كانت الفرس تتلقى كل النقرات بدلاً من مهرها الصغير ومن كل الاتجاهات.

وبعد انتهاء ذلك كله مضت الفرس ومهرها في طريقهما، لكن المهر الصغير لاحظ أن أذني أمه لا تتحركان لا إلى الأمام ولا إلى الوراء كالعادة، بل تدلتا فقط، ففكر أن أمه لابدّ عطشى.

لكنه لاحظ مجدداً أن صوت مشيتها ليس كعادته أيضاً. فبدا وكأنها تجر نفسها وفكر ثانية بأنها لابد من أنها متعبة. وتعجب لِمَ يبدو فرو أمه وسخاً مشعثاً، فظن أن سبب ذلك يعود لمشيهما في غابة «شاباكت بيك» المليئة بالأوحال، وتساءل أيضاً في نفسه عن تلك البقع الحمراء على جسم أمه، فربما كانت من جراء تلك الرحلة إلى بحيرة «هونت بيك» حيث الكبريت والرمال، وما تلك البقع الزرقاء التي على جسمها إلا

من رحلتهما الى «بينجت بياك» حيث التصقت الحجارة والحصى بجلدها.

وفي ذلك الوقت وبعد أن عبرا الهضبة توقفت الفرس والدموع تنهمر من عينيها، وقالت: «يا بني أمك التي تحب، في طريقها إلى الموت قريباً».

أخذت الدموع تنهمر من عيني المهر الصغير وقال لأمه الحبيبة: «وأين أذهب أنا؟ وماذا أفعل؟ لا أستطيع البقاء وحيداً، وكيف سأحيا من دون حليبك اللذيذ؟ أرجوك حاولي أن تتحملي يا أمي العزيزة».

أجابت الفرس: «يا بني، الموت قدر محتوم في الحياة. بجانب باراد بيك ستجد قطيعاً من الخيول مؤلفاً من ألف حصان قوي، ابحث عن أختك بينهم، ولكن اعلم بأنكما لن تستطيعا البقاء طويلاً معاً. وبجانب أرجالت بيك، ستجد قطيعاً من الخيول مؤلفاً من عشرة آلاف حصان قوي، وفي تلك المجموعة ستجد أخاك الأكبر، ولكنكما لن تستطيعا البقاء طويلاً معاً. وإذا تابعت المضي قدماً فستجد قطيعاً من الخيول مؤلفاً من مئة ألف حصان قوي، حيث ستكون الجدة الكبرى، حينها ستستطيعون البقاء والعيش معاً، وسيصبح العشب الأخضر حليباً لك، وسيكون لديك الكثير من الأصدقاء اللطفاء، كن جيداً مع صاحبك، وتصرف بحكمة مع فارسك، وستكون مكرماً، سوف لن تكون متعباً ولا ضعيفاً، وستكون الأفضل بين الخيول، وكن ودوداً مع أطفال البشر فإما أن تكون في مقدمة القطيع، وإما أن تبقى في المؤخرة.. سوف تحظى بالمرعى الوفير، فكن المهر الصالح دوماً».

وبعد أن أنهت الفرس حديثها ماتت على الفور.

فنظر نجم الصباح إلى أمه الميتة، والدموع تجري من عينيه، وتغسل وجهه، وأخذ يدور حولها قائلاً: «منذ قليل كانت تتحدث إليّ وكنتُ أسمع صوتها».

ذهب نجم الصباح إلى القطيع حيث أخته الكبرى، لكنها قامت بركله عندما كان خلفها، وضربته عندما كان في المقدمة ولم تدعه يقترب منها. فسارع في طريقه إلى أخيه الأكبر الذي لم يدعه يقترب منه أيضاً وركله بعيداً، وأخيراً ذهب إلى حيث توجد الجدة الكبرى، وعندما رأته قالت: «وكأن قطعة من لحمي ودمي قد أتت»، وسألته عن أمه فأجابها: «أمي ماتت».

وعندها قالت الجدة الكبرى: «إذاً ابق إلى جانبي ولا تغادر.. إن ضرعي قد جفت ولكن إذا حاولت جاهداً فسوف تحصل على الحليب».

فبقي نجم الصباح إلى جانبها ولم يغادرها، وظل يحاول بصبر حتى حصل على الحليب من ضرعها.

كبر نجم الصباح وأصبح قائداً لقطيع جدته الكبرى، وقطعان كثيرة أخرى، وأصبح الأسرع والأقوى بين جميع الخيول.

الصياد الفتي

يُحكى أنه في قديم الزمان، نصب صياد فتي شجاع، مخيمه الشتوي في جبال ألطاي، ومخيمه الصيفي في السهول.

وكان كلما امتطى حصانه الكستنائي ذاهباً إلى الصيد، أتى وفي جعبته صيد وفير من الظباء والأيائل والثعالب والذئاب. وحرص دائماً على أن يتقاسم ما يأتي به من صيد مع جيرانه والناس من حوله.

وفي أحد الأيام، وعندما كان في طريقه إلى الصيد رأى صقراً ينقض لالتقاط أفعى بيضاء صغيرة من العشب بالقرب من ضفة النهر، وبينما كان الصقر يحلق عائداً كانت الأفعى تنادي مستغيثة: «ساعدني أيها الفتى الصياد.. ساعدني».

شعر الصياد بالأسف على الأفعى، وفكّر في نفسه: «يا للبؤس، إن هذا المخلوق الصغير يواجه مشكلة وهو يستنجد بي فكيف لي أن أرفض مساعدته!».

فاستلّ سهمه مصوباً إياه باتجاه الصقر مما جعل الأفعى الصغيرة تسقط على الأرض وقالت وهي تكاد تختفي بين العشب الطويل: «لابد من أن أرد لك جميلك هذا في يوم ما أيها الفتى الصياد».

في تلك الليلة وبعد أن حزم الفتى الصياد الأيل، الذي اصطاده ووضعه على السرج، عائداً إلى ضفة النهر، حدث أن عدداً كبيراً من الأفاعي كانت تستلقي بشكل متقاطع على طول الطريق، فاقترب سائلاً بفضول: «هل لديكن اجتماع ما؟»، حينها تقدمت الأفعى الصغيرة البيضاء على الفور قائلة: «هذا هو الفتى الصياد الذي أنقذ

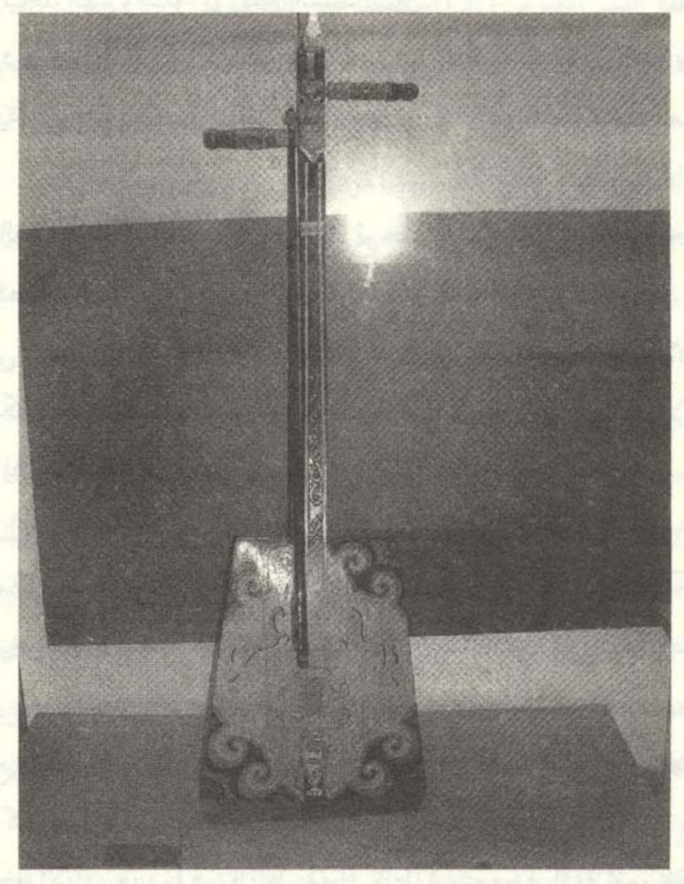
حياتي بكل شهامة».

فاجتمعت الأفاعي، مشكّلة دائرة حوله قائلات بصخب وضجة: «إن سيدنا يدعوك لزيارته». أما الأفعى الصغيرة فقالت: «أنا الابنة الصغرى للسيد التنين، لقد أنقذت حياتي البارحة، ويريد أبي أن يشكرك على ما قمت به من أجلي ويدعوك لزيارة قصره».

فتساءل الصياد قائلاً: «وكيف لي أن أزور قصر السيد التنين؟».

أجابت الأفعى: «أغمض عينيك وسأقودك إليه».

وبينما كانوا يمشون همست الأفعى الصغيرة في أذن الصياد قائلة: «سيعرض



الكمان المغولي الذي له رأس حصان، بموافقة «زينغ يانغ كينشان الثقافية للنشر»

عليك والدي أشياء ثمينة من الفضة والذهب، وعليك ألا تقبل بأي منها، وبدلاً من ذلك أطلب منه شيئاً صغيراً.. إنه حجر دائري ثمين يحتفظ به والدي دوماً في فمه، فإذا وضعته في فمك أصبحت قادراً على فهم لغات جميع الحيوانات والطيور، لكني سأنبهك إلى أمر مهم فبعد أن تضع ذاك الحجر الثمين في فمك، وتصبح قادراً على فهم اللغات التي تتحدث بها الحيوانات والطيور وتستطيع معرفة ماذا تقول، يجب عليك ألا تخبر أحداً من البشر عما سمعته، أو عرفته مهما حصل، وإذا أخبرت أحداً، فإن جسدك سيتحول مباشرة إلى حجر، لا تنسَ هذا البتة».

فهم الصياد كلام الأفعى الصغيرة وهزّ رأسه موافقاً. وبعد أن مشوا مسافة طويلة فتح عينيه ليجد أنهم وصلوا إلى قصر السيد التنين.

وفور دخولهم أراد السيد التنين أن يعبر عن شكره للصياد، فقام بفتح أبواب مئة وثمانية من مخازن كنوزه قائلاً له: «عليك أيها الصياد أن تختار ما شئت من كنوزي».

مشى الصياد متجهاً نحو الباب حيث توجد الكنوز ناظراً بإمعان نحو الداخل، فشعت الفضة والذهب في عينيه، أما اللؤلؤ فقد كان مكوماً كالجبال.. كنوز تحيي حتى الموتى وتعيد البصر إلى العميان، والصوت إلى الآذان الصماء، والكلام إلى البكم. هناك ما يكفي من القمح ومن الأثواب المتينة التي لا تخترقها الرياح ولا حتى أشعة الشمس، فلا مكان للفقر في الكون كله مع تلك الكنوز.

انحنى الصياد أمام السيد التنين قائلاً: «سيدي التنين أنا صياد، أعمل على حراسة وحماية أماكن بعيدة ونائية وأنا بحاجة إلى ذلك الحجر الصغير الذي تحتفظ به في فمك، فأرجو منك منحي هذا الجميل»، فنظر السيد التنين إلى اليمين ضاحكاً، ثم نظر إلى اليسار باكياً، وأخرج الحجر الثمين من فمه وأعطاه للصياد.

فأصبح الصياد منذ ذلك الوقت قادراً على فهم كل اللغات التي تتكلم بها الحيوانات والطيور، كما صار أكثر مهارة في الصيد.

وفي أحد الأيام، وبينما هو في طريقه إلى الصيد سمع مصادفة مجموعة من الطيور الجبلية تتناقش في ما بينها قائلة: «إن النمر سيد الجبل سيحتفل غداً بعيد ميلاده،

وقالوا أيضاً إنه سيأكل لحم هذين الصبيين اللذين يأتيان دوماً إلى الجبل لجلب الحطب، والصبيان لا يعرفان أنهما سيموتان غداً».

فدهش كثيراً لسماع ذلك وأراد إخبار الصبيين، لكنه تذكر أنه إذا أخبرهما فإن جسده سيتحول إلى حجر، وإذا لم يفعل فإن الصبيين المسكينين سيصبحان لقمة سائغة للنمر عندما يذهبان لجمع الحطب.

مزقه الخوف طوال الليل، وفجأة عند أول خيوط الفجر، خطرت له فكرة، فأخذ قوسه وسهامه متجهاً نحو الجبل، ووصل إلى جرف صخري وجلس منتظراً، وبعد قليل أتى الصبيان لجمع الحطب من دون أن يدريا ما يحدث حولهما.

وفجأة قفز النمر المفترس زائراً، منقضاً على الصبيين.

فما كان من الصياد إلا أن استلّ سهمه، ورمى النمر فأصابه في رقبته، وقتله على الفور.

انحنى الصبيان أمام الفتى الصياد شاكرين له إنقاذه حياتيهما.

والتمت جميع حيوانات الجبل ساخرة، هازئة بالنمر.. فرحة بموته وخلاصها من شره.

ومرت الأيام ومضت الليالي ومهارة الصياد تزداد أكثر فأكثر، واستمر ملبياً نداء الأهل والجيران واحتياجاتهم.

وفي أحد أيام الصيف، ذهب إلى الجبل للصيد كعادته، وتصادف أن إمبراطور مملكة الطيور وزوجته كانا يقودان رعيتهما في رحلة طويلة إلى مكان بعيد، وكانت كل الحيوانات تروح وتجيء، مندفعة بسرعة واهتياج حتى إن الأرانب والسناجب تجمعت في مجموعات هاربة كلها من هذا الضجيج الكبير، حينها دهش الصياد كثيراً فنزل عن حصانه وجلس في ظل إحدى الأشجار يصغي إلى محادثة الطيور فسمعها تتصايح قائلة: «غداً سوف ينفجر هذا الجبل وسيحدث ذلك فيضاناً كبيراً، ويجب على الجميع اصطحاب أمتعتهم معهم وألا يتركوا شيئاً بجانب القرية».

وعلى الفور قفل الصياد عائداً إلى قريته، وحالما وصل بدأ يصرخ محذراً الجميع قائلاً: «بسرعة.. بسرعة.. علينا جميعاً الرحيل بعيداً من هنا، إن الجبل الذي بجانبنا

سوف ينفجر غداً، وسيُحدث فيضاناً رهيباً». لكن أحداً لم يصدق كلامه. فمضى مبتعداً وهو يحدّث نفسه قائلاً: «أنا شخص يتيم وهؤلاء الناس اهتموا بي منذ ولادتي، وعلموني الفرق بين الصواب والخطأ، فكيف لي أن أدعهم يواجهون الموت».

فعاد إليهم مخاطباً إياهم بصوت عال: «هيا انهضوا وامضوا من هنا بسرعة، هناك حقاً فيضان كبير قادم إلينا». وعندما سمع الناس ذلك للمرة الثانية، بدأوا يلحون عليه، ويسألونه أكثر فأكثر: «كيف عرفت بشأن هذا الفيضان، ومن أخبرك عنه؟». فلم يكن أحد منهم مستعداً للهرب، والذهاب بعيداً ما لم يقدم لهم دليلاً قاطعاً على صحة كلامه.. حينها وبخوف وقلق كبيرين فكر في سره: «كيف لي أن أخاف من التحول إلى حجر وأدع كل هؤلاء الناس يموتون؟». فبدأ يخبرهم عن الأفعى البيضاء والسيد التنين وكيف استدعي إلى قصره ليشكره على ما فعله، وعن الحجر الثمين الذي كان السيد التنين يحتفظ به في فمه، وكيف منحه إياه، وكيف وضع الحجر في فمه واستطاع به فهم لغات جميع المخلوقات، وبذلك تمكن من قتل النمر، وحماية الصبيين اللذين يجمعان الحطب، وشرح لهم كيف أنه اليوم سمع مصادفة حيوانات الجبل تتكلم.

أخبرهم كيف أن ابنة التنين الصغرى الأفعى البيضاء حذرته ألا يخبر أحداً قط عما حدث، وإلا فإن جسده سيتحول إلى حجر.

وبينما كان يتحدث بدأ جسده بالتصلب رويداً رويداً، وسرعان ما تحول إلى حجر.

نظر الناس جميعاً إلى ما يجري غير مصدقين ما يرون، وقد اتسعت عيونهم دهشة. وبعد أن شهدوا موت الصياد صدقوا ما كان يقوله. فبدأ الجميع يركضون جيئة وذهاباً للهرب بعيداً. وارتفعت ضجة كبيرة فقد بدأ الجبل بالانفجار حقاً، وكان بمقدورهم سماع صوت الماء المندفع نحوهم من جراء الفيضان.

حدق الناس من بعيد بالتمثال الحجري للفتى الصياد فقد كان يقف بثبات حتى إن الماء المتدفق لم يستطع تحريكه وزحزحته من مكانه، وبكوا جميعاً قائلين: «الفتى الصياد تحول إلى حجر من أجلنا».

ومنذ ذلك الوقت والناجون من الطوفان ما زالوا يتناقلون ذكرى الفتى الصياد من جيل إلى آخر. تلك الذكرى التي تحولت في جبال ألطاي، إلى تمثال حجري أزرق بجانب ينبوع أطلق عليه اسم: «ينبوع الفتى الصياد».

الأخوات الثلاث(1)

يُحكى أنه في قديم الزمان، كانت تعيش ثلاث أخوات مع أمهن في كوخ خشبي فقير.. كانت الأخت الكبرى تدعى لفتة كبيرة، والأخت الوسطى تدعى جزرة، أما الأخت الصغرى فتدعى فجلة.

وذات يوم خرجت الأم لزيارة جدتهن، وفي منتصف الطريق، أسفل الجبل، صادفت «منغاي»، وهو وحش جبلي مخيف، قبيح وغبي لأبعد الحدود. سأل منغاي الأم عن مكان سكنها وكم لديها من الأولاد وبعد أن سمع إجابتها هجم عليها والتهمها، ثم قام بارتداء ملابسها وذهب مساء إلى بيتها. تقدم نحو الباب وقرعه قائلاً: «أيتها اللفتة الكبيرة افتحي الباب» ولكن اللفتة الكبيرة عرفت أن هذا ليس صوت أمها فرفضت فتح الباب، ثم نادى: «يا جزرة افتحي الباب». سمعت جزرة الصوت وعرفت أيضاً أنه ليس صوت أمها، ورفضت فتح الباب كذلك، لكنه عاد منادياً: «فجلة، هيا افتحي الباب» وسمعت فجلة الصغيرة الصوت وهتفت قائلة: «عادت أمنا» وذهبت راكضةً لتفتح الباب قبل أن تتمكن أختاها من منعها.

دخل منغاي البيت محدثاً صوتاً وجلبة «بوم، بوم، بوم» واستلقى في السرير قائلاً: «يا لفتة كبيرة تعالي ونامي بجانبي»، أجابت لفتة كبيرة: «لا، أنتَ لست أمي» فنادى ثانية: «جزرة تعالي ونامي بجانبي»، ردت جزرة: «لا، أنتَ لست أمي». أما فجلة فقد سارعت بالقول: «أنا سآتي لأنام بجانبك» وقفزت داخلة إلى السرير لتنام بجانب منغاي.

وفي منتصف الليل سمعت الأختان الكبريان صوتاً، وكأن أحداً ما يأكل شيئاً، فسألت لفتة كبيرة: «ماذا تأكلين يا أمي؟».

أجاب منغاي: «إني آكل فجلة كبيرة جلبتها من عند الجيران».

ثم سألت جزرة: «والآن ماذا تأكلين يا أمي؟».

فرد منغاي: «إني آكل فجلة كبيرة جلبتها من الحديقة».

فقالت الفتاتان: «دعينا نشاركك بها إذاً».

فقام منغاي بقطع إبهام فجلة ورماه إلى لفتة كبيرة ثم قطع خنصر فجلة ورماه إلى جزرة، حينها عرفتا أن منغاي قد أكل اختهما الصغرى، فهمست كل منهما للأخرى: «علينا أن نهرب بعيداً من هنا».

وعندما نهضت الأختان واقفتين، سأل منغاي: «إلى أين أنتما ذاهبتان؟»، فأجابت الأختان: «إلى الحمام».

وعلى الرغم من أن منغاي كان وحشاً حقيراً ودنيئاً، إلا أنه كان غبياً جداً أيضاً فسمح لهما بالذهاب.

وبينما كانت الفتاتان تهمان بالخروج من البيت اختطفتا صندوق أمهما الخشبي الصغير ثم تابعتا الركض بأقصى سرعة. وبعد مدة قصيرة اكتشف منغاي الخدعة فلحق بهما.

أحست الفتاتان باقترابه منهما، واستطاعتا رؤية ظله وراءهما في نور الفجر. توقفت لفتة كبيرة وفتحت صندوق أمها الخشبي، وأخذت المشط منه قائلة: «كانت أمي تستعمل المشط ليصبح غابة كبيرة». قالت ذلك ورمت المشط خلفها ليقع أمام منغاي. وعلى الفور تحول المشط إلى غابة كبيرة، واستطاع إبعاد الوحش عن الفتاتين، ولكن منغاي استخدم ذراعه فقط لتفريق الأشجار وإبعادها عن طريقه.

عندها قامت لفتة كبيرة بإخراج المشط المسنن من الصندوق وقالت: «كانت أمي تستعمل المشط المسنن ليصبح غابة كثيفة». قالت ذلك ورمت المشط خلفها، وبسرعة صار المشط غابة كثيفة أوقفت منغاي. ولكن منغاي حرك يديه القويتين بسرعة وقوة، مستخدماً أسنانه الحادة لقطع أشجار تلك الغابة وإبعادها عن طريقه.

ارتفع صوت قدميه ثانية «بوم.. بوم.. بوم..» وعاد يطارد الفتاتين، فحاولت لفتة كبيرة من جديد آخذة مرآة صغيرة من الصندوق وهي تقول: «أمي كانت تستعمل هذه المرآة لتصبح بحيرة كبيرة». قالت ذلك ورمت المرآة خلفها.

وهكذا تحولت المرآة إلى بحيرة كبيرة، وأصبح منغاي واقفاً على الطرف الآخر منها.

نظرت الفتاتان خلفهما إلى الطرف الآخر من البحيرة لتريا الوحش منغاي ما زال واقفاً يصرخ قائلاً: «لفتة كبيرة كيف استطعت العبور إلى الجهة الأخرى من البحيرة؟»، فعلى الرغم من كبر حجم منغاي، إلا أنه حقاً كان غبياً جداً.

وأجابته لفتة الذكية قائلة: «لقد قمنا ببقر معدتينا وإخراج أمعائنا إلى الخارج ثم ربطنا بها صخرة ومن ثم رميناها في الماء لنصنع منها جسراً».

فسأل منغاي: «وهل أستطيع العبور بهذه الطريقة؟» فأجابته لفتة كبيرة: «بالطبع، هيا أسرع لكي تتمكن من العبور». وكانت أظافر منغاي حادة جداً كالسكين، فقام ببقر معدته وإخراج أمعائه، ثم ربطها إلى صخرة ورماها إلى الجهة الأخرة من البحيرة، وصادف عبور نورس في الفضاء طائراً فوق البحيرة فشاهد الأمعاء تسبح في الماء، فغطس في الماء والتقط قطعة من الأمعاء قاطعاً إياها إلى قطعتين، وحينئذ غاص منغاي إلى أسفل البحيرة وغرق هناك.

وهكذا عادت الفتاتان إلى كوخهما سالمتين وعاشتا بأمان.

وأما الحكمة من هذه الحكاية فهي أن من شأن حب الأم وحنانها حماية أبنائها ومساعدتهم حتى وهي بعيدة عنهم.

قصة صديقين

يحكى أنه في قديم الزمان، عاش شخصان في قرية، وكان اسم الأول «لا تتوسل أحداً» واسم الثاني «لا تُعن أحداً». ولم يكن أحدهما يطلب عون الآخر.

وفي أحد أيام الصيف لم يكن لدى «لا تتوسل أحداً» حطب في بيته، فجرّ عربته إلى الجبل المجاور لقطع الحطب، وفي طريق عودته إلى البيت اصطدمت إحدى عجلات عربته بصخرة كبيرة وتحطمت، ففكر «لا تتوسل أحداً» قائلاً في نفسه: «إذا لم أجلب الحطب إلى البيت فسوف لن يكون لدينا شيء لإشعاله»، وفكر بحال عربته واحتار في أمره، لكنه بعد وقت قرر المضي إلى بيت «لا تُعن أحداً» لاستعارة عربته.

وهكذا ذهب «لا تتوسل أحداً» إلى منزل «لا تُعِن أحداً» وبابتسامة على وجهه، ألقى التحية قائلاً: «مرحباً ياصديقي العزيز، ما حدث أننا لا نملك حطباً في البيت، ففكرت أنه ربما يمكنني استعارة عربتك لأذهب بسرعة وأجلب الحطب، فما قولك؟».

حار «لا تُعِن أحداً» في الجواب، ثم قال: «ليس ثمة مشكلة في العربة، وإنما المشكلة في الغطاء القماشي الذي يغطيها فهي مربوطة به وموضوعة على السطح، ولا يمكن إحضارها، ونحن لا نملك سلماً أيضاً، فلا أدري كيف أستطيع مساعدتك؟».

أدرك «لا تتوسل أحداً» أن «لا تُعن أحداً» لا يرغب في إعارته عربته، فانصرف غاضباً.

وبعد مرور بضعة أيام جفت بئر «لا تُعِن أحداً» تماما، وعندما نظر إلى حديقته وجد أن كل شيء فيها قد ذبل فبدأ يقلق.

فكر بالموضوع لبعض الوقت ولم يجد خياراً سوى أن يذهب إلى بيت «لا تتوسل أحداً» وأن يطلب منه استعمال بئره ليروي حديقته.

ذهب«لا تُعِن أحداً» إلى بيت «لا تتوسل أحداً» ودخل بابتسامة على وجهه قائلاً: «مرحباً يا صديقي العزيز، لقد جفت بئري وحديقتي تذبل شيئاً فشيئاً، ففكرت أنه ربما بإمكاني أن استعمل بئرك لأروي حديقتي، فما قولك؟».

رد «لا تتوسل أحداً» قائلا: «ثمة في البئر الكثير من الماء، ولكن مفتاح الغطاء الذي يغطي البئر في قبو المؤونة، ونحن لا نملك سلماً فلا أدري كيف أستطيع مساعدتك؟».

لم يحصل «لا تُعِن أحداً» على الماء الذي يحتاج إليه لري حديقته، فما كان منه إلا أن غادر.

إن الحكمة من هذه القصة القصيرة أنه إذا توقف الناس عن مساعدة بعضهم فسوف تتوقف الحياة(2).

ما الذي جعل السدر والصنوبر والعنب دائمة الاخضرار؟

عاش في قديم الزمان، طائر سنونو وكان كريماً ولطيفاً وهو من اكتشف ينبوع الحياة الأبدية.. شرب بضع قطرات من النبع وخبأها في منقاره وحلق طويلاً للبحث عن إنسان فاضل ليمنحه الحياة الأبدية والشباب الدائم.

وفي طريقه صادف النحلة الطنانة النشيطة التي كانت تعلم سر ما يخبئه السنونو في منقاره، فما كان منها إلا أن لسعت الطائر في جناحه.

أخذ السنونو يئن من شدة الألم وانسكب السائل الثمين من منقاره، فسقطت قطرات منه وتناثرت على أوراق أشجار الصنوبر والأرز والعنب الأحمر مما أبقى تلك الأوراق مخضرة دوماً.

وأما السنونو فقد أدرك أنه لم يعد في مقدوره منح الحياة الأبدية والشباب الدائم لأي إنسان، فأخذ بمطاردة النحلة، وقام بانتزاع لسانها. ومنذ ذلك اليوم لم تعد النحلة قادرة على الغناء بشكل جميل، بل صارت تصدر الطنين والأزيز فقط.

السنونو والدبور

يُحكى أنه في قديم الزمان أرسل غاريدا خان، إمبراطور الطيور، بطلب السنونو والدبور لاكتشاف مَن مِن المخلوقات يملك أطيب وأشهى لحم في العالم، وعندما وصلا أرسلهما مباشرة لأداء تلك المهمة.

طار السنونو والدبور بعيداً في مقاطعة غاريدا خان. كان الطقس جميلاً جداً في ذلك اليوم، كما كانت الشمس مشرقة ومشعة والجو كان دافئاً.. نسي السنونو أوامر الملك وأمضى يومه محلقاً في السماء الزرقاء، يغني بمرح أغانيه الساحرة، ومغتسلاً بأشعة الشمس مستمتعاً براحة وطمأنينة.

أما الدبور السيئ والشرير فقد أمضى يومه كاملاً يلسع الحيوانات التي تمرّ قربه، متلذذاً بطعم دمائها الحارة.

وعندما بدأت الشمس بالمغيب عاد كل من السنونو والدبور إلى مكان اللقاء المتفق عليه ليبدآ رحلتهما عائدين إلى غاريدا خان، وهنا سأل السنونو الدبور إذا كان قد

وجد بين الحيوانات من يملك ألذ وأشهى لحم، فأجابه الدبور قائلاً: «الحيوان ذو اللحم الأشهى والأطيب في العالم هو الإنسان، لذلك يتوجب على غاريدا خان أن يأكل دوماً لحماً بشرياً».

وعندما سمع السنونو ما قاله الدبور، شعر بالحزن والقلق على مصير البشر، وبدأ يتساءل ماذا بمقدوره أن يفعل ليحمي كل البشر الذين يعرفهم قائلاً لنفسه: «كيف سأحمي هؤلاء البشر المساكين من هذه المصيبة؟»، فسأل الدبور: «كيف استطعت تذوق دم البشر الأحياء؟»، فأجاب الدبور: «هذا سهل للغاية، أقوم بلسعهم بإبرتي، وأتذوق دمهم بلساني». فسأل السنونو: «ولكن أين هو لسانك العظم هذا؟». ففتح الدبور فمه وأراه للسنونو قائلاً: «هذا هو لساني»، وحينئذ قام السنونو بسحبه من فمه، ومنذ ذلك الحين لم يعد الدبور قادراً على الغناء، بل أصبح فقط يصدر طنيناً وأزيزاً.

وحين وصلا إلى قصر غاريدا خان بدأ الدبور بالدوران والشكوى بصوت عال، وبما أنه قد فقد لسانه لم يستطع أحد - بمن فيهم غاريدا خان نفسه - معرفة ما كان يقوله أو ماهي مشكلته بالضبط، وفي النهاية سأل غاريدا خان السنونو أن يشرح له نتائج بحثهما وأن يخبره عن المخلوق الذي يملك اللحم الأطيب والألذ. فادّعى السنونو بأن لحم الأفاعي هو الأطيب وصدقه غاريدا خان، وبدأ من وقتها بأكل لحم الأفاعي.

والخان الذي تدور هذه القصة حوله هو الصقر غاريدا، فمنذ ذلك اليوم والصقور تحب صيد الأفاعي وأكل لحمها، تشبّهاً بجدها الإمبراطور غاريدا خان.

الفتيان المتنبئون

يُحكى أنه في قديم الزمان عاش ثلاثة فتية أيتام.. كانوا يعتمدون على بقرة يملكونها لتأمين رزقهم وقوتهم، فيقومون بحلبها بشكل دائم، ويتركون كل يوم بعضاً من حليبها لتطعم به عجلها الصغير.

وفي يوم من الأيام خرجت البقرة إلى المرعى ولكنها لم تعد. انتظروا يوماً بكامله

ولكن البقرة لم ترجع، وبعد غيابها ثلاثة أيام متتالية مات عجلها الصغير من الجوع.

وحين يئس الفتية من البحث عن بقرتهم في كل مكان من دون جدوى عادوا إلى قائدهم[18]، فوجدوه يطبخ اللحم فدعاهم إلى مشاركته، وعندما همّوا بذلك، قال الفتى الأكبر: «هذا اللحم لنا»، وقال الأخ الأوسط: «إنه لحم الكتف»، وأخيراً قال الأخ الأصغر: «إذا كان هذا اللحم لنا وكان لحم الكتف، فهذا يعني أنه لحم بقرتنا».

فسألهم القائد: كيف عرفتم أن هذا اللحم هو لحم بقرتكم، فأجابوه على الفور: «إننا نعرف لأننا خمّنا ذلك»، فاستوقفهم قائلاً: «وهل تجيدون التخمين؟».

فردوا: «نستطيع أن نخمّن كل شيء». حينئذ طلب منهم السيد الخروج من الغرفة قائلاً: «اخرجوا من هنا لبعض الوقت، وسنرى إلى أي مدى أنتم قادرون على أن تخمّنوا» وبعد أن خرجوا، جلب ثلاثة أكواب صينية، ووضع تحت كل واحد منها شيئاً صغيراً، ثم قام بقلب الأكواب إلى الأسفل وعندما انتهى من ذلك نادى على الفتيان قائلاً: «أخبروني ماذا يوجد تحت أول كوب؟»، فأجاب الأخ الأكبر: «هناك شيء كروي الشكل»، وقال الأخ الأوسط: «لونه أصفر تماماً»، وقال الأخ الأصغر: «إذا كان هذا الشيء كروي الشكل ولونه أصفر تماماً فلابد من أنه بيضة عصفور».

ثم سأل القائد: «ماذا يوجد تحت الكوب الأوسط؟».

أجاب الأخ الأكبر: «هناك شيء أحمر اللون»، وأضاف الأخ الأوسط: «وهو لذيذ جداً»، فهتف الأخ الأصغر: «إذا كان لون ذلك الشيء أحمر، وطعمه كان لذيذاً جداً، فلابد من أنه الخوخ»، فرفع السيد الكوب مخرجاً الخوخ الأحمر من تحته.

ثم سأل السيد: «وماذا يوجد هنا تحت الكوب الأخير؟».

أجاب الأخ الأكبر: «هناك شيء مستدير»، وأجاب الأخ الأوسط: «وهناك شيء مربع محفور في وسطه»، أما الأخ الأصغر فقد قال: «بما أن هذا الشيء مدور ويحتوي على مربع في وسطه فيجب أن يكون قطعة نقود نحاسية بالتأكيد»[19].

وهكذا فقد خمّن الصبية الثلاثة ماهية الأشياء الموجودة تحت الأكواب الثلاثة.

(18) في النص الأصلي يعود الصبية إلى الـ «نويان Noyan» وهي كلمة مغولية تعني السيد أو الجنرال أو القائد، وفضلنا استخدام القائد تماشياً مع ما سيأتي لاحقاً في النص.

(19) عملة مغولية قديمة كانت مدورة ومثقوبة في وسطها ثقب مربع الشكل.

حينها أمر السيد بطهي خروف، وإقامة مأدبة احتفالاً بتلك المناسبة، كما أمر بحلب بعض الأفراس وصنع شراب القمز المعتاد من حليبها، والذي يصنع عادة في مثل هذه المناسبات، كتشريف لهم. وفي الوقت نفسه أمر خادمه سراً بأن يختلس السمع لأحاديثهم بعد انتهاء الوليمة وخروجهم من داره، وأن يعود ويخبره بما سمعه.

ذهب الخادم واستمع إلى كل ما قاله الفتيان، ووجدهم يتحدثون حول ما جرى أثناء الوليمة، فقد علّقوا على مشروب القمز بأنه أفضل وألذ ما تذوقوه في حياتهم، ولكنه يحوي طعم دم آدمي، وأن اللحم المقدم من نوعية ممتازة، ولكنه لحم كلاب، وأخيراً قالوا: إن السيد واحد من أفضل الرجال وهو مضياف وكريم، ولكنه ليس مغولي الأصل، بل إنه من أصل صيني.

غضب القائد كثيراً، حين علم بما قالوه، وعلى الفور أرسل يستدعي الراعي الذي كان قد اشترى الخروف المعد لليلة الوليمة، وسأله لماذا ابتاع له كلباً، فأجاب الراعي بكل براءة مصرّاً على أن الخروف كان من أجود الأنواع.

وأضاف قائلاً: إن ذاك الخروف الذي أكلوه تلك الليلة، هو واحد من قطيع عائلته، لكن أمه قد ماتت مما اضطره للرضاعة من حليب كلبة.

ثم ذهب القائد إلى مربي الخيول، وسأله عما إذا كان هناك أي دم بشري في مشروب حليب القمز المقدم في تلك الليلة. فشرح له مربي الخيول قائلاً: «عندما كنتُ أحاول التقاط الفرس بالحبل جرحتُ يدي، فسال الدم منها وسقطت قطرات منه في الماء الذي شربت منه الفرس تلك الليلة، وهذا ما تسبب في جعل حليبها يتلوث بالدماء، وظهر طعم الدم في القمز».

وعندما عاد القائد إلى بيته واجه أمه بالسؤال قائلاً: «أماه، ابن من أكون أنا؟».

فتنهدت أمه قائلة: «إن والدك الحقيقي هو صينيّ الأصل». وبذلك خاب أمله، ثم قام بعد وقت باستدعاء الفتية الثلاثة الأيتام واعتذر لهم عما فعله عندما سرق بقرتهم وأكلها.

ثم تخلى عن منصبه وعيّن الأخ الأكبر قائداً مكانه، وعين الصبيين الآخرين ضابطين.

وبهذا ترك القائد منصبه سعيداً مطمئناً.

لماذا يستلقي الجمل على أجمات الدردار؟

خصص المغول منذ قديم الزمان تقويماً كل اثنتي عشرة سنة مسمى باسم أحد حيواناتهم، اعتماداً على تقويم «بوذا» الذي لم تكن لديه مشكلة في اختيار الحيوانات الأحد عشر الأوائل، ولكنه احتار في الحيوان الذي سيمثل السنة الأولى في دورة هذا التقويم.

رشح الفأر والجمل اسميهما، ولكن بوذا لم يشأ اختيار أحدهما خوفاً من إغضاب الآخر. ولذلك أرادهما أن يحلا الأمر في ما بينهما، فقررا أن الحيوان الذي سيمثل السنة الأولى في التقويم هو من يرى شروق الشمس أولاً. وبينما اتجه الجمل شرقاً ينتظر شروق الشمس، تسلق الفأر سنامه مصوباً بصره غرباً نحو قمة الجبل. وحين جاء الوقت المنتظر، وظهرت أشعة الشمس على قمة الجبل، هتف الفأر فرحاً فقد رأى أول شعاع للشمس وهو الآن الفائز مما أغضب الجمل كثيراً لخسارته الرهان، فحاول أن يدوس الفأر بقدميه، ولكن الفأر الخائف فرّ واختبأ تحت أجمة الدردار، ولهذا السبب كلما رأى الجمل كومة دردار ضربها بخفه أو استلقى عليها بكامل ثقله ليتأكد من موت عدوه المختبئ فيها.

وهكذا أصبح الفأر يمثل أول سنة في دائرة التقويم، أما الجمل فقد توجب عليه أن يغادر تلك الدائرة. وفي الحقيقة إن الجمل يمتلك صفة معينة من صفات كل حيوان في دائرة التقويم، فقد امتلك من الفأر أذنيه، ومن البقرة معدتها، ومن النمر كفه، ومن الأرنب البريّ أنفه، وأما جسده فهو كجسد التنين، وعيناه كعينيّ الأفعى، والشعر الطويل أسفل رقبته كشعر الحصان، وصوفه كصوف الغنمة، وظهره كظهر القرد، والشعر الموجود على رأسه كعرف الدجاجة، وأرجله مثل أرجل الكلب، وأخيراً فإن ذيله من الخنزير. وبهذا لم يبقَ الجمل وحيداً أو خارج دائرة التقويم بل كان حاضراً في كل دورة من دوراته.

الخان أرسلنتاي ميرجان

يُحكى أنه في قديم الزمان عاش خان يدعى أرسلنتاي ميرجان وكان لديه مهر مفضل كستنائي اللون.

وفي أحد الأيام، بينما كان الخان ذاهباً كعادته كل ليلة لتفقد خيوله التي كانت ترعى في الأرض المنخفضة، كما درجت العادة في مملكته، لم يجدها في مراعيها، فدهش كثيراً، ولم يستطع معرفة السبب. وظن بأن ذئاباً ثلاثة قد قامت بأكلها، فأعد نفسه لاصطياد تلك الذئاب وقرر جلب رؤوسها للاحتفاظ بها كتذكار.

واختار لرحلة الصيد تلك، أفضل ما لديه من الخيول والفرسان، وكان من بينها ذلك المهر الكستنائي المفضل لديه.

بلغت أخبار حملة الصيد مسامع الذئاب الثلاثة، التي بدأت حالاً بمناقشة ذلك قائلة: «إن الخان أرسلنتاي ميرجان ينوي اصطيادنا وقتلنا بمهره الكستنائي ذاك، فيجب علينا الهرب إلى قمة الجبل أولاً ثم تغيير اتجاهنا والهرب بعيداً إلى جانب الجبل، وبهذا لن يستطيع الإمساك بنا»، واتفقت الذئاب الثلاثة على هذا.

وفي اليوم التالي رأى أرسلنتاي خان أثر الذئاب، وعلى الفور بدأ بمطاردتها، وكما اتفقت الذئاب في ما بينها فقد صعدت أولاً إلى قمة الجبل ومن ثم استدارت إلى جانب الجبل، ولم يستطع أرسلنتاي خان الإمساك بها.

لم يستسلم ميرجان خان بل إنه قرر متابعة الصيد مستعيضاً هذه المرة عن المهر الكستنائي بحصان آخر ذي علامة بيضاء أسفل أنفه، فعاد إلى دياره للتحضير لذلك.

لكن الذئاب حين ادركت حيلته قالت في نفسها: «إن الخان أرسلنتاي ميرجان سوف يطاردنا على حصانه الجديد ذي العلامة البيضاء أسفل أنفه، ولكنه حصان مسن، وسيستغرق وقتاً أطول للحاق بنا وبهذا سنتمكن من الهرب والالتفاف حول الجبل والوصول إلى قمته قبل أن يصل إلينا ويمسك بنا».

وفي اليوم التالي امتطى أرسلنتاي خان حصانه ذا العلامة البيضاء، ولكنه لم يستطع اللحاق بالذئاب لأنها غيرت مسارها وصعدت إلى أعلى الجبل.

فعاد أرسلنتاي خان من جديد إلى مملكته لوضع خطة جديدة للإيقاع بتلك الذئاب

الماكرة، وأعلن أنه لن يغيّر الحصان الذي سيمتطيه أثناء ذلك.

ومرة أخرى عرفت الذئاب خطة الخان الجديدة فسخرت منه ومن قراره المتهور باصطيادها بحصانه الأعجف ذاك. بدأت الذئاب تتشاور في ما بينها، فاقترح أحدها قائلاً: «دعونا نجعل من ذاك الحصان الكستنائي وليمة لنا»، فأجاب الذئبان الآخران: «لن نستفيد شيئاً من أكل ذلك الحصان النحيل، فلنختر حصانا سميناً ليكون وليمتنا»، ولكن الذئاب لم تتوصل إلى قرار حول أي حصان سمين ستأكل، فقال الزعيم بكل سخرية واحتقار: «دعونا نؤجل أمر اختيار الحصان إلى وقت لاحق، ولنتفق على مكان اللقاء أولاً.. اصغوا إليّ جيداً. في البداية سنلتقي على قمة جبل ألطاي، وبعدها سنلتقي فوق ظهر الحصان الكستنائي المتوحش، وأخيراً، سنلتقي على كتفي أرسلنتاي خان».

ولكن في صباح اليوم التالي تابع أرسلنتاي خان مطاردة الذئاب الثلاثة على صهوة مهره البِري كستنائي اللون. لم يستغرق الكثير من الوقت حتى استطاع الوصول إليها وقتل ثلاثتها فوق قمة جبل ألطاي. وبعد أن قتلها وضع جلودها على ظهر مهره الكستنائي وعاد إلى مملكته ليفصل من جلودها ثوبين واحداً له وآخر لحصانه. ومنذ ذاك الوقت وأرسلنتاي خان وحصانه يرتديان فرو تلك الذئاب الثلاثة. وبالفعل صدقت الذئاب الثلاثة حين تنبأت بالمستقبل، فها هي تلتقي في أعلى قمة جبل ألطاي وفوق ظهر الحصان كستنائي اللون وعلى كتفي أرسلنتاي ميرجان خان.

الحواشي

1. الأخوات الثلاث قصة من تراث قبيلة «داور Daur»، رواها «أودنغ Audeng» عام 1996 في مدينة «هوهوت Hohhot» في شمال منغوليا الوسطى.
2. ترجمت جميع هذه القصص المقتبسة من قبل تاد كورنل للموقع الاكتروني «تقييم الثقافة» http://www.ezlink.com/~culture/Cultur Mythology.htm وتم طلب الإذن من دون أي رد من قبلهم، علماً أن هذه القصص منشورة في مواقع أخرى من دون أي تحفظ.

بيبليوغرافيا مختارة

Adams, Robert. 1965. *Land behind Baghdad.* Chicago: University of Chicago Press. This is a description of Baghdad and its hinterland during the decades before the Mongol invasion that demonstrates that the decline in this city's fortunes had begun long before the arrival of Hülegü.

Allsen, Thomas. 1987. *Mongol Imperialism: The Policies of the Grand Qan Mongke 1251–1259.* Los Angeles: University of California Press. This is an important analysis of the split in the Mongol ruling family and the development of the Tuluids under Möngke.

——. 1989. "Mongolian Princes and Their Merchant Partners 1200–1260." *Asia Major* 2: 82–126 Princeton, N.J.: Princeton University Press. Allsen investigates the relationship between merchants and their royal financial backers and demonstrates the close links between the Mongols and international commerce.

——. 1997. *Commodity and Exchange in the Mongol Empire: A Cultural History of Islamic Textiles.* Cambridge: Cambridge University Press. This important study shows the crucial role that precious fabrics, and gold cloth in particular, played in the expansion and development of the Mongol Empire.

——. 2001. *Culture and Conquest in Mongol Eurasia.* Cambridge: Cambridge University Press. Allsen's study of Iran and China focuses on the roles of the Mongol Yüan official Bolad Aqa and the Persian Il-Khanid minister Rashīd al-Dīn. He demonstrates just how involved the Mongols became in the

the Qara Khitai established strong and peaceful relations with the Muslims of the region. With the publication of this scholarly study, the Qara Khitai should enter the consciousness of the more general reading public.

——. 2000. *A Fight between the Mongols: The Battle of Herat (1270).* Jerusalem: Institute of Advanced Studies, Hebrew University of Jerusalem. This short paper is an excellent model for students interested in probing deeper into the details of Mongol history.

——. 1997. *Qaidu and the Rise of the Independent Mongol State in Central Asia.* Richmond, U.K.: Curzon Press. A useful and readable portrait of a little-known figure and an analysis of an under-studied area of Mongol history, Michal Biran's book would be welcomed by students wanting new, relatively untouched territory to further their studies.

Boase, T.S.R., ed. 1978. *The Cilician Kingdom of Armenia.* Edinburgh: Scottish Academic Press. The Armenians of Cilicia were early and willing allies of the approaching Mongols. The Armenians are a good example of a small kingdom that opted to cooperate rather than oppose the invaders, and they even tried to recruit their fellow Christians in Europe and in Palestine to join them.

Bosworth, C. E. 1996. *The New Islamic Dynasties.* Edinburgh: Edinburgh University Press. This reference book is a must for any student interested in Islamic political history.

Bowman, John, and J.A. Thompson. 1966. "The Monastry-church of Bar Hebraeus at Maragheh in West Azerbaijan." *Abr-Nahrain* 5. Department of Semitic Studies, University of Melbourne.

Boyle, J. A. 1968. *The Cambridge History of Iran.* Vol. 5. Cambridge: Cambridge University Press. This work contains the standard studies of the Mongol period in Western Asia.

——. 1977. *The Mongol World Empire 1206–1370.* Aldershot, U.K.: Variorum Reprints. This book collects various papers of the late John Boyle from Manchester University and covers all aspects of Mongol society and politics. Boyle is most famous for his linguistic expertise and his translations from various Asian languages.

Browne, Edward G. 1915. *A Literary History of Persia.* Vol. 2, *From Firdawsi to Saʿdī.* London: Unwin.

——. 1920. *A Literary History of Persia.* Vol. 3, *Persian Literature under Tartar Domination 1265–1502.* Cambridge: Cambridge University Press. Both of these volumes by Browne, two from a four-volume work, provide a wonderful introduction to the Mongol period. Though no Mongol apologist, Browne gives an entirely different perspective on the Mongol period in his translations from the Persian. At one stage, Persian was almost the lingua franca of the Mongol Empire, and Iranians held important positions in administration, commerce, and cultural life throughout the empire. Browne has put together an excellent collection of translations and extracts from a wide variety of sources. These books have recently been reprinted.

Bruijn, J.T.P. de. 1997. *Persian Sufi Poetry: An Introduction to the Mystical Use of Classical Poems.* Richmond, U.K.: Curzon Press. The Mongol period saw an upsurge in the popularity of Sufism in western Asia, central Asia, and beyond. For those interested in this aspect of Mongol rule, this book is a valuable introduction.

transfer of culture between the different parts of their empire and shows that their role was very much proactive and directional at all levels of the administration and government. Allsen is able to draw on his knowledge of both western Asian and eastern Asian languages to investigate much primary source material never before so intimately compared. A review of this book in the *Bulletin of the School of Oriental & African Studies* states, "Any new publication by Thomas T. Allsen is justly followed by ripples of excitement.... A new book excites those ripples to tidal proportions" (George Lane, "Culture and Conquest in Mongol Eurasia," *Bulletin of the School of Oriental & African Studies* 65 [2002]: 411–12).

Amitai, Reuven, and Michal Biran, eds. 2005. *Mongols, Turks, and Others: Eurasian Nomads and the Sedentary World.* Leiden, Netherlands: Brill. This is an excellent collection of articles from many of the big names in the world of Mongol studies, including Morgan, Jackson, Endicott, Khazanov, Manz, and others.

Amitai-Preiss, Reuven. 1995. *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War 1260–1281.* Cambridge: Cambridge University Press. Amitai-Preiss gives a detailed breakdown of the wars between the Mamluks of Egypt, who stopped the Mongols' conquest of the whole Islamic world, and the Il-Khanids, or Mongols, of Iran.

———. "The Conversion of Tegüder Ilkhan to Islam." 2001. *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 25: 15–43. Tegüdar was the first of the Iranian Mongols to convert to Islam, although the rest of his court did not follow his example. This is a very interesting and informative study of Tegüdar's short reign.

———. 1995–97. "Hülegü and the Ayyubid Lord of Transjordan." *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 9.

———. 1999. "Sufis and Shamans." *Journal of Economic and Social History of the Orient* 17 (1): 27–47.

Ball, Warwick. 1976. "Two Aspects of Iranian Buddhism." *Bulletin of the Asian Institute of Pahlavi University* 1–4.

———. 1979. "The Imamzadeh Ma'sum at Vardjovi: A Rock-cut Il-Khanid Complex Near Maragheh." *Archaeologische Mitteilungen aus Iran* 12.

Barthold, V. V., trans., and T. Minorsky. 1968. *Turkestan down to the Mongol Invasion.* London: Luzac. This study is a classic and explores in depth the historical development of the Turkish steppe people and Central Asia. Its central subject is the land of Turkestan before and after the Mongol invasions.

Bedrosian, Robert. 1979. *The Turco-Mongol Invasions and the Lords of Armenia in the 13th–14th Centuries.* Long Branch, N.J.: Sources of the Armenian Tradition. Available at: http://rbedrosian.com/hsrces.html. Robert Bedrosian has made his doctoral dissertation available on the Internet as well as in hard copy and provides the most welcome translation of the medieval Armenian sources. His dissertation contains many translations of sources unavailable elsewhere.

Biran, Michal. 2005. *The Empire of the Qara Khitai in Eurasian History.* Cambridge: Cambridge University Press. This extremely important book is the definitive account of the precursors of the Mongols, the Qara Khitai. It has sometimes been said that the coming of the Qara Khitai from Northern China to Central Asia circa 1125–30 was the first Mongol invasion. It differed from the invasion of the Chinggisids in that it was relatively peaceful and that

community in Mongol-ruled Iran. Though it is rather clichéd and dated in its portrayal of the Mongols, the book contains some valuable insights into life in Mongol Iran and how the secretive Ismaili community managed to survive and prosper against considerable odds.

Endicott-West, Elizabeth. 1986. "Imperial Governance in Yüan Times." *Harvard Journal of Asiatic Studies* 46 (2): 523–49. For serious students of the Mongols in China, Endicott-West is indispensable.

Fischel, Walter J. 1937. *Jews in the Economic and Political Life of Mediaeval Islam.* London: Royal Asiatic Society Press. The Jews were far more active and influential in western Asia during the medieval period than they are given credit for.

Fletcher, Joseph. 1986. "The Mongols: Ecological and Social Perspectives." *Harvard Journal of Asiatic Studies* 46 (1): 11–50. This paper has now become an oft-quoted classic. Lucidly and simply explained, it puts the Mongols in historical, political, and even anthropological context. This is a must for all students of the Mongols.

Foltz, Richard. 1999. "Ecumenical mischief under the Mongols." *Central Asiatic Journal* 43: 42–69.

Fiey, J.M. 1975. *Chrétiens Syriaques sous les Mongols.* Louvain: Secrétariat du Corpus SCO

——. 1975, "Iconographie Syriaque Hulagu, Doquz Khatun ... six Ambons," *Le Museon* 88.

Franke, Herbert. 1978. *From Tribal Chieftain to Universal Emperor and God: The Legitimation of the Yüan Dynasty.* Munich: Verlag der Bayerischen Akademie der Wissenschaften. Herbert Frank has written widely on the Mongols and is a recognized expert. In this book he discusses the question of legitimacy.

Galstyan, A.G. 1975. "The Conquest of Armenia by the Mongol Armies," trans. R. Bedrosian. *The Armenian Review* 27: 4–108.

——. 1976. "The First Armeno-Mongol Negotiations." *The Armenian Review* 29: 1–113. These studies examine the relationship of both the Caucasian and Cilician Armenians with the Mongols.

Gibb, H.A.R., J.H. Kramer, J. Schacht, and F. Levi-Provençal, eds. 1960. *The Encyclopaedia of Islam.* New ed. Leiden, Netherlands: Luzac and Brill. This is a comprehensive and useful reference work.

Gibbons, Edward. 1910. *Decline and Fall of the Roman Empire.* London: Everyman's Library. 6 vols.

Golden, Peter B. 1992. *An Introduction to the History of the Turkic Peoples.* Wiesbaden, Germany: Otto Harrassowitz.

——. 2003. *Nomads and Their Neighbours in the Russian Steppe.* Aldershot, U.K.: Variorum Reprints, Ashgate. Peter Golden's book is an excellent starting point for students embarking on the study of the Turkic and steppe peoples of central Asia. The Variorum collection includes some key papers on the people from the steppe.

Grousset, Rene. 1991. *The Empire of the Steppes,* trans. Naomi Walford. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press. This book has become a modern classic and puts the Mongol years into the perspective of steppe empires.

Gumilev, L.N. 1987. *Searches for an Imaginary Kingdom: The Legend of the Kingdom of Prester John.* Cambridge: Cambridge University Press. An unusual work but full of valuable research and insights.

Burman, Edward. 1987. *The Assassins: Holy Killers of Islam.* London: Crucible. Another contribution to the study of this medieval sect.

Cahen, Claude. 1968. *Pre-Ottoman Turkey,* trans. J. Jones-Williams. London: Sidgwick & Jackson.

——. 2001. *The Formation of Turkey,* trans. and ed. P.M. Holt. London: Longman. These two books by Cahen provide a vivid picture of Anatolia (Turkey) before the coming of the Ottomans. The second book concentrates more on the Mongol period.

Chambers, James. 1979. *The Devil's Horsemen.* London: Book Club Associates. This classic is a very readable study of the Mongol invasion of Eastern Europe and Russia. It paints a vivid picture of the early Mongol invaders and gives a balanced account of their impact on Russia and its neighbors. This is an excellent introduction to the history of the Mongols.

Chaudhuri, K.N. 1985. *Trade and Civilisation in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750.* Cambridge: Cambridge University Press. Trade in the Indian Ocean is often seen as peripheral to the study of the Mongols. This study proves otherwise and puts the events of the thirteenth century into context.

Ch'en, Paul Heng-chao. 1979. *Chinese Legal Tradition under the Mongols: The Code of 1291 as Reconstructed.* Princeton, N.J.: Princeton University Press. A detailed study of Mongol law as practiced under the Yüan administration.

Ch'en Yüan. 1966. *Western and Central Asians in China under the Mongols,* trans. and annotated by Ch'ien Hsing-hai. Monumenta Serica Monograph, no. 15. Los Angeles: University of California Press. The Yüan dynasty attracted visitors from Europe and western Asia to its fabulous courts. This is a book written from a Chinese perspective.

Cleaves, Francis Woodman. 1954. "A Medical Practice of the Mongols in the Thirteenth Century." *Harvard Journal of Asiatic Studies* 17 (¾ December): 428–44

Cramer, Marc. 2003. *Imperial Mongolian Cooking: Recipes from the kingdoms of Genghis Khan.* New York: Hippocrene Books. This little book contains a wide range of dishes from the four main *ulus* of the Mongol Empire. The recipes have been adapted to modern times so the ingredients should all be easily accessible.

Dabashi, Hamid. 1996. "The Philosopher/Vizier: Khwāja Naṣīr al-Dīn Ṭūsī and the Ismāʿīlīs." In *Mediaeval Ismāʿīlī History and Thought,* ed. F. Daftary, 231–246 Cambridge: Cambridge University Press. This is an interesting and thought-provoking study of Tusi.

Daftary, Farhad. 1966. *Mediaeval Ismāʿīlī History and Thought.* Cambridge: Cambridge University Press.

——. 1990. *The Ismāʿīlīs: Their History and Doctrines.* Cambridge: Cambridge University Press. Daftary has written the definitive study of this Muslim sect.

——. 1994. *The Assassin Legends: The Myths of the Ismāʿīlīs.* London: Taurus. Daftary's study clears up many of the misconceptions and myths about the medieval Ismāʿīlīs. He explains why they became known as the Assassins.

DeWeese, Devin. 1994. *Islamization and Native Religion in the Golden Horde.* University Park: Pennsylvania State University Press. This book is interesting for its study of the process of Islamization and its research into the nature of religion in the Golden Horde.

Eboo Jamal, Nadia. 2002. *Surviving the Mongols.* London: Institute of Ismaili Studies, I.B. Tauris. This is an interesting account of the survival of the Ismaili

Howorth is an excellent introduction to history based directly on primary source material.

Humphreys, R. Stephen. 1977. *From Saladin to the Mongols.* Albany: State University of New York Press. This is the Mongols as seen from an Arab perspective.

Ipsiroglu, M.S. 1967. *Painting and Culture of the Mongols,* trans. E.D. Philips. London: Thames and Hudson. This book contains a large collection of little-known artworks from the Mongol era that often depict the daily life of ordinary Mongols.

Irwin, Robert. 1986. *The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanate 1250–1382.* Carbondale: Southern Illinois Press.

——. 1989. *The Age of Calamity* A.D. *1300–1400.* Amsterdam: Time-Life Books. Robert Irwin's study of the Mamluks presents the Arab world at the time of the Mongols. His chapter on Timurlane in the Time-Life book is included with other pieces concerned with the Mongol conquests.

Jackson, Peter. 1978. "The Dissolution of the Mongol Empire." *Central Asiatic Journal* 32: 186–243.

——. 2000. "The State of Research: The Mongol Empire, 1986–1999." *Journal of Mediaeval History* 26 (2): 189–210.

——. 2005. *The Mongols and the West, 1221–1410.* London: Longman. Peter Jackson's study of the breakup of the Mongol Empire is already a classic and the basis of most other studies and research on this subject. His work cannot be ignored. Jackson's latest book retains his distinctive eye for detail and exhaustive investigation and will become an indispensable volume in any library of the Mongols.

Jay, Jennifer W. 1991. *A Change in Dynasties: Loyalism in Thirteenth-Century China.* Bellingham: Western Washington. Jennifer Jay studies the Sung Chinese loyalists and their attempts to resist cooperating with the Mongol Yüan dynasty.

Karamustafa, Ahmet. 1994. *God's Unruly Friends.* Salt Lake City: University of Utah Press. A detailed and scholarly study of the wandering dervishes, *qalandars,* and other eccentrics who populated medieval Persia.

Khazanov, Anatoly M. 1994. *Nomads and the Outside World.* Madison: University of Wisconsin Press. This is a collection of essays and papers concerned with Mongol society and its interaction with its sedentary neighbors. The collection includes work by Peter Golden, Reuven Amitai-Preiss, and Thomas Allsen.

Kohlberg, Etan. 1992. *A Mediaeval Muslim Scholar at Work: Ibn Tawwus and his Library.* Leiden, Netherlands: Brill.

Komaroff, Linda, and Stefano Carboni, eds. 2002. *The Legacy of Genghis Khan: Courtly Art and Culture in Western Asia 1256–1353.* New York: Metropolitan Museum of Art. This long-overdue contribution to the field of Mongol studies is a lavishly illustrated book, rich in writing as well as pictures, that makes the case for a serious reassessment of the Mongol epoch. It would be difficult to view the Mongols as barbarian invaders after viewing the wealth and diversity of their cultural contributions and their patronage of the artistic life of their subject peoples.

Koprulu, Mehmed Fuad. 1992. *The Seljuks of Anatolia. Their History and Culture According to Local Muslim Sources,* trans. Gary Leiser. Salt Lake City: University of Utah Press.

Halperin, Charles J. 1983. "Russia in the Mongol Empire in Comparative Perspective." *Harvard Journal of Asiatic Studies* 46 (2): 239–61. This article examines the Mongol conquests from a Russian point of view.
——. 1986. *The Tatar Yoke.* Columbus, Ohio: Slavica. Halperin examines the reasons behind the reluctance of Russian writers to deal with the Mongol domination of Russia.
——. 2000. "The Kipchak Connection: The Ilkhans, the Mamlūks and Ayn Jalut." Bulletin of the School of Oriental & African Studies 63 (pt. 2): 229–245. This is a survey of events to the south in Iran and Syria from the view of the Golden Horde.
de Hartog, Leo. 1989. *Genghis Khan: Conqueror of the World.* London: Taurus.
——. 1996. *Russia and the Mongol Yoke: The History of the Russian Principalities and the Golden Horde, 1221–1502.* London: British Academic Press, Taurus. De Hartog has written two very readable accounts, though the second study takes the traditional Russian view of the Mongol years. His book on Chinggis Khan is thoroughly researched, very readable, and clearly presented.
Hawting, G. R. 2005. *Muslims, Mongols, and Crusades.* London: RoutledgeCurzon. This is a useful collection of articles published by SOAS [School of Oriental and African Studies], part of the University of London, which is concerned with the Mongols. The collection includes such articles as Joseph de Somogyi's 1933 translation and analysis of an Arabic poem written as a reaction to the destruction of Baghdad.
Heissig, W. 2000. *The Religions of Mongolia.* 3rd ed., trans. Geoffrey Samuel. London: Kegan Paul. This book provides an excellent general background of religion and the medieval Mongols.
Heywood, Colin. 1999. "Filling the Black Hole?: the Emergence of the Bithynian Atamanates 1298–1304." *Yeni Turkiye Dergisi,* 1–10. Colin Heywood outlines his ideas concerning the origins of the Ottomans. He explains how the collapse of the Noghai Khanate in the eastern Balkans coincided with the appearance of an ambitious and militant tribe in western Anatolia. Various large movements of people and tents are mentioned in various sources and nowhere is it adequately explained what became of the *ulus* Noghai. Heywood has discovered no unequivocal evidence that binds these various events together, but his theories are convincing.
Howorth, Henry H. 1965. *History of the Mongols from the 9th to the 19th Century.* 4 vols. New York: Burt Francis. This four-volume work is an immense achievement, incorporating all of the then-known primary sources: Armenian, Georgian, Persian, Arabic, Mongolian, Chinese, Chaghetaid, Turkic, and so forth. Unfortunately, Howorth is not widely acknowledged because his research is based on translations rather than on primary sources and because he does not offer the detailed or accurate citations in his text with copious footnotes demanded by modern scholarship. However, he presents in English translation large extracts from most of the contemporary histories, and his work can be utilized as a guide to the primary sources. For researchers his monumental work is of limited value. Most academics find his volumes extremely useful as background material, but when citations are needed he cannot be utilized, and the sources themselves or accepted translations must be sought. For undergraduates and the general reader,

Lewisohn, Leonard. 1995. *Beyond Faith and Infidelity.* Sufi Series. London: Curzon Press. A detailed study of the Sufis and poets of western Asia under Mongol domination.

Lockhart, L. 1968. "The Relations between Edward I and Edward II of England and the Mongol Il-Khans of Persia." *Iran: Journal of the British Institute of Persian Studies* 28: 22–31. This paper deals with the Mongols' approaches to the Europeans and the English monarchs, Edward I and II in particular.

Man, John. 2004. *Genghis Khan: Life, Death, and Resurrection.* London: Bantam Books. An apologist for Chinggis Khan who provides a vivid picture of the land in which the Great Khan grew up. The author writes his book around his quest for the final burial place of Chinggis Khan, which remains a mystery at the close of the book.

Marshall, Robert. 1993. *Storm from the East.* London: BBC Books. This book accompanied a television series, with David Morgan as the academic advisor. The result is a beautifully illustrated, clearly presented, simply explained account of the Mongols' rise and rule. Unfortunately out of print, this book is well worth the effort of a search.

Martinez, A.P. 1987–91. "Changes in Chancellery Languages and Language Changes in General in the Middle East, with Particular Reference to Iran in the Arab and Mongol Periods." *Archivum Eurasiae Medii Aevi* 7: xx–xx. This is a thought-provoking paper that researches language change during the Mongol period, which suggests that the Mongols were far more integrated into the societies that they conquered than had been previously thought.

Mazzaoui, Michel M. 1972. *The Origins of the Safawids.* Wiesbaden, West Germany: Franz Steiner Verlag. The Safavids, who came to power in Iran in 1500, trace their roots and the founding of their so-called family to the Il-Khanid period when their eponymous founder Safī al-Dīn was close to the Mongol royal family. This book casts new light on the relationships between the Mongols and their subjects.

Melville, Charles. 1990. "Pādeshāh-i Islam: The Conversion of Sultan Ghazan Khan." *Pembroke Papers* 1: 159–77.

——. 1990. "The Itineraries of Sultan Oljeitu: 1304–16." *Iran: Journal of the British Institute of Persian Studies* 28: 55–70.

——. 1996. "'Sometimes by the Sword, Sometimes by the Dagger': The role of the Ismāʿīlīs in Mamluk-Mongol relations in the 8th/14th Century." In *Mediaeval Ismāʿīlīs History and Thought,* ed. Farhad Daftery, 247–264. Cambridge: Cambridge University Press. Charles Melville is an authority on the Mongols and the later Il-Khans in particular. His work is extremely important, and his paper on the conversion to Islam of Ghazan Khan is particularly interesting.

Mills, Margaret A. 1991. *Rhetoric and Politics in Afghan Traditional Storytelling.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press. Among the various interviews, storytelling sessions, and other oral transmissions are references to the Mongols, suggesting that the memory of the Chinggisid era is still very much alive in Afghanistan.

Minorsky, Vladamir. 1964. *Iranica Twenty Articles.* Vol. 775. Tehran: Publications of the University of Tehran.

——. 1978. *The Turks, Iran and the Caucasus in the Middle Ages.* London: Variorum Reprints.

——. 1993. *Islam in Anatolia after the Turkish Invasion (Prolegomena).* Salt Lake City: University of Utah Press. Both of Kopruluʼs books include valuable information on Mongol influence in Anatolia.

Krader, Lawrence. 1966. *Peoples of Central Asia.* Bloomington: Indiana University Press. A wide study of the cultural diversity of central Asia.

Kramarovsky, Mark G. 1991. "The Culture of the Golden Horde and the Problem of the 'Mongol Legacy'." In *Rulers from the Steppe: State Formation on the Eurasian Periphery,* ed. G. Seamans and Daniel Marks. Los Angeles: Ethnographics Press. An interesting study of the Mongol successor state, the Golden Horde.

Lambton, A.K.S. 1988. *Continuity and Change in Medieval Persia: Aspects of Administrative, Economic, Social History in 11th–14th Century Persia.* London: Taurus. The legendary Ann Lambton is an acknowledged authority on medieval Persia, and she was one of the first to look at the Mongol period in depth. Another classic study.

Lane, George. 1999. "An Account of Bar Hebraeus Abu al-Faraj and His Relations with the Mongols of Persia." *Hugoye Journal of Syriac Studies* 2 (2): http://syrcom.cua.edu/Hugoye/Vol2No2/HV2N2GLane.html.

——. 2000. "Arghun Aqa: Mongol Bureaucrat?" *Iranian Studies* 32 (4): 459–482.

——. 2003. *Early Mongol Rule in Thirteenth Century Iran.* London: RoutledgeCurzon.

——. 2004. *Genghis Khan and Mongol Rule.* Westport, Conn.: Greenwood Press. George Laneʼs earlier works are primarily concerned with the Mongols in Iran and how this whole period was one of cultural, spiritual, and economic renewal rather than of confrontation, stagnation, and oppression, as it has been previously characterized. The picture is of Mongol rulers rather than Mongol conquerors. His interest in China and other parts of the Mongol Empire is reflected in his more recent work, however.

Le Strange, Guy. 1966. *The Lands of the Eastern Caliphate.* London: Frank Cass. This is a geographical survey of medieval Persia, much of it based on primary sourcebooks.

Lewis, Bernard. 1968. *The Assassins: A Radical Sect in Islam.* New York: Oxford University Press. Lewis has produced a small, concise, and very readable account of this widely misunderstood Muslim sect. Essential reading for students of the Mongols in western Asia.

——. 1987. *The Jews of Islam.* Princeton, N.J.: Princeton University Press. This is a study of a neglected area and includes information on the Jews and the Mongols.

——. 1993. *Islam in History: Ideas, Peoples, and Events in the Middle East.* Chicago: Open Court Publishing. Included in this collection is Lewis' memorable paper on the Mongols in which he dares to suggest that Western scholarship has been perhaps more unkind and unfair to their memory than they deserve. Subsequent scholarly studies have often agreed with him.

Lewis, Franklin. 2000. *Rumi: Past and Present, East and West.* Oxford, U.K.: Oneworld. This is the definitive book on the Sufi poet Rumi and a comprehensive study that also allows insight into the medieval Mongol-dominated world of western Asia and beyond. This very readable book provides a view of this period of history from an angle different from the usual political analysis but is equally valid. The book also contains a very practical and comprehensive bibliographical survey.

——. 1992. *Voyager from Xanadu*. New York: Kodansha International. This is the story of two Christian clerics, the embassy from China on behalf of the Yüan dynasty, through Iran to the courts of Europe.

Roxburgh, David J. 2005. *The Turks*. London: Royal Academy of Arts. This catalog was published to accompany the exhibition of the same name held in London, and the book is worthy of what was a major and justly celebrated show. Of great interest to those concerned with Mongol matters is the artist Siyah Ghulam, or Black Pen, whose work is covered extensively in the catalog just as it was in the exhibition. Peter Golden, Filiz Cagman, and others contributed articles.

Runciman, Steven. 1965. *A History of the Crusades, 1, 2, 3*. London: Penguin. The Mongol impact on western Asia and on the crusader states is examined in Runciman's classic study.

Smith, John Mason. 1984. "ᶜAyn Jalut: Mamluk Success or Mongol Failure?" *Harvard Journal of Asiatic Studies* 44 (2): 307–45. A detailed study of this famous battle that became a turning point in Mongol history. It was the first major and decisive military confrontation that the Mongols lost, and it halted their westward advance in Asia. Its significance is still debated today.

Smith, Paul J. 1998. "Fear of Gynarchy in an Age of Chaos: Kong Qi's Reflections on Life in South China under Mongol Rule." *Journal of Economic and Social History of the Orient* 41: 1–95. This study considers the impact of foreign rule on the indigenous culture and the dissolution of the existing world order into apparent chaos.

Spuler, Bertold. 1972. *History of the Mongols*. London: Routledge & Kegan Paul.

——. 1994. *History of the Muslim World: The Mongol Period*. Princeton, N.J.: Marcus Wiener. Bertold Spuler is considered among the foremost authorities on the Mongols, and his books are treasure troves of details and data. Unfortunately, his studies of the Golden Horde and the Il-Khanate are available only in German.

Thorau, Peter. 1992. *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the 13C*, trans. P. M. Holt. London: Longman. Baybars, the legendary leader of the Mamluks of Egypt, successfully kept the Mongols at bay and even challenged them in Anatolia. This is a thorough and informative study and essential reading for an understanding of Baybar's role in medieval western Asia.

Turnbull, S. R. 2003. *Genghis Khan and the Mongol Conquests, 1190-1400*. Oxford: Osprey Publishing.

Turnbull, S. R. 2003. *Mongol Warrior, 1200—1350*. Oxford: Osprey Publishing. This entire series is excellent, and the artwork is accurate and detailed. All three books by Turnbull are recommended.

Turnbull, S. R., and A. McBride. 2000. *The Mongols*. Men-at-Arms Series, no. 105. Oxford, U.K.: Osprey Military.

Vernadsky, George. 1953. *The Mongols and Russia*. New Haven, Conn.: Yale University Press. This is still one of the most thorough studies of the Mongol period in Russian history and contributes greatly to our understanding of the dynamics of the Golden Horde.

Voegelin, Eric. 1941. "The Mongol Orders of Submission to European Powers, 1245–1255." *Byzantion* 15: 378–413. It is interesting to contrast these early communiqués from the Mongols to the European courts with their later, more conciliatory correspondences.

——. 1982. *Medieval Iran and Its Neighbours.* London: Variorum Reprints. Vladamir Minorsky, onetime Russian ambassador to Ottoman Turkey and later scholar and lecturer at London University's School of Oriental and African Studies, has written widely and knowledgeably about Iran, central Asia, and the Mongols, and his work is still highly regarded today.

Morgan, D. O., ed. 1982. *Medieval Historical Writing in the Christian Worlds.* London: School of Oriental and African Studies.

——. 1986. *The Mongols.* Oxford, U.K.: Blackwell.

——. 1988. *Medieval Persia, 1040–1797.* London: Longman.

——. 1997. "Rashīd al-Dīn and Gazan Khan." *Bibliothèque Iranienne* 45.

——. 1996. "Mongol or Persian: The Government of Il-Khan Iran." *Harvard Middle Eastern and Islamic Review* 3: 1–2, 62–76. David Morgan is considered one of the foremost authorities on the Mongols, and his book *The Mongols* has been translated into many languages and has been reprinted many times. All his work is well worth reading, and *The Mongols* should be the constant companion of any student of the Mongols. His deceptively readable style should not obscure the solid academic content. His *Medieval Persia, 1040–1797* contains a particularly useful and comprehensive bibliographical survey of primary and secondary source material relevant to the period.

Morgan, D., and R. Amitai, eds. 1999. *The Mongol Empire and Its Legacy.* Leiden, Netherlands: Brill. An important collection of papers by many of the leading experts on the Mongols.

Nebenzahl, Kenneth. 2004. *Mapping the Silk Road and Beyond.* London: Phaidon. A valuable collection of medieval maps, covering the Silk Road east and west. Each map is accompanied by an insightful text.

Nicolle, D., and V. Shpakovsky. 2001. *Kalka River 1223: Genghiz Khan's Mongols Invade Russia.* Oxford: Osprey Publishing. This is a beautifully illustrated, detailed account of the historic Mongol campaign which opened up Europe to the storm from the East. It is well served by clear maps and diagrams.

Patton, Douglas. 1991. *Badr al-Dīn Lulu Atabeg of Mosul 1211–1259.* Seattle: University of Washington Press. An interesting study of a Kurdish warlord who ruled during the Mongol period and who allied himself with Hülegü.

Petech, Luciano. 1990. *Central Tibet and the Mongols: The Yüan-Sa-skya Period of Tibetan History.* Rome: Serie Orientale Roma.

Rachewiltz, Igor de, Hok-Lam Chan, Hsiao Ch-i-Ch-ing, and Peter W. Geier, eds. 1993. *In the Service of the Khan: Eminent Personalities of the Early Mongol-Yüan Period 1200–1300.* Wiesbaden, Germany: Harrassowitz Verlag. An excellent study of officials from the Yüan dynasty, many of whom have not been dealt with elsewhere.

Ratchnevsky, Paul. 1993. *Genghis Khan: His Life and Legacy.* Oxford, U.K.: Blackwell. For the serious student of the Mongols, Ratchnevsky's book is indispensable. He is meticulous in his attention to detail and in his scrutiny of the sources, especially where differences occur.

Rosenthal, Franz. 1971. *The Herb: Hashish versus Mediaeval Muslim Society.* Leiden: E. J. Brill.

Rossabi, Morris. 1988. *Khubilai Khan.* Berkeley: University of California Press. This is an excellent and indispensable study of the founder of the Yüan dynasty of China.

Vryonis, Speros, Jr. 1971. *The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from 11th Century through 15th Century.* Los Angeles: University of California Press. This is a bold and searching book that traces the changes in Anatolia brought first by the Turkish invasions and then later by the Mongol invasions and the decline in Greek influence. This book can be usefully read alongside the works of Claude Cahen.

Weatherford, Jack. 2004. *Genghis Khan and the Making of the Modern World.* New York: Crown. Another apologist for Chinggis Khan, Weatherford writes an interesting book because he approaches his subject primarily not as a historian but as an anthropologist. A readable and challenging study of the Great Khan.

Wiencek, Henry, and Glen D. Lowry, with Amanda Heller. 1980. *Storm across Asia: Genghis Khan and the Mongols. The Mogul Expansion.* London: Cassell. A useful introduction to Chinggis Khan and his successors.

نبذة عن المؤلف:

يعمل جورج لاين، مدرساً في قسم الدراسات الشرقية بجامعة لندن، ويركّز في بحوثه ودراساته على التاريخ الإسلامي، خاصة في منطقة آسيا الوسطى. وقد شملت دراساته العلاقة بين إيران والصين، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. وقد ساهم في إغناء موسوعة «جرين وود» ضمن مجموعة «الحياة اليومية» الصادرة عن مطابع «جرين وود» لعام 2004، وهو مؤلف كتاب «جنكيز خان والحكم المغولي» (2004) الصادر أيضاً عن مطابع «جرين وود»، وكتاب «بدايات الحكم المغولي في إيران القرن الثالث عشر (2003).

نبذة عن المترجمة:

- من مواليد سوريا 1970.
- درست النقد المسرحي في المعهد العالي للفنون المسرحية دمشق.
- درست آداب اللغة الإنجليزية في جامعة دمشق.
- درست التصميم والرسم على الكومبيوتر في جامعة سانتا مونيكا / الولايات المتحدة الامريكية/ لوس أنجلوس.

لها العديد من الأعمال والنصوص المنشورة منها:

1 - نشرت مجموعة قصصية بعنوان «نزهة الخلعاء» مطبعة وزراة الثقافة دمشق(2006).

2 - نشرت العديد من القصص في مجلات مطبوعة مثل الآداب، المدى، نزوى، الجديد (لوس أنجلوس)، نماذج.

3 - نشرت نصوص شعرية في الصحيفة الشعرية المطبوعة «الغاوون».

4 - وفي العديد من المواقع الإلكترونية مثل جهة الشعر، كيكا واكروبول وجسور الثقافية .. إلخ.

عصر المغول

وهكذا تشكّلت من صعود تيموجين السريع إلى السلطة، أوسع إمبراطورية امتدت على مساحات متجاورة من الأرض. فقد بدأ شاباً يتيم الأب، يتفانى في الدفاع عن حق أسرته، ثم زعيم قبيلة، محاطاً برهط من الأتباع المخلصين، ومن بعدها زعيماً لعدة قبائل، يمضي لتوحيد الشعوب في الفيافي الآسيوية، تحت راية الثروة الموعودة والجاه، ثم ليصبح أخيراً جنكيز خان، سيد العالم، الذي ترك بأعماله وردود أفعاله وما أبرمه من معاهدات واتفاقيات، آثاراً لا يزال صداها يتردد إلى يومنا هذا. فمعاهدة الصلح بين التيبت والصين التي خط مسودتها في الأصل أحد الحكام المغول، بقيت حتى وقتنا الحاضر أساساً معتمداً بين البلدين. كما أن قصائد جلال الدين الرومي التي يتردد صداها حول العالم، من كاليفورنيا حتى طوكيو، نشأت بداية وتغلغلت في مسامع الناس زمن سيادة الحكم المغولي. في حين أدى بناء المغول عاصمة الصين الحالية «بكين»، واعتمادها لتكون عاصمة للصين الموحدة آنذاك، إلى خلق روابط روحية وثقافية لا تزال تؤلف بين شعوب غرب آسيا وشرقها إلى اليوم.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة



مدارك Madarek

